محمد حسين فضل الله

خطوات على طريق الإسلام

دار التعارف للمطبوعات
بيروت - لبنان

الطبعة الخامسة
١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م

دار التعارف
المكتب ـ شارع سوريا ـ بناية درويش ـ الطابق الثالث
الادارة والمعرض ـ حارة حريك ـ المنشية
شارع دكاش ـ بناية ابو علي طعام
ص ب ٨٦٠١ ـ ١١
تلفون ٨٣٦٦٩٦ ـ ٨٣٧٨٦٨
تلكس تعارف ٢٣٦٤٤ ـ LE

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين وصحبه المنتجبين •

لعل من أكبر الشواهد على الوعي الاسلامي المتنامي المنفتح المتمد في الجيل الطالع من أبناء أمتنا الاسلامية ـ هو هذا الانفتاح على الكتاب الاسلامي والاقبال عليه بلهفة وشوق في الوقت الذي لا يزال العاملون في حقل الثقافة والتربية يعالجون ظاهرة الانحسار عن القراءة ، من خلال الكلمة المسموعة والصورة المرئية •

وربما نستطيع أن نجد في هذه الظاهرة الاسلامية ، اتجاها عظيما نحو الانطلاق الى مستقبل اسلامي يتحرك فيه الانسان المسلم من أجل أن يحقق للحياة مسارها الطبيعي الكبير في مسيرة الاسلام الكبيرة الظافرة •• ولا سيما اذا لاحظنا الاهتمام بالفكر الاسلامي العملي الذي لا يكتفي بالتحليل النظري للمفاهيم بل يحاول أن يعيش في قلب الواقع العملي الذي تندفع فيه الخطوات السائرة على الطريق ليرصدها بدقة وعمق على اساس ما تحمله من سلبيات الواقع وايجابياته كاسلوب من أساليب تصحيح المسيرة وتعميق التجربة وهذا هو ما لمسته في الاقبال الكبير على كتاب « خطوات على طريق الاسلام » الذي كان محاولة متواضعة للتوفر على التجربة الاسلامية لدراسة ما فيها من ايجابيات

او سلبيات سواء في ذلك العمل الفردي او الجماعي ، فقد اعتبره الكثيرون من القراء الأعزاء ـ الذين يعون حاجة المسيرة الاسلامية الى الفكر العملي ـ تجربة جديرة بالتأمل والتدبر والانفتاح ، وظاهرة جديدة في الانطلاقة الاسلامية للواقع العملي المتحرك .. مما جعله ينفد في أقل من سنة .

★★★

والآن .. وقد بدأ الطلب يتزايد بشدة على هذا الكتاب ، أقف لأقدم له في طبعته الثانية راجيا من الله أن ينفع به في هذه الطبعة من أجل إفساح المجال لوعي اسلامي منفتح يتحرك في الساحة على أساس الحركة الرائدة التي تنطلق من أجل حياة اسلامية شاملة في اطار الامة الاسلامية الواحدة .

★★★

ولا يفوتني ـ في هذه المناسبة ـ أن اعبر عن اعتزازي بالقراءة الناقدة للكتاب من اخواني من العلماء والمثقفين المسلمين واذكر من بينهم سماحة الأخ الشيخ محمد مهدي شمس الدين الذي أتحفني بملاحظاته الفكرية التي قد لا اتفق معه في الكثير منها ولكنني اعتبرها مشاركة فكرية تعبر عن رفاقة الفكر التي عشنا معا خطواته العملية في الحياة .

وأحب أن أشير الى بعضها مع ملاحظاتي المتواضعة .

في ص ، ١٠١ / علق على الحديث النبوي الشريف الذي نقلته كشاهد على رفض الترف الفكري للواعية .. « لا يحسن استخدام النص على فرض صحته هنا فان هذا النص ـ اذا صح ـ يومىء الى حذر النبي (ص) مما يتضمنه القصص القديم من خرافات وأساطير قد تؤثر

على عقيدة السامعين أو قيمهم الأخلاقية ـ سيما وأن ما كان يحدث بـه يتعلق بتاريخ أو قصص واساطير ما قبل الاسلام » •

أما تعليقي على هذه الملاحظة فهو ان التدقيق في هذا الحديث يدل على أن رفض النبي لهذا النوع من الثقافة مرتكز على أساس اعتبـاره ترفا فكريا لا ضرورة له وذلك من خلال فقرتين : الأولى : « ذاك علم لا ينفع من علمه ،ولا يضر من جهله » مما يوحي بان القضية ليست قضيـة حذر لمصلحة العقيدة ، بل قضية عدم الجدوى في هذا العلم من ناحيـة عملية •• ولذلك كان التأكيد في مقابل ذلك على العلم الذي يرتبـط بحياة الانسان ومصيره • الفقرة الثانية : قوله « ،وما خلاهن فهو فضل » فانها تدل على أن هذه المعلومات التي يلقيها هذا الشخص تعتبر فضلا أي زيادة لا حاجة اليها •• وقد لا نستطيع أن نجد في النص ما يوحي بوجود خرافات واساطير فيما يرويه هذا « العلامة » لان القصة لا تذكر في الحديث عن ثقافته الا أنه « عالم بأنساب العرب وأيامها وأشعارها » ونحن نعلم أن ذلك لا يحمل الا التأريخ للوقائع الحربية وغيرها مما لا يرتبط بالجوانب العقيدية او الاخلاقية •• بشكل عام •

في صفحة ١٠٥ ـ ١٠٦ تعليق على « خلاصة الفكرة » في فصل مخاطر الترف الفكري يقول :

« لقد ضيقت واسعا فليس فـي التكليف الشرعـي وفقا لأشـد المقاييس قساوة ما يفرض على الداعية أن يحرم نفسه مما تسميه ترفـا فكريا ـ نعم عليه أن يحترز من التأثر بالقيم والأفكار غير الاسلامية ، وهو لا يبلغ درجة الداعية الا اذا كـان بهـذه المثابة من القدرة علـى الاحتراز » •

أعتقد اني لم انطلق في الحديث عن مخاطر انطلاق الداعية في مجالات الترف الفكري من زاوية الحرام الشرعي كما يتحدث الانسان عن فعل محرم ، بل كل ما كنت احاوله هو الابتعاد عن الاستسلام للعبث وللترف الفكري من موقع الجهد المحدود الذي يملكه الداعية من وقت وفكر مما يجعل انطلاقه في الآفاق المترفة تضييعا للجهد الذي يحتاجه الاسلام ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى الحذر من التأثيرات اللاشعورية التي قد تطبع أدبه واسلوبه بطابع غير اسلامي ولو من ناحية شكلية ، ومن الطبيعي أن الحديث لا يتحرك في الاطار الذي يحتاج فيه الداعية الى الاطلاع على هذه الالوان المترفة من الفكر من أجل تقويم الواقع ودراسته على أساس الرصد الدائم للاوضاع المنحرفة في المجتمع .

في صفحة ١٧٥ ــ ١٧٦ ، في فصل « تجسد الاسلام في سلوك الامام علي » (ع) تعليق يقول :

« نخالف الاخ المؤلف في رأيه هنا. فان وظيفة الحاكم تختلف اختلافا نوعيا عن وظيفة الداعية التي لا تقتضي صاحبها التشدد على النفس بالنحو الذي يوحي به الاستشهاد بسيرة الامام «ع» . واذا جاز لنا أن نستشهد ببعض سيرته مع أصحابه فاننا تتذكر حديثه مع عاصم بن زياد الذي رواه الشريف في النهج » .

أما ملاحظتنا على التعليق فهي أن الاستشهاد بسيرة الامام «ع» كانت محاولة لاستيحاء جانب القدوة في الداعية الرسالي من خلال المعاني التي تلتقي فيها شخصية الحاكم الرسالية بشخصية الداعية في الخطوط العريضة ، مما يجعل من الحكم تجسيداً للمعاني التي تتضمنها الدعوة في حياة الناس ولذلك نلاحظ الدعوة الى الاقتداء به من خلال ما يمثله سلوكه « من ورع واجتهاد وعفة وسداد » من دون حاجة الى التمثل به

في سلوكه الخاص كحاكم ، كما نلاحظ ذلك من خلال الكلمة الثانيـــة « أتأمروني أن أطلب النصر بالجور •• » فهي ــ في الوقت التي تتمثل فيها شخصية الحاكم المنسجم مع مبادئه ــ تظهر فيها شخصية صاحـب الرسالة الداعية الذي يقف مع مفاهيمه الاصلية في أشد المواقف حراجة عندما يتعرض حكمه للاهتزاز أمـام الاصرار على الوقوف مـع الخط الرسالي المستقيم •• أما الجانب الذي تختلف فيه وظيفة الحاكم عـن وظيفة الداعية اختلافا نوعيا ، فيتمثل في الاصرار على حرمان نفسه مـن اللذاذات المحللة بطبيعتها من أجل أن يشارك الناس جوعهـا وبؤسها وحرمانها على ما جاء في حديثه مع عاصم بن زياد عندما قال له : يـا أمير المؤمنين هذا أنت في جشوبة مطعمك وخشونة ملبسك ••» فالتفت اليه ليقول •• اني لست كأنت « إن الله فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس لكيلا يتبيغ بالفقير فقره ••» •

ان مما نريد التأكيد عليه أن الجانب الذي استشهدنا به من سيرة الامام هو الجانب الذي لو انحرف عنه الحاكم لكان انحرافا عـن خط الرسالة ، لا انحرافا عن طبيعة المعاناة الذاتية التي يعانيها الحاكم من موقع المسؤولية

★★★

في صفحة ٣٠٧ ، في فصل « أهمية الاسلوب العملي واصالته » في فقرة « فلا تخضع لوجوه واقنعة مستعارة •• الخ •

يقول التعليق : « قد تكون محاربة الضلال الكبير والآتي مـن خلال جماعة ضالة أخرى أحد أساليب الحكمة في الدعوى وقد حالف الرسول أقواما على اقوام واستعان بأقوام على أقوام ••» •

أظن أن الفصل يرتكز على أسلوب الدعوة الذي يمارسه المسلم في عرضه للاسلام ودعوة الاخرين اليه ولم يرتكز على محاربة الآخرين من الضالين بواسطة قوى أخرى ضالة ، بطريقة التحالف او الاستعانة ، فان ذلك شيء يدخل في مجالات حركة الواقع في حلبة الصراع ، لا في حركة الاسلوب في مجال الدعوة .

في صفحة ٣١١ / في فصل « التحذير من مواكبة الأساليب المناهضة » في فقرة ، « وبهذا تلتقي الشيوعية بالاسلام في طبيعة الحرية الملتزمة وان كانا يختلفان في التفاصيل تبعا لاختلافهما في القواعد » .

يقول التعليق : أشك في صوابية هذا الرأي واعتقد انه بحاجة الى تمحيص ، ان الانظمة الاشتراكية تصادر الحرية السياسية وما يتصل بها من شؤون كما تصادر الحرية الدينية والاقتصادية ، أما الحريات الأخرى وخاصة في مجال الجنس واللهو فهي تسمح بها ولا تعارض فيها بل ربما تشجع عليها لتمتص النقمة والفراغ .. » .

نلاحظ على هذا التعليق اننا عندما نتحدث عن الحرية في مفهوم الشيوعية ، فاننا نتحدث من زاوية الفكر الشيوعي الذي ينطلق من الالتزام بفكرة معينة تحكم الفرد والمجتمع وذلك في مقابل المفهوم الرأسمالي للحرية الذي لا يعبر عن مضمون فكري معين ملتزم .. وبذلك فان الفكرة هي التقاء الاسلام والشيوعية في نظرتهما الى الحرية من موقع الالتزام الفكري الذي يفرض حماية الفكرة الملتزمة من كل الافكار الاخرى او الاعمال الاخرى التي تسيء الى طبيعتها او تؤدي الى انهيارها .. وفي ضوء ذلك لا يكون الحديث عن مصادرة الدول الاشتراكية للحريات الدينية والاقتصادية ، وتسهيلها الحريات الجنسية نقضا للفكرة، بل يعتبر تأكيدا لها وذلك لمنافاة الفكر الديني والاقتصاد الحر للشيوعية

كمبدأ ، وعدم منافاة الحريات الجنسية لطبيعة الفكر الا بقدر ارتباطها بمصلحة الطبقة العاملة •• وأرجو الالتفات الى الفقرة السابقة التي تقول ••« ولكن ليس معنى ذلك اننا نوافق على جميع ألوان التقييد للحريات التي تقوم بها الانظمة الشيوعية في الدول الاشتراكية ••» •

★★★

في صفحة ٣٣٧/في فصل «اسلوبنا بين الانحراف القديم الجديد» يقول التعليق :

« لماذا لا يحارب الانحرافان معا وبدرجة واحدة من القـوة • ان السكوت عن الانحراف يعطيه شرعية ولو مؤقتة تتيح له أن يعزز أجـواء الانحراف الثاني في مثالي السفور والاباحية الجنسية •• »

نلاحظ على هذا التعليق •• أن الفكرة في هذا الفصل تدور حول فقدان الامكانيات العملية لمواجهة الانحرافين معا باعتبار أن الانحراف الثاني جاء في أجواء امتداد الانحراف الاول وطغيانه مما يجعل من مواجهـة الانحرافين معا معركة" خاسرة" في المجالين لأن قوة الانحراف الأولى سوف تدعم ضعف الانحراف الثاني ، بينما تكون مواجهة الثـاني بالأسلحـة المشتركة بيننا وبين الأول عملية رابحة في أغلب الظن •• ويمكننا ــ بعد ذلك ــ من الالتفاف على الانحراف الأول في ساحة بعيدة عـن التحديات المضادة الأخرى •• وأرجو الالتفات الى أننا قررنا الفكرة التي يدور حولها التعليق في صفحة ٣٣٦ ورددنا عليها ••

★★★

في صفحة ٣٣٨/حول فقرة •• مما يجعل من الزنا عملا فاحشـا مرفوضا من الناس جملة وتفصيلا •• »

يقول التعليق : « ان الزنا الآن ليس في نظر كثير من الناس عملا فاحشا انه عمل سيء فقط وهذا التغير في الموقف النفسي نتيجة للسفور واختلاط الجنسين والتساهل في قوامة الرجل على المرأة وضعف روابط الأسرة •• »

أحسب أن الفكرة التي عالجتها تنطلق من المجتمعات التي لا تزال تعيش القيم الأخلاقية في مقياس الشرف مع التزامها بالسفور والاختلاط •• ولهذا نراها تستنكر الزنا كعمل فاحش ، أما هؤلاء الذين يرون فيه عملا سيئا فقط فلا يثير في نفوسهم شيئا كبيرا من الاستنكار فانهم عاشوا القيم الحضارية الغربية الجديدة التي كانت بداية فكرية للحرية الجنسية التي ندعو الى مواجهتها في مرحلة ما بعد السفور •• اننا نعتقد أن السفور والاختلاط قد استطاعا أن يحطما أو يكسرا الحاجز الواقعي للزنا ولكن الحواجز النفسية بدأت تتهاوى عندما انطلقت ظلال الأفكار الجديدة للحرية الجنسية التي نعاني منها الآن ••



في صفحة ٣٦٥ حول فكرة اعتبار التقية أساسا لتبرير ارتكاب الحرام فيما يماثلها من حالات مما يرقى الى مستوى الأهمية الكبرى في المصلحة الاسلامية العليا •• يقول التعليق :

« هذا الرأي شديد الخطورة ولا بد من التوقف عنه الى أن تثبت شرعيته فان الظاهر ـ بحسب النظر البدوي ـ أن ارتكاب الحرام لا يسوغه ـ في غير حالات التقية ـ شيء مع اختيار المكلف والتفاته •• »

أما ملاحظتي على التعليق فهي الفات سماحة الأخ حفظه الله الى

باب التزاحم المقرر في علم الأصول والذي يرتكز على أساس اختيار المكلف التكليف الأهم فيما اذا تعذر عليه امتثال التكليفين المتزاحمين معا .. وقد مثل له الفقهاء بتوقف انقاذ الغريق الواجب على المرور بالأرض المغصوبة المحرم ، فان أهمية الواجب تتقدم على حرمة المحرم باعتبار أنه أقل أهمية ولا مناص من الاختيار .. ويمثلون له بالأسرى المسلمين الذين يتترس الكفار بهم فيضعونهم في مقدمة الجيش ليمتنع المسلمون من الاندفاع في القتال حفاظا على حياة أخوانهم .. فان الحكم الشرعي هو وجوب أو جواز قتلهم مع دفع ديتهم من بيت المال نظرا الى أهمية جانب انتصار المسلمين على الكفار فيما اذا لوحظ بازاء حياة هؤلاء الأسرى . وبذلك لا نجد أي خطورة في هذا الرأي .

في صفحة ٣٦٧/تعليقا على موقف ياسر وسمية .. وولدهما عمار يقول التعليق : كانا لا يعرفان التكليف الشرعي وكان ابنهما أفقه منهما ..

أما ملاحظتنا على ذلك .. أن التكليف الشرعي لا يمنع من التضحية وان كان يجوّز السلامة كما يلاحظ في الحديث الذي نقلناه في نفس الصفحة عن الامام جعفر الصادق (ع) ، والا فكيف نفسر موقف حجر بن عدي وأمثاله من المجاهدين الذين وقفوا مع مبادئهم حتى الاستشهاد في الوقت الذي كانوا يستطيعون اختيار السلامة .. أما عمار فلم يدفعه الى موقفه الفقه بل حالات الألم الشديد الذي لم يستطع تحمله في صغر سنه ، ولذلك فانه عاش حالة الشعور العميق بالاثم الذي لم يهدأ في نفسه الا بعد انزال الله فيه قرآنا وقال له النبي يا عمار ان عادوا فعد .. »

في صفحة ٣٣٧/فصل « فلسفة الثواب والعقاب في واقعنا العملي » يقول التعليق :

« يبدو لي أن الفكرة التي يعالجها هذا الفصل تفتقر الى الوضوح والدقة ـ ان الثواب والعقاب ثابتان في الشريعة ـ الثواب للعمل بمقدار ما فيه من وعي ونبض وانشداد الى الله تعالى ـ فعلى الدعاة أن يوجهوا عامة الناس نحو العمل الحافل بالمضمون عن طريق ما فيه من ثواب ، أما توجيههم نحو العمل التلقائي على نحو يشعرهم بالتقصير حين يعجزون عنه وهم سيعجزون عنه غالبا ـ بالتأكيد ـ فانه خطأ ـ نعم يمكن ضرب الأمثلة لهم من حياة العابدين الكبار (محمد وعلي وآلهما صلوات الله عليهم والأنبياء صلوات الله عليهم) لتكون حافزا لهم على التوجه الى الله في عبادتهم ـ كيف نصرفهم عن اعتبار الثواب والعقاب في عملهم وهم يرون في نصوص القرآن والدعاء ما يربط بين العمل والثواب والعقاب ؟ يمكن للداعية أن يستثير في وجدان أصحابه عاطفة الشكر وعرفان الجميل لله تعالى فيخفف في عبادتهم من أسر العقل التجاري المحض . »

نلاحظ على هذا التعليق نقطتين :

الأولى : اننا عالجنا في هذا الفصل أسلوبا عمليا يسلكه الكثيرون من الوعاظ والدعاة في الاكتفاء بالدعوة الى العمل من خلال الثواب والعقاب بشكل جامد بعيد عن أي نوع من أنواع الحيوية التي تجعل من العمل حالة وجدانية داخلية تبني للانسان داخله من خلال ارتباطه بالله وانفتاحه على ما في العمل من نبض وحيوية واشراق .. وقد كان الفصل كله من أجل اخراج فكرة الثواب والعقاب من الممارسة الجامدة التي تحوّل الانسان الى كائن حسابي يحصي الحسنات والسيئات تماماً كما يحصي النقود التي يربحها في متجره بعيداً عن أي معنى أو قيمة .. وهذا هو ما نواجهه في كثير من النماذج التقليدية التي تهتم « بالكم » لا «بالكيف» لأنها فهمت الثواب على أساس عدد الركعات لا على أساس

ما تحمله من معنى العبادة ، وذلك من خلال الأسلوب الخاطىء لـدور الثواب والعقاب في عملية الدعوة .

الثانية : اننا لا نريد ــ كما هو واضح من الفصل ــ إشعار العاملين بالعجز والتقصير الحتمي ــ كما يفرض التعليق ــ بل كل ما نريـده هو اعطاء الأسلوب نوعاً من الحيوية التي تخرجه من جموده وهذا هو ما يظهر من الفقرة التالية : اننا نرى من الخير للعاملين أن يعطوا الثواب والعقاب دورهما الأساسي في الاثارة ووضع الأقدام في الطريق ثم تبدأ المحاولة بعد ذلك في اثارة المشاعر نحو ما في الطريق من خير وجمال .. الخ .. » فان الفكرة تتجلى بوضوح في أن الفصل لا يهدف الى استبعاد الدورَ الأساسي للثواب والعقاب بل كل ما يريده هو أن يكونا عـاملين من عوامل بناء الشخصية الانسانية على حسب المفاهيم الحقيقية للاسلام وذلك في المرحلة الأخيرة من مراحل الوعظ والدعوة والتوجيه ..

★★★

في الصفحة ٣٤٤ / في فصل هل للاسلام ألفاظ خاصة في أسلوب التعبير .. يقول التعليق « اضافة الـى ما ورد في المتن مـن أن بعض الألفاظ المتداولة في التعبير عن مبدأ مّا موحية» نقول: «ان بعض الألفاظ تحولت الى «مصطلحات» فقيمتها في أنها تحدد فكرة المبدأ المعينة تحديداً سليما يرتضيه أهل المبدأ لأنفسهم وتجاوزها في التعبير يفتح مجـالات لتسلل بعض الافكار او الايحاءات الغريبة عن المبدأ او يلقي السامـع والقارىء في الحيرة لانه لا يقدم « مصطلحا » محددا .. » .

اننا نوافق على هذه الملاحظة ولكننا لا نستطيـع اعتبار اللفظـة « اسلامية » بالمعنى الذي يجعل منها كلمة مقدسة .. بل هي مصطلـح

« اسلامي » في مقياس العمل الاسلامي في حركته الصاعدة الذي يخضع لما تخضع له كل أدواته من تركيز وتدقيق •

★★★

في الصفحة ٣٧١/ في فصل « عندما يتحول الحكم الشرعي الى تقليد » •

يقول التعليق : « الموضوع يحتاج الى تأمل وتوضيح / لا أعتقد ان الامر بالبساطة التي عرض بها لأن تماسك حكم شرعي معين لا يقوم فقط على وعيه والعناية به من قبل المسلم وانما على علاقته بالاحكام الشرعية الاخرى المرعية او المعرضة للانتهاك ، والحجاب لم يسقط لمجرد تبدل مفهوم العيب وانما لان وتيرة الحياة العامة في المجتمع فرضت ظروفا جعلت من الحجاب أمرا ثقيلا •• » اننا نلاحظ على هذا التعليق ، انه يريد ان يعتبر معالجتنا لفكرة الفصل مرتكزة على اعتبار الوعي للحكم الشرعي هو كل شيء في عملية الانحراف والتجميد •• ولكننا لا نريد ذلك بل اننا نحاول الايحاء بخطورة تجميد الحكم الشرعي في نفوس المؤمنين بتحويله الى مجرد تقليد مربوط بالمقاييس الاجتماعية التي تخضع لها العادات والتقاليد مما يجعل الذهنية العامة تتجه الى الدفاع عنه من موقع الدفاع عن التقليد لا من موقع حماية الايمان والاسلام وبالتالي تتركز قوة التأثير والدفاع على مدى قداسة التقاليد والعادات لدى الناس •• فلا يكون المحارب لها محاربا للايمان بل محاربا للتقاليد •• فاذا ضعف تيار التقاليد او انقلب الوضع الى تيار معاكس بحيث اصبحت الثورة على التقاليد قضية تدعو الى الاحترام ، فقد الحكم الشرعي قوته ومعناه وتحوّل الى شيء يبعث على النفور والتقزز تماما كأي تقليد لا يوحي بالاحترام أساسا •• اننا لا نريد اعتبار فكرة « العيب » في

السفور هي كل شيء في تفسير ظاهرة السفور بل نريد اعتبارها احدى العوامل التي خففت من وقع الصدمة التي انطلقت لتدعو الى محـاربة الحجاب .. بينما كانت الصدمة أكبر وأقوى وأشد إثارةً للمقاومة ـ لو بقيت القضية في اطار الحكم الشرعي المرتبط بقضية الايمان بالله وطاعته ورضـاه .

★★★

في الصفحة ٤٣٩/ في فصل موقفنا من الانحرافات الفكرية والعملية العامة/ تعليقا على الفكرة التي ترفض تقديس الاشخاص من خلال ذواتهم والدعوة الـى تقديسهم من خـلال تقديس مبادئهم / يقول التعليق : « أليس من مناهج الاسلام في القرآن والسنة الحث على ولاء الاشخاص الذين يستحقون الولاء وحبهم لانهم يستحقون الحب ؟ لمـاذا نحـارب العلاقة الذاتية مع الأشخاص المقدسين ؟ أليس في ذلك مجافاة لطبيعـة الاشياء ؟ ألا يعزز الحب الذاتي جانب العقيدة في العقل والشعور .. » أما تعليقنا على هذا التعليق فيتلخص في مواجهة الاسئلة المتعددة التـي اثارها التعليق بفكرة واحدة ، وهي اننا لا نعتقد أن الفصل يثير مثـل هذه التساؤلات باعتبار انه كان دعوة صريحة الـى التعلق بالاشخاص المقدسين ومحبتهم ولكن من خلال صفاتهم الرسالية التي توحي بتجسيدهم للرسالة مما يعني أن الارتباط بهم يظل متصلا بالرسالة والعقيدة من أجل أن لا نغرق في محبة الذات المقدسة بعيدا عن مصدر القداسة، الأمر الذي قد يدفعنا الى أن نحشد في الذات من الصفات والفضائل ما لا تتسع له الرسالة فيما توحيه من معاني في الصدق والحـق والواقعية .. ألا يرى معي ـ سماحة الأخ حفظه الله ـ أن الكثيرين الذين يتعلقـون بالانبياء أو بالاولياء يشعرون بمسؤولية وجدانية عن الدفاع عن الاساءة الموجهة اليهم من قبل الأعداء أكثر من شعورهم بالمسؤولية في الدفاع

عن اسم الله أو عن شريعته عندما يمتهن أو يساء اليه من قبل أعداء الله ..
بماذا نفسر ذلك ؟ هل هناك تفسير له الا الأسلوب الخاطىء الذي درجنا عليه في الايحاء بالصفات الذاتية المقدسة بعيدا عن صفات الرسالة وقيمها .. ألا يرى معي أن كثيرا من حالات الغلو في الاديان وفي غير الاديان انطلقت من خلال التركيز الدائم على الذات والشخص بعيدا عن الفكرة والعقيدة الا من خلال علاقتها بالشخص لا علاقة الشخص بها .. ثم هل نستطيع أن نرجع ظاهرة عبادة الشخصية الموجودة في عصرنا على المستوى السياسي أو الاجتماعي ، الى غير أساليب الدعاية التي تحاول أن تضفي على القيادة صفات قدسية بعيدة عن الواقع وذلك من خلال فكرة التأكيد على ارتباط القاعدة بالقيادة من خلال الحب والولاء الذي لا يحصل الا بالاساليب الغارقة في ضباب الذات .. أما الأحاديث التي وردت ، والآيات التي نزلت فهي لا تزيد على اثارة الجانب الرسالي في ربط الناس بالرسول وبالولي من خلال رسالته والا فما معنى الأحاديث التي وردت عن أئمة أهل البيت التي تقول لا يكفي الرجل أن يقول أحب عليا واتولاه ثم لا يكون فعالا فرسول الله خير من علي افحسب الرجل أن يقول أحب رسول الله ثم لا يعمل بسنته ..» ثم يعقب على ذلك « والله ما معنا براءة من النار من كان وليا لله فهو لنا ولي ومن كان عدوا لله فهو لنا عدو وما تنال ولايتنا الا بالورع .. » .

اننا نعتقد ان الفصل لا يزيد على هذه الافكار التي أعتقد أن الاخ المعلق يتفق معي فيها لانها الاسلوب الامثل الذي يحفظ للرسالة نصاعتها واشرافها وصفاءها في كل زمان ومكان بعيدا عن كل عوامل التضليل والانحراف .

★★★

وبقيت ـ هناك ـ تعليقات بسيطة أذكر منها التعليق على طريقة

الحديث عن القرآن بكلمة « يحاول » وما شابهها باعتبـار أن القرآن يريد ويفرض ، ولا يحاول لان المحاولة تعني بعضا من التردد في حسم الاشياء لانتظار النتائج غير المعلومة •• ولكننا نعتقد أن هذا التعبيـر ينطلق من ملاحظة طبيعة الموضوع من حيث كونه غير حتمي في ذاتـه كما في تعبير القرآن نفسه عن بعض الاشياء والافعال بكلمة لعل وعسى التي تفيد معنى الترجي والمقارنة في الفعل مع أن ذلك لا يتناسب مـع طبيعة صدوره من الله سبحانه •

وفي الختام انني أشعر بقيمة هذه الملاحظات الفكرية لانها استطاعت أن تفتح آفاقا كانت غامضة بعض الشيء فأتاحت لي الفرصة لتوضيح بعض جوانبها الخفية •• وأرجو أن يتسع صدر سماحة الاخ العلامـة شمس الدين لهذه التعليقات كما أمل من اخوانـي أن يتفضلوا علـي بمشاركتهم النقدية من أجل أن تكون التجربة العملية التي يمثلها هذا الكتاب بعيدة عن مواقع الخطأ قريبة الى تحقيق الهدف الكبير الـذي نرجو أن تكون طلائعه الاولى المباركة منطلقة في طريق الامتداد والعمق والتركيز في خطوات الثورة الاسلامية المباركة في ايران علـى طريـق الاسلام في ايران وفي العالم من خلال جهاد المجاهدين وفي طليعتهـم المجاهد الكبير آية الله السيد الخميني ورفاقه الابرار من العلماء المجاهدين فقد استطاعت هذه الثورة ان تفتح افاق العالم كله على الاسلام بكـل ما فيه من أصالة وشمول وعمق كما استطاعت أن تبدع أساليب جديدة في طريق الجهاد وفي طبيعة المعاناة والحركة مما يقتضينا دراسات جديدة واسعة لهذه التجربة الحية الفريدة من أجـل أن تنطلق منهـا التجارب المتنوعة في رحاب الوطن الاسلامي الكبير انطلاقا من وعد الله للمؤمنين المستضعفين في قوله تعالى :

ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمـة ونجعلهم الوارثين » .

واخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وهو حسبنا ونعم الوكيل .

بيروت

١٢ رجب الحرام — محمد حسين فضل الله

١٣٩٩ هـ

الفصل الاول

في خطوات الدعوة

١ ـ في طريق العمل .
٢ ـ التدرج في الدعوة كقاعدة للعمل
٣ ـ الدعوة الى الدين في مفهومه الاصيل الشامل .
٤ ـ الممارسات الدينية امام علامات الاستفهام .
٥ ـ العمل بين النظرية والتطبيق .
٦ ـ تحديد الخطوط الفاصلة بين الاسلام وبين غيره .

في طريق العمل

بسم الله الرحمن الرحيم

لم تعد مسألة العمل في سبيل الله قضية بسيطة يعالجها الباحث كما يعالج أية مسألة جانبية ساذجة ، دون ان يواجه تعقيدات المشاكل وارتباكاتها ، فهي من القضايا التي تتنوع منعطفاتها حسب تنوع الاتجاهات التي تتجه اليها . وتختلف مشاكلها تبعا لاختلاف المراحل التي تمر بها .

وقضية الطريق في كل عمل ، كموضوع العمل نفسه ، من حيث ارتباطها بالهدف والتصاقها به ، فقد تؤثر بعض اخطاء الطريق ، التي يقع فيها العاملون ، على طبيعة العمل نفسه ، وقد تنحرف به الى غير قصده وتتجه به بعيدا عن هدفه اذا انحرفت الخطى في اثناء الطريق أو تبعثرت ذات اليمين وذات الشمال . وربما يستسلم العمل الى بعض الحالات النفسية التي يمر بها العاملون في أزمات الصراع فتخبو فيهم جذوة الحماس وتتضاءل في داخلهم قوة الاستمرار .

وعلى هدى هذه الفكرة نجد من الخير لنا ان نقف في بدايات الطريق قليلا لنسترجع بعض التجارب ونحلل بعض الاحداث فقد يعفينا ذلك من بعض ما نحن فيه من فوضى وارتباك .



وجزة البحث

وما دمنا في معرض الحديث عن طريق العمل واسلوبه ، فقـد يجب علينا ايضاح الوجهة التي ينطلق نحوها الحديث ، فلسنا نقصد به الاطار الذي يتحرك العمل في داخله ، لندخل في تفاصيل الاتجاهات التي تختلف في تحديد نوعية الاسلوب التنفيذي للعمل ، فنلتقي بالاتجاه الذي يتبنى الفردية ، الى جانب الاتجاه الذي يحبذ الجماعية في العمل ، بـين قائل باتباع النهج السياسي الذي يجمع الامة نحو هدف يرتكز على القاعدة وينطلق في عملية بناء من الجذور ، وبين قائل باتباع التكتل الاجتمـاعي الذي يستهدف خلق الاجواء النفسية والروحية التي تهيء للفكرة ان تنمو بهدوء واطمئنان دونما ضجة او ضوضاء .

لسنا نقصد باسلوب العمل هذا النوع من الحديث ، لاننا في معرض الحديث عن الاسلوب الذي تلتقي فيه كل هذه الاتجاهات ، فنحن نريـد التعرف على الاسلوب الذي يتبعه كل فريق من هؤلاء ، أيا كان اطـاره العملي في مجال الدعوة ، ومعرفة الادوات التي يمكن ان يستعملوها في الوصول الى الهدف الاسمى .

أما قيمة هذا البحث ، او بالاحرى ، هذا الاتجاه في البحث، فتكمن في اغناء العمل بالتجارب المختلفة ، وتقليل الاخطاء التي يقع فيها العاملون لفقدان التجربة الرائدة امامهم ، كنتيجة لطمس معالـم تجارب الآخرين باعتبارها شيئا شخصيا لا يمثل اية فائدة عامة للعمل نفسه ، انسجاما مع النظرة الخاطئة التي تقرر : ان علينا الاستفادة من العمل نفسه ، دون ان تتعب انفسنا بالتعرف على طريق الوصول اليه لانـه شيء لا يخصنا ــ بشكل عام ــ بل يخص العامل نفسه . ولكننا نعتقد خطأ هـذه النظرية فنحن لا نستطيع الاستفادة من العمل ، كنتيجة ، ما لم نستطع الاستفادة

من المقدمات التي هيأت لهذه النتيجة لارتباط النتائج بمقدماتها ، فان معرفة المقدمات واساليب العمل يمكن له ان يوجهنا الى طريقة الاستفادة من العمل ، وتوجيهه الوجهة الصحيحة التي يمكن له ان ينفتح عليها ويتجه نحوها .

حفظ التجارب

وفي ضوء هذا الاتجاه ، ونحن في بداية حديثنا ، نجد ان من المفيد جدا للعمل ، هو التركيز على مسؤولية القيادات العامة للعمل الديني الاسلامي — بشكل عام — في التأكيد على العاملين في تقديم التقارير المفصلة عن أعمالها واساليبها ونتائجها ، وطريق الوصول اليها ، وطبيعة الظروف الموضوعية التي عاشت فيها وانطلقت منها ، ونوعية المؤثرات الذاتية التي اثرت فيها وانفعلت بها ، لتستطيع مثل هذه التقارير التي تمثل تجربة حية في طريق العمل ، أن تقدم لمن يأتي بعدهم بعض النور الذي يهديهم ويأخذ بيدهم نحو حل المشكلة في المستقبل ، كما تستطيع ، ايضا ، تعريف القائمين على العمل باخطاء العمل ومجالاته وتطلعاته نحو الغد ، ليتمكنوا — في ضوء هذا — من التخطيط للمستقبل ، على اساس من فهم الواقع الموضوعي للعمل جملة وتفصيلا .

وقد تتعرف الى قيمة هذه المعرفة ، بصورة واضحة ، اذا عرفنا اثر اغفالها ، في الاخطاء الكبيرة التي قد يقع فيها بعض العاملين عند انطلاقه في العمل في منطقة سار فيها داعية من قبله ، حيث ينتهي به الامر الى اهدار تجربة الفكرة ، لا مرحلة ثانية من مراحلها ، وحلقة موصولة بغيرها من حلقات السلسلة .

ومن الطبيعي ان يؤدي ذلك الى سوء فهم للواقع ، او الوقوف

دائما في أول الطريق ، فان معنى بداية العمل من جديد ، واغفال التجارب الاولى ، هو الرجوع الى اول الطريق في كل منطلق لعامل جديد .

ولتوضيح ذلك ، نطرح مثال المبلغين والمرشدين الذين ترسلهم المراجع الدينية العليا ، الى بعض المناطق لارشاد الناس وهدايتهم الى الدين الحق ، وتعليمهم احكام الله وتعاليمه من الحلال والحرام ، فقد يكون هناك مرشد آخر عاش تجربة سابقة في تلك المنطقة وقضى شطرا من عمره فيها ، فانطبع العمل بطابعه الفكري والروحي ، وتأثر باسلوبه العملي ، وخضع لعوامل التغيير المرتبطة بتجاربه المتعددة في الوعظ والارشاد والاصلاح ، الامر الذي يجعل اجواء العمل مرتبطة باجواء هذه التجربة ، باعتباره رائدا للتجربة الاولى .

وفي مثل هذه الحالة ، قد يكون من بديهيات سلامة العمل ان نحتفظ بمثل هذه التجربة ، ونطلع عليها ، وندرسها لنختار الداعية الذي ينسجم اسلوبه مع اسلوب سلفه ، ليكون عمله امتدادا لعمل صاحبه فيما اذا كانت التجربة ناجحة . اما في حالة فشل التجربة ، فيفيدنا الاطلاع عليها معرفة باسباب الفشل مما يجعلنا اكثر قدرة على تلافي الاخطاء السابقة، وتجنب اسبابها باختيار انسان تتوفر فيه عوامل النجاح وأجواء تتهيأ فيها مقومات العمل .

ونحسب ان مثل هذا الاتجاه في العمل يوفر علينا الكثير من الاخطاء والكثير من المراحل التي تذهب هدرا عندما نظل في عملية التراجع الى أول الطريق .

التخطيط للعمل

واذا كنا نؤكد على حفظ تجارب الآخرين للاستفادة منها في حركة

العمل ، في امتداد الزمن ، فربما يكون من المفيد جدا ، ان تؤكد على قضية اخرى اكثر ارتباطا بنجاح العمل ، وأشد التصاقا بحيويته ، وهي قضية « التخطيط للعمل » .

فقد اصبح من القضايا الواضحة ، ان مسألة التخطيط لاي عمل من الاعمال توفر على العاملين كثيرا من الجهود الضائعة ، وتجعلهم أكثر قدرة على التركيز في احتياجات كل مرحلة من مراحل العمل على استقلالها ، لان التخطيط يفرض فهم كل مرحلة من المراحل وطبيعة مشاكلها الخاصة، ونوعية الاشخاص الذين يمكن استخدامهم في هذا السبيل ، والاختصاصات التي يحتاج اليها في هذا المجال ، وعلاقة كل مرحلة بالمراحل السابقة عليها ، والمراحل اللاحقة لها ، من أجل المحافظة على الروابط العضوية بينها في جميع الاعمال .

فقد لا يكفي للانسان ، من اجل ان يتقدم في عمل ما ، ان يؤمن به ويتحمس له ويندفع نحوه لان ذلك سوف يدفعه الى الهوة في بعض الاحيان ، بل يجب عليه ، أن يعرف في اية مرحلة من مراحل العمل ، أين تقوده خطاه وما هي نتائج المسير .

فقد تكون الخطة في بعض المراحل تقتضي عملا ثقافيا ، بينما تستدعي في مراحل اخرى عملا سياسيا ، وربما ــ في مرحلة اخرى ــ عملا خيريا ، وهكذا ، فاذا خلطنا بين كل هذه الاعمال في مرحلة واحدة ، فمن الطبيعي ان نستسلم لفوضى الاساليب وفوضى النتائج .

ولعل من اوليات التخطيط للعمل الديني الاسلامي ، ان نضع لكل بلد ومنطقة ، دورها المعين في العمل الاسلامي العام ، بحيث يكون هذا الدور مرتبطا بالخطة العامة للعمل ، في المجالات الاجتماعية والثقافية

والسياسية لئلا يكون العمل في منطقة ما ، مناقضا ـ في نتائجه ـ للعمل في منطقة اخرى ، الامر الذي يقتضي اهدارا لكثير من الطاقات، وتجميعا لكثير من المشاكل ، نظرا لاختلاف المناطق في طبيعة التيارات التي تعيش فيها ، وتؤثر فيها وتؤثر في اتجاهها ، ونوعية التأثيرات التي تمس العمل الديني بوجهه العام • فقد تكون بعض المناطق خاضعة لتيارات ترتبط بالمشاكل والنزاعات الداخلية للفكرة ، بينما تكون المناطق الاخرى واقعة تحت تأثير مشاكل واختلافات خارجية تؤثر في سلامة الفكرة وانطلاقها، وربما نلتقي بنوعية ثالثة ، تلتقي فيها المشاكل الداخلية بالمشاكل الخارجية مما يقتضينا تفهما لطبيعة كل منطقة على استقلالها لنستطيع الفصل بين خطوطها المتشابكة ، والتوفيق بين مشاكلها المتعددة ، لئلا نقع في الخلط بين ظروف القضية من الداخل وبين ظروفها من الخارج •

وقد يكون من فوائد التخطيط ، انه يقتضينا الوقوف طويلا عند نهاية كل مرحلة من مراحل الخطة ، لنسترد انفاسنا قليلا ، ولنتعرف على نتائج العمل في تلك المرحلة ومدى انسجام الخط النظري للمرحلة ، مع الخطة التنفيذية للعمل ، ومناقشة موضوع الارباح والخسائر في ذلك كله ، لنضمن للعمل ـ سلامته في المراحل التالية ، لان اقل خطأ في اية مرحلة من المراحل سوف يؤثر على المراحل التي تليه ، كنتيجة للترابط العضوي بين المراحل • وستكون النتيجة عكسية اذا اغفلنا ذلك كله وخلطنا بين المراحل ، فان ذلك يقتضينا الخلط بين الاخطاء من دون ان نعرف موقع أي خطأ ، ومركز أي انحراف ، مما يوجب تشابكا في الاخطاء وضياعا لمعالم المشكلة ، وبالتالي بداية الانهيار والانحلال •

وقد يكون من نتائج التخطيط ان يعرف كل انسان دوره في العمل حسب قابليته وفاعليته ، فلا يأخذ انسان دور صاحبه لان ذلك يقتضينا اضاعة الجهود واهدار الطاقات عندما نوجهها الى غير مجالها ، او نطلب

منها عملا لا تملك ادوات نجاحه ، وبالتالي اضاعة العمل نفسه عندما لا تتهيأ له مجالات النجاح واجواءه وذلك كما اخذ الفقيه دور السياسي، وقام الاديب بمهمة المفتي ، وانطلق المحامي في عمل المهندس ، وحاول كل انسان من هؤلاء او غيرهم ان يقوم بغير الدور الذي تقتضيه طبيعة ثقافته ونوعية اختصاصه .

ولست اقصد من هذا التحديد ، تحديدا لانسان وحصره في نطاق ضيق ، فلا احاول من هذا ان ابعد الفقيه عن معرفة السياسة ، او تترك الاديب بعيدا عن فهم الفقه ، وانما اقصد من هذا : ان نستفيد من كل انسان في مجال اختصاصه الذي يمتاز به أيا كان ذلك المجال ، لانه يكون في تلك الحالة أقدر على اتقان دوره ، وانجاح عمله ، وابعد عن الخطأ في اسلوبه وغايته .

وبكلمة واحدة : ان سلامة العمل ، اسلوبا وغاية ، تقتضينا المزيد من فهم العمل ، ولن نستطيع فهمه اذا لم نتمكن من معرفة خطواته ومراحله ولن يكون ذلك الا بالتخطيط المرتكز على فهم الواقع ، وفهم الهدف .



التدرج في الدعوة
كقاعدة للعمل

٢

من المفيد لنا ، ونحن نستعرض خطــوات الداعية التي يجــب ان يخطوها في طريق العمل ، أن نستفيد من تدرج الدعوة الاسلاميــة في التبليغ ، لنجعل منها قاعدة للعمل .

فهي ، فيما نفهم ، ليست طريقة تنبع من الظروف الآنية أو المحليــة التي عاشت فيها الدعوة في بدء الرسالة ، وانما تنبع من طبيعــة أي تنظيم للحياة وللعقيدة وللعمل يراد له البقاء والاستمرار والخلود انطلاقا مــن مبدأ الاعداد النفسي للامة قبل احاطتها بالحزام الكلــي للفكرة ــ لان العقيدة ــ اية عقيدة كانت ــ عندما تستهدف تغيــير الواقع الفكــري والحياتي للامة الذي يعني نقل الامة من اجواءها السابقة الــى اجــواء العقيدة الجديدة وتبديل مفاهيمها الاجتماعية والروحية وتطوير عقليتها في اتجاه ذلك ، ان العقيدة ــ عندما تستهدف ذلك كله ــ لا بد لها مــن القيام بعملية التغير والتحول بشكــل تدريجي ، لتعتاد الامة اجواءهــا الجديدة شيئا فشيئا ، دون هزة عنيفــة ، أو ردة فعل شديدة تفرضهــا المفاجأة وتدعو اليها الطفرة .

ومما يؤكد انطلاق هذا الموقف في تدريجية التشريع الاسلامي من قاعدة عامة وخطة شاملة ، ان القضية لم تقتصر على التدرج في مفردات التشريع بانزال الاحكام على دفعات ، وانما تمثلت في التدرج في طبيعــة

كل حكم بنفسه ، فلم يحاول الاسلام مفاجأة الناس بالحكم ، بل حاول تهيئة الاجواء النفسية واعدادها اعدادا خاصا على مراحل كما حدثتنا عن ذلك بعض الاحاديث التي عرضت لموضوع تشريع الخمر •

تشريع الخمر كمثل على القاعدة :

فقد ورد في كتاب الكافي : عن بعض اصحابنا مرسلا قال :

إن أول ما نزل في تحريم الخمر قول الله عز وجل « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ـ٢ـ٢١٩ .

فلما نزلت هذه الآية احس القوم بتحريمها وتحريم الميسر وعلموا ان الاثم مما ينبغي اجتنابه ولا يحمل الله عز وجل عليهم من كل طريق لانه قال : (ومنافع للناس) •

ثم أنزل الله عز وجل أية أخرى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ والأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ـ٥ـ٩٠ » فكانت أغلظ من الآية الأولى وأشد .

ثم قال عز وجل « إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ

ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ــ٥ــ٩١» فأمر باجتنابها وفسر عللها التي لها ومن أجلها حرمها

ثم بين الله عز وجل تحريمها وكشفه في الآية الرابعة مع ما دل عليه في هذه الآية الكريمة المتقدمة بقوله عز وجل :

«قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ــ٧ــ٣٣» وقال عز وجل في الآية الأولى «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ثم قال : إن الإثم في الخمر وغيرها وإنه حرام . . . »

ثم استطرد الحديث في اعتبار هذه القضية في الخمر قاعدة في كل تشريع « ذلك ان الله عز وجل اذا اراد ان يفترض فريضة انزلها شيئا بعد شيء حتى يوطن الناس انفسهم عليها ويسكنوا الى امر الله عز وجل ونهيه فيها وكان ذلك من فعل الله عز وجل على وجه التدبر فيهم اصوب واقرب الى الاخذ بها واقل لنفارهم منها » (١) .

الامام الصادق يتحدث عن الفكرة :

ويحدثنا الامام الصادق عن ذلك ، فيما يرويه الكافي عنه عن ابي عبدالله جعفر الصادق ع قال :

(١) الكافي ج ٥/ص ٤٠٦/ مطبعة حيدري ، طهران

« ان اللــه رفيق يحب الرفق ، فمن رفقــه بعبادة تسليلــه اضغانهم ومضادتهم لهواهم وقلوبهم ، ومن رفقه بهم انه يدعهم على الامر يريد ازالتهم عنه رفقا بهم لكيلا يلقي عليهم عرى الايمان ومثاقلته جملة واحدة فيضعفوا فاذا اراد نسخ الامر بالاخر فصار منسوخا » .

ويستفاد من هذا النص/ان مبدأ النسخ في التشريع كان منسجمـا مع قاعدة الاعداد النفسي للتشريع النهائي . ومراعاة المرحلة التي تتركز فيها قوة المكلف الايمانية والروحية على تقبل التشريع والعمل به ، لئـلا يصبح التشريع ثقيلا على المكلف في الوقت الذي لا يملك القـدرة على عملـه .

الاسلوب في مستوى القاعدة :

وما دمنا قد وصلنا بهذا الاسلوب الى مستوى القاعدة ، فيمكننـا استخدامه في مجال التبليغ وعرض الدعوة على الناس فلا نحـاول تقديم التشريع اليهم دفعة واحدة بل تتدرج فيه تبعا لقوة الايمان عندهـم ، ولتدرجهم في العقيدة ، فلا نحمل على صاحب الخطوة الاولى ما نحملـه على صاحب الخطوة الثانية ، وهكذا .. لتنسجم الدعوة مـع عقليـة المخاطبين ومستواهم ودرجة ايمانهم .

ويرشدنا الى ذلك ما رواه عبد العزيز القراطيسي عن الامام الصادق ـ ع ـ قال : قال لي ابو عبدالله :

« يا عبد العزيز ان الايمان عشر درجات بمنزلة السلم ، يصعد منـه مرقاة مرقاة ، فلا يقولن صاحب الاثنتين لصاحب الواحدة لست على شيء حتى ينتهي الى العاشرة فلا تسقط من هو دونك فيسقطك من هو فوقـك واذا رايت من هو اسفل منك بدرجة فارفعه اليك برفق ولا تحملن عليه ما لا يطيق فتكسره فان من كسر مؤمنا فعليه جبره » (٢) .

(٢) المصدر السابق ج٢ ١١٨ .

ويوضح لنا الامام الصادق ـ ع ـ هذه الفكرة في حـديث آخر بمثل ذلك في حديثه مع بعض اصحابـه وكان خادما له قال بعثني ابـو عبدالله في حاجة ـ وهو بالحيرة ـ انا وجماعة ومواليه قال : فانطلقنا فيه ثم رجعنا مغتمين قال : وكان فراشي في الحائر الذي كنا فيه نزولا فجئت وانا بحال فرميت بنفسي ، فبينا انا كذلك واذا انا بابي عبدالله قد اقبل فقال قد اتيناك او قال جئناك فاستويت جالسا وجلس على صدر فراشي فسألني عما بعثني اليه فاخبرته فحمد الله تعالى ثم جرى ذكر قوم فقلت : جعلت فداك انا نتبرء منهم انهم لا يقولون ما نقول قال : فقال : يتولونا ولا يقولون ما تقولون وتبرؤن منهم قال : قلت نعم قال : فهوذا عندنـا ما ليس عندكم فينبغي لنا ان نبرء منكم قلت لا ـ جعلت فداك ـ قـال هو ذا عند الله ما ليس عندنا افتراه اطرحنا قلت لا والله ـ جعلت فـداك ـ ما نفعل قال فتولوهم ولا تبروءا منهم : ان من المسلمين من لـه سهم ومنهم من له سهمان ومنهم من له ثلاثة اسهم ومنهم من له اربعة اسهـم ومنهم من له خمسة اسهم ومنهم من له ستة اسهم ومنهم من له سبعـة اسهم فليس ينبغي ان يحمل صاحب السهم على ما عليه صاحب السهمين ولا صاحب السهمين على ما عليه صاحب الثلاثة ولا صاحب الثلاثة على صاحب الاربعـة ولا صاحب الاربعة على ما عليـه صاحب الخمسة ولا صاحب الخمسة على ما عليه صاحب الستة ولا صاحب الستة على ما عليه صاحب السبعة .

وسأضرب لك مثلا :

« ان رجلا كان له جار ، وكان نصرانيا فدعاه الى الاسلام وزينّه له فأجابه ، فأتاه سحيرا ، فقرع عليه الباب ، فقال له من هذا ، قـال انا فلان قال : وما حاجتك ؟ فقال : توضأ والبس ثوبيك ومر بنا الى الصلاة قال : فتوضأ ولبس ثوبيه وخرج معه قال : فصليا ما شاء الله ثم صليا الفجر ثم

مكثا حتى اصبحا ، فقام الذي كان نصرانيا يريد منزله فقال له الرجل : اين تذهب النهار قصير ، والذي بينك وبين الظهر قليل قال : فجلس معه الى ان صلى الظهر ثم قام واراد ان ينصرف فقال له : هذا آخر النهار وأقل من أوله ، فاحتبسه حتى صلى المغرب ثم اراد ان ينصرف الى منزله فقال انما بقيت صلاة واحدة قال : فمكث حتى صلى العشاء الآخرة ثم تفرقا ، فلما كان سحيرا غدا عليه ، فضرب الباب عليه فقال : من هذا قال : انا فلان قال وما حاجتك قال : توضأ والبس ثوبيك ، واخرج بنا نصل ، قال : اطلب لهذا الدين من هو افرغ مني وانا انسان مسكين وعلي عيالي .

فقال ابو عبد الله (الصادق) :

ادخله في شيء واخرجه منه (او قال) ادخله من مثل ذه واخرجه من مثل هذا » [1] .

في خطى الاسلوب

أ ـ وعلى ضوء ما قدمناه ، نستطيع ان نقرر خطأ الاسلوب الذي يحاول عرض التشريع دفعة واحدة امام مختلف المستويات ، او تبليغ بعض نقاط العقيدة دون بعض لبعض الناس وذلك لان التشريعات مترتبة في الخفة والثقل فلا يصلح دعوة الناس الى ما يثقل عليهم تركه بادىء ذي بدء ، لاعتيادهم على ممارسته او حاجتهم اليه ، بل ينبغي دعوتهم الى ما يسهل عليهم امتثاله ، لخفته على طباعهم وقربه الى حياتهم لان امتثال التكليف الشديد يتطلب قوة لا يملكها الانسان بادىء ذي بدء ، ومرونة يحتاج الى الاعتياد عليها .

---

(1) الكافي ج ٣ ص ٤٣ ـ ٤٤ مطبعة الحيدري بطهران .

اما امتثال التكليف الخفيف ، فيهيىء له هذه القوة ، تماما ، كما يتدرج الرياضيون في رفع الاثقال ، من الاوزان الخفيفة الى الاوزان الثقيلة ، حسب مراتبها ، لان حمل كل وزن يعطي الجسم قوة تعينه على حمل الوزن الآخر الذي لا يستطيع الجسم حمله في المرتبة الاولى •

ب ــ وفي جانب العقيدة ، نلاحظ ان نقاط العقيدة وأصولها متدرجة فلا يمكن فهم مسألة النبوة ، بشكل منفصل عن مسألةالالوهية، ولا يجوز عرض مسألة الامامة بمعزل عن مسألة النبوة ، كما لا معنى لعرض مسألة وجود الله وعدله وقدرته وحكمته ، منفصلة عن بعضها البعض ، لارتباط كل جانب من هذه الامور بالجانب الآخر •

ولذلك فان من الخطأ الواضح عرض ، مسألة ، الامام المنتظر ، الذي تعتقد به الشيعة الامامية الاثنا عشرية ، منفصلة عما يتقدمها من اصول العقيدة والمذهب لانها لن تفهم الا في هذا المجال ككل تنيجة يحتاج فهمها الى مقدماتها •

ج ــ ومن بين هذه القضايا التي ينبغي فيها ملاحظة طبيعة الارتباط بين الجوانب المتعددة ، قضية (الخوارق للعادة من معجزات الانبياء والاوصياء) فقد دأب الكثيرون من الخطباء والوعاظ والعلماء ، على ذكرها والتحدث بها في المجالس العامة التي تضم المستويات المختلفة في الفكر والعقيدة والايمان ، ممن يفهم جذور هذه القضايا ، وممن لا يعرف شيئا من ركائزها ، الامر الذي يولد في نفوس مستحدثي الايمان، او البعيدين عنه ، فكرة الخرافة عن الدين ، بالنظر الى ان قضيةالمعجزات مرتبطة بفكرة الايمان بالله من جهة ، وبالايمان بالغيب من جهة اخرى ، وفهم طبيعة النبي او الولي الذي تتم هذه القضية على يديه ومعرفة

الظروف التي تحدث فيها هذه الامور ، ومدى ارتباطها بقدرة الله التي لا تقف عند حد .

فاذا لم تكن هذه الجوانب معروفة عند السامع ، فلا يمكن له ان يفهم طبيعة المعجزة الا على اساس انها من الاساطير التي تتعلق بها الاديان لخداع السذج والبسطاء من الناس وبكلمة واحدة : ان على الداعية والمبلغ أن يفكر ، قبل ان يقوم بواجب الدعوة والتبليغ ، بأن من الممكن ان يكون المجلس الذي يتحدث فيه مشتملا على مختلف المراتب والدرجات في الايمان ، ليجعل حديثه منسجما مع الخط المشترك بين هذه المراتب لئلا يفاجىء بالانكار بادىء ذي بدء .

وقد ورد في بعض الاحاديث « ما مضمونه » « لا تحدث بما تتسابق العقول الى تكذيبه » . وفي الحديث النبوي الشريف :

« انا معاشر الانبياء أمرنا ان نكلم الناس على قدر عقولهم » . وفي ذلك اشارة الى طبيعة المضمون والشكل والعرض ..



بعض النماذج التطبيقية للقاعدة

وقد نلاحظ في الاحاديث التي تتحدث عن سيرة النبي محمد (ص) انه كان يدرس عقلية الشخص الذي يريد هدايته وارشاده ويتعرف الى ظروفه ، والى طبيعة المجتمع الذي يعيش فيه ، والجماعات الذين يرتبط بهم ، والعادات التي يعتادها ، ثم يعطيه التوجيه بالمقدار الذي ينسجم مع هذه الامور جمعا ، وهذه بعض النماذج الحية من هذه السيرة العظيمة :

أ ــ ففي بعض الاحاديث المروية في سيرته : ان شخصا جاء الى النبي (ص) وقال له : اني لا استطيع القيام باداء الصلوات الخمس ، ولكني استطيع الالتزام باداء ركعتين في اليوم . فما كان من النبي (ص) فيما يقول الحديث ــ الا ان وافق معه على ذلك .. ومضى الرجل في اداء الركعتين كل يوم ، حتى ذاق حلاوة الصلاة ، وانسجم مع اجواءها الروحية وعرف قيمتها وفائدتها ، فرجع الى الصلوات الخمس ، يؤديها بكل اخلاص وخشوع .. فما هو السر في ذلك كله اننا نحسب ان النبي قد ادرك ببصيرته النافذة ، ونظره الثاقب ، ان هذا الانسان لا يعرف قيمة الصلاة ، و لايفهم معناها ، ولذا فهو ينظر اليها نظرته الى الاعباء الثقيلة عليه التي لا يؤديها الا كما يؤدي الاشياء المفروضة عليه من خارج ذاته دون ارادة او رغبة ، ولذا فقد حاول التخفيف من هذا العبء ، مهما امكن بهذه الطريقة ، ولاحظ النبي (ص) ازاء هذا الواقع ــ انه ان لم يوافق على التخفيف في المرحلة الاولى ، فسوف لن يربح شيئا من هذا الرجل ، ولن يكون امره بالصلوات الخمس شيئا عمليا على كل حال .

فأراد (ص) ان يجعله يعيش اجواء الصلاة وروحانيتها ، بعيدا عن الشعور بالثقل والتعب فرضي منه بما طلب ليضع قدمه على اول الطريق، فيعرف ما في الدرب من ألوان المتع الروحية ، ليسير فيه طواعية واختيارا دون ضغط او اكراه .

وهكذا رأينا النتيجة التي قدرها النبي (ص) منسجمة مع الغاية الطبيعية لهذا الاسلوب الرائع الحكيم . اما الفكرة التي نستطيع استفادتها من هذا الحديث ، فهي : ان على الداعية والمبلّغ ، ان يستعمل افضل الاساليب واقربها للسير مع الشخص الذي يدعوه نحو بداية

الطريــق ليطلع على ما فيه من خير وراحــة وطمأنينــة فيسعى اليه بعد ذلك بنفسه .

★ ★ ★

وربما نجد في السيرة النبوية الشريفة بعض الاحاديث التي تدلنــا على المرونة التي تلاحظ وتدرس طبيعة المجتمع الذي يعيش فيه الانسان، في اعطائه بعض التعاليم دون بعض ، تبعــا للاهمية التــي تتميز بها ، او للنتائج الكبيرة التي تنتج منها ، او للشمول لكثير مــن الاعمال المرتبطة بمختلف جوانب التشريع ، مما يجعــل من ربط الانسان بتشريــع معين عملية ربط بكثير من التشريعــات الاخرى ، كما نلاحظ ذلك في القصة التالية التي رواها في الكافي ــ عن ابي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام قال : قال رجل للنبي (ص) يا رسول الله علمني قال : اذهب ولا تغضب فقال الرجل قد اكتفيت بذلك فمضى الى أهله ، فاذا بين قومه حرب قد قاموا صفوفا ولبسوا السلاح ، فلما رأى ذلك لبس سلاحه ثم قام معهم، ثم ذكر قول رسول الله (ص) لا تغضب ، فرمى السلاح ، ثم جاء يمشي الى القوم الذين هم عدو قومه ، فقال : يا هؤلاء ما كانت لكم جراحة او قتل او ضرب ، فعليّ في مالي وانا اوفيكموه فقال القوم : فما كان لنــا فهو لكم نحن أولى بذلك منكم، قال : فاصطلح القوم وذهب الغضب»[1] .

فكيف اختار النبي (ص) هذه الوصية وكيف تمتد هذه الوصيــة الى مجالات متنوعــة ترتبط بعــدة جوانب من التشريعــات التحريمية وغيرها .

ربما كان السر في ذلك كله ، ان النبي (ص) قد لاحظ طبيعة المجتمع

---

(١) الكافي (هامش مرآة العقول) ج ٢ ، ص ٢٨٥ .

العشائري الذي يخضع لتقاليد العصبيـة التي تثيرها الكلمة الحـادة ، وتهزها اللحظـة الخاطفة ، وعرف حـاجة الانسان الذي يعيش في هذا المجتمع الى أن يملك أعصابه ، ليتصرف بهدوء بعيدا عن نوازع العصبية ومواقفها فاختار لهذا الانسان وصية ترك الغضب لانها تمثـل الضمانة الوحيدة التي يستطيع معها الانسان تفادي كل آثار العصبية من القتـل والنهب والاعتـداء على الآخرين وغير ذلك من الامور التي حرّمها الله وأراد سلامة المجتمع منها في كل مجـالاته واوضاعه . وقد رأينـا كيف استطاعت هذه الوصية أن تؤتي ثمارها في اللحظات الحاسمة التي عاشها هذا الانسان مع قومـه وأعداءهم في أشد المواقف اثارة للغضب ، وهو موقف المعركة التي تنفجر فيها الاحقاد بشكل غير معقول .

وقد اكتفى النبي (ص) بهذه الوصيـة ، ولم يضف اليها شيئا لانه رأى ــ بثاقب نظره ــ ان العصبية هي المشكلة الاولى في المجتمع الذي يعيش فيه هذا الرجل ، بحيث لو تفادى آثارهـا وتنائجها لاستطاع ان يجعل من نفسه انسانا مستقيما طيبا ، لفقـدان المشاكـل الاخـرى التي تثير الانسان نحو الشر وتقوده نحو الهاوية بالمستوى الذي يرتفـع الى مستوى هذه المشكلة الكبيرة .

وهكذا استطاعت هذه القضية ان تعطينا درسا في مراعاة الظـروف الطبيعية التي يعيشها الانسان او المجتمع الذي يراد اصلاحه ، وملاحظة اكثر المشاكل تعقيدا والحاحا على حيـاة الشخص ، لمعالجتها ، بالدرجة الاولى ، واعطائها الافضلية في التوجيـه من اجـل ان يكسب الانسان بممارسة عمليـة المقاومة فيها قـوة يستطيع ان يتغلب معها على بقيـة المشاكل بسهولة .

ج ـ قد يتساءل البعض :

لماذا يراد منا ان تتدرج في التبليغ وملاحظة ظروف الاشخاص ودراسة مستوى عقيدتهم وايمانهم ، اذا كانوا مسلمين يؤمنون بالاسلام ونظمه فقد يكون لهذا التدرج مبرر في نطاق العمل الذي يتحرك في وسط غير اسلامي ، نظرا لابتعاده عن واقع العقيدة الاسلامية وروحيتها ، اما المسلمون فانهم يؤمنون بكل تشريع انزله الله على قلب النبي محمد ص فلا نحتاج معهم الى أية عملية « ديبلوماسية » في هذا المجال .

ولكن .. فات هؤلاء اننا نشعر بالحاجة الى ذلك حتى في مجتمع المسلمين الذي يعيش معنا الآن من دون ان يعي مفاهيم الاسلام وايحاءاتها، وانما يتقبله بشكل تقليدي ، لا يتصل بالمضمون من قريب او من بعيد بل ربما يتعدى ذلك الى اعتقاد،بعض المفاهيم الخاطئة والافكار المنحرفة باسم الدين ، الامر الذي يجعل عملية مخاطبته او التحدث معه في شؤون العقيدة ما داما يشتركان في طبيعة الانحراف العملي عن الخط المستقيم .؟ ولذلك نجد من الخطأ الكبير عرض مفاهيم الاسلام جملة واحدة امام أبنائنا وبناتنا الذين عاشوا في اجواء غير اسلامية او تبنوا بعض الافكار المنحرفة ، او استسلموا لعادات محببة الى نفوسهم ، محرمة في الشريعة ، وذلك كالتحدث عن تحريم الغناء لمن تعلقت نفسه به حتى اصبح جزءاً من مزاجه او الحديث عن موضوع حلق اللحية وتحريمها في بعض الاجتهادات الفقهية ، مع الاشخاص الذين يعيشون في مجتمع كانت هذه العادة جزءا من تقاليده العامة التي يصعب على الانسان التمرد عليها ، او الحديث عن حرمة لبس الخاتم المصنوع من الذهب ، مع الافراد الذين اعتادوا ذلك في اوضاعهم الخاصة او غير ذلك من الاحكام الشرعية الثابتة في الشريعة بشكل قطعي ، او بشكل راجح يتبناه اكثر الفقهاء والمسلمين ولكنها تنتج ردود فعل عكسية في حالة التركيز عليها بشكل ابتدائي مع الافراد او

الجماعات التي لم تلتق بروح الايمان ، ولم تنفتح على القواعد العامة التي ارتكزت عليها الاحكام الشرعية مما يجعلها وحدة مترابطة في تتائجها واثارها لان ذلك قد يسبب لهم الارتباك والضلال ، وينتهي بهم الى الجحود والنكران لانها تتحدى الانسان في بداية الموقف ، في اكثر الاشياء الحاحا على مزاجه ، او في اصعب الامور تعقيدا في موضوع الاجتناب عنه والترك له ، في الوقت الذي لم ينفتح فيه الانسان على المعاني الكبيرة والاجواء الخيرة التي تدعوه الى التضحية ، او تبرر له احتمال المشقة والالم والعذاب النفسي ..

وقد تنبه المشركون من قريش الى هذه النقطة الاساسية من الناحية النفسية ، فاستخدموا هذا الاسلوب الذي يختار من الدعوة ، اشد تشريعاتها صعوبة في التنفيذ . على النفس ، لتروضه تلقائيا ، عندما تكون ردود الفعل جاهزة للتحرك والرفض لدى اول كلمة تتحدث عن الموضوع نظرا الى الفراغ النفسي من المعاني الروحية التي تستطيع مجابهة كل ردود الفعل ونتائجه وقد نجحوا في استعماله مع احد الشعراء الكبار في الجاهلية وهو الشاعر الاعشى ، الذي عزم على القدوم الى المدينة ليعلن اسلامه على يد النبي محمد (ص) بعد ان نظم قصيدة في مدحه اولها :

ألم تكتحل عيناك ليلة ارمدا وعادك ما عاد السليم المسهدا

وفيها يقول لناقته :

فآليت لا ارثي لها من كلالة ولا منحفا حتى تلاقي محمدا
نبي يرى ما لا ترون وذكره اغار لعمري في البلاد وانجدا

فبلغ خبره قريشا فترصدوه على طريقه وقالوا هذا صناجة العرب ما مدح احدا قط الا رفع قدره فلما ورد عليهم قالوا اين اردت يا ابا

نصير ، قال : اردت صاحبكم هذا لأسلم على يديه قالوا : انه ينهاك عن خلال ويحرمها عليك وكلها بك رافق ولك موافق قال : وما هن ، قال ابو سفيان ابن حرب : الزنا قال الاعشى لقد تركني الزنا وما تركته قال ثم ماذا قال : القمار قال : لعلي ان لقيته اصبت منه عوضا عن القمار . قال ثم ماذا قال : الربا قال الاعشى ما دنت وما ادنت قط . قال ثم ماذا قال : الخمر قال : اوه ارجع الى صبابة بقيت لي في المهراس فاشربها، قال ابو سفيان فهل لك في شيء خير مما هممت به قال وما هو قال ابو سفيان نحن وهو في هدنة فتأخذ مائة من الابل وترجع الى البلد سنتك هذه حتى ننظر ما يصير اليه امرنا فان ظهرنا عليه كنت قد اخذت خلفا وان ظهر علينا اتيته قال الاعشى ما اكره ذلك ، فاخذها فلما كان بقاع منفوخة رماه بعيره فقتله (١) .

فاننا نلاحظ انهم حاولوا ان يثيروا ردود الفعل الذاتية والمزاجية ، فذكروا له المحرمات دون ان تثير لديه شيئا حتى اذا انتهوا الى الخمر التي ترتبط بمزاجه كشخص وكشاعر ، استطاعوا ان ينحرفوا به عن وجهه فيعرضوا عليه شروط الرجوع عن غايته لانه لم ينطلق بعد ، من الايمان العميق بالاسلام ، ليدفعه ذلك الى الانسجام مع فكرة تحريم الخمر ، وهذا ما يدلنا دلالة واضحة على قيمة هذا الجانب من الاسلوب من الناحية النفسية .

---

(١) محمد فريد وجدي : دائرة معارف القرن العشرين ج ٦ ص ٤٦٤ .

الدعوة الى الدين

في مفهومه الاصيل الشامل

٣

(١) خلفيات الشعارات والمفاهيم المضادة

لا تزال فئات كثيرة من الاجيال المعاصرة ، تحمل فكرة مشوهة عن الدين ورجاله انطلاقا من مفاهيم مغلوطة تكونت لديها من خلال الاوضاع السيئة التي عاشتها التجربة الدينية للحكم ، وللتحرك الاجتماعي والسياسي ، والاساليب المنحرفة التي اتبعتها المؤسسات الدينية في كثير من بلدان العالم ، والمفاهيم الضيقة التي انطلقت في عصور التخلف الفكري من خلال استغلال بعض النصوص الدينية القلقة ، التي تحمل اكثر من وجه ، والتركيز على سلوك بعض علماء الدين الذي يوحي بالضيق والارتباك .. وغير ذلك من الاسباب التي اريد لها أن تشارك في اهتزاز صورة الدين في نظر الانسان وفي وعيه لوظيفته العملية في الحياة .

واستطاعت هذه المفاهيم المغلوطة التي تكونت لديها من خلال ذلك، أن تحدد للدين دوره في زاوية ضيقة من الحياة في ظل شعار « فصل الدين عن الدولة » او تلغي دوره من الحياة أساسا ، لانه لم ينطلق الى الواقع من خلال المعاني التي تصنع القوة والحركة والتقدم ، بل كانت خطواته في اتجاه الضعف والجمود والتأخر ، في ظل شعار « ان الدين افيون الشعوب » او « الدين ضد العلم » او الدين يساوي الرجعية ..

وبدأت الخطة التنفيذية في تحويل ذلك كله الى واقع عملي يحصر

الدين في دائرة معينة ، ويحبسه في نطاق ضيق ، يجتر فيه « ممثلوه الرسميون » انفسهم وثقافتهم النظرية بعيداً عن التجارب العملية الرائدة التي تغني الواقع والمضمون ، ثم امتدت الخطة في اذهان الطلائع الفتية من الاجيال ، لتجعل من هذا كله فكرة بديهية لا مجال فيها للمناقشة والجدل تماما كالقضايا المسلمة التي تحمل قياساتها معها ، كما يقول المنطقيون .

وقد ساعد على تعميق الفكرة في وعي الناس ، بالاضافة الى ما تقدم ذكره ــ ان الخلافات الدينية المذهبية قد اتخذت « الطابع الطائفي » الذي يجعل من الدين مؤسسة بشرية ، فارغة من القيم الكبيرة ، ومملوءة بكل معاني الحقد والبغضاء والانانية والمصالح الذاتية الضيقة .. ككل التجمعات البشرية الاخرى التي تتجمع على اساس عنصري او اقليمي او غير ذلك في واقع يأخد جانب الاطار في صراعه ، ويترك الصورة الرائعة ، بعد عملية التشويه ــ صريعة تحت الاقدام ، يمرغون قداستها في الوحول في ممارساتهم ، ويقاتلون باسمها في شعاراتهم ، مما جعل من الدين عقدة الامة التي تبحث عن حياتها في ظل نظام تحكمه شريعة القيم ، لا شريعة المصالح والانانيات الضيقة التي تختبىء خلف جدار سميك من قيم الحق التي لا تعني لها شيئا ، الا كما يعني الطبل للمتحلقين حوله والمتجمعين لديه .. وكانت الحروب الطائفية التي يثيرها الاستعمار بأساليبه الجهنمية، ويتحلق حولها البسطاء والجهلة ، ويسارع اليها المثقفون والعارفون ليركبوا ــ في رحلتها ــ موجة اللهب ، الى حيث يتقدمون الصفوف ليطرحوا انفسهم كقادة وزعماء .. ويحمل الدين وزر ذلك كله من دون اساس واقعي سليم ... ان ذلك كله استطاع ان يجعل من الدين شيئا لا معنى له في حياة الناس وقضاياهم المصيرية ، لانه من القضايا التي تدخل في خصوصياتهم الشخصية ، من حيث هي علاقة بين الانسان وربه تماما كأية علاقة اخرى تربط الانسان بالآخرين .

وقد كان لهذه المفاهيم المغلوطة ، الدور الكبير في الوقـوف بوجه التقدم الديني في حركة الواقع المعاصر ، وابعاده الانسان عن السير بعيدا في هذا المجال ، الـى المستوى الذي اصبح المـوضوع مثـيرا للدهشة والاستغراب ، او للقرف والاشمئزاز ، كأي امر يطرح في غير موضعه ، او يثار في غير اجوائه .

ولعل هذه المشكلة التي تواجه العمل الاسلامي ، تعتبر مـن أكثر المشاكل صعوبة في حركة الاسلام وتقدمه ، لانها لا تتصل بالجانب الفكري فحسب ليصار الى مناقشتها فكريا كما في كثير من المشاكل الفكرية ، بل تتصل بأبعادها عن الساحة الفكرية رأسا بحيث لم يعد الحديث عنها يثير أي شيء ذي بال ، لانها دخلت في دائرة (اللامبالاة) واصبحت خـارج مجال الفكر والرؤية وقد زاد الخطورة تعاظما ، ان هذا الاتجاه لم يسيطر على ذهنية الافراد والجماعات البعيدة عن اجواء الدين ، بل سيطر عـلى المتدينين من علماء تقليديين ، ومؤمنين طيبين ، فاصبحوا ينظرون الـى العمل السياسي الحركي نظرتهم الى جريمة كبيرة تهز الدين وتطعنه فـي الصميم ، وتحركت خطواتهم لاعلان الحرب على الفكرة ورجالهـا حتى انتهى الامر بالبعض منهم ، انهم يتسامحون مع الملحدين الذين يدعـون الى نظام الحادي ، ولا يتسامحون مع المسلمين الذين يدعون الى نظـام اسلامي لان اولئك يحاربون الاسلام من خارج ، اما هؤلاء فيفجرونـه — بزعمهم — من الداخل ، وهذا منتهى الخطورة .

(٢) الحاجة الى ملاحقة هذه الافكار ضمن خطة مدروسة :

إن على العاملين في سبيل الاسلام ان يواجهوا ذلك كله في جبهتين :
الجبهة الاولى تتجه الى الاجيال المعاصرة لتخرجهم من اجواء « اللامبالاة » في حركة اثارة فكرية تمثل الصدمة المفاجئة ، التي تهز الاعماق هزة الوعي

فيتحول الموقف ، الى خلق الاجواء الجديدة التي توحي بالتفكير الموافق الى جانب التفكير المضاد ، ليبدأ الصراع فيهز الداخل من جديد،وتتلاحق الافكار والحقائق في وعيه ووجدانه ، وتتحول الى جانب التجربة العملية التي تجسد الاسلام في حلوله الجزئية لبعض مشاكل الواقع لتجد هذه الاجيال — على الطبيعة — كيف يمكن للاسلام ان يخطو خطوته الرائدة في بعض مظاهر الواقع ، كدليل على قدرته على السير بعيداً بالخطة الشاملة للواقع كله في نهاية المطاف .

الجبهة الثانية .. وهي التي تتوجه الى المؤمنين ليفهموا دينهم الحق، كما هو ، بعيدا عن عهود التخلف للعودة الى الجذور الضاربة في اعماق الارض ، والى الينابيع المتدفقة بالماء الصافي الزلال ، فاننا سنجد من خلال التجارب الاسلامية الرائدة في العهد النبوي وخلفه ، ان التجربة الجديدة التي تدعو اليها ، ليست هي التجربة الاولى في الميدان .. بل هي امتداد للتجارب السابقة المتصلة الحلقات .. وسننفتح على النصوص الدينية في الكتاب والسنة ، فنتعرف الى النظام الاسلامي الواسع الذي يتسع لجميع حاجات الانسان ومشاكله ، ويلتقي معه باحلامه وآلامه ، ويتنوع في اوضاعه القانونية التي تحدد للانسان مسيرته في اكثر من اتجاه فلا تترك له اي فراغ قانوني ليشعر معه بالحاجة الى استعارة قوانين اخرى ، او استجداء بعض المبادىء والمفاهيم الاجنبية .. لنستطيع من خلال ذلك تطويق جميع السلبيات المنبثقة من هذا الموقف او ذاك .

وقد تدعو الضرورة الملحة الى ملاحقة الافكار الاوربية التي ساهمت في نشوء الفكرة المشوهة عن الدين ، وتحولت الى شعارات تقدمية ترتبط بفكرة « علمانية الدولة » و « حرية الفكر » و « الخروج بالانسان من اجواء الاسطورة الى اجواء العلم » فتبدأ القضية بتفريغ هذه المفاهيم من سحر الغموض الذي يحيط بها فيلفها في اجواء سحرية

حالمة توزع على الناس الاحلام الضبابية التي تحملهم الى عالم الفردوس الاعلى في آفاق بعيدة عن الواقع •• فاذا استطعنا الخروج بها من اطار القضايا الضبابية ، الى اطار القضايا الواضحة التي نضع فيها النقاط على الحروف ، بطريقة تحليلية محددة تخضع فيها المفاهيم لمقارنة بين طبيعة هذه الافكار وبين طبيعة الافكار الاخرى في واقع الدين واصالته بحيث لا تعيش المقارنة بين مفاهيم غائمة ومفاهيم غائمة اخرى •• بل تعيش ضمن اطار محدد يحدد الصورة هنا ، كما يحددها هناك •

فاذا استقام لنا ذلك كله بدأنا المرحلة الثانية التي تضع هذه الافكار في ظروفها الطبيعية التي ولدت فيها وانطلقت معها ، ليفهم الناس ان الاسلام لا يعاني من عقدة الظروف غير الطبيعية التي حكمت هذه المفاهيم، لان له موقفا لا يبتعد عن مصلحة الانسان وتطلعاته التقدمية ، فقد اطلق شريعته الكاملة التي تتصل بكل جوانب الحياة من دون ان يترك فراغا تشريعيا في أي واحد منها ، ولذا فان فكرة « العلمانية » ليست بذات موضوع ، اما فكرة فصل الدين عن الدولة فلا معنى لها في الاسلام ، لان الاسلام كنظام لا يبتعد عن فكرة الدولة في تشريعه ، بل عمل — في تاريخه — على تجسيدها واقعا عمليا في بضع مئات من السنين •• اما حرية الفكر ، فان الاسلام ليس بدعا من الافكار والمبادىء الملتزمة التي تضع الحرية في اطار مصلحة الانسان ، لا في اطار مصلحة اعداءه واعداء الحرية •• اما العلم •• فقد اعتبره الاسلام طريق الفكر للوصول الى الله •• وهكذا يظل العاملون في حركة دائبة دائمة تتلمس الثغرات التي يفتحها هؤلاء ، واولئك لينفذوا منها الى التشكيك في الاسلام والاساءة الى فكره وشريعته ، في عملية ملاحقة مستمرة ، لنخرج من ذلك كله بتحطيم الحواجز الاجتماعية والسياسية والتقدمية التي تحول بين الاسلام وبين الاجيال الطالعة ، لننطلق بالاسلام بعيدا عن كل ما يقيد حريته او يعطل مسيرته •

اننا نشعر بالحاجة الى ملاحقة هذه الافكار في ظل خطة مــدروسة رائدة لنملأ اذهان ابناء جيلنا وعقولهم بالافكار الواقعية المضادة، لنفسح المجال للحق ان يزحف الى ساحة المعركة السياسية والاجتماعية ، ويقتحم على الباطل أوكاره ومصادره ، بدلا مــن ان يبقى منكمشا في الزاويــة الضيقة التي يريدون ان يحبسوه فيها .

وقد يقتضينا ذلك ، ان نطلــق الممارسات الاسلامية في أبعــادها الاجتماعية الواسعة ، انطلاقا من التجمعات الاسلامية ، في حرية الفكر ، وفي حركة العلم الصاعدة في البيئة الاسلامية ، وفي المشاركة الواعية الحية في السياسة العامة في البلاد الاسلامية ، على أساس المفاهيم الاسلاميــة السياسية الحقة ، فاننا نجد في عملية الممارسة اكبر دليل على خطــأ تلك الافكار المنحرفة امام العالم ، وأفضل شاهد على ما يحتويه الاسلام فــي نظامه وعقيدته من مرونة وعمق وامتداد .



الممارسات الدينية
في الدعوة أمام علامات الاستفهام

تثار في كثير من الحالات بعض المواقف التي يقفها العاملون في الحقل الديني ، فترسم عليها علامات الاستفهام باعتبارها لا تمثل المواقف الاسلامية الصحيحة ، بل تشوه صورنها - بدلا من ذلك - في نظر الناس ، لان الذين يجسدونها يمثلون الاسلام رسميا واجتماعيا .. ولا بد لنا من ملاحقتها وملاحظتها لنضع المواقف في اطارها الاسلامي الصحيح كسبيل من سبل توضيح الصورة وذلك في عدة ملاحظات :

١ - في الاطار الاجتماعي والاخلاقي

.. قد يتحرك علماء الدين في مجابهة الانحراف الاجتماعي والاخلاقي ، فنراهم يقيمون الدنيا ويقعدونها في الثورة على القمار وشرب الخمر والزنا والخلاعة في الملابس والمظاهر والافلام والصور والصحف وغير ذلك ويركزون كثيرا على الميوعة والانحلال لدى الشباب والفتيات ويملأون الدنيا خطبا ومواعظا تحاسب الشباب على ما يستحدثون من أزياء وأساليب في ارسال شعورهم ، وتضييق ثيابهم وتهاجم النساء على الازياء التي تبتدعها دور الازياء ، مما يتنافى مع الاخلاق الاسلامية العالية لانها تمهد السبيل الى الانحراف .. وهذا كله خير لا كلام فيه ولا نقاش من حيث المبدأ ، وان كان لنا بعض التحفظ في الطريقة التي تعالج فيها هذه القضايا ، والاسلوب الذي يستخدم في حياة الناس ..

ولكن هل الاخلاق الاسلامية هي أخلاق جنس ، وهل الانحراف الاخلاقي ، يتمثل بالخمر والقمار .. اذا .. فأين قضايا الرشوة في الحكم، والغش في المعاملة والرأي والكلمة ، وأين قضايا السرقة في حياة الفرد على مستوى ما يملك الافراد من مال وفي حياة المجتمع في الملكيات العامة التي ترعاها الدولة ويسرقها المسئولون ، واين قضايا الظلم الاجتماعي في داخل الاسرة في ظلم الرجل للمرأة ، او ظلم المرأة للرجل ، وأين قضايا الفساد في العلاقات الاجتماعية العامة والخاصة ، وأين الجرائم الاجتماعية كالقتل بغير حق ، والجرح بغير حق ، والبغي في الناس بغير حق ، وأين قضايا التحلل الاجتماعي الذي يتمثل في أساليب الفتنة والكذب والغيبة ونقض العهد والحكم بغير حق .. ماذا عن ذلك كله ، وعن غير ذلك من المشاكل العامة والخاصة التي تجسد الانحراف الاخلاقي في العلاقات المالية والقضائية والاجتماعية ... وتكر علامات الاستفهام لتشمل كل مظاهر الانحراف الموجودة في الحياة ، فتتقرر حقيقة اسلامية خالدة، وهي اننا نعرف ان الاخلاق لا تنحصر في دائرة معينة في التشريع الاسلامي بل تشمل الاسلام كله .. بعد ان اطلق النبي محمد (ص) كلمته الخالدة « بعثت لاتمم مكارم الاخلاق .. » فكيف حدد التوجيه الوعظي الاهمية في هذا الجانب دون بقية الجوانب مع أننا نعرف خطورة بعض الانحرافات التي ألمحنا اليها ، وتأثيرها الكبير على حياة المجتمع وسلامته ولهذا صنف الفقهاء المسلمون بعضها في نطاق الكبائر التي يستحق فاعلها دخول النار، كما صنفوا البعض الآخر في نطاق الصغائر التي لن تكون كبيرة الا اذا اصر فاعلها عليها ، لان الاصرار على الصغيرة كبيرة في مفهوم الفقه الاسلامي ولكن المفارقة التي نواجهها في سلوك بعض الوعاظ ، هو انه يثير الجو كله امام كشف المرأة شعرها ، بينما لا يحرك ساكنا أمام قضايا الغيبة والنميمة والظلم الاجتماعي والغش والتطفيف في الميزان والمكيال .. مما يؤدي الى نتائج خطيرة في وعي المؤمنين الساذجين للمفهوم في الاسلام

انسجاما مع طبيعة التوجيه الوعظي الذي يقدم اليهم ، فيصنع لهم تصوراتهم عن الاخلاق على طريقته •• وينعكس ذلك على ممارساتهم العملية ازاء الواقع المعاش •

ولا تقتصر خطورة هذا الاسلوب على تأثيره في وجدان المؤمنين الطيبين ، بل يتعداه الى التصور العام الذي يأخذه الناس عن المفهوم الديني للاخلاق ليحصروه ، او ليحصروا أولوياته ، في هذا النطاق المحدود الذي لا يتعدى أخلاقيات الجنس ، وأخلاقية الشرب واللعب ، فيما يلاحظونه من توجيهات وممارسات واحتجاجات ، فقد يلفت النظر ان الاحتجاج الذي يقدم الى السلطات على الفساد الاخلاقي ، لا يتعدى جانب الجنس •• ولا يتعرض للجوانب الاجتماعية الاخرى ، فلم نلاحظ هناك احتجاجا واحدا قدم الى السلطة من قبل الهيئات الدينية ضدعمليات الغش والسرقة والاحتكار ، في الوقت الذي تقدم فيه الاحتجاجات الكثيرة ضد فلم خلاعي ، او صورة خليعة او ما يشبه ذلك ونحن لا نريد ان نقلل من اهمية الجنس في الفساد الاخلاقي ، بل ان الاسلام قد اعتبره في الدرجة الكبيرة من الخطورة انطلاقا من حديث النبي (ص) الذي يشرح فيه قيمة الزواج وأهميته ويعتبر المتزوج محرزا لنصف دينه او ثلثي دينه على اختلاف الروايات في ذلك ، ولكننا نريد ان تؤكد على اهميةالجوانب الاخرى وقيمتها في البناء الاخلاقي للفرد والمجتمع ، واعتبار الجميع كلا واحدا يمثل الصورة الحقيقية للاسلام في شموله واتساعه •

٢ ـ في الاطار السياسي :

تطرح القضية التالية ، اننا نعرف ان الاسلام ليس رأسماليا بالمعنى السياسي والاقتصادي للكلمة ، وليس اشتراكيا بما تمثله هذه الكلمة من صيغة فكرية وقانونية محددة ، وليس اقطاعيا بما تمثله هذه الكلمة من

نظام اجتماعي واقتصادي في التزاماته وأوضاعه .. بل الاسلام يختلف عنها من حيث المبدأ ومن حيث التفاصيل . ولكننا نلاحظ ان هناك حملة شديدة الى مستوى القسوة والتطرف ضد الاشتراكية والمعسكر الاشتراكي في جميع افكاره وممارساته ، بينما لا نجد مثل هذه الحملة او بعضا منها ولو في المستوى البسيط جدا ضد الرأسمالية والاقطاعية وأفكارهما وممارساتهما .. فما هو تفسير ذلك كله ربما يفسر البعض ذلك ان المذهب الاشتراكي يستند الى القاعدة الفلسفية المادية الماركسية، التي تناقض التفكير الديني أساسا ، وتعتبره مخدرا للشعوب ، ومسألة لا أساس لها في المجال الفكري والعملي ، وبذلك كان الجانب الفلسفي المرتبط بالعقيدة يقف بقوة الى الجانب الاقتصادي والاجتماعي ، بينما لا تخضع الرأسمالية والاقطاعية الى فلسفة شاملة للكون والحياة تضاد الدين او تناقضه ، فليس هناك الا الجانب الاقتصادي .. وفي هذا الاطار كان التأكيد على المسألة الفلسفية التي تتحرك في حركة الصراع بين الفكر المادي والفكر الديني ، بعيدا عن اي نتائج اخرى ، او جوانب اخرى . ولكننا نلاحظ ، ان التشهير يتجه الى الجانب الاقتصادي بالمستوى الذي يتجه الى الجانب الفلسفي ان لم يكن بمستوى أكبر ، مما يجعل علامة الاستفهام مطروحة بدون جواب .. فاننا لا نمانع في تركيز الحملة وتعميقها على الالحاد والمادية ، بكل ألوانها ، لان ذلك هو رسالة الدين، كفكر يرتكز على الايمان بوجود الله وتوحيده ، وقضيته الاولى ، كخط عريض ، يفقد معناه اذا فقد الانطلاق منه ، ولكننا نتساءل عن السبب في اغفال الجوانب الاخرى في ممارسات النظامين وتفكيرهما ، ما دمنا لم نغفل ممارسة هذا النظام وطريقته في توزيع الثروة ووسائل الانتاج اننا نسجل ذلك ، كظاهرة عامة ، لاننا بدأنا نقرأ في الثقافة الاسلامية المعاصرة المرتكزة على الطبيعة الحركية للاسلام هذا النوع من النقد الموضوعي

لجميع الانظمة المخالفة للاسلام من اجل ايضاح الصورة الحقيقية للاسلام من جهة وللعمل الاسلامي من جهة اخرى ..

اننا نسجل هذه الظاهرة العامة في الاساليب العامة للعاملين في الحقل الديني ، كنقطة ضعف في حركة العمل ، لان لها تأثيرا سلبيا على نظرة الآخرين اليه حينما يثار الضباب حوله كواجهة من واجهات النظام الرأسمالي والاقطاعي ، ظلما وعدوانا ، انطلاقا من اسلوب الممارسة الخاطىء من قبل اتباعه .. ونأمل ان تتضافر الجهود على تغيير هذه الظاهرة ، الى ظاهرة جديدة تعالج فيها قضية النظام الاسلامي بالاسلوب المقارن الذي لا يغفل اي نظام مضاد ، بكل حسناته وسيئاته ، بل يعرض الجميع على حد سواء .

٣ ـ في الاطار النضالي او الجهادي :

تطرح القضية التالية : اننا نعرف من دراسة التشريع الاسلامي ، ان الاسلام ليس دين عبادة ينعزل فيه الانسان عن احداث الحياة وأوضاعها ، بل هو دين حياة متحركة ابدا في الانطلاق نحو الافضل ، ودين جهاد دائم مستمر في كل الجبهات ، من اجل تحقيق معنى العزة والكرامة والتحرر من كل انواع الاستعمار والاستعباد .. ولكننا نلاحظ ان الجهاد لا يشغل جانبا كبيرا من التفكير التشريعي لدى الدعاة المسلمين ، او العاملين في الحقل الديني ، بل ان القضية تبدو في جانب كبير من الخطورة حينما نلاحظ وقوف الكثيرين من هؤلاء العاملين ضد ارادة التغيير في المجتمع ، او ضد حركة الثورة على النظام الفاسد ، او على القوى الشريرة في العالم ، فيمثلون الاحتياطي الكبير للثورة المضادة ، او للفئات المساندة للجماعات المحافظة او المساندة للنظام البالي ، وبذلك يتحول المؤمنون الى عناصر خائفة مترددة أمام عوامل التغيير ، ويتحول الايمان الى عنصر جمود في الواقع بدلا من ان يكون عنصر حركة ودفع الى الامام .

اما ملاحظتنا على ذلك ، فاننا لا نوافق هؤلاء على الحكم الذي يحاول اعتبار ذلك ظاهرة دينية معاصرة فاننا نعرف ان للعاملين في الحقل الديني دورا كبيرا رائدا في كثير من الثورات المعاصرة ، ونعرف — الى جانب ذلك — مساندة الكثيرين منهم للثورات التحررية ، او الاجتماعية .. ولكن المشكلة التي تطرح نفسها في الساحة هي ان الدور الفاعل لاي موقف تغييري ، او اصلاحي ، أو ثوري ، لا يستطيع ان يفرض نفسه الا في نطاق الاسلوب التنظيمي السياسي او الاجتماعي ، لان ذلك هو سبيل تحويل افراد المجتمع الى قوة اجتماعية او سياسية .. اذ بدون ذلك تتحول المواقف الى أعمال فردية متفرقة لا تستطيع ان تقدم للعمل الا الشيء اليسير .. وهذا هو السر في امتناع البعض عن المشاركة الفعلية في الدفع الثوري لانه لا يملك القوة التنظيمية التي يحركها في اتجاه التغيير على صورة الاسلام ونظامه ، ولا يتمكن من مساندة او مساعدة القوى الاخرى التي لا تؤمن بالاسلام عقيدة ونظاما ، لان ذلك يحول الموقف الى دفع للثورة في اتجاه الباطل والانحراف ، وهذا ما لا يمكن له الموافقة عليه ، من خلال الاتجاه الذي يمثله أمام الآخرين .. ولكن يبقى لهؤلاء وعليهم أن يدفعوا المجتمع الى اتباع الطريقة التنظيمية في العمل ، ليستطيعوا دفع حركة التغيير من خلال ذلك في الحياة .

هناك نقطة اساسية لا بد من ملاحظتها في اسلوب العمل ٠

اننا نلاحظ ان الاتجاه الموجود في العمل هو محاولة رسم الخطوط العامة للاسلام في ذهنية الانسان المسلم نحو المفاهيم الواسعة ، والاهداف الكبرى للعقيدة كطريق من طرق تركيز العقيدة في حياته وايضاح المفاهيم في فكره ، ولكن هناك نقصا في هذا الاتجاه ، وهو فقدانه لعنصر التدريب على ممارسة هذه المفاهيم في مجالها التطبيقي ، واغفاله تحديد الوسيلة في الاتجاه نحو الغاية مما قد يؤدي الى ضياع المسلم في حالات العمل ـ التي هي المجال الطبيعي للتنفيذ ـ بين الطرق المتعددة والمعالم المختلفة، لان المبادىء المتنوعة قد تلتقي في مفاهيمها واهدافها العامة ولكن الاختلاف الكبير يكمن في الوسائل التي تحقق الاهداف الكبيرة والتطبيقات التي تتجسد فيها المفاهيم العامة ٠ وفي ظل هذه الحقيقة ، قد يتخذ دعاة المبادىء الاخرى ذلك الغموض في الوسائل المطروحة سبيلا للنفاذ الى حياة انساننا المسلم وعقيدته ، فيندفعون الى الخطوط الضائعة في ذهنه ويحاولون ان يرسموا مكانها الخطوط التي تسير عليها مبادئهم باعتبارها شيئا لا يختلف مع الخطوط العامة للعقيدة ٠

وقد استطاع هذا الاسلوب العملي في الدعوة ان يحول الاسلام في ذهنية المسلمين الى مجرد اهداف تتسع لاكثر من وسيلة ، ومفاهيم تنسجم

مع أكثر من تطبيق ، لانه انطلق في حياتهم وتصوراتهم — من خلال تجارب بعض العاملين في الدعوة الدينية — الى افكار غائمة تبحث عن الوضوح في كل اتجاه ، الامر الذي جعل واقعنا فريسة سهلة للدعوات المضللة كنتيجة لفقدان القاعدة الفكرية الصلبة للمقاومة الذاتية الذي يؤدي الى عدم الشعور بالخطر الآتي من الآخرين من خلال وسائلهم المختلفة مع وسائلنا في هذا المجال .

ولعل من أبرز الحالات التي نلاحظ فيها ضياع المسلم بين الوسيلة والهدف ، أو المفهوم والتطبيق ، هي حالة الضياع الفكري التي يتخبط فيها الكثيرون فيتقبلون الخطوات العملية التي تسير فيها بعض المبادىء التي نختلف معها في قاعدة الفكر واسلوب العمل وان كنا نتفق معها في بعض الشعارات المطروحة في الساحة ، كالاشتراكية ... فقد تبناها بعض المفكرين او العاملين في الحقل الاسلامي بحجة ان الاسلام يريد الخير لبني الانسان ويدعو للعدالة الاجتماعية في الحياة كفكرة عامة في المجال العملي ... ولكنها فكرة انحرفت تطبيقاتها في عقولنا عندما لم نستطع تقديم الغاية مرتبطة بالوسيلة بل تركنا الغاية تحت رحمة المستغلين الذين يعملون في المفاهيم ، فلم نوضح — مثلا — للناس ان العدالة الاجتماعية في الاسلام لا تتعارض مع الملكية الفردية بل ترفض انفلاتها الى حد الاستغلال الفوضوي ، او الافساد الاجتماعي والسياسي والاقتصادي او الانطلاق من المصادر غير المشروعة ، لتصب في الموارد غير المشروعة ، ولم نبين لهم ان الاسلام لا يتفق مع الاشتراكية في اسلوب المصادرات والتأميم ، كطريق من طرق السيطرة على طغيان الملكية الفردية ، وغير ذلك من التشريعات الاقتصادية التي تجد الطريق الاسلامية في ممارسة الاهداف من اجل تحقيقها في حياة الانسان في اقل قدر ممكن من السلبيات ، او بدون سلبيات أصلا .

وربما كان من نتائج هذا الاتجاه الذي اخضع الغايات الكبيرة في الاسلام ، لتجارب الآخرين في التطبيق هو ان الانسان المعاصر اصبح يعتبر رفض التجربة الاشتراكية في دعوة أي مبدأ ، دليلا على ايمانه بالتجربة الرأسمالية لفقدان الحل الآخر للمشكلة في تصوراته العامة، وفي الواقع التطبيقي لحركة النظام الاقتصادي في الحياة ، الامر الذي جعل قضية مناقشة الفكر الاشتراكي مثلا ، تمثل — في نظر الكثيرين — مناقشة لاصل الفكرة العامة التي تعمل من اجل اقامة العدالة الاجتماعية في الارض ، اذ لا بديل لذلك في نظرهم الا الفكرة التي تشجع استغلال الانسان للانسان في مجال استعمال الحرية التي يخضع لها النظام الرأسمالي في كل شيء ، الامر الذي أساء الى التصور الاسلامي في مفهوم الكثيرين ... لاننا لم نطرح النظرية الاسلامية في توزيع الثروة وفي ملكية وسائل الانتاج بشكل كامل شامل بل اقتصرت الدعوة على بعض الافكار العامة غير المحددة بشكل واضح من جهة — وفي اطار ضيق لا يشمل كل المجالات الاسلامية في أجهزة الاعلام العامة والخاصة .

وربما كان من تأثير ذلك هو فقدان التركيز في التصور العملي لمفهوم العدالة في الحياة العامة في الاسلام .. فقد نلاحظ اننا نطرح فكرة العدالة في العلاقات الانسانية من دون وضع النقاط على الحروف، لتحديد الخطوط الفاصلة بين وسائل الاسلام في تطبيق العدالة على اساس من النظرة الاسلامية الشاملة لقضايا الحياة .. مما جعل التصور العام ينحرف الى السير بالعدالة في الاجواء العاطفية التي تقحم الحالات الشعورية في الحكم على عدالة أي تصرف أو عدم عدالته ، فقد يجد بعض الناس من خلال هذا التصور المنحرف ، في تشريع تعدد الزوجات او في ممارسته لونا من ألوان الخروج عن العدالة ، لان في ذلك اساءة الى شعور المرأة، من دون نظر الى الجوانب الواقعية التي تجعل من هذا التشريع مظهرا من

مظاهر التوازن في ضغط العلاقات الجنسية في اطار الرجل والمرأة ، لاهمية الاسس التي تدعو الى ذلك وتفرضه في الواقع •• وتتحول قضية العدالة ، الى اقرار هذا التشريع على اساس الصوابط الاقتصادية التي تدعو الرجل الى العدالة في النفقة وفي الحقوق الزوجية العامة ، بعيدا عن أي انفعال ذاتي يخرج عن دائرة العمل ، ولا يبقى للمشاعر الخاصة اي دور في مفهوم العدالة ، لان اي نظام في آي تشريع لا يمكن ان يحقق لجميع الاطراف الرضا الشعوري او العاطفي بشكل مطلق ، لان ذلك غير واقعي في حسابات التنظيم الدقيق للمجتمع الذي يكتفي بتحقيق الرضا من خلال الجوانب العملية الواقعية فحسب • وربما نجد من نتائج هذا الاتجاه ، فقدان التصور الحقيقي لمفهوم الحرية في الاسلام في اطاره الواقعي •• فقد طرحت قضية الحرية في الاسلام كمفهوم غائم يوحي للنفس بالمعاني المشرقة التي تبلغ درجة الاحلام ، ويصور الواقع على انه مجال رحب من مجالات تحقيق الانسان رغباته وشهواته ومطامعه ومطامحه ، فله ان يقول ما يريد ، ويفعل ما يحب بدون ضغط او اكراه ، مهما كانت النتائج والاوضاع •• وربما يبدو للناس — في تصورهم للحرية في الاسلام — صورة الحرية الرأسمالية ، لانها تمثل الحرية المنفلتة الى مستوى الافساد والاستغلال ••

اما السبب في ذلك كله فهو ان المبدأ قد طرح في الساحة بعيدا عن خطوطه العامة وتطبيقاته العملية التي تخضع قضية الحرية للمسئولية والالتزام ، فتضعها في نطاق محدود بالسلوك الذي يلتقي بالاهداف الاسلامية العليا ، ولا يقترب من الاهداف والممارسات التي تعرض سلامة العقيدة والمجتمع للخطر ، مما يجعل المبدأ يتمثل في « الحرية الملتزمة » •• للنظام الملتزم الذي يحكمها في تخطيط تشريعي دقيق •

وقد يتمثل هذا الانحراف في مفاهيم الزهد في الدنيا ، والاقبال على

الآخرة وجهاد النفس ورياضتها وغير ذلك من المفاهيم التي طرحت بشكل غائم لا تبين فيه الخطوط ، ولا تتضح امامه معالم الطريق ، فانطلق الكثيرون يبحثون ويفتشون عن تطبيقاته في الفلسفات الهندية ، والممارسات البوذية وغيرها من الاسس الفكرية التي تبتعد عن الاسلام نصا وروحا ، فنشأت من خلال ذلك الطرق الصوفية التي تنوعت وتفرعت حتى جعلت من الانسان المسلم انسانا مشلولا في حركة الحياة ، لانه يعتبر ان كل حياته تتجمع في اسلوب الرياضة الروحية على الطريقة الهندية ـ مثلا ـ وغيرها ، وفي البقاء ـ حيث هو ـ بعيدا عن مشاغل الحياة لتقترب من الله في غيبوبة صوفية حالمة .

وهكذا اصبحت هذه المفاهيم التي ارادها الاسلام في قاعدة لبناء الشخصية الاسلامية الايجابية سبيلا لابعاده عن الخط الايجابي، وتحويله الى انسان سلبي يأخذ من الحياة ولا يعطيها .. وربما يكون بعض السبب في ذلك يتمثل فيما أشرنا اليه من اعطاء المفهوم مجردا عن التطبيق ، مما يفسح المجال للتطبيقات المنحرفة ان تحاصر المفهوم وتطوقه في دائرة غريبة عن اجواءه واهدافه .. فقد لا يعرف الكثيرون من هؤلاء انالاسلام يعتبر كل ما تمثله هذه المفاهيم سبيلا للحصول على الشخصية القوية التي لا تنحرف ازاء الاغراء ، ولا تضعف امام التحديات وتجابه الحياة بقوة رائدة ، وبروح تؤمن بان طريق القرب الى الله يمر بالاقبال على خدمة الناس ، وبناء الحياة العملية على اسس سليمة ثابتة ولا يتوقف عند العزلة الحالمة التي تجتر اشواقها لله واحلامها في الجنة في كل الحالمين وتثاؤبهم الطويل .

ان من المفارقات الملفتة للنظر ، هو دخول كثير من الشباب المسلمين في كثير من التيارات الحديثة المناقضة للاسلام في فلسفتها وشريعتها .. بدافع المفاهيم الاسلامية الكبيرة في العدالة والحرية والجهاد وفي غير

ذلك مما يعيش في داخل وجدانهم الاسلامي ، لانهم يفقدون الصورة التطبيقية الجاهزة للاسلام التي يمكن ان تربط النظرية بالتطبيق لغياب النظام الاسلامي عن حكم الحياة ، ولانهم ينطلقون في تصوراتهم من اسلوب الدعاة الذين يهتمون بالنظرية ولا يلتفتون الى التطبيق ، ففقدنا من — خلال ذلك — كثيرا من الطاقات الاسلامية المبدعة التي انحرفت باسم الاسلام ، لجهل الدعاة اولا واستغلال هذا الجهل من قبل القوى الشريرة من جهة اخرى ثم بدأت عملية تفريغهم من الاسلام تدريجيا حتى تحولوا الى قوة تحارب الاسلام حربا لا هوادة فيها .

وعلى هدى هذا الاتجاه ، نشعر بضرورة الحذر عند تقديم الفكره الاسلامية العامة للآخرين ، او عند طرح الشعارات العملية العامة ، كشعارات العزة والكرامة والجهاد وما أشبه ذلك .. فنعمل على اقتران ذلك كله بالتطبيق الحي لها في مجال الحياة ، لتكون الوسيلة مرتبطة بغايتها ، والفكرة مرتبطة بخطوطها العامة والخاصة من اجل تركيز الشخصية الاسلامية المميزة في ذهن المسلمين ، ومن اجل ان لا يتحول التصور الاسلامي في وجدان المسلم الى معرض لمختلف الافكار والاساليب والتطبيقات التي قد تكون اي شيء ، ولكنها لن تكون اسلاما حقيقيا على كل حال .

تحديد الخطوط الفاصلة

بين الاسلام وبين غيره من الدعوات

قد يكون من شروط سلامة الحركة للعاملين في الحقل الديني ، ان يحددوا الخطوط الفاصلة بين الدعوة الاسلامية وبين غيرها من الدعوات الاخرى المضادة ، من الاديان والمذاهب الحديثة ••• لان ضياع الخطوط ، او اختلاطها يسهل للقوى المضادة القيام بعملية التضليل والتزييف والتحريف ، على اساس فقدان الوضوح في الرؤية الذي يعرف الانسان معه اين يضع قدمه واين ينتهي به المطاف ••• وينطلق الناس في اتجاه الباطل وهم يحسبون انهم سائرون في اتجاه الحق ••• وربما كان هذا الضياع سببا في غياب الصورة الحقيقة للاسلام لدى المسلم ، مما يفقده الثقة العميقة بالاسلام عندما يعيش اهتزاز الصورة وارتباكها فيخيل اليه ان ذلك هو واقعها الاصيل في الوقت الذي يقدم اليه الآخرون الصورة الكاملة لافكارهم بالاسلوب الذي يوحي بالقوة والتوازن •

أما اذا كانت الصورة واضحة ومحددة فان القضية تختلف اذ يمكن للانسان المسلم ان يشير الى الحدود الفاصلة التي يجب ان يقف عليها عندما يريد منه الاخرون تجاوزها الى غيرها ، فلا يستسلم لعملية الخداع والتضليل تحت اي قناع ، أو ستار ، لان وضوح الصورة يفضح كل الاقنعة ويمزق كل الستائر ••• ويمكن له في الوقت نفسه ان يزرع الثقة في نفسه على اساس الصورة الكاملة الثابتة في نفسه ، للواقع القوي

الاصيل ، ويحاول ، من خلال ذلك ، ان يبدأ عملية مقارنة بين صورة الاسلام كما هو في واقعه وبين صورة المبادىء الاخرى بأمانة وشمول .

وهناك نقطة حساسة جدا في هذا المجال ، وهي الابتعاد عن التسويات التي ترتكز على التنازل عن بعض الجوانب في العقيدة والشريعة والموقف لمصلحة الطرف الآخر في مقابل بعض التنازلات التي يقدمها للاسلام فان تحديد الخطوط الفاصلة بين الاسلام وبين غيره يكشف للانسان خطأ فكرة التسويات والتنازلات في نطاق الدين ، لانه يمثل الالتزام بالشيء ونقيضه كما حدث في بدايات الاسلام عندما قدم المشركون عرضا الى النبي (ص) يتضمن التسوية في اطار المساومة ، كما تنقل بعض الروايات التاريخية حول سورة الكافرون فقد جاء في اسباب النزول للواحدي .. : انها نزلت في رهط من قريش قالوا يا محمد هلم اتبع ديننا وتتبع دينك ، نعبد الهك سنة وتعبد الهنا سنة فان كان الذي جئت به خيرا مما بايدينا قد شركناك فيه واخذنا بحظنا منه ، وان كان الذي بايدينا خيرا مما في يدك قد شركت في امرنا واخذت بحظك ، فقال (ص) معاذ الله ان أشرك به غيره فانزل الله تعالى :

« قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ... لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ ما أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ » .

فغدا رسول الله الى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش فقرأها عليهم حتى فرغ من السورة فآيسوا منه عند ذلك ... وسواء اصحت

هذه الرواية ام لم تصح فان جو السورة يوحي بوجود مساومة من هـذا القبيل ... [1] .

فقد كان في مخطط هؤلاء ان يسلكوا هذه الطريقة التـي يحـاول اصحابها الإختباء تحت ستار الحاجة الى اكتشاف كل من الفريقـين عقيدة الآخر وطريقته في العبادة على اساس التجربة المحدودة ، ليكـون اللقاء ــ لو حدث ــ على اساس القناعة التجريبية ، بعيداً عن أي فكـرة سابقة غير دقيقة ... ولكن الخطة كانت ابعد من ذلك فقد كانوا يريدون اعترافا من النبي (ص) بآلهتهم ولو بشكل محدود في نطاق استنطـاق التجربة ، ليحققوا من ذلك هدفين ، الاول : اضفاء صفة الاحترام علـى عبادتهم لهذه الاصنام باعتبارها في مستوى العبادة لله من خلال التسوية المتفق عليها ــ لو حدث الاتفاق ــ .

الثاني : تسجيل المحاولة على النبي (ص) كموقف يفقده الصفـة الرسالية التي تمنحه حصانة مقدسة في نفوس الناس ، لان قبوله الاقرار بالاصنام ، ولو بالتجربة ، يتنافى مع الرسالة وبذلك يفقد تأثيره عـلى الناس ، ويترك الطريق مفتوحة امام المشركين لفتنة من يريدون فتنتـه وتضليل من يريدون تضليله من دون جهد او تعب ...

ولكن النبي (ص) فوت الفرصة عليهم برفضه للقضية مـن ناحية المبدأ ، وجاءت السورة الكريمة لتحدد الموقف بشكل حاسم لا مجـال فيه لاية مساومة ... ليعرف كل من طرفي الصراع ، ان القضية تنطلق في اتجاهين لا ثالث لهما ، فاما السير في طريق التوحيد واما الوقوع في قبضة الشرك ... ولا لقاء بين الاتجاهين ، وبذلك اصبحت القضية في مستوى

---

(١) اسلوب الدعوة في القرآن ص ٧٦ ، طبعة ثانية .

القاعدة التي جاءت لتؤكد الموقف بطريقة شديدة حاسمة كما نلاحظه في هذا التكرير للنفي المستمر .

ولم يكتف القرآن الكريم بهذا الموقف بل كان يريد ان يختم الحوار بينه وبين الفريق الآخر بتحديد الخط الفاصل الذي يعطي المواقف النهائية صفة الوضوح قبل الافتراق في الطريق .

« وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ »ـ١٠ـ٤١
« وإذا سَمِعوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ »ـ٢٨ـ٥٥.

« قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ » ـ٣٤ـ٢٥ .

وقد نواجه الكثير من المواقف المماثلة في مراحل الصراع الحاضرة والمستقبلة ، من خلال حاجة فرقاء الصراع للإستفادة .من طاقات بعضهم البعض في أوجه الصراعات المتنوعة ، مما يجعل الموقف حافلا بالكثير من العروض التي يطلب فيها التبادل في المواقع ، والتنازل عن بعض المفاهيم او الاحكام او الاوضاع ، في الجوانب الفكرية والتشريعية والاجتماعية ، ليصار الى تعديل الخطوط على اساس ذلك ... فقد يجب علينا في هذا الاطار أن نبادر الى فحص ما لدينا من الخطوط العريضة التي لا يمكن التنازل عنها تحت اي ضغط ظرفي او غير ظرفي ، فنقف عندها وقفةحاسمة لا مجال فيها للتنازل والتراجع ... وندقق ـ بعد ذلك ـ في الخطوط

الفرعية لندرس موقعها من العقيدة والشريعة وارتباطها بالخطوط الاخرى، وتتعرف ــ من خلال ذلك ــ امكانات التنازل في ظرف معين ــ سلبا او ايجابا ــ لنحدد موقفنا الاسلامي في وضوح الرؤية وسلامة الهدف ، كل ذلك لنكون حذرين في وعي مــن الاستسلام للضغوط العاطفية التــي تلامس مشاعرنا في انفعالات لذيذة محببة كمثل الخدر الذي يــدب الى اعصابنا فيبعث فيها الضعف والاستسلام فنتصرف من دون ارادة ومــن غير تفكــير فنقف حيث لا نريــد ان نقف ونتحرك حيث لا يجــوز ان نتحرك ...

الفصل الثاني

مع الثقافة في خطواتها العملية

١ ـ الثقافة للدعوة لا للاسترخاء .
٢ ـ الثقافة للاسلام لا للمزاج الذاتي .
٣ ـ الثقافة في خط الاسلام لا في خط الانحراف .

الثقافة للدعوة .. لا للاسترخاء

مسؤولية الانسان المسلم تجاه الدعوة

كانت الثقافة الدينية ، فيما مضى من عصور الاسلام الاولى والوسطى ، قضية الانسان المسلم الشخصية التي ينهل منها ما ينهل ليمارس الاسلام في حياته عن معرفة ويدعو اليه عن وعي ، وكانت دعوته الى الاسلام ـ كممارسته له ـ عملا عفويا ينطلق من احساسه العميق بان الاسلام ـ في وعي الانسان المسلم حركة في الداخل تحرك فكره وروحه وعمله ، وحركة في خارج الذات ، تحرك الناس نحوه بالدعوة والبلاغ ، وتملأ الحياة من حوله ، بالحيوية والقوة فكان من نتيجة ذلك أن رأينا الداعية يتمثل في اكثر من نموذج من نماذج المجتمع ، فتجد التاجر الذي يضرب في أقاصي الارض ليطلب الرزق ويجتهد من اجله ، لا يترك أمر الدعوة الى الاسلام ولا يجد في التجارة شاغلا عنها ، بل يعتبره شغله الشاغل الذي يجد في عمله التجاري فرصة له للانطلاق به في طريق التكامل والامتداد والانتشار وتجد المحارب الذي يستغل فترات الهدنة، او السلم ، ليشعر ان مهمته لم تنته بانتهاء الحرب ـ بل يجد ان مسئوليته بدأت بذلك ، لان قضية الحرب ليست هي فتح البلاد ، للسلطة وللاستعمار ، بل هي ، من اجل افساح المجال لكلمة الله ان تقال وتمارس دورها في الاقناع بحرية وقوة وانفتاح . وقد اصبح الاسلام من خلال ذلك دعوة تمتد الى اقاصي العالم من البلدان التي لم تصلها الفتوحات

ولم يبلغها الحكم الاسلامي في بدايات عهد الاسلام ، بل ربما انطلقت الدعوة من المسلمين ، المغلوبين على امرهم ، للغزاة الذين كانوا يغزون البلاد الاسلامية بطريقة وحشية مدمرة ، كما حدث ذلك بالنسبة الى المغول الذين هاجموا العالم الاسلامي فدمروا كل شيء فيه ، وسيطروا على كل مقدراته ، ولكنهم لم يلبثوا ان دخلوا فيه بشكل عفوي يلفت الانظار ، بفضل الدعاة المسلمين الذين شعروا بانهم لا يستطيعون مقاومة الغزاة من الخارج بالقوة المسلحة ، فقاوموه من الداخل بالعقيدة الاسلامية ، ففتحوا قلوبهم لله ، وافكارهم لشريعته ، مما جعل الغزاة البرابرة ، يتحولون الى الاسلام ويعملون له ، ويحاربون من اجله . يقول توماس ارنولد في كتابه الدعوة الى الاسلام : لا نعرف الاسلام من بين ما نزل به من خطوب وويلات خطبا أعنف قسوة من غزوات المغول ، فلقد انسابت جيوش جنكيز خان ، واكتسحت في طريقها العواصم الاسلامية وقضت على كل ما كان بها من مدنية وحضارة ... على ان الاسلام لم يلبث ان نهض من رقدته وظهر من بين الاطلال واستطاع بدعاته ان يجذب اولئك الفاتحين البرابرة ويحملهم على اعتناقه [1] .

وربما كان السبب في ذلك، الشعور العميق بالمسؤولية تجاه الدعوة الاسلامية ، لدى كل مسلم عادي ، من دون ان يكون مكلفا من اية هيئة رسمية ، او اية مؤسسة دينية في عدة نقاط :

١ ـ الحديث النبوي الشريف ، « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته »

« فقد وعاه المسلمون وفهموه كقاعدة اسلامية عامة تثير فيهم حس المسؤولية كأعمق ما يكون ، وارحب ما يمكن ، حيث يجد الانسان المسلم ـ من خلال هذه القاعدة ـ ان دوره في المجتمع الاسلامي ليس دور الفرد

(١) الدعوة الى الاسلام ص ١٤٨ ـ ١٥٠ .

الذي تحكمه مسئولية الآخرين ، او الذي يتلقى المسئولية من الخارج ، ليكون دوره سلبيا يمارس فيه عملية الاخذ دون ان يتسلم زمام المبادرة في شيء من شؤون الحياة العامة ، بل هو دور ايجابي فعال ينطلق من صفته جزءا من كل مترابط ، يرتبط افراده برابطة عضوية لا انفصال فيها ولا انفصام . فان ذلك هو الذي حدد له موقعه الحركي في داخل المجتمع، فيجعله يشعر بمسئوليته عن كل القضايا التي يملك المقدرة على القيام بها ، او المشاركة ببعض منها مشاركة فعلية ، مما يجعله يفكر للمجتمع ، ومعه ، في كل شيء يهمه ويتعلق به ويصب في قضاياه المصيرية الكبيرة ، ثم يبدأ عملية الممارسة من موقع مسئوليته الاسلامية الداخلية التي تستمد رقابتها الواعية من الاحساس بوجود الله ورقابته في كل شيء .. وعلى ضوء ذلك فان الانسان المسلم ، لا يعاني من الاحساس بالازدواجية بين شخصيته الفردية وبين شخصيته الاجتماعية لان كلتا الشخصيتين خاضعتين في تكوينهما وحركتهما للقواعد الايمانية التي تحدد لكل منهما مجالات اللقاء والاندماج ومجالات الافتراق الذي يغذي كلا منهما : وينميه ، من دون ان يؤدي الى التنافر والتصادم ، فللشخصية الفردية منطلقاتها فى اطار الحاجات الذاتية التي ينمي فيها جسمه وعقله وعاطفته ، ويسمح فيها لنزواته الشخصية ان تعبر عن نفسها فى ألوان من اللهو البريء ، او يقيم بعض العلاقات الخاصة التي لا تترك أي تأثير سلبي على اوضاعه الاجتماعية العامة ، أما الشخصية الاجتماعية ، فلها منطلقاتها في كل العلاقات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، التي تتعداه الى غيره ، لانها تتصل بافكار الآخرين واقتصادهم ونشاطهم الاجتماعي ، وتنعكس على اوضاعهم العامة ، وقضاياهم المصيرية ومن خلال ذلك يلتقي الانسان المسلم بقضية الدعوة ، ليشعر بارتباطها بمسئوليته الاجتماعية لانها تمثل الامتداد البشري والحضاري لقوه الامة ووجودها وحضارتها، مما يجدد لها حياتها ويمنحها طاقة جديدة من اجل مستقبل جديد .

٢ ـ الآيات القرآنية الكثيرة

التي تجعل الدعوة الى الخير والآمر بالمعروف والنهي عـن المنكر ، مسئولية المسلمين في كل زمان ومكان ، ككل المسؤوليات والواجبـات العامة التي يطلق عليها الفقه الاسلامي صفة « الواجبات الكفائية » التـي توجه الى الامة بشكل عام ، فلا تختص بفرد معين ، فاذا قام بهـا البعض الذي يحقق لها غايتها سقطت عن الكل ، واذا لم يقم بها احـد ، عصوا جميعا وتحملوا مسئولية اهمالها امام الله ، ولذلك اعتبروا الدعوة الـى الله والى الاسلام ، مسئولية كل مسلم ، وقضيته الاساسية التي تمتد في الحياة الاسلامية من جذورها الضاربة في اعماق النفس ، ولم يخصوا بها احدا ، فيعتبرونها مسئوليته الخاصة التي لا ترتبط بهم من قريب او مـن بعيد ، بل قد ترتفع القضية الى ابعد من ذلك ، فلا يقف العمل عند حدود المسؤولية القانونية الالزامية التي تثقل كاهل الانسان ، وتشعره بالتعب والعناء • بل كانت تمثل بدلا من ذلك الرغبة المحببة التي يتجه الانسان الى تحقيقها بمحبة وسرور يحس معهما بلذة التعب وحلاوة الجهد كـأي نشاط شخصي ، يرتبط برغبات الذات وحاجاتها الطبيعية لانهما يرتفعان به الى الله في مدارج القرب والرضى ، ويحققان له هدفه في الوصول الى الدعوة التي يؤمن بها ، الى كل مكان في العالم ، والى كل شخص فـي الحياة • ومن هذه الآيات التي تركز على جـانب شمول الدعوة قولـه تعالى :

(ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويامرون بالمعروف وينهون عـن المنكر واولئك هم المفلحون) •

وقد نلتقي في هذا المجال ، ببعض الآيات الكريمة التي تجعـل من هاتين الصفتين ، اساسا للقيمة الانسانيـة للامة كلها ، وذلـك هو قوله تعالى :

« كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (٣٠ ـــ ١١٠) •

٣ ـ شريعة الجهاد

فقد كان الجهاد الاسلامي يشمـــل المسلمين جميعا ، على سبيـــل الواجب الكفائي من اجل اعلاء كلمة الله في الارض ، والدفاع عن الاسلام ضد قوى الاعداء من الكفار والمتمردين وافساح المجال امامهم ليمارسوا دوره في الدعوة من موقع الحرية والقوة ، والانتصار للضعفاء والمضطهدين من المسلمين ، فكانت الممارسة الاسلامية ، تجعل كل مسلم جنديا مـــن اجل الاسلام ، مما يخلق في وعيـــه روح الجندية للدعوة ، باعتبـــارها مسئوليته التي يقاتل من اجلها ويضحي بنفسه في سبيلها ، فكيف لا يعمل من اجل انتشارها وامتدادها وايصالها الى كل مكان والى كل انسان ••• وقد اشرنا في بداية هذا الحديث ، الى ان الجندي المحارب يتحول فـــي فترات الهدوء والسلام الى داعية متحرك ينفذ الى الداخل بالفكر والمحبة، ليدعوهم الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادلهم بالتي هـــي احسن ، ولا يقتصر على دعوتهم باللسان، بل يمتد ذلك الى السلوك العملي الذي يجعل من الانسان المسلم انسانا حيا متجسدا يتحرك على الارض ، ليشاهد الاسلام في صورته التطبيقية على الطبيعة انطلاقا مـــن الحديث الاسلامي الشريف : « كونوا دعـــاة للناس بغير السنتكم ليروا منكـــم الصدق والامانة فان ذلك داعية » •

٤ ـ الاحاديث النبوية الشريفة

التي تؤكد على الثواب الاخروي الذي يمنحه الله للناس الـــذين يعملون على هداية الكافرين والضالين والمنحرفين الى الطريقة المستقيمة

كما في الحديث النبوي الذي خاطب به النبي محمد (ص) الامام عليا (ع) عندما بعثه الى اليمن .. فقد ورد في حديث الامام جعفر الصادق (ع) قال: قال امير المؤمنين (علي بن ابي طالب عليه السلام) بعثني رسول اللـه صلى الله عليه واله وسلم ، الى اليمن فقال :

يـا علي لا تقاتلن احدا حتى تدعوه الـى الاسلام ، وأيم الله لئن يهدي الله عز وجل على يديك رجـلا خير لك مما طلعت عليـه الشمس وغربت » (١) .

(٢) شخصية الداعية المسلم (او روحية الداعية المسلم)

قد يكون السبب في هذه الروح ــ هذه الامور كلها ، او غيرها مما يضاف اليها من الدوافع الذاتية التي تحدث لدى الانسان كنتيجة لقـوة الايمان التي تجعل العقيدة حالة شعورية يندفـع الانسان الى تلبيتهـا وخدمتها بعفوية ومحبة ، فان كل هذه العنـاصر قد استطاعت ان تخلق الشخصية الداعية المسؤولة ، التـي لا تستمد حركتهـا مـن ارتباطهـا بمؤسسات تقليدية او رسمية بل تستمدها من ارتباطها بالينبوع الروحي المتدفق من الايمـان بالفكرة ، وبالخط المستقيـم الذي تمتـد الفكرة بامتداده وقد كان من الطبيعي لهذا كله ان لا يجد هؤلاء العاملون ــ في عملهم ــ ما يستحقون عليه أجرا ماديا ، كضريبة مفروضة على المجتمع ، لقاء ما قاموا به من خدمات اسلامية في مجال الدعوة ، لانهم لا يشعرون بمسؤوليتهم امام المجتمع ، كوجود منفصل متميز تماما ، كما يكون موقع العامل من صاحب العمل ، بل يشعرون بأن نتائج العمل تعود اليهم كجزء من المجتمع ، يعيش التكافل والتضامن والتعاون في كل مجالاته ، ثم .. كأصحاب عقيدة ، عملوا لعقيدتهم التي يحبونها ويؤمنون بها .. ثم كعمال كادحين الى الله فهم يقصدون اللـه في عملهم ، ويعملون للحصول على

(١) وسائل الشيعة ج ٦ ص ٣٠ .

ثوابه الذي وعدهم به « الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر .. »

وقد كانوا يقرأون الآيات الكريمة التي جاءت على لسان الانبياء في القرآن الكريم التي تعبر لنا عن موقف النبي (ص) مع قومه ليعلن لهم بكل قوة وبكل صراحة ، انه لا يطلب أجرا على الدعوة ، لان أجره على الله ، بل ما يطلبه من الناس أن يتجاوبوا مع دعوته ويتعاونوا معه في تنفيذها وانتشارها ، فكانت قراءتهم لهذه الآيات ، تخلق عندهم انطباعا، بأن شعارات الانبياء هذه ، لم تنطلق من مركزهم كأنبياء يتصلون بالله عن طريق الوحي ، بل انطلقت من موقعهم كدعاة يبلغون رسالات الله في الاجواء التي لا توحي للناس بأنهم يقدمون للناس الكلمة بالثمن المعين .. بل توحي لهم بأن كلمة الله ، ليست من السلع التجارية ، بل هي من معدن الرسالات التي تنطلق من روح العطاء ، لتدفع الانسان الى العطاء الكبير في الكلمة والفكر والعمل ، من دون مقابل ، وبذلك يرون ، في هذه الشعارات خطا عريضا للدعوة ومنهجا عمليا للدعاة ، كل الدعاة ، في ان يتحركوا في دعوتهم من موقع الاحساس بالمسؤولية المدفوعة الثمن من الله لا من الناس ، ان كانوا ممن يبحثون عن الثمن ، .. اما تأمين حياتهم ومستقبلهم المادي فقد يكون من الخير لهم ان يفتشوا عنه في مجال آخر غير مجال الدعوة لان ابواب الرزق ومجالاته كثيرة في الحياة ، ولا تنحصر في هذا المجال بعينه .

(٣) دور الذاتية في حياة الداعية المسلم في عصور الانحطاط

ذلك هو بعض ما عاشه المسلمون فيما مضى ، او بالاحرى ما عاشته جماعات كثيرة منهم في الماضي ، انطلاقا من ايمانها بالله وبرسالاته ، الذي

انعكس على نشاطها في الدعوة ، مما شارك في امتداد الاسلام وانتشاره في أرجاء كثيرة من العالم •

ودخل المسلمون عصور الظلمات •• واستسلموا للآفاق الضيقة من الحياة ، فوقعوا في قبضة الجهل والتخلف ، وفقدوا النور الذي يحقق لهم النفاذ الى حياة الآخرين ، وتحولت الاهتمامات الى الذات تغرق فيها كل همومها وتطلعاتها فللذات دور كبير في الحياة الدنيا ، التي تعمل للحياة وللراحة الجسدية والنفسية ، فتسخر كل النصوص التي تدعو الى المحافظة على الحياة والابتعاد عن القاء النفس في التهلكة لتحمي بها نفسها من الانطلاق مع أي تحرك حتى لحساب المصلحة العامة •• وقد صرح بعض الفقهاء المحققين ، بأنه قد يقال بالحرمة لو أراد الكفار ملك بعض بلدان الاسلام او جميعها في هذه الازمنة من حيث السلطنة مع ابقاء المسلمين على اقامة شعار الاسلام وعدم تعرضهم في احكامهم بوجه من الوجوه ، ضرورة عدم جواز التغرير بالنفس من دون اذن شرعي بل الظاهر انه راجح في النواهي عن القتال في زمن الغيبة مع الكفار في غير ما استثنى ، اذ هو في الحقيقة اعانة لدولة الباطل على مثلها • نعم لو أراد الكفار محو الاسلام ودرس شعائره وعدم ذكر محمد (ص) وشريعته فلا اشكال في وجوب الجهاد حينئذ ولو مع الجائر لكن بقصد الدفع عن ذلك لا اعانة سلطان الجور •

فنحن نرى في هذا المجال، ان هذا الفقيه الكبير لا يمانع من الرضوخ لسلطان الكفر والشرك ما دامت حرية المسلمين مؤمنة في شعائرهم وعباداتهم واحكامهم، ولا يجوز للمسلمين ان يقاوموه لانه تغرير بالنفس، لان قضية العزة الاسلامية لا تمثل ــ في مفهومه ــ شيئا كبيرا في حساب الاسلام ، فتبقى القضية قضية الشريعة ، من دون ان يكون للانسان أي اعتبار في ذلك ، او للنتائج العملية التي سينتهي اليها الاستعمار في

البلاد •• مع اننا نجد في شعارات كربلاء ، التي اطلقها الامام الحسين عليه السلام ، تأكيداً على جانب العزة والكرامة ، كمنطلق من منطلقات الثورة كما في قوله عليه السلام :

« ألا وان الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلة والذلة ، وهيهات منا الذلة يأبى الله لنا ذلك والمؤمنون وحجور طابت ونفوس طهرت من ان تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام •• » •

اننا لا نملك تفسيراً لهذا الاتجاه في معالجة القضايا العامة ، سوى الاغراق في الجوانب الفردية في الحياة والابتعاد عن الجوانب العامة التي تفتح النوافذ على الآفاق الواسعة وتواجه الواقع بعقلية منفتحة واعية تحسب لكل حالة حسابها الدقيق في اطارها الشامل • ولا تعتبر الذات عالمها الكبير في دنيا الناس ••

اما في الحياة الآخرة ، فقد بدأ الاتجاه في النظر اليها نظرة ذاتية ، فانطلق التركيز على الجوانب العبادية الفردية الخاصة التي تجعل طريق الدار الآخرة ، لا تمر بالمجتمع والحياة العامة بل تمر بالمسجد فقط لتكون الآخرة للعابدين الذين ينعزلون عن كل نشاط عملي في حياة الامة •

★ ★ ★

وكان للدعوة الى الله نصيبها الكبير من هذا الاتجاه ، فقد دخلت في اطار الذات واختنقت فيها ، واصبحت مجرد نشاط ذاتي يخضع في وجوده وامتداده الى الحالات النفسية التي يتحرك فيها المكلف ، بحثا عن « العذر الشرعي » الذي يبرر له الترك ، لان القضية عادت قضية صفته كمكلف يخاف من العقوبة ، لا كداعية يحب دعوته •• فاذا وجد بعض الاوضاع التي يمكن للرخصة ان تنطلق معها ، اقبل عليها بلهفة

وشوق لانه استطــاع ان يتخفف من عبء المسؤولية ويتخلص مــن خطر العقاب ، فليس للقضيـــة في تفكيره ، أي بعد اجتماعي او اسلامي عــام يتعلق بحياة الآخرين ، بل كل ما هناك ، انها تأخذ بعدا فرديا ينظر فيــها الى الامور من خلال حياته الفرديـــة مما يجعل لها انعكاسا على تصوره للواجبات ، فهو يمارسها ، من خلال صفة الواجب المغلق « الذي لا ينفتح الانسان عليه الا من خلال العقاب الذي يريد ان يتخلص منه في حــالة تركه ، لا من خلال مدلوله الاجتماعي في حركة الحياة » .

★ ★ ★

(٤) الصورة القلقة عن دور رجال الدين في الحياة العامة (في الدعوة)

وقد شاركت هذه النظرة ، في افساح المجــال للفكرة القائلة : ان مسؤولية علماء الدين ان يتعلموا ، ويعلموا العلم ويبذلوه لمن يطلب ذلك منهم ويقصدهم ويسألهم عن احكــام الدين وتعاليمه ، فيجيبوه بالحكم الذي يتعلق بعمله من دون زيــادة ولا نقصان ، او توضيــح للفكرة ، وتقريب لآفاقها الى فكره ووعيه ، لان ذلك ليس من واجباته لان واجبه ان يسمع ويطيع من دون جدال وليس من واجباتهم ، لان كل واجباتهم، ان يشرحوا للانسان حكمه الشرعي فقط ..

وقد حاولوا ان يوضحوا هذه الفكرة ليقربوها الى وجدان الناس بمثال توضيحي ، فطرحوا موضوح الطبيب وقالــوا : اننا لا نطلب من الطبيب ان يتسلم زمام المبادرة فيطوف على المرضى في بيوتهم ، وفي مراكز عملهم ــ فلماذا نطلب من العالم الديني ان يقوم بذلك ، في الوقت الذي لا نجد فيه فرقا بين مهمة الطبيب وبين مهمة العالم الديني الا في تعلق عمل هذا بالصحة الروحية ، وعمل ذاك بالصحة الجسدية ، فلا بد للمريض في

كلتا الحالتين ان يذهب الى الطبيب ليعالجه او يرشده في هذا اللـون من المرض ، او في ذلك اللون منه من دون تفريق •

ويأخذهم الاعجاب بالفكرة فيطرحون لك مثـال الشجرة المثقلـة بالاثمار التي لا بد لك من ان تهزها ليتساقط عليـك الثمر الجني ، فان العالم شجرة علم مثقلة بالشهي من ثمار العلم والدين • فعليك ان تسأله، فتهز فكره وعقله وعلمه ليعطيك ما تريد وما تشاء •

وهكذا يخلقون او يختلقون لأنفسهم الاعذار والمبررات في التقاعس عن العمل والاخلاد الى الراحة •• ويعيشون في عزلة خانقة عن العالم •• حتى لا يتعرف عليهم احد ، ولا يشعر بهم احد ، فلا يستفيد منهم الناس في قليل او في كثير ، لان الاستفادة فرع السؤال ، والسؤال فرع معرفة الشخص ، وقد لا يتيسر ذلك الا للقريبين القريبين منه ، اما البعيـدون عنه فقد لا يجدون ما يغريهـم بالبحـث والتفتيش ، لانهـم لا يحسون بالشخص ، ولا يشعرون بالمشكلة التي تغريهم بذلك كله ••

وقد يستمر بعضهم في عزلته العاجية التي يخلـد فيها الى الراحـة والسكينة للحصول على مزيد من التأمـل الذاتي او لاجترار الآلام او الافراح (لا فرق) •• ويبتعد بذلك عن احداث الحياة ومشاكلها ، فلا يشعر بها ، ولا يحاول ان يفهمها او لا يستطيع ذلك لو أراد •• ولكنـه ــ في المناسبات الطارئـة ــ يجلس ليصدر احكاما على الحيـاة وقضايا المصير ، بطريقة سطحية مرتجلة تطوف في عالم الخيال ، اكثر مما تنطلق من صعيد الواقع ، ثم تتهاوى صريعة من دون فهم او وعي •

وينعكس ذلك على ثقافتهم الاجتماعية والسياسية ، وربما الدينية المتعلقة بواقع الحياة المتحرك وتحدياتها المتطـورة •• فهم لا يحاولون

ملاحقة قضايا العصر ومشاكله ، ولا يعملون على اغناء ثقافتهم الاسلامية والاجتماعية وغيرها بالمستوى الذي تستطيع ان تواجـه فيه كل ألـوان التحديات المعاصرة .. لانهم لا يشعرون بالحاجة الى ذلك كله ، ما دامت حياتهم فارغة من التحديات ، وافكارهم مغلقة على الماضي فلا تنفتح على الحاضر فضلا عن المستقبل ، ونشاطاتهم خالية من المشاكل .. لانهـا لا تلامس وجدانهم .. فاذا اصطدموا بالتحديات ، او التقوا بالمشاكـل ، فانهم يكتفون بردود الفعل السلبية الانهزامية في ذلك كلـه ، فاللعنـات هي احدى مظاهر التعبير عن الاحتجاج ، والحديث عن آخر الزمان هو التفسير الوحيد للواقع كله ، والتعـوذ بالله من الشيطـان ومن الزمان الذي يكون القابض فيه على دينه كالقـابض على الجمـر ، هو الحـل المنشود ، مما يوحي بالاستسلام للواقع واظهـار العجز ـ مقدما ـ عن امكانية معالجته ثم الامر بالبقاء بعيدا عن ساحة الصراع لان الجلـوس على التل اسلم ، ودفـع الضرر المظنون لازم ، ولا يكلف الله نفسا الا وسعها ، وكفى الله المؤمنين شر القتال .

وقد شاركت هذه الجماعة من الناس في اعطاء الصورة القلقـة عن الدين ورجاله من حيث انه يمثل المواقف السلبية الخائرة ، التي لا تقدم للحياة الا بعض الطقوس والخدمات الدينيـة فلا تضيف اليها شيئا يبلغ مستوى كبيرا من الاهمية ، وفي اقناع الممثلين للدين بالرضا بالامر الواقع ، والانسحاب من المعترك كقيمـة كبيرة من قيم القداسة الروحيـة ، حتى تحول الانحراف الى قيمة دينيـة ، ترى في اعتزال الحركة ، والبعد عن الصراع دليلا على التقوى والزهد والاخلاص وقوة الايمان .

(٥) الصورة الواضحة لدور رجال الدين الايجابي

بينما تعتبر التحرك الايجابي الذي يشارك في عملية الصراع ويدفعها بعيدا الى المجالات التي يمكن ان تستفيد منها قضايا الانسان والحياة ،

عملا دنيويا بعيدا عن الدين وصفائه وقداسته • ونحن هنا في محاولة جادة لملاحقة هذه المفاهيم المغلوطة ، نقدم الملاحظات التالية :

١ ـ ان الآيات الكريمة والاحاديث الشريفة ، لم تطرح الدعوة ، في حركة الداعية ، كواجب مغلق بعيد عن المدلول النفسي الذي يجيش في روحه وضميره ، فقد اعطت للفكرة مفهوم الدعوة الى الخير ، والهداية الى الحق من حيث انهما هدفان اساسيان للمؤمن فيما يمثله الايمان من معنى ، ولعل القضية تتصاعد وتتسامى عندما نقف أمام الحديث الذي يحدد للانسان المؤمن صفة الراعوية ، ويجعل للعمل معنى المسئولية ، ليوحي له بمضمون الامتداد في ايمانه العميق بالحياة ، ويطرح القضية في واقع الشمول في طبيعة الحركة ، فيبقى الانسان في حيوية دائمة تتلمس المواقف من خلال كل هذه المعاني لتجسدها واقعا حيا يتفجر بالمعاني الروحية الكبيرة والقيم الانسانية العظيمة ، فلا يبقى للتفكير الفردي مجال في ذلك ، حتى قضية العقاب والثواب لا يخضعان للسلوك المغلق ، والعمل الرسمي ، بل يتبعان النتائج العملية المنطلقة من مقدمات حقيقية ، فقد لا يكون من المفهوم ان يقبل الله من الانسان القيام بواجب الدعوة بأسلوب ميت ، ومضمون جامد ، لانه لا يحقق أي نتيجة، بل يريد منه ، ان يعطي العمل كل ما لديه من طاقة وحيوية، ليفجر الايمان في قلوب الآخرين حبا وحياة ، ويحقق للدعوة معناها في حركة العمل ، فاذا لم يقم بذلك فكأنه لم يفعل شيئا ، ولعل الدعوة الى الله تختلف عن بعض الواجبات الاخرى في طبيعتها الداخلية ، لانها لا يمكن ان تتحول الى طقس وشعائر ظاهرية تقليدية ، فانها تعتمد على الوصول الى قناعات الآخرين ومواجهتها بالتغيير والتبديل •• ثم الالتقاء بالمشاعر الانسانية لاغنائها بالمعاني الروحية النابضة بالايمان ، مما لا يمكن ان يبتعد عن الحركة والحس الاجتماعي الاصيل •

٢ ــ ان القضية لا تعيش في الاطـــار الذي وضعها فيه هؤلاء بل القضية تتحرك في اطار سؤال محـــدد : لماذا يصر هؤلاء النـــاس على ان يحصروا العمل في هذا النطاق الضيق ولماذا يكلفون انفسهم عناء الدفاع عن هذا الموقف بهذه الحرارة .

فاذا كانت القضية قضية احراز تكليف ــ كما يقولون ــ فقد يطرح السؤال نفسه عليهم من جديد . لماذا يعملون على الخـــروج عن عهـــدة التكليف او ابراء الذمة منه ؟ هل هنـــاك غير الحصول على رضا اللـــه والتخلص من عقابه ؟ ، فاذا كان الجواب ايجابا ، فلماذا يمتنعون ويصرون على الامتناع ، عن القيام بالعمل المرتبط بالمسؤولية ، وان كان مسنحبا ، في الوقت الذي يستطيعون ان يحققـــوا ــ من خـــلاله ــ الحصول على رضا الله بنسبة اكبر وبشكل آكد .. وهل هناك مجال للقناعة بالقليـــل من رضوان الله مع التمكن من الحصول على الكثير ثم نثير السؤال من جانب آخر .. ما هو العمل الذي يريدون الانصراف اليه والتفرغ له ، بعيدا عن عمل الدعوة الى الله . هل هو العبادة المعروفة من صلاة وصوم وغيرهما ، او هو الاخذ بأسباب اللهـــو والعبث البريء او هو العمـــل الدنيـــوي الذي يرتبط بتحصيل المال وغيره .. فان كانت العبـــادة هي العذر ، باعتبارها المؤمن الى الله ، أفلا يرى معنا ان هداية الناس افضل من ذلك بل هي قمة العبادة لانها ترقى الى مستوى عمل الانبياء ، الذي لا يدانيه عمل ، وان كان غير العبـــادة ، فما أشد خسارة الصفقة ، عندما يترك العمل الذي يحصل به خير الدنيا والاخرى ــ لاجل العمل الذي لا يجديه شيئا ..الا ما كان من عمل يتوقف عليه معاشه ومعاده فانه عبادة كبيرة عند الله ، ولكنها لا تمنع من العمل في سبيل اللـــه . وفي غمـــار علامات الاستفهام هذه ، لا يجد الانسان تفسيرا لذلك كله ــ الا الحالة التي توحي له بحب الراحة من مشاكل الدعوة ومتاعبهـــا ومضاعفاتها ،

وانعكاسها على علاقته بمجتمعه لانه يتحـول عنهـم ـ الى شخص غير مألوف ، وغير محبوب ، وهذا ما لا يريده لنفسه ، ولذا يلجأ الى التعبد ليعوض به ما يفوته من ذلك ولكننا نكتشف من هذا الموقف انه غير جاد في محاولته الحصول على مرضاة الله بشكل عميق ، بل كل ما هنالك أن التعبد لا يكلفه شيئا بل ربما يمنحه امتيازا اجتماعيا ، هذا بالاضافة الى انه يعتبر الاسلوب التقليدي للعمل الديني الكبير في نظر الناس •

٣ ـ اننا نفهم من الآيات القرآنية الكريمة التي عرضت لرسالات الانبياء ومواقفهم في مجالات ابلاغ الرسالة والتأكيد على ملاحقةالتجارب العملية لينتقل الموقف من تجربـة الى تجربـة حتى تستنفد التجـارب والمشاعر النفسية الحزينة التي يواجه بها الانبياء حالة الجمود والكفر من قومهم ، اسفا على أن لم يؤمنوا ، واشفـاقا عليهم من العذاب في الدنيـا والآخرة ، من خلال الشعور الانساني النابض بالعاطفة الرسالية ، لا من خلال الفشل الذي ينعكس على تقييم الذات ونظرتها الى نفسها وعملهـا او نظرة الآخرين اليها فان ذلك من أكثر الاشياء بعدا عن خلق الانبيـاء وسلوكهم •

اننا نفهم من ذلك كله ان هذه الآيات لا تريد ان تطرح هذهالمواقف والأساليب والمشاعر كأمور انتهت بانتهاء الانبياء ، فلا مجال للعمل على تجسيدها من جديد في عصر ما بعد الانبياء • بل تريـد لنا أن نعتبرهـا منهجا للدعوة ، وخطا عريضا لاسلوب العمل ، وتركيزا على ما يمثله هذا النموذج الاعلى من قيمة انسانية في حساب الدين لتكون مثلا يحتذيـه الآخرون في صناعة انفسهم على صورة الرسل الدعاة وقد يرتكز فهمنـا هذا ، من الدعوة القرآنية الموجهة الى المؤمنين في القيام بنفس المسئوليات التي جاء بها الانبياء من الدعوة الى الخير والامر بالمعـروف والنهي عن المنكر ، والحكم بالعدل وغير ذلك من الامور التي جاء الانبياء من اجل

اقامتها في الحياة .. فاننا نرى في هذه الدعوة ، تركيزا على امتداد خط النبوات بكل عناصره الفكرية والروحية ، وبكل أساليبه وخطواته العملية ، الى الدعاة المؤمنين في مدى الزمن ، وامتداد العمل ، لان ذلك هو الذي يحقق للرسالات خلودها في حياة الناس . وقد نستند في فهمنا هذا ، الى الحديث النبوي المشهور :

« العلماء ورثة الانبياء » [1] او « علماء امتي كأنبياء بني اسرائيل » او « العلماء امناء الرسل » [2] .

فان البعض قد فهموا جانب الفضل والقيمة ، فجعلوها دليلا على علو منزلة علماء هذه الامة ، وارتفاع درجتهم ، ونحن لا نمانع في هذا الاتجاه في فهم هده الاحاديث، ولكننا نتساءل عن السبب في هذا الولع بالحصول على الامتيازات من دون الالتفات الى تحمّل مسؤولياتها فاننا نحسب ان هذه الاحاديث تعبر عن العنصر الرسالي الذي يتميز به علماء هذه الامة في جهادهم وتضحيتهم بكل شيء في سبيل ابلاغ الرسالة وتطبيقها ومواجهة اعدائها بكل عناد واصرار ، وبهذا نفسر وراثتهم للانبياء لنفهم منه ارث الرسالة في حملها والدعوة اليها ، لا في مجرد الالتزام بها والاقتصار على طرح شعاراتها في الهواء ، وبهذا نفهم كيف يكونون امناء الرسل فيما يؤدونه عنهم من تعاليم وعقائد ومفاهيم واحكام ، فيتحقق لنا من ذلك كله المضمون الاسلامي للدعوة، الذي يرتبط بالموقف لا بالكلمة، وبالمعاناة لا بالمباهاة ، وبالواقع لا بالخيال . واخيرا ان الرسالة في حركة النبوة ، ليست نهاية المطاف ، بل هي البداية الضخمة الكبيرة ، لحركة مستقبلية ضخمة وليس النبي هو كل الظاهرة الرسالية ، بل هو الذي

---

(1) الكافي ج ١ ص ٣٤ .

(2) الكافي ج ١ ص ٤٦ .

ينطلق بالظاهرة على اساس قاعدة متينة من الوحي والمعرفة والايمان ، لتتلاحق ــ من بعده ــ الظواهر الرسالية المتنوعة من خلال الدعاة الذين يحملون على اكتافهم عبء امتداد الرسالة في ضمير الخلود .

٤ ــ اننا نرفض معالجة القضايا الكبيرة ، كقضية الدعوة الى الله ، بهذا الاسلوب الذي يحاول استجداء الشواهد من بعض الوقائع العادية التي لا ترجع الى قاعدة عامة ، بل ترجع الى بعض الظروف الموضوعية التي ساهمت في حدوث ما يحدث من مؤثرات ونتائج وظواهر .. والسبب في ذلك كله ، هو ان مثال الطبيب يخضع لطبيعة تأثير المرض في الانسان ، فيحاول المريض بأقصى ما يمكن من السرعة لمعالجة نفسه بالذهاب الى الطبيب فلا تعود هناك حاجة الى ان تستثير الطبيب في حركة ابتدائية يتسلم فيها زمام المبادرة من المرضى ، بينما نجد المرض الروحي او النفسي يختفي وراء كثير من الاوضاع والعلاقات الانسانية التي لا تواجه الانسان بمشكلته الا بعد ان تتفاقم وتتعاظم ولو بعد حين .. وربما يعيش جو اللامبالاة منها في أكثر الحالات التي يعاني فيها المجتمع نفس المرض ونفس المشكلة مما يبعد الانسان عن الشعور بطبيعة المرض ولو من بعيد .. فتبقى الحاجة ملحة الى ان يواجه الطبيب الروحي المريض بجذور المرض وثمراته ونتائجه ليلتفت الى خطورة حالته ليتدارك نفسه قبل فوات الاوان .

٥ ــ اننا نقف من جديد ، هنا ، امام المثال ، لنعالجه من جانب آخر، وهو ان المؤسسات الصحية تتبع في تخطيط السياسة الصحية للمواطنين، خطين :

١ ــ الخط الاختياري

الذي يترك للمواطن اختيار معالجة نفسه من خلال المراكز العامة

المعدة لذلك ، كالمستوصفات والمستشفيات ، ومن خلال المراكز الخاصة كعيادات الاطباء ، وذلك في الحالات الطبيعية التي يكـون فيها المرض فرديا ، وغير قابل للعدوى والامتداد من المريض الى الآخرين •

٢ ـ الخط الالزامي

الذي يجبر المواطنين على التلقيح والعلاج ، فتغلـق مفارق الطرق بالمفارز الصحية التي تدقـق في شهادات التلقيح ، او تقـوم بممارسته ، وتوجه القوى النظامية الى بيوت الناس ، للقيام بذلك ، أو لحمل المرضى الى اماكن العلاج ، او مراكز الحجر الصحي ، لمواجهة امكانيـات العدوى بالضبط والقوة ، وذلك في الحالات الطارئة التي يتحول فيها المرض الى وباء يفتك بالصحة العامة ، في نفس البلد ، او البلدان المجاورة ، او غـير المجاورة التي ترتبط بعلاقات سياحية او تجارية تسمح لابنائها بالقـدوم الى هذا البلد ، اننا نلاحظ في هذا المجال ، تحول القوى المسؤولة عـن الصحة الى ما يشبه حالات الطوارىء ، من اجل القضاء على المرض مـن جذوره •• او المنع من حدوثه •• حتى الحالة الواحدة تعتبر اساسا لكل هذه الاستعدادات الاستثنائية ، نظرا الى الاهمية التي يرتفع اليها موضوع الوقاية الصحية ، او السلامة العامة للمواطنين في نظر الدولة ، ولذلك نرى تلك الاجراءات تختلف شدة وضعفا حسب اختلاف اهتمـام الدولـة بالمواطنين ، هذا عن الجانب الصحي ، فماذا عن الجانب الروحي او الجانب الديني ••

اننا لا نجد فارقا بـين الجانبين في خط الاختيـار والالزام ، لان الاوضاع الدينية اذا سارت في مجراها الطبيعي ، فلم يتحول الانحراف الفكري او العملي الى ما يشبه الوباء ، ولم تتقدم التيارات الالحـادية والإنحرافية الى داخل معاقلنا ، فتقتحـم علينا بيوتنا ، وتغزو اولادنـا

وبناتنا ، بافكارها وانحرافاتها ، فلا نشعر بالحاجة الى أي نوع من انواع المواجهة والمجابهة ، لان الاجواء لا توحي للانسان بشيء من هذا القبيل، فيمكن للعامل او للداعية ان يكتفي بأقل قدر ممكن من الحركة ، ويترك للناس زمام المبادرة في الاتصال به لمعرفة ما يجهلونه من امـور العقيـدة والشريعة ، اذ لا تعوزه الحوافز الداعية الى ذلك ولعل هذا هو الوضع الطبيعي الذي ولدت فيه هذه الافكار وعاشت وتطورت في بعض المراحل التاريخية من حياة المسلمين ، كما نلاحظه في هذه الظروف ، في المجتمعات الدينية الصغيرة والكبيرة ، التي تعيش مسئولية الايمان فيما تعتقـد ، والعمل بما تؤمن به ، فتبادر الى الاتصال بأهل المعرفة من علمـاء الدين وغيرهم من اجل الحصول على الانفتاح الواعي فيما تجهله من ذلك . أما اذا سارت الرياح بما لا تشتهيه السفن ، وبدأت العاصفة تقترب، وارتفعت الامواج كمثل الجبال لتهز السفينة بعنف ، فتحطمها شر تحطيم .. فهـل يقف الربان مكتوف اليدين ، في الوقت الذي يملك فيه امر الدخول فـي عملية صراع مرير لانقاذ السفينة وايصالها الى الشاطىء الامين ، أو يبدأ عملية الاقتحام في ذكاء وقوة وصبر ، فيستثير كل ما يملكه مـن خبرة وقوة ارادة ومرونة عضلات لتحقيق الهدف المنشود في السلامة ... اننا نقف في هذا الموقف ، ونواجه هذا المأزق ، فالاسلام يواصل انسحابه من حياة الناس وافكارهم فلا تجد منه في الاجواء العامة ، الا ما يشبه الشبح الذي يوحي لك بالصورة في خجل واستحياء ، ولكنه لا يملك أن يقدم لك الكيان .. والتيارات تتقدم في عملية غزو كاسح ، يستخدم كل القوى التي تضلل وتهدم وتفسد ، سواء في ذلك قوة الفكر المتمثلة بالمؤسسات الفكرية التي تعمل في خدمته في كـل انحاء العالم ، او قـوى الانحراف العملي ، المتمثلـة بالاوضاع والممارسات الشاذة التي تخـاطب الغرائز والشهوات لتستثيرها في حركة تطويق تأخذ عليها كل جوانبها فلا تترك لها اية حرية في الاختيار الا مـن جانبه الصعب ، او قوى السلاح الحربـي

المتمثل بالاكداس الهائلة مما تنتجه مصانع السلاح في العالم الذي تهدد به القوى الخيرة في كل مكان ، فتمنعها من تحقيق اهدافها في الحياة الحرة الكريمة . او قوى الاقتصاد والسياسة التي تحرك ما تملكه من وسائل الضغط لتضعف المقاومة المضادة لخططها ومؤامراتها في جميع المجالات .. الى غير ذلك مما تمثله قوى الشر والكفر والضلال .. مما جعل القضية تتخذ شكلا من اشكال الصراع بين الحياة والموت ، الذي يعتبر الحركة بكل ما تستطيع من حركة ، وجوداً مستمراً ، بينما يمثل السكون الموت والفناء .

اننا نقف في هذا الموقف ، فهل يكون من المعقول ان نجلس في استرخاء لنمارس مسئولياتنا في كسل سلبي ، يستجدي المنطق الانهزامي الكسول ، ليبرر لنا امر الاستسلام لليأس ، او النظر الى الواقع بطريقة لا توحي بوجود مشكلة ، او لا تؤمن بخطر التحديات العاصفة التي تهز الكون من حولنا دون ان نشعر بها ولو من بعيد .. ونبقى جالسين في انتظار سؤال من سائل ، لنتصدق عليه او لنتفضل بالجواب .

اننا نشعر بالرثاء والدهشة لوجود أناس يفكرون هذا التفكير .. فكيف يكون شعورنا ازاء اناس يمارسونه .

ان القضية في تقديرنا ، تخضع لما يشبه حالة الطوارىء التي تقتضي تجنيد كل الطاقات الموجودة لدينا في سبيل الدفاع عن ثبات القاعدة وصمودها من اجل المحافظة على وجودها .. ثم البدء بتركيز القوى التي اصابها الضعف لانقاذها من الانهيار ، ثم مواجهة عمليات كسب القوى الجديدة للدعوة الاسلامية في اطار خطة تعتمد على الموضوعية والحكمة والايمان .

وقد نجد هذه المواجهة للموقف في بعض الآيات والاحاديث الشريفة

المأثورة التي كانت ترصد المستقبل البعيد ، بالنظرة الواقعية الدقيقة التي تخطط للموقف بما يشبه التعبئة الجهادية لكل القوى الفكرية الدينية ، في حركة دفاع او هجوم فمن الآيات ، ما قدمنا الحديث عنه من آيات الدعوة الى الخير والآمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. التي توحي للانسان المسلم بان عليه ان يتسلم زمام المبادرة تحت طائلة العقوبة الاخروية في حالة الابتعاد عن القيام بالمسئولية .

وقد نستوحي ذلك من الآيات الكثيرة التي هاجمت اهل الكتاب على كتمانهم لما عندهم من العلم في شأن النبي محمد (ص) وعلاماته، وما جاء في التوراة والانجيل مما يثبت الحق للاسلام .. وذلك في قوله تعالى في الآيات التالية :

١ - الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ٢ : ١٤٦ .

٢ - إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ٢ : ١٥٩ - ١٦٠ .

٣ - إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ

إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢ : ١٧٤ .

٤ ـ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ٣ : ١٨٧ .

فاننا نفهم من الجو الذي يهيمن على هذه الآيات ، ان العلم الذي يملكه الانسان في القضايا التي تتعلق بعقائد الناس واحكامهم ، يعتبر مسؤولية العالم به ، التي تفرض عليه ان يبينه للناس ولا يكتمه عنهم ، فاذا لم يقم بمسؤوليته ، كان مستحقا للعذاب وللبعد عن الله ، ولم تذكر لنا الآيات اي اشارة الى اختصاص المسؤولية في بيان العلم وعدم كتمانه، بالحالات التي يطلب منهم ذلك بسؤال او بغيره ، بل الظاهر ان الحكم شامل لجميع الحالات .

وقد نستوحي من ذلك ، ان مهمة العلماء الذين اتاهم الله الكتاب وعرفهم اياه ، بما رزقهم الله من وسائل المعرفة ، هي امتداد لمهمة الانبياء، سواء في ذلك ، شؤون العقيدة او شؤون الحكم الشرعي وهذا هو ما يظهر من الآية الاخيرة التي اعتبرت بيان الكتاب وما فيه ، عهداً بين الله وبين الذين أوتوا الكتاب .. مما يوحي بان عليهم أن يتسلموا زمام المبادرة فيه ولا ينتظروا ان يسألهم الناس عنه .. لا سيما في الحالات التي لا يلتفت الناس فيها الى طبيعة الحق ليسألوا عنه ، لانهم لا يعرفونه ، من ناحية المبدأ ، او من ناحية التفاصيل ليثير في انفسهم علامات الاستفهام وقد يحاول البعض ان يجعلوا هذه الآيات واردة في كتمان اليهود لعلامات النبوة الواردة في التوراة عن النبي محمد (ص) فلا يجوز لنا ان نسير بها الى أبعد من ذلك في القضايا الاخرى .. ولكننا

نعلم ان هذه الآيات قد حملتهم المسؤولية في هذا الامر الخالص ، من خلال انحرافهم عن المبدأ العام والمسؤولية العامة ، في كل ما يحتاجه الناس مما هو مذكور في الكتاب ..

ومن الطبيعي اننا لا نعقل فرقا في المسؤولية بين اليهود فيما يعرفونه من الكتاب ، ولا يبينونه للناس ، وبين المسلمين فيما يعلمونه ويكتمونه .. من دون فرق بين ان يكون السبب في ذلك ، الطمع المادي ، او المحافظة على المركز ، او الكسل وحب الراحة والسلامة .. ومن الاحاديث ما رواه في الكافي عن رسول الله (ص) :

« اذا ظهرت البدع فليظهر العالم علمه فمن لم يفعل فعليه لعنة الله » [1] .

فقد نفهم منه ان عليه القيام بمهمة اظهار العلم انطلاقا من حاجة الموقف الى ذلك لمواجهة التحديات التي تطلقها البدع ، لا استجابة للسؤال العادي من الجاهلين ، لان انتظار ذلك لا يفي بعملية المجابهة القوية للتيارات الكافرة او الضالة .. فقد يجهل الناس من امر هذه البدع ، ومن تضليلاتها ، الشيء الكثير ، لانها لا تقوم للناس بشكلها السافر الذي يوحي بردات الفعل العفوية التي تحدث لديها دفاعا عن ايمانها ، بل تعرض عليهم في اطار لا يبتعد عن اساليب الحق وافكاره كما تحدث الامام علي (امير المؤمنين) عن ذلك فيما روى عنه في بعض خطبه :

« ايها الناس انما بدوء وقوع الفتن اهواء تتبع واحكام تبتدع يتولى فيها رجال رجالا فلو ان الباطل خلص لم يخف على ذي حجى ، ولو ان الحق خلص لم يكن اختلاف ولكن يؤخذ من هذا وذاك . فيمزجان فيجيئان معا فهنالك استحوذ الشيطان على اوليائه ونحن الذين سبقت لهم من الله الحسنى » [2] .

---

(١) الكافي ج ١ ص ٥٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٧٥ .

وفي ضوء هذا نستطيع ان نقرر مسئولية الدعاة الاسلاميين ، في ملاحقة الاضاليل والبدع والشبهات والخرافات التي تتعرض لها الامة من قبل المبدعين والمضللين والمشككين والجهال لمحاربتها وكشفها للناس، واظهار ما فيها من زيف وانحراف وخداع وتضليل ، لان اهمال ذلك والوقوف منه موقف اللامبالاة - يسمح لها بالامتداد والانتشار والنفاذ الى عقول الناس وافكارهم ، ويدفع بها — بالتالي — الى أن تدخل في صلب العقيدة كشيء مقدس لا يملك الانسان أمامها — مستقبلا — الا الاستسلام أو اعلان الحرب عليها في مجابهة لعناصر الانحراف من الداخل .. ومن الاحاديث التي تمثل الدعوة الى الدخول في مجابهة القوة ضد اهل البدع ، ما رواه صاحب الكافي عن الامام جعفر الصادق عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« اذا رأيتم اهل البدع والريب من بعدي فأظهروا البراءة منهم وأكثروا من سبهم والقول فيهم والوقيعة وباهتوهم حتى لا يطمعوا في الفساد في الاسلام ويحذرهم الناس ولا يتعلمون من بدعهم يكتب الله لكم بذلك الحسنات ويرفع لكم به الدرجات» [1] فقد اراد النبي (ص) في هذا الحديث ان يبدأ الناس الحملة المضادة على اهل البدع والريب ، من كل جانب ، فلا تقتصر على الاسلوب الذي يجابه الفكرة ، بل يمتد الى الاسلوب الذي يتحدى الذات ليشوه صورتها في نظر الآخرين كعملية وقائية يقوم بها الدعاة ، ولشلهم عن الحركة والتأثير في حياة الناس وافكارهم .

٦ — اننا نلاحظ في الاتجاه السلوكي لامثال هؤلاء الذين يمثلون تلك الفكرة ، أنهم يفضلون التفرغ للعبادة ، والانقطاع الى الصلاة والدعاء والتهجد ، او التنقل بين الاماكن المقدسة للحج او للعمرة ، وزيارة قبور الانبياء والائمة والاولياء ، ولكنهم في الوقت نفسه يضيقون بمستلزمات العمل الديني التوجيهي ، او يقتصرون على الاساليب

---

(١) المصدر السابق ص — ٣٧٣ .

التقليدية التي اعتادوها او اعتادها الناس منهم ، ولا يجهدون انفسهم البحث عن وسائل جديدة ، وأساليب جديدة لانها قد تكلفهم تعبا وعناءا وجهدا لا يريدون ان يثقلوا انفسهم بـه وفي ضوء ذلك نقدم امامهم الملاحظات التالية :

أ ـ ان هذا السلوك يعطي للمؤمنين الطيبين انطباعا خطيرا ينعكس على التصور الاسلامي للحياة ، فيعتبرون الجانب التعبدي أساسا للتقييم الديني الاسلامي للاشخاص ، ولا يرون لاي عمل آخر في مجال الدعوة الى الله ، وفي خدمة المجتمع في حقول الاجتماع والسياسة والاقتصاد ، أية قيمة دينية ... بل ربما يحاولون ان يصنفوا هذه الاعمال ، في عداد القيم الدنيوية ، التي يتولى اهل الدنيا تقييم بعضهم البعض على اساسها، بعيدا عن الدين ، مما يوجب الانحراف في التصور من جهة ، ويفسح المجال لظهور بعض الاشخاص المزيفين الذين يتوصلون الى الحصول على الثقة الاجتماعية الدينية من خلال ممارسة هذا اللون العبادي من السلوك ... باعتباره مفتاحا للدخول الى اجواء القداسة الدينية في تصور الناس المتدينين .

ب ـ ان دراسة النصوص الدينية ، التي تتحدث عن الجوانب العامة للدعوة ، وعن الاوضاع الاجتماعية التي تحتاج الى تقديم الخدمات ، والى الحالات الانسانية التي تنتظر المعاونة والمساعدة ، تدلنا على اهتمام الاسلام بها ، وتقديمه لها على كثير من انواع العبادات ، من حيث القيمة الدينية عند الله سبحانه وتعالى ، كما في الحديث الذي ذكرناه في بداية هذا الحديث « يا علي لئن يهدي الله بك شخصا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس » ، وكما ورد في حديث الامام جعفر الصادق عليه السلام : « لان اعول اهل بيت من المسلمين اسد جوعتهم واكسو عورتهم

واكف وجوههم عن الناس أحب الي من ان احج حجة وحجة وحجة حتى عد عشرا ومثلها حتى بلغ السبعين » [1] .

فاننا نستوحي من هذا وذاك ، ان طريق الوصول الى الله لا ينحصر بالجوانب العبادية كقاعدة كبرى للتقييم الاسلامي ، بل ربما نجد الكثير الكثير منها مما يدخل في اطار الدعوة والمجتمع ، في مركز أفضل وأقوى واقرب الى الله ... ولعل من واجب علماء الدين ، أن يجسدوا القيمة الدينية في سلوكهم العملي ، في طبيعتها الذاتية ، وفي درجتها الدينية في مركز القيمة ليعرف الناس تفاضل الاعمال في حساب القيمة ، بالعمل ، كما يعرفونه بالكلمة والاسلوب .

ج ـ ان سلوك هؤلاء الناس ، ازاء قضية الدعوة ، في هذا الاطار السلبي ، يوحي لنا بالطبيعة السلبية لهم في مواجهتهم للمسؤوليات الكبيرة ، ويخلق عندنا احساسا بان القضية الدينية ـ في مفهومهم ـ لا تتعدى الروتين ، او « العادة » من دون ان يكون لها جذور في اعماقهم وفي مشاعرهم ، مما جعلهم ، بطريقة لا شعورية ، يعتمدون على التحليلات والتأويلات البعيدة التي تخلق لديهم راحة التبرير ، وطمأنينة العذر .. ويعتقدون بانهم اذا استطاعوا ان يقنعوا انفسهم ، فليس من الضروري أن يحصلوا على قناعة الناس . ولكن السؤال الذي يطرح نفسه امامهم .. هل يعتقدون انهم يستطيعون اقناع انفسهم بذلك ، ما دامت الحياة والشريعة تفرضان على الانسان ان يواجه الحياة من موقع الايجابية المتحركة ، لا من موقع السلبية الانهزامية ، التي تعتزل الحياة في غيبوبة صوفية خاشعة .

٧ ـ ان الاغلبية من هؤلاء الذين يمارسون الحياة العملية في

(١) الكافي ج ٢ ص ١٩٥ .

استرخاء لذيذ ، يسمح لهم بان يعطوا انفسهم اوقاتا اضافية لكي يتفضلوا على الرسالة بالعمل الذي يتفق مع مزاجهم قد (كلفوا) (بيت مال المسلمين) مالا كثيرا ، من اجل دراستهم وحياتهم العلمية التي قد تمتد الى ما يزيد على العشر سنوات قليلا او كثيرا...فان المصاريف في هذه الفترة، تؤخذ من الحقوق الشرعية التي يدفعها المؤمنون ، كفريضة دينية مقدسة، أما السؤال الذي يفرض نفسه في هذا المجال : ما هي الفائدة التي يجنيها الاسلام من دراسة هؤلاء الناس ، ومن وجودهم بالذات ، في حركته ونموه وتقدمه .. وهل يمكن ان يكتفي في تحصيل القناعة بذلك ، أن نذكر المستوى العلمي في تحقيق الفقه واصوله ، من دون حركة علمية حتى في هذا المجال .. وهل يكفي هؤلاء ان يبرروا ذلك بانهم يعملون على تربية انفسهم ، لتكون الدراسة شأنا ذاتيا لهم ، اذا لماذا يحملون (بيت مال المسلمين) المعد للمصالح العامة للمسلمين هذا الجهد الكبير ، وهل يجوز لنا ان نحرم القضايا العامة او الفئات المحرومة او الجماعات العاملة للاسلام لتعطيه لجماعات (تتفضل) على الاسلام ، بانها تدرس شريعته وان لم تفده هذه الدراسة شيئا بشكل عادي ، اننا قد نفهم ان يمارس الانسان حريته في العمل ، اذا كانت ثقافته الدينية مدفوعة التكاليف من ماله الخاص ، اما اذا كانت من مال الامة .. فانه يخضع في حركته لما تمليه مصلحة الامة عليه في حاضرها ومستقبلها .. تماما كما تجده لدى الدول التي تقدم لبعض الطلاب منحا مالية للتخصص العلمي من اجل ان يخدموا الامة فيما تحتاج اليه من اختصاصاتهم في مدة قد تطول وقد تقصر .. وبهذا تخرج القضية عن دائرة التكليف الشرعي ، الذاتي ، لتدخل في نطاق القيام بالمسؤلية الاسلامية في مقابل الخدمات التي قدمها اليه الاسلام في دراسته الطويلة .

وفي نهاية المطاف ، اننا نشعر بأن الاسلام في المراحل الصعبة التي

يمر بها من وجوده ، يحتاج الى كل طاقة من طاقات اتباعه مهمـا كـانت صغيرة ، ليستطيع من خلال تجميع هذه الطاقات وتفجيرها ، من مواجهـة التحديات الكبيرة التي تستهدف القضاء عليه ، او احتواءه وتسخـيره لخدماتها ، ولذا فاننا نعتقد ان تجميد اية طاقة اسلامية ، يؤدي الى اضعاف قوة الاسلام في معركته المصيرية التي تحولت الى معركة حياة او موت ، مما يجعل مواقف المترددين والمنعزلين والخائفين تلتقي في صعيد واحد مع قوى الكفر والضلال والانحراف ، في اضعاف الاسلام بـين المـؤثرات الايجابية التي يمارسها اعداؤه ، وبين المؤثرات السلبية التي يمـارسها اتباعه ، ولن نحتاج الى التفكير طويلا لنعرف ان هذا الموقف يعتبر خيانة للاسلام ، وان لم يلتفت اصحابه الى طبيعته ونتائجه وانعكاساته عـلى وجود الاسلام ومصيره .

الثقافة للاسلام
لا للمزاج الذاتي

٧

هل يملك الداعية الذي أوقف حياته على الدعوة الى الاسلام ، أن يجعل ثقافته خاضعة لمزاجه الذاتي فيما يحبه وفيما يرغبه ، مما ينفع الدعوة او يضرها ، او لا يفيدها على الاقل ، او لا يملك من حريته الا ما يتفق مع حاجة الدعوة في مسيرتها الصاعدة المتحركة ..

ربما يحسب بعض الناس ان الداعية انسان ، له كل ما للناس الآخرين من رغبات ومشتهيات وحاجات ذاتية تنطلق معها نفسه ، ويصفو بها مزاجه ، وترتاح لها حياته ، فيجوز له ان يمارس منها ما لا يحرمه الشرع ، وما لا يسخط الله من الامور المباحة ، فان للنفس ان تأخذ برخص الشريعة ، كما ان عليها ان تمتنع عن محظوراتها ، سواء في ذلك ما يأكله او ما يشربه او ما يلبسه او ما يقرأه وما يتعلمه .. ويبقى له بعد ذلك مجال كبير من الوقت الذي يعمل على ان يستغله في الثقافة اللازمة له في شؤون العقيدة والشريعة ..

(١) حاجة الداعية الى ثقافة عامة هادفة

ولكننا نعتقد ان القضية لا تخضع لهذا الاتجاه في معالجة هذا الواقع ، لاننا لا نتطلب من الداعية الاسلامي أن يحصر نفسه في الاطار الثقافي الاسلامي ، بالمعنى الذي يحدد له قراءته في الامور الاسلامية الخاصة من كتاب او سنة او فقه وغيرها ، من الامور التي تتصل بالعقيدة والشريعة والمفاهيم العامة .. فنحظر عليه المشاركة في الثقافة الادبية والاجتماعية والنفسية والفنية ، او الثقافة العلمية المتعلقة بشؤون الطبيعة وظواهرها واسرارها ، اننا لا نتطلب منه ان يحصر نفسه في هذا الاطار الضيق من المعرفة .. لان ذلك سوف يبعده عن فهم الاسلام نفسه ، لحاجتنا الماسة الى كثير من هذه الثقافات في تعميق معرفتنا الاسلامية ومدى سلامة حلوله العملية لمشاكل الحياة فاذا لم يكن لدينا بعض

المشاركة في قضايا النفس والمجتمع ، لم نستطع فهم كثير من التشريعات في الشريعة ، او كثير من الظواهر الفردية والاجتماعية في حياة الناس ، واذا لم نحصل على الثقافة الادبية التي تتجاوز القواعد النحوية والصرفية والبلاغية الى الحس الادبي الصافي الذي يلتقي بالمضمون في صفائه ونقائه من خلال احاطته بالعناصر الاصيلة التي يكشف فيها الشكل عن طبيعة المضمون ، وهكذا في المجالات الاخرى للمعرفة .

بل كل ما نحاوله هو ان يكون الداعية هادفا فيما يأخذه من اسباب الثقافة ، فيدرس حاجته منها تبعا لحاجة الدعوة الى ذلك ، ثم يطبع كل ما يحصل عليه من الوان المعرفة بطابع اسلامي ، فينظر اليها بعين مفتوحة على الحياة من خلال ارتباطها بالاسلام ، وارتباط الاسلام بها ، ويدرس حاجة الدعوة الى ذلك ، من خلال المجال الذي تتحرك فيه الدعوة ، فقد تمس الحاجة الى بعض الثقافات التي لا يحتاج اليها العمل من حيث هو دعوة الى الله ولكن يحتاج اليها العاملون في حياتهم العملية التي يتحركون فيها من اجل المعاش . فلا يجدونها الا عند الذين يستغلون حاجتهم اليهم ، فيضغطون عليهم من اجل الانحراف ، أو يضللونهم فيما لا خبرة لهم فيه ولا معرفة لهم به ، او يربكون خطاهم فيدعونهم عرضة للحيرة والقلق والضياع بشكل يدمر طاقاتهم المتطلعة الى خدمة الله ، في خدمة دينه القويم ، فقد يجد العاملون انفسهم في حاجة الى أن يأخذوا باسباب هذه الثقافات ، لينقذوا اخوانهم من خطر الوقوع في التجربة المريرة ، فيبعدوهم عن خطوات الضلال ، او ليدفعوا الآخرين الى أن ينفتحوا على الاسلام من خلال انفتاحهم على العلاقة الثقافية بالعاملين للاسلام ، كما نلاحظه في الطريقة الذكية المدروسة التي انطلق بها التبشير في البلاد الاسلامية وغيرها عندما كان يلبس الاقنعة العلمية التي تخفي وراءها الطابع التبشيري لاصحابها ، فيدخلون المعاهد والمراكز التربوية كمدرسين للفيزياء او الكيمياء او الرياضيات وغيرها مما تحتاج اليه

البلدان المتخلفة في بناء حياتها من جديد على اساس من العلم والمعرفة ، فتكون النتيجة ان تلتقي العلوم الطبيعية والرياضية وغيرها بالتبشير على صعيد واحد ، من أجل صنع شخصية المواطن على صورة التبشير ، في وسائله واهدافه الدينية والسياسية .. ونحن لا نقلل من قيمة هذا الاسلوب ، بل نشعر بنتائجه الكبيرة على الطبيعة .. وربما كان المسلمون الاولون قد اخذوا ببعض نصيبهم من ذلك فكانت مشاركتهم في كثير من علوم الفلسفة والطبيعة سبيلا الى دخولهم الى كثير من الشعوب والامم بصورة مباشرة ، بارتباطهم بهم شخصيا ، او بصورة غير مباشرة، بارتباط ثقافتهم بهم في عملية تفاعل وتأثر حضاري يرتكز على الثقافة العامة والخاصة ..

(٢) مخاطر انطلاق الداعية في مجالات الترف الفكري

اننا لا نريد ان نحدد للداعية ثقافته ، بل نريد له ان يدرس موقعه، ويتخذ لنفسه من الثقافة ما يتناسب مع هذا الموقع من ناحية الحاضر والمستقبل ، وان يبتعد ــ مهما امكن ــ عن كثير من انواع المعرفة التي تدخل في اطار الترف الفكري الذي عبر عنه النبي محمد (ص) في بعض احاديثه مع اصحابه ، فقد روى عنه انه دخل ذات يوم على المسجد فرأى المسلمين مجتمعين حول رجل يحدثهم فيستمعون اليه باصغاء وشغف فقال لهم النبي (ص) ما هذا فقالوا : علامة قال (ص) : وما العلامة ، فقالوا انه عالم بانساب العرب وايامها واشعارها فقال لهم النبي (ص) ذاك علم لا ينفع من علمه ولا يضر من جهله ، انما العلم ثلاثة آية محكمة وفريضة قائمة وسنة متبعة (١) ..

ولعل من الطبيعي للانسان ان لا يأخذ باسباب الترف ، ويترك ما

(١) الكافي ج ١ ص ٣٢ .

هو بحاجة اليه ، لانه يكون بمثابة الانسان الذي يبحث عن الكماليات وهو بحاجة الى الضروريات ، او الذي يطلب الترف ، وهو لا يمسك نفسه من السقوط تحت وطأة الجوع ..

ان الانطلاق مع الرغبة في الترف الفكري يفوت على الانسان كثيرا من الجهد الذي ينبغي ان يصرفه فيما يحتاج اليه من معرفة عملية مرتبطة بحركة الدعوة الاسلامية في الحياة ، لان الانسان لا يملك الوقت الذي يسمح له باستيعاب المعرفة وشمولها لكل شيء ، فلا بد له من الدخول في عملية الاختيار وتقديم الافضل فالافضل ، او الاشد حاجة حسب الافضليات ليستطيع الانسان ان يصل الى هدفه في أقل قدر ممكن من الوقت والجهد معا .

ولعل من هذا اللون من الترف الفكري ، هو ما كان يخوض فيه الكثيرون من العلماء المسلمين القدامى من الوان المعرفة اللفظية التي تدير الفكر في حل الالغاز اللفظية ، او في تعقيد الاسلوب العلمي للحصول على الدقة الفكرية في فهم الالفاظ وتخريجها على اكثر من معنى او احتمال مما يتعب الفكر ويجهده في امور لا غناء فيها ولا فائدة بل كل ما هناك انها تعطيه مزيدا من (الحذلقة) والشطارة ، والغيبوبة الطويلة في ضباب الالفاظ ، وكثيرا ما يلتقي الطلاب — في هذا الجو بالتحقيقات والتدقيقات التي تدير الفكر حول سبب التعبير بهذه الكلمة ، ولماذا لم يختر الكلمة الاخرى وما هو المحذور في هذا ، وما هو المحذور في ذاك ، ويضيع الطلاب في هذا الخضم من الاحتمالات التي يتيه فيها الفكر ويضيع حتى ليحار بعد ذلك فيما يأخذ وفيما يدع .. وما ندري ما هو الذي يدفعهم الى هذا اللغو الفارغ .. اننا لا نملك تفسيرا له الا التخلف الذي يسخر الفكر الى آفاق مظلمة تبحث عن الضوء الباهت في دياجير الظلام ، ويبتعد

عن الآفاق المضيئة التي تنفتح على النور وهو يطرد كل شبح من اشباح الليل بكل قوة ..

ومن الظريف الطريف انهم يعللون ذلك بالحاجة الى تشريح الفكر وتشقيقه ، كسبيل من سبل الحصول على العمق والدقة في الفهم والاستنتاج ومواجهة القضايا الفكرية المعقدة .. ولكن ما ندري هل فقدنا القضايا الفكرية الدقيقة النافعة لنا في مجالاتنا الاسلامية العامة ، التي يمكن لنا ان نخوض فيها ، ونثير فيها تفكيرنا ،وننطلق معه في عملية تدريبية منتجة .. هل يتوقف الحصول على هدف تعميق الفكر وتدريبه، على الدخول في دهاليز الالفاظ المعتمة التي تتنوع مداخلها ومساربها ومحتملاتها . ان الواقع الفكري يرفض ذلك لان فيما يواجهنا من قضايا المضمون والمعنى اكثر من جانب نلتقيه ، واكثر من منطلق يطوف بنا في آفاق الفكر ومجاهله .. وقد شارك هذا الاسلوب في عرض الافكار العلمية ، وفي الوقوف امام هذا التيه من الاحتمالات للفظ الواحد . حتى لا يستقر على احتمال .. في ارباك الذوق الادبي ، في فهم اللغة العربية بالاعتماد على ظواهرها لان الفكر لم يعد يواجه النصوص في صفاء ، بل اصبحت الاحتمالات تقفز الى ذهنه قبل ان يواجه النص في عمليةاستنطاق طبيعية ، وقد انعكس ذلك على فهم الشريعة ، واحكامها ومفاهيمها، حيث ارتبكت مداليلها في ذهنه ، وانحرفت عن مجراها الطبيعي في قناعاته .. — هكذا بدأنا نعاني من كثير من الفهم القلق للنصوص الدينية في الكتاب والسنة ، كنتيجة للاتجاه اللفظي في مواجهة قضية (الشكل والمضمون) مما جعلنا نواجه بعض الاجتهادات الفقهية ، الخاضعة لهذا الاتجاه ، التي تبتعد عن روح الشريعة وحيويتها ، تبعا لبعدها عن روح النص وظاهره ..

ولعل من بين هذه الالوان المترفة او المنحرفة من الممارسة الثقافية لدى بعض العاملين في حقل الدعوة الاسلامية ، هو ما نلاحظه من اهدار

طاقاتهم الادبية وغيرها في مجالات بعيدة عن الاجواء الاسلامية العملية ، بل ربما تكون .. في بعض الحالات ضد هذه الاجواء ، كما نلاحظه لدى بعض الذين يملكون الموهبة الشعرية او القصصية او الفنية ، عندما يوجهونها في خطوط تنطلق من القواعد الفكرية غير الاسلامية او لا تنفع في اغناء الحياة في تصوراتها وانطلاقاتها بأي معنى اسلامي يوحي للآخرين بواقعية التصور الاسلامي للحياة وجماله ، او تضاد هذه التصورات او المفاهيم ، كما نجده في كثير من النتاج الادبي ، بالوانه المتنوعة ، يتحرك في خطوط ماركسية في النظرة الى الاحداث وفي مفردات التعبير او يتحرك في اطار الفلسفات القديمة ، كاليونانية مثلا ، التي كانت تعيش في خيال الالهة المتعددة المتنازعة المتصارعة ، فنجد في انتاج البعض منا ، مفردات اله الحب واله الخير واله الشر واله الجمال .. وغيرها من المفردات التي تعبر عن اساطير « الهة الاولمب » وقد نجد كلمة « العبادة » خطابا للحبيبة او الحبيب ، كما قد نلاحظ كلمة ناقوس الخطر المنطلقة من الاتجاه المسيحي .. فاذا انطلقنا من هذا الاسلوب ، فاننا نلتقي بالاغراض التي تحكم الشعر او القصة او غيرهما فنلاحظ الاغراق في الغزل ، او الاتجاه الى الغزل المكشوف ، او الى التفكير التشاؤمي ، او الانطلاق في الاغراض السياسية في الاطار القومي او الاقليمي او غيرهما مما لا علاقة له بالمضمون الاسلامي للتفكير ، بل هو ضد هذا المضمون في اكثر من مجال . وقد يبرر البعض ذلك ، بان شخصية الفنان شيء وادبه شيء آخر ، فلا مانع من ان يمارس في ادبه ما لا ينسجم مع الخط الفكري او العملي لشخصيته ، لانه في اطار الشخصية يمارس حياته ، اما في اطار الادب فهو يصور الواقع ويجسد الفن الاصيل ..

ولكننا نعتقد ان الادب صورة الشخصية ، كما هو صورة الواقع ، بل ربما كانت قيمة الفن الادبي ، بمختلف انواعه ، انه يعطي الواقع صورة

حيةً من الداخل ، ليستطيع ان يحرك الواقع في داخل ذاته ، من اجل ان يتحرك في خارج الذات كما يريد •• ثم اننا تتكلم عن الاديب ، من خلال شخصيته كداعية ، يعتبر الحياة مجالا لرسالاته ، بكل الوانها وجوانبها وثقافتها وفنها ، فلا يمكن ان ينفصل فيه جانب الاديب عن جانب الرسالي، لان الرسالة ليست شيئا غريبا عن الحياة في امتدادها وسعتها ، وتلونها باللون الرائع من الابداع ، وليست بعيدة عن مطامح الانسان ومطالبه في كل ما يرغبه وفي كل ما يشتهيه ، وفي كل ما يحلم به ، فبأمكان الادب ان ينطلق ليبدع ، في اكثر من مجال فان الرسالة •• التي انطلقت من روعة الابداع في الكون حيث التقت ، ــ من خلاله ــ بخالق الكون ، في عملية معرفة وعبادة ، تعرف اكثر مما يعرف الآخرون ، كيف تكون الكلمة المبدعة طريق الانسان الى فهم الحياة والالتقاء بخالق الحياة •

اننا لا نريد من الاديب ان يفتعل الفكرة الملتزمة ، ليكون ملتزما ، فان ذلك ضد رسالة الادب المرتكزة على العفوية والابداع ، بل نعتقد ان الرسالة ، حين تمتد في وعي الاديب وضميره وفكره ، تحول كيان الانسان الى الالتزام العفوي الذي ينساب مع النفس بكل بساطة واندفاع •

وخلاصة الفكرة :

ان مسؤولية الداعية المسلم تنطلق من احساسه بالحياة وهي تتحرك في اطار الرسالة وفي ضوء ذلك نشعر بان المزاج الذاتي ، بكل تطلعاته ورغباته ، لا يمثل شيئا بالنسبة اليه الا بقدر ارتباطه برسالته فلا بد له ان يثير الرسالة في كل قضاياه الثقافية ، فيسخر الثقافة لها ، فيما يأخذه وفيما يمارسه ، فلا يستريح فيه الى ترف لا يجني منه الا العبث ، ولا يطمأن للنزوات الفكرية التي تستسلم لاوضاع الانحراف وخطوطه بعيدا

عن خط الرسالة وتطلعاتها في الحياة ، مما يسيء الى عمله فيها وجهاده من اجلها ، او يضيع جهده فيما يحتاج الى ان يربحه ويحصل عليـــه كضرورة عملية ، لاننا نؤمن بان ما يملكه الداعية من وقت وجهد وفكر ، هـــو للرسالة ، فحسبه من حياته وقوته ومواهبه انها تحقق لـــه فكره ورسالته وتجسد له اهدافه الكبيرة في الحياة •

الثقافة في خط الاسلام
لا في خط الانحراف

(١) التركيز على المقياس الحقيقي للتمييز بين الخط المستقيم والخط المنحرف (بين الحق والباطل)

ان النظرة الانسانية للحياة ، وللمفاهيم وللتشريع تختلف حسب اختلاف المقياس الذي يقيس به الإنسان الأشياء في ضوء مفهومه عن الكون والحياة ، الذي يتكون لديه من الجذور العميقة للمعرفة فتتحدد من خلال ذلك ، خطوطه التي يتحرك فيها او يسير عليها ، وعلاقته بالقضايا الانسانية العامة والخاصة .. وعلى هذا الاساس ، ربما ينبغي لنا ان نتابع قراءتها بحذر ، ونواجهها بوعي . لاننا قد نستسلم الى بعض افكارها فنألفه ونستسيغه ونتبناه ، من دون التفات الى ارتباطه بالاسلام أو ابتعاده عنه، لغفلتنا عن العلاقات التي تحدث بين الافكار سلبا او ايجابا مما يجعلنا نأخذ كل فكرة بشكل مستقل عن الاخرى فنصطدم في نهاية المطاف بالحقيقة الصارخة التي تشعرنا باننا نرفض حكم الاسلام ، باسم الفكر الاسلامي او نتبنى مفهوما مضاداً للمفهوم الاسلامي ، باسم القيم الاسلامية .

وقد حدثت بعض هذه الممارسات في التاريخ الاسلامي ، حيث أدت الانطباعات الذاتية الحاصلة من قراءة معينة او ثقافة خاصة ، الى ان يرفض الانسان حكما شرعيا ينسجم مع الخط العريض الذي يؤمن به ،

ويتبنى حكما آخر يختلف مع منطلقات مذهبه الشرعي وذلك في قضية اجتهادية اختلف فيها مذهب اهل البيت مع مذهب غيرهم من مذهب اهل السنة ، وهي قضية القياس ، من حيث هو دليل اجتهادي على الحكم الشرعي بالاضافة الى الادلة المعروفة لدى المسلمين ، العقل والاجماع والسنة والكتاب ـ او انه لا يصلح حجة على الحكم الشرعي فقد عارض ائمة اهل البيت وقالوا : « ان السنة اذا قيست محق الدين » وذهب ابو حنيفة واتباعه الى حجيته واعتباره . ولما كان القياس امرا مألوفا لدى الناس في حياتهم العادية فقد انسجموا مع الرأي الذي يقره كدليل من أدلة الاحكام . وساعدهم في ذلك الضغط الذي مارسه الحكام المسلمون من خلفاء بني العباس . لابتعادهم عن خط اهل البيت (ع) . ومحاولتهم ابعادهم عن الساحة الفكرية الاجتماعية كاسلوب من اساليب ابعادهم عن الساحة السياسية ... فأدى ذلك الى ان يشيع هذا الاتجاه في حياة الناس وافكارهم ويتقبلوه بشكل عفوي وطبيعي .. وقد كان من هؤلاء الناس الذين تأثروا به وانطبعوا بطابعه . احد الاشخاص الذين يتبعون اهل البيت (ع) في فهمهم للاسلام . وفي شرحهم لشريعته فقد سمع ببعض الاحكام الشرعية المروية عن الائمة (ع) فاستنكره « تلقائيا » ، واعتبره غريبا عن القاعدة الفكرية التي ارتضاها لنفسه ، لغفلته عن طبيعة الجذور التي يرتبط بها وتنطلق منها الفكرة ، ولنستمع الى الحوار الذي دار بين هذا الرجل وهو ابان بن تغلب ، وبين الامام جعفر الصادق (ع) ، قال ابان بن تغلب : « فيما روى عنه » قلت : رجل قطع اصبعا من اصابع المرأة كم فيها من الدية . قال : « عشر من الابل ». قال : « قلت قطع اصبعين ، قال : « عشرون » قلت : قطع ثلاثا ، قال : « ثلاثون » ، قلت قطع اربعا ، قال : « عشرون » قلت : سبحان الله يقطع ثلاثا فيكون عليه ثلاثون ويقطع اربعا فيكون عليه عشرون ، كان يبلغنا هذا ونحن بالعراق فنبرأ ممن قاله ونقول : الذي جاء به شيطان قال الامام (ع) : « مهلا يا أبان هذا حكم

رسول الله (ص) ان المرأة تعاقل الرجل الى ثلث الدية فاذا بلغت الثلث رجعت الى النصف يا ابان انك اخذتني بالقياس والسنة اذا قيست محق الدين »[1] .

فقد رأينا كيف انطلق هذا الرجل بطريقة عفوية في رفض الحكم الشرعي الذي جاء به ائمة اهل البيت عن رسول الله (ص) بكل قوة ، لانه كان يختلف عما ارتكز عليه في فهمه للشريعة وهو مبدأ القياس، وقد غاب عن ذهنه ان القياس مرفوض عند اهل البيت (ع) الذين يدين الله بحبهم وامامتهم ، لانهم يرون ان دين الله لا يصاب بالعقول ، ويعتقدون ان « لا شيء ابعد عن دين الله من عقول الناس » ، لان مناطات الاحكام او حيثياتها التشريعية ليست في متناول الناس ، ولم يبينها لهم صاحب الشريعة ليرتكزوا في ذلك على اساس من حجة او دليل ، فلم يعد امامهم الا الظن والحدس والتخمين يخوضون فيها خوض الحائرين فيجمعون بين الامور المتشابهة في جهة من الجهات ، في حكم واحد ، ظنا منهم ان الحكم المتعلق بالاصل هو الاساس في تشريع الحكم فيعتبرونه للفرع . نظرا لاتحاد الصلة .. ولكن اهل البيت (ع) يرون ان الظن لا يغني من الحق شيئا ، كقاعدة عامة ، لا بد لنا في الخروج عنها من دليل خاص ، ولا دليل ، ويرون ان عملية الحاق شيء بشيء في حكمه . تتوقف على احراز الصلة بشكل قطعي . فاذا لم يحصل القطع فلا بد لنا من التوقف لان مشابهة شيء لشيء لا تقتضي اتحادهما في الحكم في اية حالة من الحالات الا اذا كانت المشابهة من جميع الجهات وعرفنا ان حيثية التشريع هي جهة الاشتراك .

ومهما كان الموضوع .. فلسنا هنا من اجل بحث قضية حجية

---

(١) وسائل الشيعة ج ١٩ ، ص ٢٦٨ .

القياس سلبا او ايجابا فلذلك محل آخر في علم اصول الفقه ، ولكننا نهدف في حديثنا هذا ، الى الاشارة للمبدأ العام الذي نحاول تركيزه في دعوتنا الى الله وهو ان الانحراف في تركيز القاعدة الفكرية الاسلامية على اساس ثابت مستقيم ، يدعو الى الانحراف عن الخط في حركة الفكرة المنطلقة ابدا نحو الهدف السليم مما يدعونا الى الحذر فيما نقرأه وفيما نسمعه وفيما نتبناه من افكار ، فنوازن بينها وبين ما نملكه من اسس فكرية صحيحة ومفاهيم عامة شاملة ليخلص لنا الحق من الباطل والخيط الابيض من الخيط الاسود ، والخط المستقيم من الخط المنحرف ...

وهناك مثل آخر يسبق في تاريخه المثل المتقدم ، فقد حدث في عهد خلافة الامام علي (ع) ان جاءه احد الاشخاص ليحاوره في موضوع حربه لاهل الجمل في البصرة ، فطرح عليه هذا السؤال الانكاري: « أتراني اظن ان اصحاب الجمل كانوا على باطل» فاجابه الامام ــ وقد عرف نقطة الضعف في فهمه للاشياء ــ « يا هذا انك نظرت الى فوقك ولم تنظر الى تحتك فحرت انك لم تعرف الحق فتعرف من آتاه ولم تعرف الباطل فتعرف من آتاه » .

فقد كان هذا الرجل خاضعا لفكرة خاطئة تلح على فكره بقوة ، وهي استبعاد ضلال الناس بمثل هذا العدد الكبير ، فخيل اليه ان مجرد الكثرة كاف في فكرة الحكم بالضلال وبالباطل عليهم .. ولكن الامام اجابه بالتركيز على المقياس الحقيقي للتمييز بين الحق والباطل في حياة الناس ، وذلك بمعرفة طبيعة الحق في ملامحه الفكرية ، وطبيعة الباطل في خصائصه الذاتية ، بعيدا عن عنصر الكثرة والقلة وبذلك يستقيم له الحكم، فترتكز القناعات الفكرية على اساس الرؤية الواضحة المحددة للمبادىء التي تحكم الاشياء لتكون اساسا للتقييم في جانب القلة والكثرة ، لا على اساس

النظر الى طبيعة الكم لنأخذ منها المبادىء التي تحكم الحياة [1] .

(٢) دور القوة والاعلام الموجه في انحراف بعض مفكري الاسلام

وربما نجد الكثير من النماذج البشرية التي تسير فى هذا الاتجاه ، في واقعنا المعاصر ، فاننا نعيش في عصرنا هذا ، معركة العدالة الاجتماعية ، ضد الانظمة الطاغية والظالمة التي تشجع الاحتكار والطغيان ، وتتعامل بالاثم والعدوان .. وقد تعددت الدعوات الاصلاحية والثورية في هذا المجال تبعا للتيارات السياسية والاقتصادية التي تحكم القوى والحركات السائرة في سبيل هذا الهدف .. وقد انطلقت كل هذه التيارات ، في حياة الناس ، لتخوض المعركة الاعلامية التي تريد ان تربح قناعات الناس الى فكرها وخططها واهدافها العامة ، فكان لكل واحدة منها اجهزة اعلامية ، تحاول ان تشوه صورة الفريق الذي تريد ان تحاربه وتهزمه ، بكل ما يحمل من افكار وقيم وممارسات .. وتعمل — في مقابل ذلك — على ان تلفت الانتباه على الصورة التي تجسد افكارها واهدافها ، ولو في اطار ضيق من الحياة .. وكان الواقع المعاصر المشوه الذي تتمثل فيه صور الاحتكار والاثرة والانانية والظلم والطغيان ، بشكل بشع مخيف يرعب الناس ، في منظره ، ويسحقهم في مخبره .

وكانت الملكية الفردية « من بين القضايا التي أثارها الفكر الماركسي كهدف من الاهداف الاقتصادية التي يرتكز عليها واقع النظام الرأسمالي ، المعاصر ، من اجل ان يهزمها في نفوس الناس ، قبل ان يهزمها من حياتهم ، او بالاحرى ، انه يدمر قداستها في نفوسهم كمقدمة لازالتها ، من واقع الحياة وقد تركزت الحملة على الفكرة من خلال توجيه الانظار الى

(١) محمد حسين فضل الله : الاسلام ومنطق القوة ، فصل (القوة العددية) .

الملكيات الكبيرة الممتدة التي تسحق العمال والفلاحين في ظل ملكية الاقطاعيين والرأسماليين ، والى المصانع التي تنتج الاسلحة لتدمر الحياة وتثير الفتن والحروب من اجل زيادة الرأسمال ، والى المعامل التي تنتج الادوات الاستهلاكية لتزيد الاسعار وتضخمها على حساب الفقراء والكادحين الذين لا يحصلون من الاجر بمقدار يفي بقوتهم في الوقت الذي يعاني فيه الرأسمالي من التخمة ، ويمل فيه من الترف ، الذي حصل عليه من جهد العامل وعرق جبينه •• ويظلون يلاحقون كل صغيرة وكبيرة ليدخلوا في عملية مقارنة يبرز فيها الظلم الصارخ والتفاوت الفاحش •• بين واقع القمة وبين واقع القاعدة •• ان صح التعبير •• ثم ينطلقون رأسا بعد ان تنضخم المشكلة ويتحول الشعور الانساني ازاء هذا الواقع الى ما يشبه القرف والتقزز والثورة عليه ، فيطرحون عليه الحل السحري الوحيد الذي لا حل غيره ، وهو « الاشتراكية » كهدف مرحلي والشيوعية « كحل اخير » فهي التي تحل التناقضات المتصارعة في المجتمع ، وهي التي تحقق العدالة والمساواة بين الناس عندما تقضي على الطبقية ، بازالة الفوارق الطبقية ، فيتساوى الناس في العمل الذي يحقق للجميع الحياة كل الحياة •

وهكذا استطاعت هذه الاجهزة الاعلامية التي استغلت كل امكانيات الواقع للاستفادة منه في دعوتها الى افكارها ، ان تجعل من فكرة « الملكية الفردية » شيئا غير محبوب لدى الناس ، او بالاحرى فكرة مبغوضة في تفكيرهم •• واصبحت « الملكية الجماعية » او ما تعبر عنه « الاشتراكية » تمثل « العدالة الاجتماعية » المنشودة •

وبدأت هذه الافكار او هذه المشاعر تغزو افكار المسلمين حتى المفكرين منهم ، مما خلق لدى البعض منهم « عقدة مستعصية » ضد

التشريعات التي تقر « الملكيــة الخاصة » . او ترفض بعض وسائــل « الاشتراكية » كالتأمين بالقوة .. واصبحت « الملكية الفردية » تساوي « الرأسمالية » كما اصبحت مناقشة الاشتراكية او رفضها من جانبهـا القانوني مناقشة او رفضا للعدالة الاجتماعيــة في مفهومها الانساني .. وبدا البعض من هؤلاء « المفكرين الاسلاميين » يفتش عن نص هنا ، او س هناك يبرر لهم التصرف في ظواهر الآيات والاحاديث ليعطوا الاسلام لونا من الاشتراكية ، او ليبعدوه عن الجانب الفردي للملكية ، ليوحدوا بين الخطين او ليقربوا بينهما .. وبذلك شاعت الكلمات التي تضفي على الاسلام هذه الصفة كتدليل على تقدميته وسبقه المبــادىء الحديثــة في التحضير لهذه الثورة ، ولهذا الاتجاه في ممارسة العدالة .

(٣) الموقف العملي امام هذه الانحرافات

ونحن لا نريد ان نفيض فيما افاض فيه البعض من المخلصين للاسلام الحق، المتحمسين له،من اتهام هؤلاء «المفكرين» بالمروق والخيانة والعمالة الى غير ذلك من كلمات السباب والشتائم التي تعودنا اطلاقها بكل سهولة على كل انسان يخطىء في فهمه لبعض الجــوانب الاسلامية في العقيــدة والشريعة او ينحرف في تقييمه لبعض الافكــار مما يستفيد منه اتبــاع الافكار الاخرى لانسجامه مع الخط العريض الذي يسيرون عليه .. اننا لا نريد الافاضة في ذلك كله ، لاننا نؤمن بأن الخطأ ، او الانحراف ، لا يساوي الخيانة والعمالة دائما لانه قد يلتقي بالغفلة والجهــل في بعض الحالات ، كما قد يلتقي بالاغراض الشريرة .. وربما كان هؤلاء الذين المحنا اليهم من المغفلين او الجاهلين ، وان ادعوا لانفسهم العلم الواسع الغزير ، لان قضية الجهل والعلم، قد تكون قضية وعي وذكاء قبل ان تكون قضية معرفة ، اذ ربما يقع الانسان تحت تأثير توجيه تدريجي معين يطبع

فكره بطابع خاص في ظل خطة محكمة تستهدف محاصرة ذهنه وتطويقه من دون ان يشعر بذلك ، حتى يخيل اليه انه هو الذي يقود نفسه بينما يكون العكس هو الصحيح حيث تكون الاجواء المحيطة به عنصرا ضاغطا ينفذ الى كيانه بهدوء واطمئنان،

واذا أردنا ان نقترب من الصورة اكثر ، فاننا سنجد الواقع يحتضن التيارين الرأسمالي والاشتراكي ، اللذين يقف كل منهما في مقابلة الآخر، كما ألمحنا لذلك ، ولا نجد للاسلام أثرا في مرحلته التطبيقية .. ونحس بفظاعة الجرائم التي يفرزها النظام الرأسمالي ، لاننا نعيش — معه — تجربة الاستعمار السياسي والاقتصادي ، بينما لا نحس بأعمال النظام الاشتراكي الا من خلال الدعايات التي يطلقها اتباع الرأسمالية ، مما يخلق في نفوسنا رغبة في رفض التصديق بشكل لا شعوري ، لانها دعايات عدونا المباشر .. وهكذا تتظافر الجوانب الوطنية والاقتصادية والمشاعر الذاتية والانسانية لابعادنا عن ذلك وتقريبنا من هذا .. وفي مثل هذا الجو ، لا يجد الانسان أمامه المؤثرات الفكرية التي تجعله يراجع حسابات الكلمات التي تقال ، او الدعايات التي تعلن ، ليفهم الفرق بين الملكية الفردية التي تقوم على اساس الاحتكار والاستغلال وبين الملكية الفردية التي تقوم على اساس الجهد والعمل ، والشعور الانساني بما تمثله من وظيفة اجتماعية انسانية ، ليعرف ان الاسلام يرفض النوع الاول ، ويتبنى النوع الثاني من الملكية وبذلك لا تكون الملكية الفردية الشر كله ، بل الشر في اساءة استعمالها من حيث مصادرها ومواردها ، فلا ضرر من ابقاءها كمبدأ ، بل الضرر كله من اعطاء الحرية للمالكين لكي يقوموا بما يشتهون من دون تقيد او رقابة او ردع .. ثم يجد نفسه ، لو أراد أن يسلك سبيل المعرفة ، وجها لوجه امام الملكية العامة ، وهي ملكية الشعب التي قررها الاسلام للمواطنين ، وملكية الدولة ، التي جعلها للمؤسسة العامة التي تكفل لهم الخدمات العامة من ادارية وتربوية واقتصادية وسياسية وعسكرية .. مما يجعل الاسلام ثورة تشريعية تجمع بين كل أشكال الملكية في نظامه الرائع الحكيم .

ولسنا ـ على كل حال ـ في معرض التحليل الدقيق لهذا الجانب من موقف الاسلام من قضية العدالة الاجتماعيـة • ولكننا ، في مجـال الحـديث عن تأثير الثقافـة المضادة ـ التي لا يقف الانسان منها ـ في البداية ، موقف الحذر في رفض الانسان ما لا يجوز له ان يرفضه ، او الاقتناع بما لا يحل له الاقتناع به من منطلق العقيدة ، ليتعلم الانسان كيف يقف من كل المواقف الثقافية المعروضة عليه ، او المحيطة به موقف الباحث الذي ينظر الى هذه المواقف بعين ويتطلع الى المواقف الاسلامية الفكرية بعين اخرى اكثر انفتاحا ووعيـا واخلاصا •• ليظل في موقـع التوازن الحقيقي بين ما يأخذه من فكر ، وبين ما يدعه من تضليل •



وقد نجد من الخير لهذا الحـديث ان نختمه بمثـال آخر ، وهو التأثيرات الفكرية التي اخضعت تفكيرنا في مواجهته لكثير من القضايـا الى مبدأ الديمقراطية ، فبدأنـا ننظر الى الحريـة نظرة تنطبـع بالطابع الديمقراطي الذي يرفض تقييد أي حريـة من الحريات الانسانية ، لاي اعتبار كان ، الا فيما نـدر ، وفي ضوء هذا نرفض احتـرام القيود التي تفرضها بعض الدول الملتزمة فكريا ، على الحريات للمصلحة العـامة ، كما نحاول ان تتأمل في التشريعات الاسلامية التي تمنح الانسان الحرية في نطاق خاص، لا يتعداه ، فلا تبيح له ممارسة الحرية في الافساد الخلقي والاقتصادي والديني والاجتماعي والسياسي وغيرها حفاظا على مصلحة العقيدة والانسان •• وبدأنا ننظر الى طريقـة نظام الحكم ، فلا نجـد احترامـا في أنفسنا لاي شكـل من اشكال الحكـم ، الا للاسلـوب الديمقراطي ، ومضينا ـ في ضوء هذا ـ نحاول ان نبحث عن الصيـغ الملائمة التي تسبغ على الاسلام صبغة الديمقراطية للتدليـل على سلامته

وانسانيته . ولكننا لا نحاول بأن نفتش عن الطريقـة التي نكتشف فيها الجانب الانساني للاسلام في قضية الحكم او الحرية ، بل اننا نحاول أن نكتشف في الاسلام طريقة الغرب في فهمه للانسانية في ممارسة الانسان للحرية او للحكم واعتباره النظـام الديمقراطي اساسا لذلك ، كنتيجـة لتأثرنا بمفاهيمه فكان من نتائج ذلك أن تناسينا الفكرة التي تجعـل من الحرية منطلقاً للنظام ، لا للانفلات والفوضى ، ثم .. ان الديمقراطية ، هي اعطاء الحق التشريعي للانسان ، فكيف يمكن ان يلتقي مع النظـام الذي يحصر حق الشريعة في اللـه . أما موضوع الحكم ، فان طبيعتـه تختلف بين النظام الملتزم ، وبين النظام غير الملتزم لان لكل منهما طريقة ومنهجا يختلف عن الآخر ..

وفي خاتمة المطاف ، نجد من مسؤولية الدعـاة ان يجلسوا جلسة تأمل ليراجعوا حساباتهم الثقافية ليتأملوا فيها وليقارنوا مقارنة واعيـة بين ما هو حكم الله وبين ما هو حكم الشيطان ، لئلا ينحرفوا من حيث لا يعلمون ، او لا يريدون ليكون الوعي الشامل اساسا لذلك كله .

الفصل الثالث

العاملون في الطريق

١ ـ روح المهنة وروح الرسالة في شخصية الدعاة
٢ ـ الداعية يتحرك بروحية المحبة
٣ ـ الحس الاجتماعي في شخصية الدعاة
٤ ـ الداعية بين القول والعمل
٥ ـ الدعاية امام حالات الانفعال

روح المهنة وروح الرسالة
في شخصية الدعاة

بين طبيعة الرسالة ، وبين طبيعة المهنة ، بون شاسع في الحياة ، ففي الرسالة معنى الامتداد الانساني الى الافق الارحب والذروة العليا ، لانه ينطلق من ايمان الانسان بهدف او فكرة ، او قضية تمس حياة المجموع وتخدم واقعهم وبذلك ترتبط خطوط العمل واتجاهاته بالقضية العامة دون القضية الخاصة وتتغير عقلية الانسان ونظرته الى الامور فلا تتجمد عند المحاور الضيقة او تقف في المجال المحدود ، بل تتسع لكل المحاور لتضمها في وحدة رائعة تتجاوز الجزئيات الى الكليات فيتحول الانسان الى الموقف الذي يفكر بالآخرين قبل ان يفكر بنفسه ويعمل للقضايا الكبيرة حتى على حساب القضايا الصغيرة وتشف روحه وتتسامى وتصفو حتى تصل الى ما يشبه التصوف الروحي في علاقته بالرسالة وفنائه فيها وقد يلتقي بالعقبات في الطريق فلا يتخذ منها حجة للهروب وعذرا للراحة بل يعتبرها مجالا جديدا للجهاد من اجل الرسالة يمتحن به قوته ويستثير به صبره على مواجهة الصعوبات ومجابهة المراحل الشاقة في العمل فيعمل على تحطيمها وازالتها من الطريق لتبقى مفتوحة امام الرسالة .

وقد يتعصب الآخرون ضده ويتعسفون في تصرفاتهم معه فيضيّقون عليه سبل الحياة ويهددونه في نفسه وماله وأهله ليزحزحوه عن الطريق

وينحرفوا به عن الخط ويبعدوا به عن الهدف فلا يزيده ذلك الا ايمانـا برسالته ، واصرارا على موقفه ، وتشديدا على مواصلة العمـل في نفس الطريق ، في اتجاه الهدف ... وقد تضعف به قوته فلا تعينه على مواصلة الحركة والاستمرار في الجهاد سواء في ذلك قوة الجسد او المـال ، او السلاح او غير ذلك ... فلا ترتاح نفسه لهذا الضعف ، ولا تطمئن لهذه الفرصة المؤاتية التي تمنحه المبرر الشرعي للابتعاد عن المعركة ، والاخلاد الى الراحة ، بل يظل يعيش هموم القضيـة في حزن المجـاهدين وصمت العاملين ، ورجاء المتفائلين الذين يفكرون بالفجر ، وهم يعيشون احلك ساعات الظلام .. ان شخصية الرسالة تمثل التحول الانساني من الذات التي تعيش الهموم الصغيرة والقضايا المحدودة الى الرسالية التي تعيش الهموم الكبار ، والقضايا الممتدة الواسعة ليكون الانسان رسالة تتحرك على الارض لتبسط ظلالها على الحياة لا جسدا يخطو معه ظله ، فيعيش مع حياته ويموت بموته ... وبذلك يسبق الرسالي نفسه ، ويتجـاوز حياته الى حياة الآخرين على امتداد الرسالة في الزمن ..

اما اسلوب الرسالي ، فيخضع للروحية الرسولية التي تتحرك من أجل ان تدخل الرسالة في كل قلب ، وتعيش في كل فكرة وتنطلق في كـل حياة ، وتتلمس الواقع الموضوعي الذي يغذي العمـل وينميّه ويطوره فيصل به الى الغاية ، بأكبر قدر ممكن من الايجابيات وأقل قدر ممكن من السلبيات ، وتواجه العلاقات العـامة والخاصة بالاشخاص والمؤسسات والاوضاع من خلال ارتباطهـا بمواقف الرسالة الحـاضرة وتطلعاتهـا المستقبلية .. وبذلك يتحدد اسلوب الحوار في عرض الفكرة ، بعقليـة الناس الذين تتجه الرسالة اليهم لهدايتهم الى الحق فيضيق ويتسع ، تبعا لما تقتضيه آفاقهم الفكرية من ضيـق واتساع ، تماما كما يقول علمـاء البلاغة : « انها مطابقة الكلام لمقتضى الحال » .

ثم ... تخضع الخطة العملية في اسلوبهـا العملـي والحركي الى المؤثرات التي تحكم الواقع ، والى طبيعـة العلاقات التـي تربط بـين عناصره واشخاصه، لتكون الخطة قريبة الى الواقع، في فكرها واسلوبها، لتستطيع ان تدفع خطواتها بعيدا في اتجاه تحقيق الهدف في اطار واقعي وموضوعي ، ولئلا تغرق اقدامها في الرمال المتحركة في اكثر من اتجاه ، مع حركة الرياح المجنونة .

وعلى ضوء ذلك يرتبط الفكر الرسالي بالواقـع الفكري ، كمـا ترتبط حركة الرسالة بحركة الحيـاة في عملية ملاحقـة لكل تطوراتـه وتغيراته، مما يجعل شخصية انسان الرسالة قريبة الى فكر العصر وتجاربه وواقعه ، في افكارها وتجاربها وحلولها بعيـدة عن الخيـال الغـارق في الضباب ، الباحث عن الواقع المعاصر في افكار الماضي ، من دون موازنة ومحاكمة ...



اما المهنة التي تمثل معنى المحدودية في حركة العمل وهدفه ، ففي المهنة يتجه الانسان الى حياته الخاصة فيمـا تمثل من مسئولية حيـاتية ترتبط بالذات ارتباطا عضويا ، ليؤمن لها سبل العيش الكريم الذي يتمثل بالرفاهية والرخـاء ، فيما يقبـل عليه الانسان من شؤون وفيما يريـد تحقيقه من رغبات ، وفيما يستهويه من لذائذ الحياة وشهواتها .. وبذلك ترتبط كل حدود العمل وخطواته واتجاهاته ، بالقضية الخاصة، والمصلحة الشخصية .. فتخضع لما يخضع له قانون التجـارة من قضايا العـرض والطلب ، وتتحول بالفكر والممارسة الى الآفاق الماديـة التي تبحث عن « الكم » في الاشياء ، قبل ان تبحث عن « الكيف » مما يجعل العمـل تابعا لمن يدفع قدرا اكثر من المال الذي يحقق للمهنـة نجاحا اكبر ، لان

طبيعة المهنة في اساسها ونتائجها ، طبيعـة ماليـة ، مما يجعل مشاعرهـا وافكارها وممارساتها ، ذات طبيعة ماليـة •• فيمتـد ذلك الى تكوين الانسان الذي يتحول الى روحية مادية ، تخضع قضايا الروح لقضايـا المادة ، فتتجمد في داخله لتجمد كل امتـداد للروح الخالص في قضايـا الحياة وتطلعاتها •

اما موقف المهنة من عقبات الحياة، فانه يخضع لموقع العقبة من قضايا الربح والخسارة ، فاذا لم تقلل الربح ولم تنتج الخسارة ••• لم تحدث اثرا سلبيا في نفس صاحب المهنة ، بل ربما احدثت نتيجة ايجابية تستريح للراحة ، وتطمأن الى الدعة ••• فما دام العيش مؤمّنا والربح وفـيرا ، فليتعطل العمل ، وليخـرب كل شيء ••• لان العيش هو الهـدف ، فلا قيمة للوسيلة اذا تحقق الهدف بدونها ، وبهذا نلتقي بكثير ممن يعملـون في الوظائف الحكومية الادارية ، او التعليمية ، او في المصالح الخاصة ، فان القانون يكفـل لهم استمرار معاشاتهم حتى في حالـة شلل الادارة والمصلحة نتيجة اوضاع سياسية او عسكرية او غيرها ، او في حالة مرض الموظف ، فقد نلاحظ ، في سلوك هؤلاء ، مظهرا للراحة النفسيـة ازاء حدوث ما يمنع استمرار العمـل ، لانه يوفر لهم الحصول على مكاسب الراحة والعطلة الشرعية ، الى جـانب مكاسب العمـل الماليـة •• وقد يتوسلون الى الحصول على مثل هذه الراحة المدفوعة التكاليف ، بادعاء المرض بشهاده مدفوعة الثمن ، تمكنهم من اخذ اجـازة مرضية ، وليس من المهم في ذلك كله ، ان يتعطل العمل ، او ترتبك مصالح الناس ما دام المعاش مؤمّنا ، والراحة موفرة اذ ليس الهدف من عمله المحافظـة على العمل ، او تسهيل حياة الناس ، فانه ليس مسؤولا عن العمل ، او حيـاة الناس ليهتموا بذلك او يتعب نفسه من اجله •

ويختلف اهتمامه بالاخلاص للعمل واتقانه وتجويده ، تبعا لقـانون

الربــح والخسارة ، فاذا كان الغش والتلاعب او اهمال تجويد العمــل ، سبيل العمل الى تحقيق الربح، ولو في بعض الحالات الطارئة ، فلا سبيل الى الاتقان ولا حاجة الى الجودة فيه، بل الحاجة تتجه الى تحقيق العكس من ذلك لانهما يقللان من الربح ، وقد يوجبان الخسارة •• أما اذا كان الاخلاص بكل مظاهره ، طريق تحصيل الربح ، او تفادي الخسارة ، اتجه العمل الى ذلك • فليست القضية قضية مصلحة الآخرين، بل كل ما هنالك مصلحة الرأس مال او مصلحة صاحب المهنة ، وقد نجــد مثــال ذلك في بعض المربين الذين اتخذوا التربية مهنة يتعيشون بها في حياتهم ؛ فنلاحظ ان سلوك البعض يختلف في اهتمامه برفــع مستوى الطــلاب ، حسب اختلاف الشعور بالرقابة الواعية للادارة التي تحقق في طريقة تعليمه ، وفي طبيعة اهتمامه بالدرس وفي مقدار نجاحه في ذلك •• فاذا وجــد ان مستقبلــه في المدرسة يخضع لاخلاصه في العمــل ، اخلص له ، اخلاصا مهنيا ، اما اذا لم يجد اهمية لذلك في قضية المستقبل الذاتي ابتعد عن خط الاخلاص ليستسلم الى اقل قدر ممكن من القيــام بالعمل ، ولا مانــع لديه ، بعد ذلك ، ان يفشل الطــلاب في سنتهــم المدرسية ، او ينخفض مستواهم العلمي ، لانه ليس مسؤولا عن الطلاب الا بمقدار مسؤوليته عن المحافظة على معاشه كهدف للحفاظ على أسرته وحياته الخاصة •

ان شخصية المهنة ، تحول الانسان الى كائن مالي ، تتحول أفكاره الى مال واعماله الى مال ، واهدافه في الحيــاة الى رصيد مــالي كبير ، وعلاقاته الانسانية الى وسائل عملية لتحصيل المال •• وبذلك فان نظرته الى التطورات الحياتية ، والمآسي الانسانية ، وقضايا الثورات والمشاكل الداخلية والخارجية في العالم وشؤون العقيدة والمذهب ، تتحدد حسب علاقة هذا كله ، بأوضاعه المالية الخاصة ، لا باوضاع البلاد الاقتصادية وغير الاقتصادية ، بشكل عام وحتى الدموع التي تجري من عينيه، لا بد

من أن يحسبها حسابا ماليا ليفكر في المعادلات الحسابيــة ، التي تخضع لها هذه القطرات ..



اما اسلوب المهنة ، فهو تابع لعلاقة المهنة بالربح والخسارة .. فلا أهمية للعنصر الانسانــي ، او للقضايــا الكبيرة المصيريــة في ذلك ، بل الاهمية الكبيرة ، للعلاقات المالية للمهنة ، وللواقع الموضوعي الذي يحدد أمر نجاحها وفشلها ، وبذلك يرتبط اسلوبها ، بالحياة المالية ، في جــانب الخطة والتنفيذ ، وتنطلق حركتها بالظروف المالية الملائمة وغير الملائمــة ولا مانع ــ بعد ذلك ــ من ان ينعكس على حياة الناس بشكل سلبي ، او بشكل ايجابي مضاد ، وليس من المهم ان يصنع المأساة في قلب الواقع، لان مهمة المهنة ليست انسانية ، كما ان اصحاب المهن ليسوا بأنبيــاء او رسل وليسوا بمصلحين او ثوريين ، فلا يجب عليهــم ــ بالتــالي ــ ان يمارسوا اسلوب الانبياء والمصلحين ، ويجسدوا اهدافهم في الحياة ...



وقد نقترب من ملامــح الصورة ، بمثــال يكشف لنــا عن بعض خصائصها في الحياة .

فقد يقوم فرد او جماعة بانشاء معمــل في البلــد ، لانتــاج بعض الحاجات الاستهلاكية وغيرها، من الاشياء التي توفر للبلد الاكتفاء الذاتي في هذا الجانب او ذاك من حاجاته الاقتصادية . ولكن الدوافع الباعثــة نحو هذا المشروع تختلف امام حالتين ، فقد يكون الدافــع الى ذلك ، هو مجرد الربح الشخصي الــذي لا يعتبر هــذا المشروع الا فــردا من

المشاريع التي يقوم بها من اجل انماء ثروته وزيادة رأس ماله ، ولن يكون لبلده أية ميزة تميزه عن سائر البلدان الا ما يميز بعض مجالات العمل عن الاخرى ، ولذلك فهو ، لا يمتنع من الاحتكار والمضاربة واهدار مصلحة البلد في عمليات التصدير والاستيراد ، لان الغاية هي الربح ، ففي أي مورد وجدت الزيادة في الربح ، توجد الحوافز الدافعة للعمل ، من دون نظر الى مدى ملاءمة ذلك كله للوضع الاقتصادي للبلد وعدم ملاءمته فلا مانع من القيام بعملية مضمونة الربح وان استلزمت انهيار اقتصاد البلاد العام .. وذلك هو ما تقتضيه طبيعة اسلوب المهنة .

وربما يكون الباعث على هذا المشروع ، هو المشاركة في النهضة الاقتصادية للبلد وتخفيف الاعباء التي تثقل كاهل الامة وتضعفها وتدمر قواها ، والاتجاه بالبلد نحو الاكتفاء الذاتي من اجل تركيز قواعد استقلاله الاقتصادي عن الدول الاخرى كشرط من شروط الاستقلال السياسي مما يحقق للعمل في بلده ميزة تميزه عن العمل في البلدان الاخرى ، لانه المركز الطبيعي لتأدية رسالته في الحياة ، ولذلك فهو يعمل على ان يجعل ميزان الانتاج في جانب الكثرة والقلة ، او في جانب الجوده والرداءة ، تابعا للمصلحة الاقتصادية العليا للبلد ، ومدى انسجام ذلك مع طبيعة حاجاتها الاستهلاكية والتصديرية ، لان الغاية هي تركيز البناء الاقتصادي للبلد من دون نظر الى الربح الشخصي المجرد ، وفي ضوء ذلك فانه لا يحاول القيام بأي عمل يسيء الى الاقتصاد العام لوطنه ، او يختلف مع طبيعة الاستقلال لدولته ، مهما كانت الارباح وفيرة ومهما كانت النتائج مضمونة ، ومن الطبيعي ــ في ذلك كله ــ ان يراعي الانسان مصلحة عمله الخاص وحياته الخاصة ، الى جانب الخطة العامة ، والمصلحة العامة ، كشرط من شروط استمرار العمل وواقعيته ، وهذا هو الفارق بينه وبين النموذج الاول .. ففي الحالة الاولى ، لا مكان الا للمصلحة

الخاصة أولا وأخيرا ، اما في الحالة الثانية ، فتمثل التوازن بين المصلحة العامة وبين المصلحة الخاصة ، وربما تطغي الاولى على الثانية في بعض الحالات • وذلك هو ما تقتضيه طبيعة اسلوب الرسالة •

★ ★ ★

وتتنوع النماذج في الحياة ، في اكثر من جانب ، فتمتد الى الجانب السياسي والتربوي ، والديني ، لان القضية لا تتصل بطبيعة العمل الذي تعيش معه ، بل تتصل بالبواعث الدافعة اليه • ونحن هنا •• في منطلق هذا الحديث نحاول التركيز على الجانب الديني في حياة العاملين في سبيله والداعين اليه ، فقد يستسلم العمل الديني في حياة انسان ما ، الى حافز ذاتي يستهدف من عمله تأمين مستقبله المادي ، وتركيز مجده الشخصي ، تماما كأية مهنة من المهن التي يقصد منها الانسان توفير الربح بأكبر قدر ممكن في عمليات البيع والشراء فلا يمثل الدين عنده ، الا أداة من أدوات الانتاج ، وسبيلا من سبل الربح ، ولذا فانه لا يحب طبيعة العمل وروحه، بقدر ما يحب نتائج العمل الذاتية وارباحها ، وفي ضوء ذلك تتحدد علاقته بالاشخاص فلا قيمة عنده لاي شخص مهما كانت قيمته في الحياة، ودرجته من الايمان ، ومهما بلغت منزلته من الجهاد اذا لم يمثل – هذا الشخص – لبنة صغيرة او كبيرة في بناء مجده المادي والمعنوي لان علاقته به لا تنسجم مع قانون الربح في عملية البيع والشراء • اما الاشخاص الذين ترتبط مصالحه بهم ، وتنحني اعمالهم لرغباته فهم الاصحاب والاحباب ، وهم الخلان والاصدقاء ، مهما بلغت درجة انحرافهم عن الدين وابتعادهم عن تعاليمه واحكامه ولا مانع عنده من ان يساومهم ويساوموه ، ويداهنهم ويداهنوه ويماكسهم ويماكسنوه ، لان هذه العلاقة تختلف عن اية علاقة اخرى من علاقات التاجر بزبائنه •

انها طبيعة المهنة ، وعملية التجارة ، فهو تاجر في كل اعماله وعلاقاته الدينية الرسمية يعيش الفكرة لحسابه ، ولنفسه ، ويخضعها لمطامحه ومطامعه ، تماما كأي انسان يبيع دينه بدنياه ، وشريعته بشهوته وقد يدعوه ذلك الى أن يحرّف مفاهيم الدين فيوجهها الى غير وجهتها الصحيحة ويسخرها لخدمة السلطة المنحرفة والحاكم الجائر ، ويبيعها بثمن بخس دراهم معدودة ويتلاعب بها كما تشاء له أهواؤه واطماعه ، فيديرها ذات اليمين وذات الشمال ، فقد يبارك بها الاستعمار وعملاءه ، وقد يبرر بها الالحاد ومشاريعه ، وقد يعطي بعضا منها لهذا ، وبعضا منها لذاك ، تبعا لحركة السوق السياسية ، وحاجتها الى شعارات الدين وقداسته ، لتعطي أوضاعها شيئا من القداسة الروحية التي تثير فيها عاطفة الجماهير الساذجة لما تريد القيام به من مشاريع ، ولما تحتاج الى تنفيذه من خطط واهداف . وقد حدثنا القرآن الكريم عن بعض هذه النماذج ، في تاريخ النبوات ، فيما حدثنا به عن بعض اهل الكتاب من اليهود وغيرهم ، من الذين حرّفوا كتاب الله وغيره وبدلوه وباعوه ، لقاء مصالح واموال وامتيازات ، فمن ذلك قوله تعالى :

« وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ »٣ : ١٨٧

« فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ » ٢ : ٧٩ .

« إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » ٣ : ٧٧ .

وقد جاءت بعض الآيات الكريمة لتنهى عن ذلك بشكل مباشر كما في قوله تعالى :

« وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ وَلاَ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » ٢ : ٤١ — ٤٢ .

وقد نجد في واقعنا المعاصر الكثير من الممثلين الرسميين للدين او للفكر الديني الذين باعوا أنفسهم للشيطان الاستعماري ، او الملحد ، فتعاونوا مع الاستعمار ، ومع الشيوعية ، باسم الدين ، ليغرروا البسطاء والساذجين من الناس ، طمعاً في الحصول على بعض المال ، او بعض الامتيازات المادية والمعنوية ، مما يحقق لهم كسبا شخصيا على مستوى الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ، فأدى ذلك الى اضلال كثير من الناس ، باسم المفاهيم الدينية الحقة .



وقد يرتكز العمل الديني على قاعدة ثابتة في داخل النفس ، يعيشها الانسان في فكره ، ويحياها في شعوره ، فهي همه الدائم في كل لحظة ، وشغله الشاغل في كل مكان ، وهي سر حياته ومعنى وجوده ، يعيش لها ويعمل من أجلها ، قد سخر طاقاته لخدمتها ، ونذر نفسه لها فهي ميزان علاقاته العامة والخاصة ، فلا يسير في طريق يمكن أن يسيء اليها ، ولا يتصل بأي شخص يعمل ضدها ، ويوالي كل انسان مخلص لها ، من اجلها ، وان اختلفت ميوله عن ميوله ، وابتعدت أفكاره عن أفكاره ، ويعادي من أجلها الاقرباء ، وان اتصلت لحمتهم بلحمته وارتبطت حياتهم بحياته ، ولا يقبل المساومة في عقيدته ، مهما كان العرض سخيا ، ولا المداهنة في دينه ، مهما كانت النتائج طيبة ، يعيش الوسيلة في اطار الغاية ويطبع الاساليب بطابع الفكرة ، فهو صاحب رسالة ترتبط حياته برسالته ، ويتصل عمره بأفكاره ، وقد حدثنا القرآن الكريم عن بعض هذه النماذج التي باعت نفسها لله سبحانه وتعالى ، فمن ذلك قوله تعالى :

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ » ٢ . ٢٠٧ .

« إنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أنْفُسَهُم وَأمْوَالَهُم بِأنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ في سبِيلِ الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً في التَّوْرَاةِ وَالإنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » ٩ : ١١١

انها روحية الرسالة التي تجعل من الانسان رسالـة تتحرك لتكون قوة تدمر الباطل ، وتكون فداء للحق •



وقد نجد في تاريخنا الاسلامي تجسيدا عمليا لهذه الروح الرسالية الرائعة في المجاهدين المسلمين الاولين ، من المقاتلين وغيرهم ، من الذين كانوا يعيشون الجهاد في سبيل الله ، رسالة يحبونها كما يحبون انفسهم او اشد حبا لها ، لانهم يشعرون ان ذلك يمثل التجسيد الحي لمحبة الله والاخلاص له ، فمن هذه النماذج في المقاتلين اولئـك الذين كانت لهم اعذارهم الشرعية في ترك القتال والجهاد مع النبي محمد (ص) لانهم لا يملكون الراحلة التي يركبون عليها ، ولا يملكون المال الـذي يعينهم على ذلك ، ولا يجدون لدى النبي (ص) مـا يحملهم عليه ، فـلا يرتاحـون للرخصة ، ولا يسكنون للعـذر ــ بل يشعرون ــ بـدلا من ذلك ــ بالحسرة على ما فاتهم من الجهاد الذي يحققون به أهدافهم ، ويرضون به خالقهم ، ويوفون ــ من خلاله ــ بعهد الله الذي ألزموا به انفسهـم أن يجاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم ــ حتى آخر نقطة من دمائهم ، وآخر لحظة من لحظات حياتهم •• وهو قوله تعالى :

« لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ

عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَايُنْفِقُونَ »
٩ : ٩٢ — ٩٣ .

وقد أراد القرآن ان يوضح لنا روعــة هذه الصورة ، فوضع الى جانبها صورة أخرى ــ مضادة ــ وهي صورة اولئــك الذين يلتمسون العذر حيث لا عذر ، ويبحثون عن المبرر ، حيث لا مبرر •• وينسحبون من المعركة ويصرون على انهم لم ينحرفــوا عن الخط ولم يخرجــوا عن الجماعة وذلك هو قوله تعالى :

« إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ . يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لاَ تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ يَحْلِفُونَ

لَكُمْ لِتَرضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ
فَإِنَّ اللهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ »
٩ : ٩٣ — ٩٦ .

انها الصورة الحية التي تمثل جماعات المؤمنين الذي سينطلق الايمان في حياتهم كرسالة ، فتفيض عيونهم حزنا لانهم يرون العقبات التي تعترضهم في الطريق ، دون أن يملكوا أمر ازالتها منه ، وفي الجانب المقابل نجد جماعات المنافقين الذين ينطلق الايمان في حياتهم كمهنة ولكنهم يظلون في حالة استجداء لرضا المجتمع عنهم حتى لا يخسروا امتيازات الايمان ، اذا خسروا ثقة الناس بهم .. ولهذا انطلق القرآن الكريم ليركز على ضرورة رفض المسلمين للتعامل معهم على اساس الثقة والرضا والايمان لا نالله لا يرضى عن القوم الفاسقين .



ومن هذه النماذج الاسلامية المجاهدة في غير حالة القتال تبرز أمامنا في التاريخ الاسلامي شخصية الصحابي الجليل ابي ذر الغفاري ، رضي الله عنه ، الذي كانت حياته جهادا في سبيل الله والاسلام مع النبي ، في حياة النبي (ص) وبعد وفاته ، حيث وقف ، في عناد واصرار ، ينكر على المنحرفين انحرافهم وأن كانوا في القمة من مركز المسؤولية ، وينكر على المتزلفين تزلفهم الى الحكام على حساب المفاهيم الصحيحة للاسلام ، ويعمل من أجل فتح عيون المسلمين على واقع الانحراف ، ليعرفوا أين يقف الخط المستقيم في حياتهم وحياة الآخرين لئلا يضيعوا في غمار المفاهيم القلقة التي تتأرجح بين الشك واليقين ، وتضيع في الخطوط المتحركة في اكثر من اتجاه .

فقد أثاره أن يجد الحكم يستغل مركزه من أجل أن يخوض في مال المسلمين خوضا ، ويجعله طعمة للاقرباء والانسباء كما أثاره أن يـأخذ المسلمون بأسباب الترف والنعيم ، ويتركـوا الجماعات الفقيرة تتضور جوعا وتعاني مرارة الفقر والحرمان ، بحجة ان الله لم يفرض عليهم غير الزكاة من الحقوق ، فقد روى الطبري [1] انه دخل على عثمان وعنـده كعب الاحبار فقال لعثمان لا ترضوا من الناس بكف الاذى حتى يبذلوا المعروف وقد ينبغي للمؤدي الزكاة ان لا يقتصر عليهـا حتى يحسن الى الجيران والاخوان ويصل القرابات فقـال كعب من أدى الفريضة فقـد قضى ما عليه فرفع ابو ذر محجنه فضربه فشجه وقال له يا بن اليهوديـة ما أنت وما ههنا .. ثم قـال لعثمان واللـه لتسمعن مني او لا ادخـل عليك ..

وروى اليعقوبي [2] في تاريخه ، ان ابا ذر كان يقعـد في مسجـد رسول الله (ص) ويجتمع اليه الناس فيحدث بما فيه الطعن عليه ويذكر ما غيّر وبدّل من سنن رسول اللـه (ص) وسنن ابي بكر وعمر فسيّره الى الشام الى معاوية . وكان يجلس في المجلس فيقول كما كان يقـول ويجتمع اليه الناس حتى كثر من يجتمع اليه ويسمع منه وكان يقف على باب دمشق اذا صلى صلاة الصبح فيقول : جـاءت القطار تحمل النـار لعن الله الآمرين بالمعروف والتاركين له الناهين عن المنكر والآتين له .

وكتب معاوية الى عثمان انك قد أفسدت الشام على نفسك بأبي ذر فكتب اليه : ان احمله على قتب بغير وطأ فقدم به الى المدينة وقد ذهب لحم فخذيه فلما دخل اليه وعنده جماعة قال بلغني انك تقـول : سمعت

---

(١) المصدر ج ص

(٢) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٦٢ طبعة النجف .

رسول الله (ص) يقول اذا كملت بنو امية ثلاثين رجلا اتخدوا بلاد الله دولا وعباد الله خولا ودين الله دغلا فقال : نعم سمعت رسول الله (ص) يقول ذلك فبعث (عثمان) الى علي بن ابي طالب فأتاه فقال يا ابا الحسن اسمعت رسول الله يقول ما حكاه ابو ذر (وقص عليه الخبر) فقال علي (عليه السلام) نعم قال فكيف تشهد قال لقول رسول الله ما اظلت الخضراء ولا اقلت الغبراء من ذي لهجة اصدق من ابي ذر ، فلم يقم بالمدينة الا اياما حتى ارسل اليه عثمان ، والله لتخرجن منها ، قال أتخرجني من حرم رسول الله قال نعم وانفك راغم ، فأخرجه الى الربذة .

ويروي ابن ابي الحديد خلاصة القصة فيقول : ان عثمان لما أعطى مروان بن الحكم وغيره بيت الاموال واختص زيد بن ثابت منها جعل ابو ذر يقول بين الناس وفي الطرقات والشوارع ، « بشر الكافرين بعذاب أليم » ويرفع بذلك صوته ويتلو قوله تعالى :

وَالذينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَها فِي سَبيلِ اللهِ فَبَشِّرهُمْ بعذابٍ أليمٍ ٩ — ٣٤ .

فرفع ذلك الى عثمان مرارا وهو ساكت ثم انه ارسل اليه مولى من مواليه ان انته عما بلغني عنك فقال ابو ذر « اينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله وعيب من ترك أمر الله فوالله لان أرضي الله تعالى بسخط عثمان احب الي وخيرا لي من أن أسخط الله برضا عثمان » فأغضب عثمان ذلك وأحفظه فتصابر وتماسك الى ان قال عثمان يوما والناس حوله ، أيجوز للامام ، أن يأخذ من المال شيئا قرضا فاذا أيسر قضى فقال كعب الاحبار لا بأس بذلك فقال ابو ذر يا بن اليهودية اتعلمنا ديننا فقال عثمان قد كثر أذاك لي وتولّعك بأصحابي ، الحق بالشام فأخرجه اليها فكان ابو ذر

ينكر على معاوية أشياء يفعلها فبعث اليه معاوية يوما ثلاثمائة دينار فقال ابو ذر لرسوله ان كانت من عطائي الذي حرمتمونيه عامي هذا أقبلها وان كانت صلة فلا حاجة لي فيهـا وردها عليـه • ثم بنى معاويـة الخضراء بدمشق فقال ابو ذر يا معاوية ان كانت هذه من مـال الله فهي الخيـانة وان كانت من مالك فهي الاسراف ، وكان ابو ذر يقول بالشام واللـه لقد حدثت اعمال ما اعرفها والله ما هي في كتاب الله ولا سنة نبيه والله اني لأرى حقا يطفا وباطلا يحيا وصادقا مكذبا واثرة بغير تقى وصالحـا مستأثرا عليه ، فقال حبيب بن مسلمـة الفهري لمعاويـة ان ابا ذر أفسد عليكم الشام فتدارك أهله ان كان لك فيه حاجة (1) •

واخرج احمد في مسنده : ١٦٤ ــ ١٧٦ من طريق الاحنف بن قيس قال : كنت بالمدينة فاذا برجل يفر الناس منه حين يرونه قال : قلت : مـن انت قال انا ابو ذر صاحب رسول الله (ص) قال : قلت ما يفر الناس منك قال : اني انهاهم عن الكنوز بالذي كان ينهاهم رسول الله (ص)• وفي لفظ مسلم في صحيحه ٣ : ٧٧ قال الاحنف بن قيس كنت في نفر من قريش فمر ابو ذر رضي الله عنه وهو يقول : بشر الكافرين بكي في ظهورهم يخرج من جنوبهم وبكي في اقفيتهم يخرج من جباههم قال : ثم تنحى فقعد الى سارية فقلت من هذا قالوا ابو ذر فقمت اليه فقلت ما شيء سمعتك تقـول قبيل ، قال ما قلت الا شيئا سمعته من نبيهم صلى الله عليه وسلم قـال : قلت ما تقول في هذا العطاء قال خذه فان فيه اليوم معونة فاذا كـان ثمنا لدينك فدعه • (2) •

واخرج ابو نعيم في الحلية ١ : ١٦٣ من طريـق سفيان بن عينيـة باسناده عن ابي ذر قال : ان بني امية تهددني بالفقر والقتل ، ولبطن الارض

(1) الغدير ج ٨ ص ٣٠٣ ــ ٣٠٤ .

(2) الحديثان منقولان عن كتاب الغدير ج ٨ ص ٣٢٠ .

احب الي من ظهرها ، وللفقر احب الي من الغنى) [1] .

* * *

فقد رأينا من خلال هذه الجولة السريعة من النصوص التاريخية كيف وقف هذا الرجل هذه الوقفة الاسلامية القوية ، ليقول كلمة الله ، وليدعو الناس الى حكم القرآن ، وليصحح الانحراف الذي حاول الحكم وجماعته ان يفرضه على المسلمين ، ولم يكن يعمل في الخفاء ، بل كانت دعوته علنية ، على رؤوس الاشهاد ، في المسجد وفي الأماكنة العامة، سواء في ذلك في المدينة في ظل حكم الخليفة او في الشام في ظل حكم الوالي .. وكانت دعوته تلقى تجاوبا واقبالا من الناس لانهم يرون فيها صفاء الشريعة الاسلامية ، وواقعية حلولها العملية وبساطتها .. واضطهده الحكم وأبعده وهدده وتعسف في كل هذا الاضطهاد والابعاد والتهديد ، ولكن ذلك لم يثنه عن دعوته الاصلاحية حتى مات وحده في منفاه بالربذة . وقد عبر الامام علي امير المؤمنين عليه السلام عن طبيعة الموقف الذي وقفه ابو در عندما ودعه مع ولديه واخيه وعمار بن ياسر ، فقال له :

يا أبا ذر انك غضبت لله فارج من غضبت له ، ان القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك ، فاترك في ايديهم ما خافوك عليه، واهرب منهم بما خفتهم عليه فما احوجهم الى ما منعتهم وما اغناك عما منعوك وستعلم من الرابح غدا والاكثر حسدا ولو ان السماوات والارضين كانتا على عبد رتقا ثم اتقى الله لجعل اللمع له منهما مخرجا لا يؤنسنك الا الحق ولا يوحشنك الا الباطل فلو قبلت دنياهم لاحبوك ولو قرضت منها لامنوك [2]) . ان هذه الكلمات الرائعة تلخص لنا طبيعة الرسالة في كل ما فعاه هذا الرجل العظيم وفي كل ما قاله ، وفي كل ما تحمله في سبيل

---

(١) عن الغدير ج ٨ ص ٣٢١ .
(٢) نهج البلاغة ج ١ ص ٣٤٧ .

الله ، فقد كان له مندوحة في بعض ذلــك ، ولكنه اراد للحــق ان يظهر وللباطل ان يمحى ، وللرسالة ان تمتد في حياة الناس ــ فلم يأخذ بالسعة، بل اخذ بالشدة ، لان القضية ليست قضية الانسان الذي يبحث عن العذر في سبيل الراحة ، بل هي قضية الانسان الذي يبحث عن المتاعب في سبيل الرسالة ، وشتان بين الموقفين •

الداعية يتحرك
بروحية المحبة

قد يكون من نافلة القول ، ان نؤكـد على ضرورة تعميق الصلـة الروحية بين العاملين الدينيين وبـين الامة ، في علاقة محبـة واخـلاص متبادلة ، تنبع في البداية من روحيـة الداعية المنسابـة بالطهر ، الفياضة بالحب ، النابضة بالانسانية الممتدة في اعماق النفس ونوازعها ، فتنعكس على الآخرين رحمة وحبا وسلاما ، فان ذلك يعتبر شرطا اساسيا للـدخول الى قلوبهم وضمائرهم وحياتهم ، فان الانسان اذا عاش مشاعر الحب في الآخرين ، تفاعل معهم في شعوره وافكاره ، مما يجعل القناعات تبدأ مـن الشعور لتنتهي الى الفكر كما في كثير من الحالات التي تبدأ فيها الفكرة من موقع المحبة لصاحبها ، لتصل ــ في نهاية المطاف ــ الى موقع القناعة الذاتية بالفكرة .

وقد حدثنا القرآن عن بعض من علاقة النبي بالنـاس في انفعالـه بمتاعبهم وآلامهم وفي حرصه عليهم ورأفته بالمؤمنين ورحمته لهم .. كخلق رسالي عفوي ، ينطلق معه في استرسال وعفوية ، لا في تكلف وجهد ممـا يدل على مستوى القيمة الرسالية في علاقة الخلق الانساني بحركة الدعوة وذلك قوله تعالى :

«لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ
عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ
بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ» ٩ : ١٢٩ .

وقوله تعالى :

«فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ
وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا
مِنْ حَوْلِكَ» .. ٣ :١٥٩ .

فاننا نستوحي من الآيتين ، ولا سيما في الآية الاخيرة ، ان انسانية القلب التي تنعكس على انسانية الاسلوب تطبع العمل بطابعها انفتاحا وانغلاقا .. وتلتقي بالنتائج الكبيرة في المجال العملي بشكل رائع يلفت النظر .. ونفهم منها ــ في الوقت نفسه ــ سلبيات المشاعر القاسية والاحاسيس غير الانسانية ، على التفاف الناس حول الدعوة ، وذلك فيما تعبر عنه الآية الثانية التي تربط بين انفضاض الناس عن النبي وبين غلظة القلب وفظاظة اللسان .

وقد حدثنا القرآن الكريم في آيات أخرى عن الحالة النفسية التي كانت تمر بالنبي امام عناد قومه واصرارهم على الكفر ، انطلاقا من اشفاقه عليهم ومحبته لهم وخوفه على مصيرهم الذي ينتظرهم في الدنيا والآخرة اذا استمروا على الكفر .. ونلاحظ في بعض الآيات عمق الشعور الانساني الذي يجيش في قلبه ويغمر آفاق نفسه .. كما في قوله تعالى في الآية الكريمة :

«فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ
حَسَرَاتٍ إنّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ»
٣٥ : ٨ .

«وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ» ٢٧ : ٧٠ .

ولم يقتصر القرآن الكريم على تصوير المشاعر العميقة التي تجيش في قلب النبي محمد (ص) ازاء قومه ، بل صور لنا في اساليب الانبياء في دعوتهم قومهم ، الى أن يؤمنوا بالله .. كل معاني الحب والعطف والانسانية التي تغمر قلوبهم ونفوسهم فلا ينطلقون في اساليبهم من منطق الواجب ، بل من طبيعة الاحساس الذاتي بالمسئولية الرسالية الذي يتفاعل مع الشعور بالواجب ويتحد معه ، لتتكون من خلال ذلك الشخصية الرسالية الموحدة في مشاعرها وافكارها ، فلا يختلف فيها جانب المسئولية عن موقع الاحساس ، ولا تنفصل فيها شخصية الانسان عن شخصية الرسول .. وهذا ما تتحسسه في اساليبهم المتنوعة التي تتصاعد فيها انفعالات اللهفة والعاطفة والمحبة ، لتمتزج الدعوة بالروح الانسانية المرهفة ، فتتوجه الى عقولهم بالفكر ، والى قلوبهم بالعاطفة ، فيشعروا بان القضية ليست قضية فكر يريد ان يفتح حياتهم لمصلحته ، بل قضية رسالة تريد ان تنقذهم من ظلمات ماضيهم واهتزازات حاضرهم التي تعمل على ان تزلزل قواعد المستقبل ، ليسيروا على الارض الصلبة في طريقهم الى الحياة الصاعدة ابدا في آفاق الله الى مراكز القمة في الدنيا وفي الآخرة (١) .

ويحدثنا القرآن الكريم في صورة اخرى عن المؤمن الداعية الذي جاء الحديث عنه في سورة (يس) حينما انطلق ليدعم موقف الرسل الثلاثة ويطلب من قومه تأييدهم واتباعهم ، فقد جاء الدور (في الآخرة) لهذا المؤمن — الظاهرة — الذي قال كلمة الحق وحده — في مجتمع الكفر كله

---

(١) يقرأ في هذا الموضوع « اسلوب القرآن في الحوار » فصل « الحوار القصصي في القرآن الكريم » .

.. فيطلب منه أن يدخل الجنة جزاء ايمانه وعمله ، ولكن الرجل يقف قليلا ليتذكر قومه الذين غفلوا عن هذا الموقف ، وعن تذكير الانبياء به ، وعن نتائج الايمان ، ويحس بالوحشة الشديدة ، والوحدة الموحشة ، فقد كان يتمنى ان يدرك قومه ذلك قبلا ، او يعرفوا الكرامة التي اكرمه الله بها ولكن دون جدوى .

وربما نفهم من هذه الآية ان المؤمنين يظلون مع الاحساس الطيب الطاهر الذي يدفعهم الى مشاركة الآخرين لهم فيما يحصلون عليه من ثواب ، او يصلهم من خير ، حتى اذا اعطاهم الله ذلك ــ احسوا بالالم الشديد لحرمان قومهم من الاجر الكبير والثواب العظيم [1] .



وقد رأيت في كتاب الاقبال في الدعاء للسيد رضي الدين علي بن طاوس رحمه الله بعض ما يتصل بحديثنا هذا في تجسيد الروح المؤمنة الصافية التي تفكر بالكافرين في اللحظات القدسية المشرقة بالاتصال بالله في ليلة القدر التي هي خير من الف شهر .. يقول السيد ابن طاوس في كتابه المذكور : (فصل) .

اقول وكنت في ليلة جليلة من شهر رمضان .. وانا ادعو في السحر لمن يجب او يحسن تقديم الدعاء له ولي ولمن يليق بالتوفيق ان ادعو له فورد على خاطري ان الجاحدين لله جل جلاله ولنعمه والمستخفين بحرمته والمبدلين لحكمته في عباده وخليقته ، ينبغي ان يبدأ بالدعاء لهم بالهداية من ضلالتهم فان جنايتهم على الربوبية والحكمة الالهية والجلالة النبوية اشد من جناية العارفين بالله وبالرسول صلوات الله عليه واله فيقتضي تعظيم الله وتعظيم جلاله وتعظيم رسوله عليه السلام وحقوق هدايته

(٢) المصدر السابق « فقرة » وجاء من اقصى المدينة رجل يسعى .

بمقاله وفعاله ان يقدم الدعاء بهداية من هو اعظم ضررا واشد خطراً حيث تعذر ان يزال ذلك بالجهاد ومنعهم من الالحاد والفساد •

أقول فدعوت لكل ضال عن الله بالهداية اليه ولكل ضال عن الرسول بالرجوع اليه ، ولكل ضال عن حق بالاعتراف به والاعتماد اله •• ثم قال :

« فصل »

أفلا ترى ما تضمنه مقدس القرآن من شفاعة ابراهيم عليه السلام في اهل الكفران فقال الله جل جلاله « يجادلنا في قوم لوط ان ابراهيم لحليم أواه منيب فمدحه ــ جل جلاله ــ على حلمه وشفاعته ومجادلته في قوم لوط الذين قد بلغ كفرهم الى تعجيل نقمته •

« فصل »

اما رأيت ما تضمنه اخبار صاحب الرسالة وهو قدوة اهل الجلالة كيف كان كلما آذاه قومه الكفار وبالغوا فيما يفعلون قال صلوات الله عليه واله اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون •

فصل

اما رأيت الحديث عن عيسى عليه السلام « كن كالشمس تطلع على البر والفاجر » وقال نبينا صلوات الله عليه واله « اصنع الخير الى اهله والى غير اهله فان لم يكن من اهله فانت من اهله » ، وقد تضمن ترجيح مقام المحسنين الى المسيئين قوله جل جلاله :

«لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» ٦٠ : ٨.

ويكفي ان محمدا صلوات الله عليه واله ، بعث رحمة للعالمين » [١] .

فاننا نلاحظ في هذا الجو الذي يحيط بهذا الحديث ، الروح الفياضة بالمحبة والمسئولية ، فان هذا العالم التقي ، يفكر بالكفار من حيث تمردهم على الله ، وتحديهم لمقام جلاله فيشعر بانه اذا لم يستطع ارجاعهم عن الكفر والباطل بالقوة فليحاول ان يصلحهم بالدعاء والتوسل الى الله بان يهديهم سواء السبيل .. ويفكر بهم من جهة الروح الاسلامية الفياضة بالمحبة التي تهتم بمصير الكفار فيتألم لهم ويعيش الرحمة بهم فيدعو لهم ليهديهم الله لينعموا برحمة الله ورضوانه في الدنيا والآخرة .

وقد نلاحظ في هذا المجال ان الانسان الذي يعيش في الاجواء الروحية السامية التي ينقلها الدعاء اليه ، ويغمر كيانه بها ، لا يعيش العقد النفسية التي يعيشها اولئك الذين يمارسون العقيدة في اجواء مادية جافة ، كما يمارس الانسان الحالات الفكرية والقانونية المجردة فينظر الى الحياة والى الآخرين الذين يختلف معهم في الرأي ، على اساس الحسابات والارقام العددية ، بلا قلب وبلا روح .. ومن خلال ذلك انطلق هذا الرجل التقي الى اجواء الانبياء فعاشها من خلال المعاني الروحية الكبيرة من دون ان يدخل في الاساليب الجافة المتكلفة التي تصرف الله عن ظاهره ، وتبعده عن روحه ، لتتركه هزيلا مشلولا لا يستطيع ان يرتفع

---

(١) الاقبال ص ٣١٢ – ٣١٣ .

بالانسان الى ابعد من موطىء قدمه ، كما يفعله الكثيرون الذين يقيسون المحبة ويزنونها بميزان الامتار والمقادير الحسابية •

اننا نؤكد على هذا الجانب الروحي من شخصية الدعاة والعاملين في سبيل الله ، لاننا نشعر بان المحبة التي يعيشها الدعاة تجاه الآخرين تحقق للعمل الديني عدة امور :

١ ــ ان يتفاعل الآخرون بالعلاقة الروحية الذاتية التي تربط بينهم وبين الداعية فيشعرون بالانجذاب اليه والى ما يفكر به ويدعو اليه على أساس القاعدة المعروفة ، ان الانسان اذا احب شخصا احب كل ما يتعلق به وينتمي اليه •

٢ ــ ان يكسبها طاقة جديدة من الصبر على كل المصاعب التي تعترض طريقه في مجال الدعوة ، لان العمل لا ينطلق من موقف المسئولية المجرد الذي يبحث عن ابراء الذمة والخروج عن العهدة ، بل ينطلق من عمق المحبة للانسان الموجود فيهم بالاضافة الى محبة الله ورسالته التي تقتضيها طبيعة العمل الرسالي والروح الرسالية ، فان المعروف ان الانسان يصبر على من يحب وعلى ما يحب اكثر من صبره على ما لا يشعر بوجود رابطة ذاتية معه •

٣ ــ ان ينفتح على الظروف الموضوعية المحيطة بالآخرين الذين يواجههم بالدعوة ، عندما يواجهونه بالانكار والجحود فيعمل على دراسة المؤثرات التي شاركت في ولادة هذا الموقف السلبي لديهم ، فيبدأ من جديد الحركة الجديدة ، في تغيير تلك الظروف بخلق ظروف جديدة ، او انتظار فترة زمنية تسمح بتغير الظروف والمؤثرات تلقائيا كما كان يفعله النبي محمد (ص) عندما كان يواجه المواقف الجاحدة الرافضة لدعوته من قبل

قومه .. بالدعاء الرسالي الحنون « اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون » فاننا نستوحي منه الموقف النبوي الواقعي الذي كان منطلقا من دراسة الموقف بهدوء ، وعلاقته بالجهل المطبق ، بالقواعد التي ترتكز عليها الرسالة الآلهية ، وبالمعطيات التي تشتمل عليها ، ووعيه الرسالي لطبيعة المراحل الطويلة التي تتطلبها عملية التغيير ، فقد لا يكفي في التغيير المجتمع تغييرا جذريا ، أن تدعوه الى فكرتك وعقيدتك ، بل ينبغي لك ان تعطيه فرصة التفكير ـ في البداية ـ لتصبح الفكرة موضع اهتمام فكري ، ثم تتقدم في حشد الضغوط النفسية ، لتصبح موضع اهتمام نفسي واقعي ، ثم تتطور القضية في تكثيف عوامل الصراع الداخلية والخارجية كطريقة عملية لتفجير الركائز الفكرية والنفسية القديمة ، والعمل على نسفها من الاساس ولافساح المجال امام القواعد الجديدة للعقيدة والفكر من اجل ولادة الشخصية الجديدة في نهاية المطاف بالطريقة الواقعية الحكيمة الممتدة بالدعوة المنطلقة من المحبة ، وبالقوة المرتكزة على الواقع .

٤ ـ اننا نلاحظ ـ في الجانب المقابل للروح التي ينبغي للداعية أن يتصف بها ـ ان كثيرا من العاملين في الحقل الديني كانوا يعيشون روح الحقد والقسوة او اللامبالاة في نظرتهم الى الناس ، مما يجعلهم يهملون دراسة الاساليب الواقعية التي ينبغي ان تتخذ في الدعوة والاقناع ومحاولة التعرف على شخصية الاشخاص الذين يدعونهم الى الايمان ، من حيث ثقافتهم وعلاقاتهم وتاريخهم وبيئتهم ، والتدقيق في خطة العمل من حيث علاقة الهدف بالمراحل ، وعلاقة الحركة بالمرحلة .. وبذلك يتجه اسلوبهم في التعامل مع الآخرين الى القاء كل المسئولية عليهم ، ووصفهم بابشع النعوت وأقذعها فهم لا يهتدون لانهم لا يريدون لانفسهم السير في هذا الطريق عنادا واستكبارا وجحودا ، وهم لا يتقبلون الدعوة الى الله قبولا حسنا ، لانهم يفضلون شهواتهم على مبادئهم ، ويقدمون دنياهم

على دينهم .. ولا يخطر ببال هؤلاء الدعاة ان يرحموا هؤلاء بالنظر الى الواقع من خلال العناصر التي تحكمه وتقوده وتؤثر فيه ولا يحاولون ان يعيدوا النظر في اساليبهم في الدعوة ، وخطواتهم في العمل ، ليكتشفوا بعض الخطأ فيها من جهة او يتعرفوا الى بعض جوانب العذر لهم في صعيد الواقع ، لانهم ينظرون الى القضية بعين واحدة في الوقت الذي يجب ان ينظروا اليها بعينين مفتوحتين تتطلعان الى الامور من جميع الجهات لتحيط بجميع ابعادها ككل الاعمال التي ترتبط بالعلاقات البشرية في موقف كل انسان تجاه انسان آخر حيث يجب على كل طرف من الاطراف ان ينظر الى الخطأ في الواقع من خلال تصرفه وتصرف الآخرين، لتكون النظرة العادلة التي تتولى الحكم له او عليه بميزان متعادل لا هبوط فيه ولا صعود .

وقد ساهمت هذه الروح التي تعيش في داخل العاملين في الحقل الديني ، في ابعاد كثير من الناس عن الدين ، اما من خلال النظرة المشوهة التي يأخذونها عن سلوكهم وتفسياتهم ، واما من خلال الاهمال الذي يمارسونه تجاهه في اغفال ظروفه وتطلعاته ، لانهم لا ينظرون الى هدى الناس وضلالهم بالمستوى الذي تفرضه طبيعة الرسالة فلا يعبأون بضلال الضالين ، وقد يلتفت بعضهم ليعلق على كلمة تقال في هذا المجال ، بان الاسلام يخسر كثيراً من الناس بسبب قوى الكفر والضلال ، فيقول : ان الاسلام لا يخسر شيئا ولكنهم يخسرون ، ونحن لا نمانع في صحة الكلمة من حيث المبدأ ، ولكننا نكتشف منها روح اللامبالاة التي تختلف عن الروح التي كان يحس بها النبي (ص) ازاء جحود الجاحدين فقد كانت نفسه تتقطع عليهم حسرات على ضوء الآية الكريمة المتقدمة .. ثم ما معنى ان لا يخسر الاسلام من جراء ضلالهم ، بعد ان كان رصيد الربح والخسارة لاي دين من الاديان ، او لاي فكرة من الافكار ، هو مقدار

ما تملك من اتباع ومؤمنين ، قلة وكثرة .. ولهذا رأينا الله سبحانه ينزل سورة كاملة من السور القصار ليسجل فيها نجاح الفتح النبوي لمكة ، في ادخال الناس افواجا الى الاسلام ، بعد ان كان الناس متخوفين من الدخول فيه بسبب قوة قريش العسكرية والاقتصادية .. وربما ... والسياسية لو اعتبرنا طبيعة العلاقات خاضعة ، للاساليب السياسية .. وذلك هو قوله تعالى في سورة النصر :

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً» ١١٠ : ١ — ٣

فاننا نستوحي جو الفرحة والابتهاج العظيم بنتائج النصر والفتح ، واعتبارها نعمة كبيرة من النعم التي تستحق تسبيح الله وحمده .

ولعل هؤلاء الذين يقولون مثل هذا القول ، يقصدون به الفكرة التي عبرت عنها الآية الكريمة التي خاطب بها الله نبيه :

« وَلاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً» ٣ : ١٧٦

وهي فكرة تفرضها العقيدة الدينية التي ترتكز على ان الله هو الغني المطلق الذي لا تنفعه طاعة من اطاعه ولا هدى من اهتدى اليه ، ولا تضره معصية من عصاه ولا ضلال من ضل عن سبيله .. ولكن أي ربط لذلك ، بفكرة انتفاع الاسلام وضرره او ربحه وخسارته ، بضلال الضالين وهدى المهتدين .. فقضية الاسلام شيء في حركته في الحياة ، وموضوع الذات الالهية شيء آخر .

الموادة في القرآن وعلاقتها باتجاه البحث

٥ ــ قد يظن بعض الناس ان هذا الاتجاه الذي ندعو اليه ، يختلف مع الاتجاه القرآني الذي ينهى عن موادة الكافرين والضالين ، ويأمر ببغضهم وتحديد الموقف ، بالمضادة لهم ، وهــذا ما تعبر عنــه الآيــات الكريمة :

«١ ــ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيْمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» ٩ : ٢٣ .

«٢ ــ لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمْ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» ٥٨ : ٢٢ .

«٣ ــ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ

بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ » ٦٠ : ١ .

فقد دلت هذه الآيات دلالة واضحة على ان مشاعر المحبة والتعاطف والمودة مرفوضة اساسا في موقف المسلمين من الكافرين لانها تشير ـ في دلالتها الايمانية ـ الى ان ارتباط الانسان بالله وانفصاله عنه لا يمثلان شيئا في علاقة المسلم بالآخرين ، وبالتالي لا يمثلان لديه شيئا في عقيدته وايمانه ، لان علاقة الانسان بالاشياء كلها تتحدد بمدى ارتباطها بالقضايا الاساسية في فكره وقناعاته .

ولكن القضية ليست كما يتصور هذا البعض ، فان المبدأ الذي نقرره يرتبط بجانب يتعلق بقضية الدعوة وحاجتها الى الروحية التي تحكم علاقة الدعاة بالناس من حيث انهم يعيشون مشكلة الكفر والضلال والانحراف التي يريد الدعاة ان يحلوها لهم وينقذوهم من نتائجها ، فهم بالنسبة اليهم اشبه شيء بالطبيب مع المريض اذ لا مرض اعظم من مرض الكفر والضلال ، لانهما يقضيان على كيان الانسان في الدنيا والآخرة اذا كان المرض الجسدي يقضي على حياته ، او يضعف جسده .. وفي هذه الحال لا بد للداعية ان يشعر بكل معاني العطف والرحمة والمحبة ، ليستطيع ان ينشىء العلاقة الطبيعية بينه وبينهم ، والا .. فكيف يمكن

ان يبدأ الدعوة في جو مكفهر عابس يوحي بالعداوة والبغضاء .. هل تكون النتيجة لذلك غير احداث ردود فعل ذاتية شديدة ضد الدعوة والدعاة ..

ان خلاصة الفكرة التي نريد ان ندعو اليها ، هي ان يعيش الانسان الشعور بالمحبة التي تنفجر حركة ودعوة وحياة في اكتشاف جوانب الخير الاصيلة في الانسان ، والتعامل معه على هذا الاساس ، وفي هذا الجو من دون نظر الى طبيعة العلاقات الذاتية التي تحكم بعضهم البعض كفريقين يريدان ان يواجها الحياة الاجتماعية من موقع المصالح المتباينة ، او المواقف المختلفة ..

اما المبدأ الذي تقرره الآيات الكريمة التي تنهي عن موالاة اعداء الله وموادتهم ، فانها تخضع لعلاقات الناس العامة التي تتحدد فيها المواقف ، باعتبار ما يمثله كل فريق من قوة سياسية او اجتماعية او عسكرية ، بحيث تتأثر القضايا الاسلامية بطبيعة العلاقات ونتائجها .. ففي هذا الواقع يطرح الاسلام القضية ، من ناحية ارتباطها بجذور العقيدة من جهة ودلالتها على ان العقيدة لا تمثل للانسان شيئا في موضوع علاقاته بالآخرين ومن ناحية ارتباطها بحركة الواقع الاسلامي من جهة احرى لانعكاس الموادة والموالاة لاعداء الدين على سلوك المسلمين في ابتعادهم عن الحذر ، والتحفظ والاستسلام الى تقاليد الموادة التي يمكن ان يستغلها الاعداء كما صوره الله في آية أخرى :

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا
بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً
وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ
أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ

قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ
تَعْقِلُونَ . هَا أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ
وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ
كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا
عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ
مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ
وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ
تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ
إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ» ٣ : ١١٨ــ١٣٠

فاننا نجد في هذه الآية اسلوبا رائعا في التوعية وكشف المواقف ، حذرا من ان يؤخذ المؤمنون بظواهر الامور وسطحياتها فيقعوا صرعى السذاجة العاطفية والغفلة عن طبيعة الامور .

ان القضية تتحدد على اساس التعامل بين الفرقاء في اطـــار الواقع العملي في الحياة الذي يخضع للقواعد الواقعية التي نضع الموالاة والمعاداة في اطار مصلحة العقيدة ومصلحة المصير ، ولهذا نرى القرآن الكريم يجعل المعاشرة بالبر والقسط مع هؤلاء الذين نختلف معهم في اساس العقيـــدة امرا مشروعا اذا لم يكن بيننا وبينهم قتال ، وذلك هو قوله تعالى :

«لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ
يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ
دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ
اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ

عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم
مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ
أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ
فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» ٦٠ : ٨ ـ ٩ .

وخلاصة الفكرة : ان هناك نوعين من الشعور بالمحبة ازاء الآخرين الذين نختلف معهم في العقيدة والدين :

١ ـ الشعور بالمحبة في اطار الدعوة ، بان تحس الصلة الانسانية التي تربطك بهم وتشعر بالواقع القلق الذي كانوا ضحية له في كفرهم وضلالهم وانحرافهم .. فتعيش في نفسك الشعور الحي العميق بحاجتك الى ان تتلمس كل الوسائل الممكنة لاخراجهم من ظلمات الباطل الى نور الحق ، ومن غياهب الضلال الى منارات الهدى وهذا ، لا يتناقض مع خط الايمان بل يلتقي به في عملية اتحاد وامتداد .

٢ ـ الشعور بالمحبة في اطار العقيدة ، بان تتجاوز العقيدة الى غيرها من العلاقات الانسانية كالدم واللسان والبلد واللون وغيرها ، فلا ترتقي بالعقيدة الى المستوى الكبير في الاهمية الذي يمكن معه ان تفصلك عن الآخرين اذا اختلفوا معك فيها ، بينما يمكن للون او الدم وغيرهما ان يوحد بينك وبين الآخرين الذين يشتركون معك فيه ، وان اختلفوا معك في العقيدة .. وهذا مما يتناقض مع طبيعة الايمان ، لان معنى ذلك ان العقيدة لا تقف في مركز القاعدة من حياتك ، بل تظل على الهامش الذي لا يمثل لك أي شيء ذي قيمة ، مما يعني ان الله لا يمثل لديك أي معنى كبير في قضية القرب والبعد ..

وعلى ضوء هذا الحديث عن البون الشاسع بين هذين الموضوعين

اللذين عالجهما القرآن الكريم بالاسلوب السليم الذي يضع كلا منهمـا في موضعه ، نحب أن نسجل نقطة مهمة جـدا في قضية الاساليب القرآنيـة ودلالاتها على الحقائق الاسلامية في العقيدة والسلوك ، وهي انه لا يكفي لفهم القرآن ان يتوفر الانسان على معرفة معاني المفردات وطريقة تأليفهـا وتركيبها ، بل يجب ان يدرس الجو الذي يعيش المعنى في اطاره، مما يوجب اختلاف المعنى والموضوع ، وكذلك في حالة اختلاف المعنى ووحدة الجو ، فانه قد يكون الخط الرابط بين المعنين .. وهذا هو الذي لاحظنـاه فـي طبيعة المحبة والتعاطف والرحمة ، التي اتفقت في المعنى ، ولكنها اختلفت في الجو ، مما جعلنا نكتشف الاختلاف في طبيعة المعنى من خلال ارتباطه بجوه الخاص الذي لا يلتقي مع الجو الآخر .

الحس الاجتماعي
في شخصية الدعاة

١١

(٢) بين المعرفة والاحساس

هناك فرق بين ان تعرف الشيء ، وبين ان تحس به •• ففي جانب المعرفة لا بد لك من ان تجمع المعلومات المتوفرة في الساحة عن الموضوع والاشخاص والظروف الموضوعية المحيطة بالقضية لتحصل من خلال ذلك على قناعاتك الفكرية اما في جانب الاحساس ، فان الموقف قد يختلف بعض الشيء ، لان الاحساس يمثل انفعالك بالواقع المستقبلي في عملية رصد نفسي مرهف لخطواته وتطلعاته ، فقد تمتلأ نفسك بالمشاعر ، ازاء الشيء قبل أن تتوفر لك امكانات الاحاطة به ، وقد تحس بالحادثة قبل حدوثها ، من خلال كلمة تسمعها ، او حركة تصطدم بها ، لان مشاعرك الذكية استطاعت ان تكتشف الاسرار التي تكمن وراء الكلمة ، او تتعرف الى الخطط التي تتجمع قبيل الحركة في احساس خفي بالواقع ••

(٣) هل يكتفي الدعاة الى الله بالمعرفة الاجتماعية ؟

وقد لا يكفي الدعاة الى الله ، والعاملين في سبيله ، ان يحصلوا على المعرفة الاجتماعية التي تتوفر لهم فيحصلون على الاحاطة باحوال المجتمع واوضاعه ، وافكاره العامة في الجوانب السياسية والاقتصادية ، وعلاقاته التي تحكم افراده فيما بين بعضهم البعض في الداخل ، او فيما بينهم وبين

المجتمعات الاخرى في الخارج وغير ذلك من جوانب المعرفة الاجتماعية ، بل لا بد لهم من الحس الاجتماعي الذي تتوفر فيه المشاعر الذكية المرهفة التي تلتصق بالمجتمع لتحس بكل ما في داخله من نوازع ودوافع ومؤثرات ، وبكل ما يختفي وراءه من خلفيات ، وما يحكمه من روابط وعلاقات ، او يحركه من اوضاع خارجية متنوعة •• وبذلك يمكنه ان يحس بالكلمة قبل أن تقال ، وبالحركة قبل ان تنطلق ، وبالاحداث قبل ان تفرض نفسها على الواقع ، ويعرف دلالات الاحداث ووجوهها ، فلا يتجمد في حكمه على الواقع ، فيما يطفو على سطحه من علامات ، بل ينفذ الى اعماقه ، فيمسك بجذوره ليأخذ منها الدليل الذي يختفي وراء الاحداث ليحركها من خلال الضباب • ثم يركز عمله ودعوته على اساس ما يحصل عليه من دلالات وما ينتهي اليه من استنتاجات ، ليتحرك في وضوح من الرؤية ، واحاطة بالقوى التي تحكم الساحة وتؤثر فيها فيتعاون معها ، أو يتباعد عنها ، في خطوات ثابتة قوية تعرف من اين تبدأ ، وكيف تتحرك والى اين تنتهي •• وفي ضوء ذلك كله يتحول العاملون في سبيل الله الى قوة تتفاعل مع الواقع لتفعل فيه ، من موقع السيطرة على مقوماته،بالانفتاح الواعي على كل ما له صلة به ، تماما ككل القوى الاخرى التي تتحرك في الواقع من خلال الدراسة العميقة والفهم الشامل والرؤية الواضحة فتنطلق لتضع ذلك كله في حسابها قبل ان تبدأ بالحركة ••

(٣) ضرورة مواجهة الواقع باحساس منفتح

وهكذا تغيب عن الساحة الدينية للعمل دعوات اليأس والانهزامية ، وعقليات السذاجة والبساطة ، ونظرات الحزن والاشفاق والسخرية والاستهزاء التي ينظر بها الآخرون الى القوى الموجودة في ميدان العمل الديني •• لان هذه الامور كلها ، لم تنطلق من طبيعة العمل الديني ، بل انطلقت من فقدان الحس الاجتماعي لدى العاملين مما يجعلهم لا يواجهون

الواقع بمشاعر ذكية ، واحساس منفتح ، وفهم لما يحيط به من اجواءوظروف، ولما يؤثر به من احداث ، فتتحـول المعرفة لديهم ، الـى تجارب محدودة مبتورة ومعلومات ناقصة ، واستنتاجات هزيلة ساذجة ، تبعدهم عن الواقع أكثر مما تقربهم اليـه ، وتجعلهم عرضة للاحكـام السطحية التي تشبـه الارتجال ، فيتأرجحون بين عوامل الانفعال التي قد تدفعهـم الـى صراخ اليأس تارة ، وقد تقودهم الى اندفاعات الحماس الاهوج اخرى ــ !•• ولا يقفون أي موقف من مواقف التعقل والاتزان الواقعي ، لانهم يفقـدون مقوماته الفكرية والشعورية • فاذا تم لنا التخلص من هذا الموقف القلـق الذي ألمحنا اليه ، فاننا سنبتعد عن السطحية الى العمق ، وعن الارتجال الى الدراسة والتأمل والموازنة ، وبالتالي فاننا سنتعامل مع الواقع من خـلال ظروفه الموضوعية ، ومع الآخرين من خلال القواعد الاساسية الثابتة التي تحكم سلوكهم وتصرفاتهم ، وسنرتفع بخطوات التحرك الى المستوى الذي يبعث على الاحترام ويوحي بالخطورة ، فـلا تستقبلنا نظرات الاشفـاق والتأثر التي يستقبل بها الاقوياء الحائرين الذين يراوحون اقدامهم في حركة التردد بين الاقدام والاحجام ••

(٤) سلبيات الاندفاع وراء الانفعالات العاطفية السطحية

اننا نعتقد ان الانسان الذي يريد ان يتعامل مع الواقع ، لا بد له من ان يفهم الواقع ، من خلال المعرفة به ، والاحساس بظروفه لينطلق مـن الواقع في تفكيره وفي حركاته وفي اهدافه ، لان الجهل به او فقدانالاحساس باوضاعه يبعده عنه أولا ، ويسلمه الى القوى الاخرى التي تستغل ضيق افقه ، وقلة معلوماته وبلادة مشاعره وضعف احساسه ، ليوجهوه في غـير الوجهة التي يتجه اليها في عقيدته ودينه ، وليحاربوا اهدافه في عمليةتضليل وتشويه ، وليحطموا به الوحدة التي تحكم المؤمنين من خلال اثارة القضايا الجانبية التي لو انفتح على دوافعها من خلال انفتاحه على ما وراء الاحداث

والقضايا ، لما تحرك خطوة واحدة في الطريق الذي يريدون له ان يسير فيه، ولما اطلق كلمة واحدة في هذا المجال مما يراد له ان يقوله ، او يثير المشاعر حوله •• وهذا هو الذي يعرفنا طبيعة الخطورة التي تواجهها الامةوتتعرض لها العقيدة ، عندما يتسلم زمام الحركة الافراد والجماعات الذين لا يملكون المعرفة الواسعة ، والحس الناقد الذكي ، فيندفعون تحت تأثير المشاعر والانفعالات العاطفية الى اتخاذ بعض المواقف التي توحي بالغيرة على العقيدة ، وبالاخلاص للامة ، ولكنها تخفي وراءها المخططات التي يرسمها الاعداء ، بحذر وهدوء ولباقة ، ليدفعوا المؤمنين المتحمسين المندفعين الى السير وراءهم من حيث يشعرون او لا يشعرون ، فينفذوا لهم ما يريدون ، وبذلك يفجرون العقيدة من الداخل ، ويحطمون الامة بتحطيم وحدتها تحت شعارات الطائفية والاقليمية وغير ذلك من الشعارات التي تقسم الناس الى طوائف والبلاد الى اقاليم •

وقد استطاع الاستعمار ان يستفيد من الانقسام الطائفي والمذهبي والقومي والعنصري ، في تفجير الصراعات العنيفة ، واثارة الاحقاد التاريخية ، ليوظف ذلك كله لمصلحته وخططه الجهنمية في السيطرة على مقدرات البلد وتمزيقها شيعا واحزابا ودولا ، وقد وجد تجاوبا مع كثير من الفرقاء الذين يفقدون الحس الاجتماعي الذي يكشف لهم ، عما وراء الشعارات ، او الخطوات الاستعمارية التي تريد القضاء على جميع الفئات بشكل تدريجي ، وذلك بتحطيم قوتها بايديها ، واشغالها عن خططه ومؤامراته بغفلتها وسذاجتها •• فكانوا حطبا لناره ، واحترقوا باخلاصهم لانتماءاتهم ، الذي لم يرتكز على قاعدة الفكر العميق والحس الناقد الذكي ، بل ارتكز على الانفعالات التي تنطلق نحو الهدف من دون ان تفكر في الطريق التي تسير فيها نحوه ، او الاجواء التي تتحرك فيها اليه ، وحسابات الربح والخسارة في طبيعة المعركة وظروفها •• وكانت النتيجة

أنهم لم يربحوا وطنهم ، ولا انفسهم ولا عقيدتهم بل خسروا ذلك كلـه ، ليكون الرابح الوحيد هو الاستعمـار الذي هو عدو الدين والمـذهب ، والقومية .. ولذلك فان من الممكن لنا ان نقرر آن الهدف قد يسقط نتيجة جهل المقاتلين ، كما يسقط نتيجة قوة الاعداء ، لان المقاتلين يتحولون الى قوة في يد الاعداء لتدمير الهدف تحت تأثير خطط الجهل وخطواتـه .. وقديما قيل : عدو عاقل خير من صديق جاهل ، وقيل : لا تصاحب الاحمق فانه يضرك من حيث يريد ان ينفعك .



الداعية بين القول والعمل

(١) علاقة الايمان بالعمل

اراد الاسلام من الانسان المسلم في حياته العامة والخاصة أن يعيش ايمانه ويجسده في كل عمل ، كمسلم يعتقد ان الاسلام عقيدة وعمل ، فلا قيمة للايمان بلا عمل ، ولا قيمة للعمل بلا ايمان ، ولذلك رأينا القرآن الكريم يقرن الايمان بالعمل الصالح في كل آية يذكر فيها الايمان كقيمة اخروية كبيرة ، للايحاء باقترانهما في مجال العقيدة والحياة ، وقد تردد كثيرا في الاحاديث ان الايمان بلا عمل كالشجر بلا ثمر ، وقد جاء في بعض احاديث أئمة اهل البيت عليهم السلام اعتبار الايمان هو العمل مما يوحي بان الايمان ، في الاسلام ، يعبر عن مضمون عملي ، كما يعبر عن مضمون قلبي فقد روى الجعفي — كما في الكافي — قال : سألت ابا عبدالله (جعفر الصادق) عن الايمان فقال : الايمان ان يطاع الله فلا يعصى [١] ، وفي حديث الكناني عن ابي جعفر (الامام محمد الباقر) قال : قيل لامير المؤمنين من شهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله كان مؤمنا قال فاين فرائض الله قال (اي الكناني) وسمعته يقول : كان علي (ع) يقول لو كان الايمان كلاما لم ينزل فيه صوم ولا صلاة ولا حلال ولا حرام [٢] . وفي حديث محمد بن حكيم قال : قلت لابي الحسن: «الكبائر تخرج من الايمان

(١) و (٢) الكافي ج ٢ ص ٣٣ .

قال نعم وما دون الكبائر قال رسول الله (ص) لا يزني الزاني وهو مؤمن ولا يسرق السارق وهو مؤمن [٣] .

(٢) تأثير السيرة العملية للداعية على تجاوب الناس (مع الفكرة)

هذا في موضوع المؤمن بشكل عام .. أما اذا انطلق المسلم في مجال الدعوة الى الله فان القضية تأخذ بعدا جديدا ، ووضعا خاصا ، لان الجانب العملي لا يتمثل في الحياة الخاصة التي تحدد للانسان مصيره في الدنيا والآخرة ، بل ينعكس على حركة الدعوة ومسيرتها الظافرة ، لما للسيرة العملية للداعية من تأثير على تجاوب الناس مع الفكرة ، وانفعالهم بها وايمانهم بجديتها وواقعيتها ، بينما تعطي السيرة المضادة ، تأثيرا عكسيا يوحي بالابتعاد عنها نظرا الى فقدان الانسجام في حياة الداعية بين النظرية والتطبيق فيولد في نفوس الآخرين انطباعا بان هذه النظرية لم تطرح للتطبيق ، بل لتبقى فكرة حالمة خيالية ، كبقية الافكار الحالمة الخيالية التي عاشت في اطار المثال ولم تقترب من اطار الواقع ، لانها لم تستطع ان تغير حياة اصحابها ، فكيف يمكن ان يطلب منها تغيير حياة الآخرين .. ولهذا كانت قيمة الرسالات السماوية ، انها كانت تستمد قوتها في الدعوة من طبيعة الفكرة ومن تجسيدها واقعا حيا في سلوك النبي وعمله ، ليسمع الناس حديث الدعوة من جهة ، ويتلمسوا واقعها في حركة الحياة الممتدة من جهة اخرى .

أ ـ تجسد الإسلام في سلوك النبي (ص)

وقد قال بعض الناس ان الله لو ارسل القرآن في كتاب مجموع منزل ، ولم يرتبط بحياة النبي وسلوكه لما استطاع الاسلام ان يخطو خطواته الكبيرة في الحياة ، ولكن الناس كانوا يستمعون الى القرآن من النبي من

---

(٣) الكافي ج ٢ ص ٢٨٤ .

جهة : وكانوا يشاهدونه كصورة حية متحركة في حياته من جهة اخرى فقد تجسدت لهم اخلاق النبي واعماله قرآنا يتحرك على الارض كما حدثت عنه زوجته « عائشة » ــ فيما روى عنها ــ انها قالت ــ وقد سألت كيف تصف خلق النبي ــ كان خلقه القرآن ». وقد كان حديث القرآن عن علاقة سلوكه القرآني بنجاحه في الدعوة ، صريحا واضحا وذلك هو قوله تعالى :

«فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ» ٣ : ١٥٩ .

«وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ» ٦٨ : ٤ .

« لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ » ٩ : ١٢٨

فاننا نلاحظ ان هذه الصفات « المميزة » التي عاشها النبي في نفسه من خلال صفته الرسالية كداعية يريد ان يجذب الناس الى الحق في الدعوة ، لم تكن الا الصفات التي تحدث عنها القرآن الكريم كخط عريض في العلاقات الانسانية العامة باعتبارها عنصرا حيويا من عناصر النجاح العملي في الحياة .

وقد ركز الاسلام على القدوة في عنصر الرسالة ، كما ركز على عنصر الدعوة : فاعتبر عمله وتقريره سنة .. كما اعتبر قوله سنة ، فاوجب اتباع النبي (ص) في سلوكه كما في قوله تعالى :

« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ
أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللهَ
وَالْيَوْمَ الآخِرِ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً » ٣٣ : ٢١

كما اوجب اتباعه في دعوته كما في قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ
وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ »
٨ : ٢٤

وربما كان هذا التركيز ــ من الاسلام ــ على عنصر القدوة ، الى جانب تأكيده على عنصر الدعوة ايحاء للعاملين بان من واجبهم ان يقتدوا بالنبي في ذلك ، ليكون سلوكهم دعوة ، كما يكون كلامهم دعوة ، فيرتبط الناس باشخاصهم من ناحية عملية ، كما يرتبطون بافكارهم من ناحية عقيدية .. ولقد جاء الحديث عن امير المؤمنين علي (ع) في هذا المجال قوله المأثور عنه في نهج البلاغة :

« من نصب نفسه للناس اماما فليبدأ بتأديب نفسه ومؤدب نفسه احق بالاجلال من مؤدب الناس ومعلمهم » .

وجاء في الحديث عن الامام جعفر الصادق (ع) مخاطبا أصحابه :

« كونوا دعاة للناس بالخير بغير ألسنتكم ليروا منكم الاجتهاد والصدق والورع [1] » .

---

(١) الكافي ج ٢ ص ١٠٥ .

وقد أنذر الله المؤمنين الذين يقولون ما لا يفعلون انذارا صارخا ، باسلوب حازم وذلك قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ » ٦١ : ٣

وأنكر على اهل الكتاب هذه الازدواجية بين الامر بالخير وبين العمل بالشر .. وذلك هو قوله تعالى :

« أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » ٢ : ٤٤

(ب) ـ تجسد الاسلام في سلوك الامام علي (ع)

ولعلنا نلمح في سلوك الامام امير المؤمنين علي بن ابي طالب في ممارسته للمسئولية بالطريقة القاسية التي ألزم بها نفسه ، هذا الاتجاه الاسلامي في تجسيد الانسجام بين القول وبين العمل ، حتى في الحالات الطارئة التي يمكن فيها للانسان ان يأخذ لنفسه جانب الرخصة في كثير من جوانب العمل ، لتكون الممارسة دعوة واقعية متجسدة تسجل على نفسها الموقف بصورة شديدة قبل ان تدعوا الآخرين اليه ، وذلك هو ما نستوحيه من قوله (عليه السلام) ... « الا وان لكل مأموم اماما يقتدي به ويستضيء بنور علمه ، الا وان امامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه ومن طعمه بقرصيه ، الا وانكم لا تقدرون على ذلك ، ولكن اعينوني بورع واجتهاد وعفة وسداد » ...

فقد اطلق الدعوة بالكلمة ، بعـد ان جسدها واقعـا حيا بالسلوك العملي ، في أعلى صورة من صور العنف والشدة .. وقد نستوحي ذلـك من موقفه الذي وقفه ضد اولئك الذين جاؤا يطلبون اليه ، في بداية خلافته ان يقرب اليه رؤساء العشائر ، وولاة البلـدان ، ليستميلهم اليه ، فـاذا استقام له الحكم وامسك بزمام الامور ، تصرف بما يحلو له مما يفرضه عليه خطه المستقيم في الحياة في السير على طريق الحق ما امكنه ذلـك .. فامتنع عليهم اشد امتناع وخاطبهم بهذه الكلمات الرائعة ..

« أتأمروني ان اطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه والله لا أطور به ما سمر سمير وما آم نجم في السماء نجما ، لو كان المال لي لسويت بينهم ، فكيف وانما المال مال الله الا وان اعطاء المال في غير حقه تبذير واسراف ، وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة ويكرمه في الناس ويهينه عند الله ، ولم يضع امرؤ في غير حقه ولا عند غير اهله الا حرمه الله شكرهـم وكان لغيره ودهم فان زلت به النعل يوما فاحتاج الى معونتهم فشر خليـل والأم خدين [1] » .

فاننا نستوحي من هـذا الموقف دور الحاكم ، كما نستوحـي دور الانسان الرسالي الذي يطلق للناس دعوات الحق في خارج الحكم ليقربهم الى الرسالة ، ويربطهم بها من خلال ذلك ، فاذا جاء الى الحكم شعر بـان الموقف يفرض عليه مسئوليتين ، مسئولية الناس في تحقيق المساواة بينهم وتطبيق الشريعة في حياتهم ، ومسئولية الرسالة في تحقيق الانسجـام فـي اطارها بين جانب القول وبين جانب العمل للتدليل على واقعيتها وجديتهـا واخلاص الداعين اليها والعاملين في سبيلها ..

وقد نشعر بالحاجة الى بعض التفاصيل التي قد تحتاج الى القاء الضوء عليها في قضايا القول والعمل في عدة نقاط :

---

(١) نهج البلاغة ص ١٨٣ ، طبعة بيروت ، دار الكتاب اللبناني .

اهمية فعل الداعي للمستحبات

ـ ١ ـ ربما كان من الضروري ان لا يقتصر العاملون في سبيل الدعوة الى الله ، على فعل الواجبات وترك المحرمات ، فان ذلك قد يمثل قيمة دينية في مجال التقييم الاسلامي الذاتي للانسان ، ولكنه لا يجسد القيمة الكبيرة في حياته كداعية ، بل يحاولون ان يضيفوا الى ذلك الاخذ بالمستحبات الشرعية ، التي تمثل المنهج العملي الاسلامي المرتبط بالجانب الاخلاقي ، الذي لا يلزم الاسلام به اتباعه بل يترك لهم أمر ممارسته بشكل اختياري ، وذلك بالاسلوب الذي يثير فيه التشريع امام الانسان رجحان الفعل ، ويلوح له بالثواب عليه ، ويؤمنه من العقاب في حال تركه .. لتكون الاخلاق الاسلامية نابعة من صميم الذات لا من طبيعة الالزام .. ثم قد يلزم الامر ان يتركوا بعض المكروهات ، التي هي عكس المستحبات ، لان الرجحان هنا في جانب الترك ، بينما كانت هناك في جانب الفعل ...ولكنهما يلتقيان في بناء الشخصية الاسلامية القائمة على عنصر الاختيار ، لان عناصر الشخصية تتكون من عنصر سلبي وعنصر ايجابي .. وقد تدعو الحاجة الى أن يترك بعض المباحات اذا كان فعلها غير مألوف في حياة الناس مما يوجب الاضرار بالدعوة وبصاحبها .. وهكذا نجد ان مسئوليته كداعية تقتضيه أن يجسد المثل الرائع للانسان المسلم في نظر الناس ، فيحبه الناس من خلال سلوكه ، ويتحول ذلك الحب، الى اخلاص لدعوته عندما يجدون الانسجام الكامل بين الدعوة وبين العمل .

التأكيد على ممارسة الداعية لما يقول

ـ ٢ ـ اننا نحاول التأكيد على هذا الجانب من الممارسة في حياة الداعية انطلاقا من التجارب العملية التي عاشها بعض العاملين في الحقل الديني من علماء الدين وغيرهم عندما استسلموا الى الحياة استسلام

المشغوفين بها ، المندفعين اليها ، بكل شوق ولهفة ، مما جعلهم يعبون منها بلا حساب ، ويستنزفون رخصها حتى آخر قطرة ، ويقتربون من محرماتها بافكارهم وان ابتعدوا عنها بافعالهم حتى تراهم يفتشون عن وجوه الاباحة في كل مجال ، اما المستحبات فلا يتعبون انفسهم بها ، لانها لا تستتبع العقاب في تركها . أما ثوابها فلا حاجة لهم به ، فيكفيهم ما يحصلونه من الثواب في الواجبات واما المكروهات والمباحات فلماذا يتركونها ، فهكذا يقولون ، وما دامت القضية لا تستتبع عقابا في الفعل فلماذا يحرمون انفسهم من الاستمتاع بعنصر الاباحة في الشرع فان الله يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر .

وتستمر الحياة بهم هكذا ... ويستمرون في مواعظهم ونصائحهم وارشاداتهم ، ويتحدثون عن الزهد في الدنيا وما اعد الله للزاهدين ، ويقصون على الناس قصص الزهاد الذين يقتصرون على القليل القليل من الطعام ... ولكنهم لا يزهدون في الدنيا هذا الزهد الذي يحدثون الناس به .. وتسألهم عن تفسير لذلك فيجيبونك بان هذا الزهد ليس بواجب فلماذا نلزم انفسنا به ، لان الواجب علينا هو الزهد عن الحرام ، وهذا ما نفعله ...

ثم يتحدثون عن الصبر ، وما اعد الله للصابرين ، ويروون لنا روايات الصابرين واحاديثهم ممن يصبر على المصيبة وعلى الفقر ، وعلى نوازع النفس ومشتهياتها ويدعون الناس الى الاخذ به بالحاح وشدة ولكنهم لا يصبرون اذا اصابتهم مصيبة ... بل ينهارون امامها ويسقطون صرعى الجزع او ما يقرب من الجزع .. أما الفقر فما اقل صبرهم عنه ... واما نوازع النفس فقد لا يحسنون ترويض النفس على الصبر عنها حتى في حالة انطلاقتها الى ارتكاب الحرام فاذا سألتهم عن ذلك بدأوا يقرأون عليك النصوص التي تتحدث عن الفقر ... والادعية التي تستعيذ بالله من الفقر .

... والآيات التي تتحدث عن النفس الامارة بالسوء الا من رحم الله ... وينسون في غمار ذلك كل ما ألقوه من مواعظ ونصائح للاستهلاك المنبري او المسجدي اذا صح التعبير ــ ويتحدثون عن الاخلاق وكيف ينبغي للانسان ان يحب لاخيه ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لها ، وكيف يجدر بالانسان المؤمن ان يأخذ الآخرين بالعفو والتسامح والمغفرة والحلم وغير ذلك من المعاني التي تلتقي بالرفق والسلوك ولا تلتقي بالعنف . وكيف يعيش المؤمن هموم الناس ومشاكلهم ، ويهتم بهم لان من لا يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم ... وكيف تنطلق « الغيرية » في حياة الانسان ، كقيمة روحية ، تتحدى الانانية ، كقيمة شيطانية بغيضة وهكذا حتى آخر مادة اخلاقية في قانون الاسلام التشريعي وبرنامجه الاخلاقي .. ولكنهم لا يمارسون من هذا شيئا .. فهم يغرقون في وحول الانانية المغلفة باكثر من غلاف شرعي ، ويشتدون في المطالبة بما لهم من حق ، او بما يحسبونه حقا لهم حتى اقل ذرة .. فلا يتسامحون في شيء لان ذلك حقهم الثابت الذي لا يحرم عليهم شرعا المطالبة به ، اما شعورهم تجاه الناس ، فهو شعور « اللامبالاة » المستحبة التي لا يجب على الانسان القيام بها .. فاذا اقتربت الى اخلاقهم في المعاشرة والمعاملة ، رأيت الغضب والشدة والعنف ، مما لا يلتقي بالرفق من قريب او من بعيد .. فاذا ذكرته باحاديث النبي والائمة والاولياء التي لا ينفك يحدث الناس بها ، استغرب حديثك وقال لك .. اننا لا نستطيع بلوغ درجة الانبياء لانهم معصومون ، ونحن من أهل الخطايا وهكذا يمتد هذا السلوك المنفلت حتى يطغى على حياته فيجرده عن المعاني الكبيرة التي ترتبط بالقيم ويتحول الى انسان يسحر الناس بمواعظه وارشاداته حتى ينطلقوا الى الدين وتعاليمه بلهفة وشوق ولكنه يبعدهم عنه ، عندما لا يجدون لروحية الدين واخلاقيته ، أثرا في حياته وسلوكه .. وتلك هي قمة المأساة التي يعانيها الدين في كثير من النماذج في رجاله الذين يخلصون لشهواتهم ورغباتهم اكثر مما يخلصون

لرسالتهم ودينهم ، فلا يستجيبون لمصلحة الرسالة اذا اصطدمت برغبات النفس ومشتهياتها المباحة في بعض الحالات او المحرمة في بعض آخر ، تبعا لدرجة الالتزام الديني قوة وضعفا .. وقد ورد في بعض الاحاديث عن ائمة اهل البيت ما يشير الى الوقوف موقف الحذر والاتهام من العناصر التي تعيش هذه الروح المشغوفة بالدنيا كما في الحديث الوارد عن الامام جعفر الصادق (ع) قال : « اذا رأيتم العالم محبا لدنياه فاتهموه على دينكم فان كل محب لشيء يحوط ما أحب » [1] .

وقد جاءت الاحاديث الكثيرة التي تنذر هؤلاء الذين يصفون العدل ثم يخالفونه الى غيره ، بالعقاب الاخروي الشديد انطلاقا من الحملة الدينية على كل مظاهر الزيف في الحياة وفي الدين ، لانها تشوه الحق وتربك خطوات العاملين وتفقد الثقة بالعمل نفسه ، وتؤدي — بالتالي — الى انهياره في كل موقع من مواقعه .

فقد جاء في الحديث عن الامام جعفر الصادق (ع) في قوله تعالى :

« فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ » ٢٦—٩٤

قال : « هم قوم وصفوا عدلا بالسنتهم ثم خالفوه الى غيره » [2] .

وقد ورد في حديث آخر عنه : « ان اشد الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلا ثم خالفه الى غيره [3] » .

ضرورة الاعداد الروحي والديني للداعية

— ٣ — ان القضية — كما ألمحنا الى ذلك — لا تتجمد في موقف

---

(١) الكافي ج ١ ص ٤٦ .

(٢) و (٣) الكافي ج ٢ ص ٣٠٠ .

الانسان الذاتي ازاء موضوع الدعوة الى الدين والعمل به بل تمتـد الى قضية الدعوة ، كاطار تتحرك فيه العقيدة ، لتطبعها بطابع الثبات والجدية ، او بطابع الاهتزاز وعدم الصدق ، بما يجعل من هذا السلوك الذي يمارسه العاملون في سبيل الله ، جريمـة وخيانة للرسالة من حيث يريـدون او لا يريدون .. ولهذا فاننا نريد التركيز على ضرورة الاعداد الروحي والديني للعلماء الدينيين والدعاة الى الله الى جانب الاعداد الثقـافي والفكري ، ليستطيعوا الانطلاق الى الدعوة من خلال العمل والتطبيق ، كما ينطلقـون اليها من خلال الفكرة والنظرية .. وذلك بالتوفر على الدراسة الدقيقة ، مع التحفظ على الاساليب المتعارفة لـدى المرتاضين الذين يتولون تـدريب انفسهم وتدريب اتباعهم ، على جهاد النفس ، بالاساليب التـي تخلق لدى الانسان عقدة كبيرة في نهاية المطاف ، وبالمضمون الذي يلتقي مـع الافكار الانعزالية التي تعزل الانسان عن الحياة ، وتشل حركته حتى عن الدعـوة الى الله ، بسبب الخوف من الرياء او غير ذلك ، مما يجعله ضعيف الارادة عن مواجهة التحديات ، بدلاً من الحصول على القوة التي يواجه بهـا كـل شيء .. وقد شاركت هـذه الاساليب في عزل كثير من الطاقات الحيـة وتجميدها عن العمل لانها اعتبرت الرياضة الروحية هدفا بعد ان كـانت وسيلة ، وتعلمت من اساتذتها ان التأمل والتفرغ للعبادة والعزلة عن الناس هو السبيل للقرب من الله والحصول على رضاه ..

اننا نتحفظ في تشجيع ذلك ، لاننا نريد مواجهة الداعية للحيـاة ، بتربية روحية تربط الفكر والارادة بالمضمون الاسلامي الذي يربط المؤمن بالحياة المتحركة النابضة بالحق ، وبعزله عن رغبـاتها واوضاعها المنحرفة المرتبطة بخط الباطل ، فليست الحركة في موضعها هدفا مستقـلا ، وليست العزلة ، في مجالها ، هدفا آخر .. بل هما وسيلتان متكاملتان يكمل احدهما الآخر في خلق الشخصية المسلمة الواعية ، المنفتحة على الحياة بالعمل، وعلى

داخل النفس بالرقابة والتربية لئلا يتحول جهاد النفس الى عنصر ضعف بدلا من ان يكون عنصر قوة •

قيمة السلوك العملي المستقيم للداعية كاسلوب للدعوة الحية

٤ ـ اننا نجد في تاريخ الدعوة الاسلامية كثيرا من الاساليب العملية التي تتجسد فيها روح الاسلام ، وتعاليمه ، فنلاحظ نجاحها في كسب الآخرين الى جانب الايمان بالاسلام ، بالمستوى الذي لا يمكن مقارنتها بأي شيء من الاساليب البيانية التبشيرية ولعل السبب في ذلك ، ان الانسان الذي يستمع الى انسان آخر ، في مجال الدعوة ، ربما يكون خاضعا لحالة نفسية معينة ، تقيم الحواجز بينه وبين الوصول الى القناعة الفكرية •• لان الشعور بالخطر الذي يتحدى قناعاته السابقة يخلق عنده حالة من حالات المواجهة والمجابهة للفكر الجديد ، مما يؤدي به الى رفض ذلك كله اما الاسلوب الذي يعتمد على السلوك العفوي ، في طبيعته ، او في طريقته العملية التي توحي بذلك •• فانها تقتحم على الانسان كل قناعاته الفكرية بمواجهته لكل مشاعره وحواسه وافكاره من دون شعور بأي نوع من انواع التحدي والمعارضة ، او أي ايحاء بذلك من قبل الداعية ، حيث يقف الانسان وجها لوجه امام التجسيد الحي للاسلام في حركته التطبيقية، مما يحطم كل الافكار المضادة التي كان يحملها عنه دفعة واحدة •• وهذه بعض النماذج الحية من حياة ائمة اهل البيت عليهم السلام •

١ ـ جاء في كتاب الكافي ـ للكليني ـ عن الامام جعفر الصادق قال. ان امير المؤمنين (علي بن ابي طالب عليه السلام) صاحب رجلا ذميا فقال له الذمي اين تريد يا عبدالله قال : اريد الكوفة فلما عدل الطريق بالذمي عدل معه امير المؤمنين عليه السلام فقال له الذمي : ألست زعمت انك تريد الكوفة فقال له : بلى فقال له الذمي فقد تركت الطريق فقال له : قد علمت

قال : فلم عدلت معي وقد علمت ذلك فقال له امير المؤمنين هذا من تمام حسن الصحبة ان يشيع الرجل صاحبه هنيهة اذا فارقه وكذلك امرنا نبينا عليه السلام فقال له الذمي هكذا قال نعم قال : انما تبعه من تبعه لافعاله الكريمة فانا اشهدك اني على دينك ورجع الذمي مع امير المؤمنين (ع) فلما عرفه أسلم .. [1] .

٢ ــ وجد درعه عند رجل نصراني فاقبل به الى شريح قاضيه ، يخاصمه مخاصمة رجل من عامة رعاياه وقال : انها درعي ولم ابع ولم اهب فسأل شريح النصراني : ما تقول فيما يقول امير المؤمنين قال النصراني : ما الدرع الا درعي وما امير المؤمنين عندي بكاذب فالتفت شريح الى علي يسأله يا امير المؤمنين : هل من بينة فضحك علي وقال : اصاب شريح ما لي بينة فقضى بالدرع للنصراني فاخذها ومشى ، وامير المؤمنين ينظر اليه الا ان النصراني لم يخط خطوات الا عاد يقول : اما انا فاشهد ان هذه احكام انبياء ... امير المؤمنين يدينني الى قاضيه ، فيقضي عليه ، اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمداً عبده ورسوله . الدرع درعك يا امير المؤمنين ، اتبعت الجيش وانت منطلق الى صفين فخرجت من بعيرك الاورق فقال علي: اما اذا اسلمت فهي لك .

اننا نلاحظ ــ في هاتين القضيتين ــ ان الامام علي لو استعمل كل بلاغته في سبيل هداية هذين الرجلين الى الاسلام لما استطاع ان يحصل على نتيجة كبيرة في هذا المجال ، لان الحواجز النفسية التي تقيمها العقيدة المضادة في الداخل ، تقف سدا منيعا بين الكلمة ، وبين القلب ، فلا تسمح لها بالوصول اليه الا بجهد جهيد .. ولكن الانسجام العفوي مع تعاليم الاسلام التي يمارسها المسلم من غير تكلف ، ومن دون ملاحظة لطبيعة المستوى الاجتماعي ،

(١) الكافي ج ٢ ص ٦٧٠ .

استطاعت ان تهز هذا الانسان من اعماقه لتفتح للفطرة نوافذ المعرفة والانفتاح على الحق من أقرب طريق ، من دون ضجة او ضوضاء ، او جدل او صراع .

٣ ـ ما رواه في كتاب الكافي عن زكريا بن ابراهيم قال : كنت نصرانيا فأسلمت وحججت فدخلت على أبي عبدالله جعفر الصادق عليه السلام فقلت اني كنت على النصرانية واني اسلمت فقال وأي شيء رأيت في الاسلام قلت قول الله تعالى ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء فقال : لقد هداك الله ثم قال : اللهم اهده (ثلاثا) سل عما شئت يا بني فقلت ان ابي وامي على النصرانية ، وأهل بيتي .. وامي مكفوفة البصر فأكون معهم وآكل من آنيتهم فقال : يأكلون لحم الخنزير فقلت لا ، ولا يمسونه فقال : لا بأس انظر امك فبرها فاذا ماتت فلا تكلها الى غيرك وكن انت الذي تقوم بشأنها ولا تخبرن احدا انك اتيتني حتى تأتيني بمنى ان شاء الله قال : فاتيته بمنى والناس حوله كأنه معلم صبيان هذا يسأله وهذا يسأله فلما قدمت الكوفة لطفت بأمي وكنت اطعمها وافلي ثوبها ورأسها واخدمها فقالت لي يا بني ما كنت تصنع هذا وانت على ديني وما الذي ارى منك منذ هاجرت فدخلت في الحنيفية فقلت رجل من ولد نبينا امرني بهذا قالت : هذا الرجل هو نبي فقلت لا : ولكنه ابن نبي فقالت لا يا بني هذا نبي ان هذه وصايا الانبياء فقلت يا اماه ، ليس يكون بعد نبينا نبي ولكنه ابنه فقالت : يا بني دينك خير دين اعرضه علي فعرضته عليها ودخلت في الاسلام وعلمتها فصلت الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة ثم عرض لها عارض في الليل فقالت يا بني أعد علي ما علمتني فأعدته عليها فاقرت به وماتت ، فلما اصبحت كان المسلمون الذين غسلوها وكنت انا الذي صليت عليها ونزلت في قبرها [1] .. ففي هذه

(١) الكافي ج ٢ ص ١٦٠ .

هذه القصة شاهد كبير على قيمة الانسجام العملي مع الخط الاسلامـــي الصحيح في رغبة الآخرين بالاسلام واقبالهم عليه ... لان الانسان الطاعن في السن ، لا سيما اذا كان امرأة ، لا يمكن بفعل العادة الغالبة ، أن يترك دينه ومعتقداته التي شب وشاب عليها حتى عادت جزءا من ذاته ، أمام اية حجة او دليل ، من الادلة العقلية والنقلية ، لان حواجز القداسة التي أقامتها الممارسة الطويلة في مدى الزمن ، تمنع أيا من هذه الادلة ان تصل اليها .. ولكن سلوكا واحدا قام به هذا الولد البار ، استطاع ان يقتلع كل عقيـــدة مضادة من جذور النفس ليفسح المجال للعقيدة الجديدة ان تشرق في قلبها وروحها وفكرها .. لتمتد الى عملها وممارساتها الحياتية فانطلقت فـــي الحاح المؤمنة الطيبة على ولدها ، ليعيد عليها الدين ، بعد ان دخلت فيـــه من اجل ان تحصل على معرفة اوسع وفهم اعمق ، وايمان ارحب ..

وتلك هي قيمة السلوك العملي المستقيم للداعية ، في تجسيد الفكرة في حياته وحيـــاة الآخرين لتكون اعماله دعوة حيـــة للاسلام .. صامتـــة بكلماتها ، ناطقة بوحيها الهادىء الوديع .



موقف الداعية
أمام حالات الانفعال

قد يواجه الانبياء واصحاب الدعوات الكبيرة ـ والدعاة من بعدهم ـ عندما ينطلقون للتبشير برسالاتهم او القيام بدعوتهم ، بكل اخلاص واندفاع من اجل رفع مستوى شعوبهم فاذا بالعقبات تنتصب في الطريق أمامهما ، لتكون جدارا ضخما يحول بينهما وبين بلوغ ما يريدون من اهداف ، واذا بالذين يعملون من اجل رفع مستواهم ، يقفون في الواجهة في موقف الاعداء ليكونوا اول من يطعن الدعوة ويحاربها ويرمي دعاتها بابشع النعوت وافظع التهم ويضطهدهم في حياتهم العامة والخاصة .

وهنا يقف النبي او الداعية وقفة الحزن والاسى ، وتتحول مشاعره الى انفعالات حادة تجعله يضيق بدعوته في بعض الحالات ، ويترك الساحة بأسا وهروبا ... وربما يقف وقفة الحزن الكئيب الذي يملؤ اعماقه بالالم واللوعة لينهار امام ذلك من اجل نفسه ، ومن اجل الآخرين .

وقد صور لنا القرآن الكريم هذه الحالات من خلال التوجيهات الآلهية التي كانت تلاحق النبي (ص) في مسيرة الدعوة وترصد خطواته لتسدده في كل ما يقول وفي كل ما يفعل او فيما يشعر به من مشاعر او يتعرض له من انفعالات . ففي بعض الآيات الكريمة صورة لحالة الضيق النفسي الذي يشعر به الانسان امام حالة التمرد ، ويدعوه الى ان ينسحب من المعركة في يأس ولوعة .

« فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » ١١ : ١٢

« وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ » ١٥ : ٩٧ ــ ٩٨

فهذا موقف يتعرض فيه النبي (ص) الى الاقتراحات التعجيزية التي كان يمارسها الكفار ضد النبي ويحاولون ان يشغلوه بها عن مهمته،ليتحول الى شخص لا شغل له الا الاستجابة لتمنياتهم وتحدياتهم التي لا معنى لها لانها لا تصدر عن محاولة للاقتناع ، ففي معاجزه التي قدمها لهم كل كفاية بل تصدر عن رغبة في التحدي لمجرد التحدي . ومن الطبيعي ان مثل هذا الاسلوب في المعاندة لا يجدي معه أي اسلوب سلبي او ايجابي مقنع ، لانهم لا يريدون ذلك ، كما قدمنا ، ولهذا كانوا يتحولون من عرض الى عرض ومن اقتراح الى اقتراح ، وكان صدر النبي (ص) يضيق بذلك ، او هكذا يحاول القرآن ان يوحي من وجهة تربوية ــ الى المستوى الذي يبلغ بقوته درجة الرغبة في الانسحاب في بعض هذه المواقف المزعجة ــ فجاء القرآن الكريم يقول له : لماذا يضيق صدرك بكلامهم وتحدياتهم ، انك قد قمت بمهمتك وهي الانذار والابلاغ بكل ما تملك من طاقة فلم تدخر جهدا في ذلك ، ولم توفر أي وسيلة ، واذا قام الانسان بما يجب عليه في نطاق قدرته فليرجف المرجفون ، وليقل المتقولون ، فلا قيمة لذلك كله في حساب الله .

وفي بعض الآيات تصوير لحالة الحزن التي يواجهها النبي (ص) امام

حالات الكفر ، تارة من جهة تكذيبهم له . واخرى من جهة موقفهم من الله وتحديهم لارادته وكلماته ، وثالثة من جهة حزنه عليهم لانهم لم يهتدوا للايمان . قال تعالى :

« قَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ » ٦:٣٣

« وَلاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً » ٣ : ١٧٦

« فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » ٥ : ٦٨

« فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً » ١٨ : ٦

« فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ » ٣٥ : ٨

ان هذه الآيات باجمعها تطلب من النبي ان لا يستسلم لانفعال الحزن امام هذه الحالات لانه اذا كان يحزن لاجل الله فانهم لن يضروا الله شيئا، اما اذا كان الحزن من اجل تكذيبهم له ، فليس التكذيب موجها اليه بل

هو موجه الى الله لانه يحمل رسالة الله ، كما ان القضية ليست بدعا في مجال النبوات ، فلطالما كذب الانبياء السابقون من قبل اقوامهم واذا كان الالم من اجل المكذبين انفسهم لانهم لم يؤمنوا فانهم لا يستحقون الالم ما داموا قد اختاروا طريق الهلاك في الدنيا والآخرة ... وهكذا تتنوع الآيات في تحليل كل حالة من الحالات لترجع الموقف الى جذوره الاساسية التي انطلق منها فلا يعود للانفعال اي مبرر او اي معنى .

ويطيب لنا ان نؤكد على نقطة مهمة في هذا المجال وهي : ان الآيات التي تطلب من النبي (ص) عدم الحزن على حالات الجحود من المشركين لا تستهدف تسليته وتعزيته ، كما يخيل لبعض المفسرين ، بل كانت تستهدف تفريغ نفسه من الانفعال العنيف الذي ينطلق من الشعور بالخيبة امام العمل ، وذلك باثارة حقيقة واقعة تفرض نفسها على الموقف ، وهي : ان قضية النجاح والفشل لا تنطلق من عنصر واحد يتمثل في جهد العامل ونشاطه بل تنطلق من عناصر عديدة تشترك فيها الظروف الموضوعية المحيطة بالعمل ، بما في ذلك مؤثرات البيئة وغيرها ، فلا بد للعامل ان يدخل ذلك في حسابه عندما يبدأ العمل ... ولعل من بين الاسس التي يرتكز عليها الموقف هو انطلاق الانسان من نقطة اساسية ، وهي المجالات التي يستطيع ان يتحرك فيها من خلال قدرته ونطاقه فهي التي ينبغي ان تثير اهتمامه وانفعاله . اما المجالات التي لا تخضع لارادته وقدرته ، فعليه ان لا يخضع لاي انفعال امامها لانها لا تمثل الا جهدا ضائعا في هذا المجال [1] .

اننا لا نحتاج الى جهد كبير، ونحن نتابع هذا الجو الرائع الذي تحاول ان تثيره الآيات المتقدمة في نفس النبي ، لتشيع فيها الراحة والطمأنينة والشعور بالانفتاح على حركة الرسالة في نظرة واقعية متفائلة لا تنهار امام

---

(١) السلوك الانفعالي في مفهوم الاسلام ص ١١٤ ــ ١٢٠ (مفاهيم اسلامية عامة الحلقة ٦ ــ ٧) .

ضغط الواقع ولا تنسحق تحت وطأة التحديات .. ثم لا يتحول التفاؤل ـ بعد ذلك ـ الى عنصر البعد عن الواقع في احلام اليقظة .. اننا لا نحتاج الى جهد كبير لنعرف ان محتوى هذه الآيات ليس موجها الى النبي من خلال الخصائص النبوية الموجودة فيه بل من حيث كونه رسولا وداعية الى الله ، على اساس حاجة الدعوة والرسالة في حركتهما في حياة الناس ، الى هذه الاجواء الروحية المتفائلة المشبعة بالواقعية والايمان ، وبذلك تعتبر هذه الآيات موجهة الى كل داعية اسلامي في كل زمان ومكان، عندما يتعرضون الى التجارب القاسية التي تعرض لها النبي (ص) والتحديات التي واجهها كما يحدث لكثيرين من العاملين الذين يتعرضون للاضطهاد والتكذيب ، وللاقتراحات غير المعقولة التي يقترحها بعض الكافرين او المنحرفين للتعجيز امام البسطاء ، وللسخرية وللاستهزاء ، كمن يقول في حالة الحديث عن وجود الله ان كان الله موجودا فليكسر يدي،او فليطعمني، او فلينزل علي مالا من السماء ونحو ذلك من الكلمات الصبيانية التي يقصد منها التأثير على عقول البسطاء من الناس الذين لا يدركون طبيعة التحديات وموقعها من قضية الحجة والبرهان على العقيدة ، فيستسلمون اليها او ينفعلون بها .. فيولد ذلك كله للداعية المسلم ازمة نفسية خانقة قد تدفعه الى الشعور بالضيق ، وقد تقوده الى محاولات الانسحاب، وقد تملأ قلبه بالحزن والاسى على نفسه وعلى الناس ... كما يحدث له ارتباكا في الخطا واضطرابا في القصد ...

ان على الداعية في هذه الحالات ان يواجه هذه المواقف ، بالروح التي اراد الله له ان يواجه بها الاحداث من خلال توجيهاته الرسالية للنبي محمد (ص) ليعرف أن الانفعالات الذاتية ليست موقفا شخصيا يملك الداعية فيه حريته في ضبطها او اطلاقها بل هي موقف يتصل برسالته وبهذا تتحدد تبعا لمصلحة الرسالة في نموها وامتدادها في حياة الداعين وفي حياة الامة .



وقد يعيش الداعية بعض الحالات الشعورية او العاطفية ، التي تدفعه الى التنازل عن بعض مواقفه لمصلحة خصوم العقيدة ، او المداهنة والمداجاة في بعضها الأخر وذلك بسبب فكرة خاطئة تسيطر على تفكيره فتوحي اليه بأن عليه ان يعمل في سبيل الحصول على رضا المجتمع او الفئات التي تعتقد عقيدة معينة تختلف عن عقيدته او تتبنى منهجا عمليا يختلف عن اسلوبه العملي ، ليكون انسانا مألوفا لديهم ومرغوبا عندهم ، ومحبوبا في اوساطهم ليسهل عليه امر الدخول في مجتمعاتهم والنفاذ الى اعماق حياتهم من موقع المحبة والمودة التي ترتكز عليها الثقة في كثير من الحالات ، وقد عالج القرآن الكريم هذا الموضوع في حديثه مع النبي محمد (ص) في الظروف التي كان يعيش فيها الصراع مع اهل الكتاب فقد قيل ــ كما في مجمع البيان ــ ان النبي (ص) كان مجتهدا في طلب ما يرضيهم ليدخلوا في الاسلام فانزل الله عليه هذه الآيات :

«وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ . قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ»
٢ : ١٢٠

«وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ

مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَنْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ » ٢ : ١٤٥

« وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍ وَلَا وَاقٍ » ١٣ : ٣٧

« وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ » ٥ : ٤٩

ونحن نلاحظ في هذه الآيات الاسلوب الحاسم الذي يرفض الطريقة المتبعة في تحصين ثقتهم باتباع ما يحبونه من ناحية الاساس ، فيحذر النبي (ص) من اتباع اهوائهم التي لن تتحرك الا في اتجاه الانحراف عن خط الهدى بالتصرفات غير المشروعة ، او بتغيير حكم الله الى غيره مما يحسبون انه حكم الله ويتحول التحذير الى تهديد بان الله يسحب منه رعايته وولايته ووفايته من الاخطار المحدقة به ويمنع عنه نصرته على اعدائه ويجعله في صنف الظالمين لينال جزاءهم في الدنيا والآخرة ...

اما الغاية التي يقصدها من خلال ذلك فلن تحصل ابدا لان القوم بين حالتين حالة الاخلاص لعقيدتهم وحالة الحقد الداخلي على النبي وعلى الاسلام وان لم ينطلقوا من موقع العقيدة في ذلك ، وفي كلتا الحالتين لا يمكن ان يكون دخولهم في الاسلام غاية عملية معقولة . تلتقي بهذا الاسلوب كما تلتقي النتائج بمقدماتها . اما في الحالة الاولى فلانهم

ينطلقون في سلوكهم الذي يوحي بقربهم الى الاقتناع بالرسالة والتراجع عما هم فيه ، من خطة تحاول ان تحمل النبي (ص) — في ظنهم — على التراجع عن بعض الاحكام المخالفة لاحكامهم ، في حركة تدريجية تنتهي الى التراجع الكلي فيما يريدون فاذا كانت الاوضاع المتسالمة المراوغة خاضعة لخطة تضليل النبي (ص) فكيف يمكن ان يؤمل في هدايتهم الى الدين الحق . وفي الحالة الثانية لا يمكن الحقد ان ينتج سلاما ودينا واسلاما .. لانه يتفجر غدرا وخيانة وخداعا وتضليلا ومهما كانت الاوضاع فان هدفهم ان يتراجع النبي (ص) عن الدين ، لان المشكلة الوحيدة التي تحدد الموقف وتفتح الطريق للصراع ... اذ ليس بينه وبينهم خلاف في جانب شخصي او مالي أو غيرهما ، فلا يمكن — في هذا الحال لاية مبادرة او تنازلات جزئية ان تحقق لهم الرضا عنه لان الاسباب التي انتجت الحقد لا تزال باقية ، في موضعها فلا يزول الا بزوالها ومن هنا اعطى القرآن الكريم النفي القاطع في موضوع الرضا ، فقال ، ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ، وفي موضوع القبلة التي ربما كان النبي يأمل ان يتبعها اهل الكتاب .. « ولئن اتيت اهل الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك » لانهم اصدروا حكمهم عليك وانتهى الامر ، ليعارضوا كل ما انت عليه من موقع العناد والحقد والاستكبار .

وقد جاءت بعض الآيات التي تتحدث عن الركون الى هؤلاء الكافرين بالافتراء على الله بغير ما انزل اليه فاطلقت التهديد بعنف شديد لا مثيل له وذلك هو قوله تعالى :

« وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ
وَإِذًا لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً وَلَوْلاَ أَنْ

ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ
شَيْئاً قَلِيلاً . إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ
وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ
عَلَيْنَا نَصِيراً » ١٧ : ٧٣ — ٧٥

وجاء في مجمع البيـان ، ان هنـاك عدة اقوال في سبب النزول ، بعضها في طلبهم الانسجام معهم ولو قليلا في أجواء الاصنام بالالمام بها او الكف عنها ، ويتمثل البعض منها في ابقاء بعض الاصنام او تأجيل كسرهـا او ما اشبه ذلك •• ونحن لا نريد ان نثبت احداهـا او ننفيهـا ، ولكننـا نتحفظ في ذلك ، اذ لم يثبت لنا منها ما يفيدنا العلم به ، ولكننـا نميل الى ان الآية تتجه الى الايحاء للامـة بالفكرة وتحذيرها من الانزلاق في هذا المنزلق الخطر بفعل الاغراءات المعسولة التي يقدمها الاعداء الى المؤمنين ، كما روى عن ابن عباس قوله « ان رسول الله معصوم ولكن هذا تخويف لامته لئلا يركن أحد من المؤمنين الى احد من المشركين في شيء من احكام الله وشرائعه » ويحتمل في نسبة الركون اليـه ، ان الاساليب التي اتبعت معه واثيرت لديه ، كانت من القـوة والاغراء والايحـاء ما تؤدي به الى الركون ، لو كان من الاشخاص الذين يركنون الى ظاهر الاشياء ، ولـكن الله ثبته بقوة الايمان ، فلم يستطيعوا التأثير عليه او زحزحته عن موقفه•• فيكون التثبيت من خلال طبيعة شخصية الرسول المنيعة فيه ، لا من خلال الحالة الطارئة التي تنطلق بشكل آني لتمنع وقوع الكارثـة او حـدوث الانحراف • وعلى كل حال ، فان عنف الاسلـوب في مواجهـة مثل هذه المشاعر النفسية التي تثير في نفس الانسان الرغبـة في التنازل على اساس الرغبة في ارضائهم ، لينتهـي الموقف بعد ذلك الى الايمان ، يدلنـا على خطورة هذه المشاعر ، على اتجاهات الانضباط والاصرار في سبيل الاخلاص للرسالة ، لانه يعرض الدعاة الى الخروج عن الخط تدريجيا لتكون النتيجة

خروجا نهائيا عن الخط اساسا وتحطيما للمقاومـة النفسية التي تقف سدا منيعا ضد محاولات الهجـوم والانحراف ، وبذلك لم يعد الجو يحتمـل انصاف الحلول ، واساليب المجاملة لان القضية قضية العقيدة في قوتهـا وصمودها واستمرارها لا قضية وضع اجتماعي طارئ لا أهمية له •



واذا كانت القضية في اسلوبهـا العنيف ، بالمستوى الذي لا يمانع في توجيه التهديد الى النبي كما لو كانت الحادثة صادرة عنه ، او انتسب الانحـراف اليه ، فكيف يكـون الموقف لو صدرت من الآخرين ممن لا يملكون منزلته ودرجته في الايمان بالله والقربة اليه والحظوة عنده ، لو تعرضوا للتجربة ، ووقفوا امـام المنزلق الخطر ••• ان في هذه الآيـات تهديدا في مستوى الانذار الحاسم الذي يصدر الحكم وينفذه فـورا ، ليجعل للرسالة مناعتها ويحفظهـا من السقوط في الهاوية ، ويمنعهـا من الاندفاع نحو الانهيار والذوبان •

وقد نلاحظ في بعض الاساليب التي يتبعهـا المضللون والمنافقـون لينحرفوا بالمؤمنين والدعاة عن خطهم الاصيل ما يشير الى هذا الاتجاه ••• فهناك الاسلوب الذي ينطبع بطـابع الاغراء فيعطي بعض المؤمنين صفـة التقدمية والعقل المتطور ، ثم يوحي اليه بشكل خفي وبطريقة غير مباشرة ؛ بأن هذه الصفة لا تتناسب مع الحكم الشرعي او المفهوم الاسلامي الذي يؤمن به ، ليشجعه على الخروج عليه والتنكر له ، من اجل ان يظل حائزا على شرف الصفة ، وهكذا ينتقل به من حكم الى حكم ومن مفهوم الى مفهوم آخر ، لينتهي الى احد موقفين ، إما الخروج من الاسلام نهائيا والخجـل بانتسابه اليه لاختلافـه مع خط التطور ، واما محاولتـه تحريف احكام الاسلام ومفاهيمه وتأويلها ، ليحتفظ بالصفـة الشكلية للاسلام الى جانب

صفة التقدمية والتطور وهو في كلتا الحالتين خارج عن الخط المستقيم .

وهناك الاسلوب المعاكس الذي يتبع اسلوب الهجوم عليه وتحقيره باضفاء صفة الرجعية عليه والتأخر على عقيدته وسلوكه واسلوبه في الحياة ... ثم يوحي اليه بطريقة خفية ذكية ، بالتنكر لبعض مفاهيم العقيدة وأوضاع السلوك ، اما برفضها مباشرة ، واما بتأويلها بما ينسجم مع النصوص الاسلامية ليعطيها قناعا اسلاميا مزيفا ليحتفظ برضا المجتمع عليه ، وحسن نظرتهم اليه ، فينعم بتلك الحظوة ... ويسعد بالدرجة الاجتماعية الكاذبة التي يمنحها له اعداء الله في اطار من السخرية والاستهزاء والاحتقار الخفي لسذاجته وغفلته .

وهناك الاسلوب الذي يحاول اثارة الضوضاء على بعض الاحكام الشرعية التي يرفضها الاوروبيون بفعل الذهنية المسيحية التي نشأوا عليها فآمنوا بها ثم اضافوا اليها حيثيات عصرية جديدة طبعتها بطابع التقدمية المرتكزة على احترام المرأة وتعظيمها ، كتشريع تعدد الزوجات والطلاق في الاسلام الذي حاربوه حربا لا هوادة فيها ، ونادوا بالويل والثبور وعظائم الامور حزنا على المرأة المسكينة الضعيفة التي جعلها الاسلام متعة للرجل ، فأنشأ لها نظام الحريم الذي يحاول الرجل في اطاره ان يحبسها في داخله كالمعلبات التي لا ينفذ اليها الهواء ثم جعل له حق التعدد وحق الطلاق ولم يجعل لها شيئا من ذلك ... واستعملوا كل اساليبهم في الاثارة وفي التشويه لينفروا الناس من ذلك ، وجاء كثير من المسلمين من حكامهم ومفكريهم ليلفوا ويدوروا حتى يتخلصوا من ذلك فيتأولوا النصوص ما شاءت لهم نفوسهم الضعيفة من تأويل ويحرفوا ما أمكنهم من تحريف ويشرعوا القوانين التي تقيد ذلك وتحظره ، فأعطوه صفة اسلامية انطلاقا من صفة الدولة او من صفة الحاكم الرسمي ليرضى عنهم الآخرون ، وأوهمهم الآخرون بالرضا وصفقوا لهم طويلا وهللوا لهم كثيرا .. ولكنهم

كانوا يعدون الخطط بالخفاء ليدفعوها الى تنازل جديد وتراجع جديد ، بتناول الصفة الاسلامية بالذات باعتبارها صفة دينية توحي بالتعصب الديني الذي لا يتناسب مع الشخصية التقدمية للحاكم او الصفة العصرية للدولة ، ولهذا كانت « الاقلام التقدمية » تثور عندما تولد ثورة جديدة لتقر صفة الاسلام كدين رسمي للدولة او تشرع بعض احكام الاسلام فيما تشرع من قوانين بحجة الدفاع عن الصفة الثورية والمحافظة على الاقليات الدينية الموجودة في الدولة لان مثل هذه الصفة تمس شعورها الديني وتوحي لها بنوع من انواع الاحساس بالاضطهاد ... وينهزم الكثيرون من « اولي الامر » امام هذه الحملات ليحصلوا على رضا هؤلاء واولئك ولكنهم لن يحصلوا على رضاهم ما داموا لم يخرجوا من الخط الكلي ليسيروا على الخط الآخر الذي يسير عليه الآخرون ومن المفارقات التي تحكم هذه المواقف هو ان هؤلاء الذين يثورون على اعطاء الدولة صفة الاسلام باعتبار ان الاكثرية اسلامية ، محافظة على شعور الاقليات الدينية ، لا يثورون ، ولا يقفون الموقف نفسه او نصفه او ربعه ، اذا أريد لها ان توصف بالشيوعية او بالصفة القومية ، او غيرها من صفات المبادىء الحديثة التي تحكم الدولة او المجتمع ، مع ان في المجتمع فئات كبيرة لا تؤمن بالشيوعية، أو لا تنتمي الى الصفة القومية... فلماذا لا يحافظون على شعور الاكثرية هنا ، او الاقلية هناك ، اذا كان الغاء الصفة الاسلامية لاجل هذا السبب بالذات ... او ان الاسلام لا يرقى الى مستوى الجدية والاحترام الذي تتصف به التيارات المعاصرة ...

اننا نؤكد على الحذر الشديد امام الحالات الشعورية والعاطفية التي تولّدها الاساليب المثيرة المنحرفة من قبل أعداء الاسلام ، سواء في ذلك الاساليب المرتبطة بالجانب العقيدي او بالجانب التشريعي او بالجانب السياسي الذي ترتبط به الممارسات العملية للناس في خط هذا التيار او في

خط التيار الآخر ، فقد يجر الانسان الى ما ينحرف به عن خطه ، بالايحاء له بالحصول على رضا الكثرة الغالبة التي تحترم السائرين في هذا الخط ، وتشجب السائرين في الخط الموازي له ... وقد علّمنا الاسلام أن علينا ان لا نحترم الكثرة او الاكثرية اذا كانت على خلاف الحق . ولا نحتقر رأي القلة اذا كان منسجما مع الحق ، ليكون الهاجس الدائم الذي يحركنا هـو الحق في اتجاه الايجاب ، والباطل في اتجاه السلب ... فان في ذلك رضوان الله ... وهو غاية القصد في كل حركة وفي كي اتجاه .



الفصل الرابع

مع الدعوة في اسلوبها العملي

١ ــ اصالة اسلوب الدعوة وتميزه .
٢ ــ اسلوب القرآن واسلوب الفلسفة في الدعوة .
٣ ــ اسلوبنا بين الانحراف القديم وبين الانحراف الجديد .
٤ ــ كيف نواجه تحديات الكفر والانحراف .
٥ ــ كيف نعرض افكار الآخرين الى الناس .
٦ ــ اسلوب الدعوة في مواجهة الضغوط العامة وعلاقته بالتقية .
٧ ــ اسلوبنا بين سلبيات الواقع وايجابياته .

اصالة اسلوب الدعوة وتميزه

(١) اهمية الاسلوب العملي واصالته

قد يكون من بين القضايا الاساسية التي نواجهها في حركة العمل الاسلامي ، هي قضية الاسلوب العملي في العرض والنقد والمواجهة الاعلامية في مجال الصراع ، لان للاسلوب الدور الكبير في نجاح الفكرة وفشلها ، من حيث انسجامه مع المؤثرات التي تهيمن على ميدان المعركة ، وابتعاده عن سلبيات الصراع ، وتجسيده لأصالة الفكرة واستقلالها فلا تخضع لوجوه واقنعة مستعارة تلبسها في حالات الاهتزاز الاجتماعي لتحارب أعداءها من خلال شخصيات الآخرين فتؤدي الى نتائج عكسية تطمس شخصيتها وتمحو أصالتها ، وتجعلها عرضة للارتباك امام الافكار الطارئة التي طبعت اساليب الآخرين بطابعها المميز .

ولهذا فاننا نؤكد ان يستمد العمل الاسلامي اسلوبه في العرض وفي النقد ، والمواجهة الاعلامية ، من واقع التفكير الاسلامي ونظراته الى الكون والحياة ، وخصائصه المميزة في مرونة الحركة وحيويتها ، التي تأخذ لكل موقف عدته وتعمل على ان تواجه الواقع بمقتضياته ومناسباته الواقعية انطلاقا من مفهوم « الحكمة » الذي دعا اليه القرآن الكريم في قوله تعالى :

« أدْعُ إلى سَبيلِ رَبّكَ بالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ » : ١٦–١٢٥ .

فان هذا المفهوم يلتقي بالمفهوم البلاغي للكلام الدي هو « مطابقة الكلام لمقتضى الحال » فيعطي لكل حالة مقتضاها ويضع كل كلام في موقعه من الواقع ، فتتغير الاساليب ، تبعا لتغير المقتضيات ، وتتنوع المقتضيات تبعا لتغير الواقع •••

(٢) الاسلوب الخاطىء في مواجهة بعض المبادىء الضالة

ان تأكيدنا على هذا الجانب من اصالة الاسلوب وتميزه عن اساليب المبادىء الاخرى يرجع الى مواجهة الممارسات الخاطئة التي يمارسها بعض العاملين في سبيل الله في اسلوب المواجهة الناقدة لبعض المبادىء التي نختلف معها في واقع العقيدة والشريعة وذلك كما في اساليب محاربة « الشيوعية » فاننا نختلف مع هذه العقيدة في جذورها الفلسفية القائمة على انكار وجود الله ، وكل ما تؤمن به الاديان مما يعيش خارج نطاق الطبيعة ، وتنطلق خلافاتنا معها ابتداء من القواعد الفكرية التي ركزت عليها نظريتها وقوانينها ، من المادية الديالكتيكية الى المادية التاريخية انتهاء بالنظام القانوني والحركي الذي يتفرع عن النظرية من اساليب الاشتراكية وطرق تطبيقها ، الى واقع الشيوعية كمرحلة اخيرة في وصول النظرية الى نهاية المطاف • ولا بد لاسلوب العمل النقدي من ان يضع تصميمه وتخطيطه على اساس مواجهة الجانب الفلسفي، والجانب الفكري والجانب التشريعي او القانوني ، ليبقى الاسلوب في مستوى الفكرة وينطلق من واقع التفكير الاسلامي ، بعيدا عن أي اثارة للواقع الجغرافي الذي ولدت فيه الفكرة او نشأت في أحضانه ، من حيث تصنيف الفكرة، كبضاعة وطنية او قومية ، او اجنبية مستوردة •• كما يحاول البعض ممن يفكرون في المبادىء على اساس ان تكون نابعة من تراب الوطن ومن تراثه وحضارته في الاطار الوطني الاقليمي ، او تكون منطلقة من الواقع

القومـي الحضاري ، فان ذلك هو الشرط الوحيـد لقبول المبادىء او مناقشتها قبل التسليم بها ، ولذلك كان الشعار المطروح ضد الشيوعية في بدايات الصراع ، هو انها من « المبادىء المستوردة » التي لم تنبت في أرض الوطن بل كانت نتاج أرض غريبة ، وظروف غريبة •• وقـد يعلـق هؤلاء على هذه الفكرة ، انها قد تصلح لبلاد اخرى كالبلاد التي نشأت بها او غيرها ، ولكنهـا لا تصلح لبلادنـا وأمتنـا التي تملك من تراثها وحضارتها وتقاليدها ما يبعدها عن الالتقاء بأمثال هذه العقيدة الغريبـة المستوردة •• وقد سار كثير من الدعـاة المسلمين في هذا الاتجـاه في محاربتهم للشيوعية ، من دون التفات الى مدلول هذا الشعار وانعكاسه على طبيعة الفكرة النـاقدة ونحن نرفض طرح مثل هذا الشعار ، أولا ، لاننا نعتقد ان العقائد والمبادىء والقوانين المنبثقة عنها لا تخضع لمقاييس الحدود الجغرافية ، بل تخضع لمقياس الحق والباطل من جهة ، ولمصالح الانسان ومنافعـه او خسائره ومضاره من جهـة اخرى •• اما التراث والحضارة والتقاليد فليس لها أية قيمة اذا اصطدمت مع قضية الحق او مع مصالـح الانسان الحيويـة •• فان الاسلام لا يحترم تراث الآباء والاجداد اذا كان على خلاف الحق لان علاقة الانسان بآبائه واجداده ، لا تمثل أي معنى كبير في حالة الاصطدام بالحقيقة الكبيرة في الحياة •• ولولا هذا لامكننا ان نخضع كل أمة لحضارتها القديمة ولتراثها التاريخي، ولما استطعنا ان نطرح الرسالات والمبادىء العالمية الانسانية التي تتخطى في حركتها حواجز الاقليمية والقومية والقارية فتقف الانسانية مـن ذلك كله على افكار واحدة وخطوات واحـدة واهداف واحـدة •• ويبقى للقضايا الاقليمية والقومية واللونية بعض ثقافتها وتقاليدها وأوضاعهـا المستمدة من طبيعة الافق المحدود •

وثانيا : ان هذا الشعار لا يمانع من الاعتراف بهذا المبدأ فـي البلاد التي تتناسب مع فلسفته وقوانينـه ، وتنسجم مع أفكاره واجواءه او في

المناطق التي ولد فيها ونما في أرضها ومجتمعها ، اما نحن فنرى انه لا يمكن الاعتراف به واقراره في أي بلد من البلـدان لانه لا يتفـق مع الاسس الحقيقية لقضايا الانسان ومصالحه من وجهـة نظرنا ، كما ان نفس الفكرة ترفض الاعتراف بالاطار الضيق المحدود الـذي يراد لها وضعها فيـه ، لانها تعتبر نفسها رسالة عالمية أممية ، وعلى هذا الاساس فان الاسلـوب الذي يضع الفكرة في هذا الاطار ويستخدم هذا الشعار في قضية الصراع يبتعد عن الاصالة الاسلامية ، ويرتبط بقواعد فكرية غير اسلامية ، فلا يجوز للداعية المسلم ان يمارسه في دعوته .

(٣) التحذير من مواكبة الاساليب المناهضة

ونلاحظ في هذا المجال اسلوبا آخر تتبعـه دوائر الاستخبـارات الاميركية والـدول المناهضة للشيوعية وهو التركيز على جانب الحريـة على الطريقة الرأسمالية فتحاول تقديم الاحصاءات التي تمثـل الضغط الذي تمارسه الانظمة الشيوعية او الاشتراكية ضد حرية العبادة والدين، وحرية الفكر ، وحرية الاجتماع وحرية التظاهر والاضراب وغيرهـا .. وقد يشاركهم في هذا الاتجاه بعض العاملين في الحقـل الديني الاسلامي فيجدون في هذه المعلومات مادة دسمة للدعايـة المضادة للشيوعية ، التي تغلق على بلدانها ستارا حديديا او غير حديدي فتمنع وصول الاخبـار والمعلومات عن واقع المجتمع هناك الا من طريق دوائر التجسس الغربية ..

ونحن لا نوافـق على السير بعيدا في هذا الاتجـاه لاننا لا نؤمن بالحرية الرأسمالية التي تمنح الحق في التصرف لـلاشخاص او المؤسسات التي تسيء الى قضيـة الانسان في حيـاته السياسية والاقتصاديـة من اصحاب رؤوس الاموال او اصحاب مصانع السلاح او غيرهم من الذين يعملون لافساد الحياة في كل معانيها الانسانية وقيمها الروحية ، ليحصلوا

على مزيد من الارصدة المادية ، ولا نؤمن بحرية الفكر التي تفسح المجال للافكار المضادة للمبادىء الخيرة في الحيـاة ، المثيرة للفوضى والشغب والتخريب وغير ذلك مما يهدم النظام والسلامة العامة للبلد ، ولكن ليس معنى ذلك اننا نـوافق على جميع ألوان التقييد للحريات التـي تقوم بهـا الانظمة الشيوعية في البلدان الاشتراكية .. بل كل ما هنالك هو التأكيد على نقطة حيوية جدا هو ان الانظمة التي تقوم على الافكار الملتزمـة لا يمكن ان تسمح بالحرية الا في النطاق الذي يحمي المجتمع من استغلال الحرية لضرب القضايا الكبرى التي لا تتوافـق مع مصالح بعض دعـاة الحريات الاحتكارية المستغلـة وبهذا تلتقي الشيوعية بالاسلام في طبيعة الحرية الملتزمة وان كانا يختلفان في التفاصيل تبعا لاختلافهما في القواعد التي يرتكز عليها النظام هنا .. والنظام هناك .. ولذا فان الانسجام مع الخـط الرأسمالي فـي الدعاية المضادة للشيوعية ، يبعد الداعية المسلم عن الخط الاسلامي الفكري في موضوع الحرية ، لانه يتضمن اقـرارا واعترافا بالحرية على الطريقة الرأسمالية التي لا يوافـق عليها الاسلام ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، فان السير مع أساليب الاستخبـارات ، واستخدام شعاراتها وأدواتها الاعلامية ، يسيء الى الجهات الاسلامية التي تحارب الشيوعيـة والرأسمالية معا ، لانه يضعهـا في موقـع المعسكر الاستعماري ، ويسهل توجيه التهمـة اليها بما ليس فيها من التعامل مع دوائر الاستخبـارات ، ويؤدي ـ بالتالي ـ الى هزيمة كل أساليبهـا العملية من أقرب طريـق ، ويفقدها ـ قبـل كل شيء وبعد كل شيء ـ شخصيتها المستقلة وأصالتها الفكرية ، ونحن نشعر بأننا لسنا بحاجة الى هذا كله ، لان للفكر الاسلامي من الامتداد والسعـة والعمق والشمول ما يكفل لنا السير قدما في مناقشة الفكر الماركسي والرد عليه من خـلال قواعده الفكرية ، وتطبيقاته العمليـة ولا يمنـع ذلك من وجـود بعض مجالات اللقاء الفكري والسياسي في الجـوانب الفرعيـة المتحركة لكلا

الفكرتين ونريد للداعية المسلم ان يؤكد في كل أساليبه على السير في هذا الخط المستقيم لتبقى له خطوطه الفكرية في كل مراحل الطريق ، ولئلا يقف حائرا امام ازدواجية فكرية بين ما يحمله من افكار وبين ما يمارسه من أساليب ، مما يوجب ارتباكا في الخطوات وحيرة في الطريق.. ونعتقد ان ذلك يعطي خطوته قوة مضاعفة لانه يستمد حركته من موقع فكرته ، مما يجعلها خاضعة لسيطرته المرتكزة على اساس التخطيط الواقعي الاختياري اما اذا كانت مستمدة من مواقع افكار الآخرين وممارساتهم فانها تبقى تحت رحمة مواقف الآخرين ومواقعهم السياسية العامة والخاصة ..

(٤) لماذا التأكيد على الاصالة الاسلامية في الاسلوب

اننا نشعر بضرورة التأكيد على جانب الاصالة الاسلامية في الاسلوب العملي ، انطلاقا من الواقع الذي يحكم العمل في ميدان الصراع ، لان الساحة قد تجمع اتجاهات كثيرة تلتقي ضد هدف واحد ، وقد يتعاظم دور البعض من هذه الاتجاهات في حركة الصراع فيطبعه بطابعه ويخضعه لطريقة تفكيره ، وتبقى الاتجاهات التي تملك الدور الثانوي الخاضع لعوامل الضعف الذاتي ، تتلمس الطريق من خلال خطوات الفريق الاول فتتأثر بخطواته تلقائيا ، كما ألمحنا اليه في مثالنا المتقدم الذي يحاول فيه الكثيرون ان يأخذوا من الكتب التي تصدرها دوائر الاستخبارات الاميركية والاوروبية ، الاساليب العملية في نقد الشيوعية على الطريقة التي تتبناها هذه الدوائر ، من دون ان ينتبهوا الى ما في داخلها من عوامل الانحراف الفكري والعملي .

اننا نريد ان نؤكد على ان صراعنا مع الشيوعية صراع فكري يخضع للعوامل الفكرية ، لا لشيء آخر فعلينا ان نحافظ على سلامة الفكرة في حالة الصراع ، كما نحافظ عليها في خارجه .

اسلوب القرآن
واسلوب الفلسفة في الدعوة

هناك اسلوبان في الاستدلال على الحقائــق الاساسية في الاسلام ، كالتوحيد والنبوة ، والمعاد ، وغير ذلك مما يتصل باصول العقيدة ..

١ ـ اسلوب علم الكلام ، والفلسفة

الذي يبحث عن هذه القضايا وغيرها ، بحثا علميا مجردا لا يخلو من جفاف في اسلوبه ومحتواه .. فكانك تشعر ـ وانت تقرأه او تمارسه ـ بالبعد عن الحياة وما فيهامن عظمة وجمال وجلال.. وبالاستسلام لاجواء المفاهيم التجريدية والاصطلاحات المعقدة ، التي تملأ فكرك بالاحتمالات البعيدة والشكوك القلقة ، والتقسيمات الكثيرة ، والابحاث التي تغرق الانسان في ضبــاب كثيف من الافكار الطويلــة العريضة القريبــة الى التصور ، البعيــدة عن الاحساس .. ولذا كانت الاساليب الفلسفيــة ـ فيما يراه الكثيرون ـ تعطــي فكرا عقيديــا ، ولكنها لا تعطي ايمانا وقناعة روحية . فاذا أردت ان تدخل في موضوع وجود الله ـ في الاطار الفلسفي ـ وجب عليك ان تمر بأبحاث الوجود والماهية ، وهل الوجود هو الاصل ، او ان الماهيــة هي الاصل .. ثم تنطلق نحو ابحاث الممكن والممتنع والواجب .. وابحاث الحركة ، والعلة والمعلول ، وغير ذلــك .. مما ربما ينتهي بك الى القناعة الفكريــة التي تقتحم فكرك من خــلال الادلة العقلية المتنوعة .. ولكنك تشعر بأنك ابتعدت كثيرا عن الحيــاة ومعانيها ، حتى يترك ذلك عندك انطباعا عميقا بأن العقيدة لا علاقــة لها

بالحياة ، لانها تستمد قناعاتها من منطلقات بعيدة عنها وعن الارتباط الوثيق بالواقع .

٢ ـ اسلوب القرآن

الذي يفلسف العقيدة بالحياة ، ويجعل الحياة بكل ما فيها من مشاهد الكون وآياته دليلا على وجود الله ، ويطلب من الانسان أن يدخل الى داخل نفسه ، وينطلع الى مرآة ذاته ، ويتلفت الى ما حوله ليخرج من كل واحدة من ذلك بالدليل الواضح على وجود الله .. وبذلك تنفذ العقيدة الى القلب والفكر معا ، من النافذة التي تدخل منها الى الحياة .. وليس معنى ذلك ان الاسلوب القرآني يبتعد عن الاسلوب العقلي في التفكير ، بل كل ما هناك انه يقترب من الحياة ، ليجعل الحياة كلها بما تحتويه من جمال وجلال ، منطلقا للتفكير ، ليجتمع للدليل اشراق الحس وعمق التفكير ، فلا يشعر الانسان بأنه يستورد الايمان من خارج حياته حيث الوجود الذهني ينغلق عن ذاته في ضباب المفاهيم ، ويفكر ليصدّر للانسان قناعاته الفكرية ، بل يشعر الانسان بأنه يعيش ايمانه في عملية تفجير للاعماق ، واستثارة للفطرة ، واستلهام للحياة واستيحاء للفكر ..

★ ★ ★

ولعلنا لا نتوقف في عملية الاختيار بين الاسلوبين ، ولا نتردد ، بل نسارع الى اختيار الاسلوب القرآني في حركة الاسلام نحو اثبات عقيدته ومفاهيمه الاساسية .. لاننا لسنا بصدد الفكر الذي يتعمق في الاشياء ليملأ دماغ الانسان بالمعلومات ، بل نحن في اتجاه ايمان يملأ كيان الانسان بالحق والحياة والاحساس الواعي بوجود الله في كل ما يحسه ويشاهده ويعيشه حتى يجد الله في كل شيء يراه ، ويحس به في

كل خلجة من خلجات حسه ، وفي كل حركة من حركات جسمه وهذا ما لا يتوفر لنا الحصول عليه الا في الاسلوب القرآني •• وقد نستطيع ادراك هذا الفارق في طبيعـة الاسلوبين اذا استعرضنا بعض النماذج الحيـة ، لهما في عملية مقارنة ••

فلنتقي — في البداية — في الدليل الذي اقامه المتكلمون على رفض فكرة وجود شريك الله وحاولـوا ان يجعلـوه تفسيرا لبعض الآيـات القرآنية الكريمة •

« قالوا : — فيما ينقله لنا صاحب مجمع البيان — :

انه لو كان مع — الله سبحانـه الها آخر لكانا قديمين ، والقدم من أخص الصفات ، فالاشتراك فيه يوجب التماثل فيجب ان يكونا قادرين عالمين حيين ، ومن حق كل قادرين ان يصـح كون احدهما مريدا لضد ما يريده الآخر من اماتة واحياء او تحريك او تسكين ، او افقار او اغناء ونحو ذلك • فاذا فرضنا ذلك فلا يخلو اما ان يحصل مرادهما ، وذلـك محال ، واما ان لا يحصل مرادهما ، فينتقض كونهما قادرين ، وامـا ان يقع مراد احدهما ولا يقع مراد الآخر ، فينتقض كون من لم يقع مراده من غير وجه منع معقول — قادرا •• فاذن لا يجوز ان يكون الاله الا الها واحدا •

ولو قيل انهما لا يتمانعان ، لان ما يريده احدهما يكون حكمـة فيريده الآخر بعينه ، فالجواب عنه ان كلامنا في صحة التمانع ، لا في واقع التمانع ، وصحة التمانع تكفي في الدلالة لانه يدل على انه لا بد من ان يكون احدهما متناهي القدرة فلا يجوز ان يكون الها » •••



اما الدليل الذي أقامه القرآن ، في هذا الاتجاه فهو الذي يتمثل في الآية الكريمة التالية :

١ ـ أمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ لَوْ كَانَ فِيهِما آلِهَةٌ إلاّ اللهُ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمّا يَصِفُونَ ٢١ : ٢١ ـ ٢٢

٢ ـ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إلَهٍ إذاً لَذَهَبَ كُلُّ إلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمّا يَصِفُونَ ٢٣ : ٩٢

فاننا نتمثل فيهما ايحاءً بحقيقة طبيعية تفرضها قضية تعدد القوى وتعدد السلطات في المجال الواحد تماما كما هو الحال في القوى الموجودة في الحياة ، عندما يملك كل منهما القوة المطلقة ، والكيان المستقل في الفكر والارادة والحركة ، مما يؤدي الى الاختلاف ، فالتنازع، فالفساد، فالغلبة ، فالاستقلال فيما يختص به الى غير ذلك من نتائج التعدد [1] .

وقد يحاول البعض ارجاع الدليل القرآني ، الى الدليل الفلسفي الكلامي ، ولكن مهما كان الرأي في ذلك ، فاننا لا نستطيع انكار الاختلاف في اسلوب العرض ، لانطلاق الثاني في نطاق المصطلحات الفلسفية التي تدعو الى التأمل والتفكير في اجواء عقلية مجردة ، تتحرك فيها الفاظ القدم ، والتماثل والتمانع والتناهي وعدم التناهي وغيرها من

(١) المؤلف ، اسلوب الحوار في القرآن ، « فصل مع المشركين » .

الالفاظ التي تفرض عليك التأمل في مفرداتها ، ثم في افكارها ..
لتستطيع ان تتعمق في فهم الدليل كله ..

اما الاسلوب القرآني ، فينقلك الى نفس الفكرة من خلال الايحاء بالمعاني البسيطة الشائعة التي يحملها الناس عن موضوع تعدد السلطات او الرئاسات باعتبار تعدد الآلهة داخلة في هذا الاطار ، وذلك فان من المعروف حدوث الصراع الذي يستتبع الفساد سواء في ذلك حالة التعادل او حالة الغلبة ..

ونحسب ان هذا الاسلوب السهل البسيط الذي يربط الانسان بمرتكزاته ، ينتهي ـ بالانسان ـ الى الايمان من دون فرق بين من يملك مستوى ثقافيا جيدا ، وبين من لا يملك مثل هذا المستوى ، ولكل منهما الحرية في أن يفهمه بالطريقة التي تحلو له ، او ترتفع الى مستوى ثقافته ، مما يجعل للفكرة القرآنية قوتها وتأثيرها في كل المجتمعات وفي كل المجالات .

ولعلنا نحتاج الى جهد كبير لنفهم ضرورة التركيز على هذا الاسلوب لتحقيق اقرب النتائج واسهلها في قضية العقيدة والايمان ..



وخلاصة الفكرة في هذا الموضوع ، اننا تعتبر الاساس في الاسلوب الاسلامي للدعوة ، هو الاسلوب القرآني الذي يجمع القلب والفكر معا في عملية وعي الحقيقة حيث تنساب معانيها في ضمير الانسان وفكره وروحه فيشع الايمان في كل جوانب كيانه ، من غير فرق بين الانسان العادي والانسان المثقف ..
اما الاسلوب الثاني ، وهو الاسلوب الفلسفي فقد نشعر بالحاجة

اليه في مجالات الصراع الفكري الذي يحاول المتفلسفون من اعداء العقيدة وخصومها ان يثيروا الغبار حولها بالطرق الفلسفية المعقدة للايحاء بأن فكر الاسلام لا يثبت امام النقد الفلسفي ، لانه يرجع الى افكار بدائية تطفو على السطح ، و لاتنفذ الى الاغوار فقد يفرض الموقف علنيا أن نخوض المعارك الفلسفية من موقع القوة الفكرية ، للتدليل على خطأ هؤلاء فيما يثيرونه ، او فيما يحسبونه فلسفة حقيقية .. واثبات العقيدة لهم من خلال الطريقة الفلسفية في التفكير ، ثم الالتفاف حول التفكير المضاد ، لابطاله من وجهة فلسفية دقيقة ، لاضعاف الزهو الفكري الذي يعيشه هؤلاء فيما يعتقدونه ، والسخرية الفكرية التي يمارسونها فيما يعتقده الآخرون .

ومن هنا فاننا نركز على ضرورة الاخذ بالفكر الفلسفي والتوفر على دراسته ، سواء في ذلك الفكر الفلسفي القديم ، او الفكر الفلسفي الحديث .. ليمكن للداعية المسلم أن يمارس في ذلك عملية الدفاع او الهجوم ، او استخدام هذا الفكر في التأثير النفسي على الكثيرين من الذين لا يقبلون الفكرة الا اذا احاطها اصحابها بحزام فلسفي قوي ، أو استخدموا لاثباتها الالفاظ الفلسفية المعقدة .. لان ذلك هو دليل القوة في رأيه او في زعمه .. فان امثال هذا كثيرون في المجتمع فهم يخضعون لعقدة نفسية متأصلة في هذا الجانب من التفكير .. ويبقى للدعوة المجردة لدى الداعية الاسلوب القرآني الواقعي الذي يجمع الى قوة الحجة ، صفاء الوجدان وروعة الاحساس وسرعة الحركة .. ليؤمن الناس بالاسلام بقلوبهم وافكارهم في قوة وطهر وبساطة وصفاء .



ولا يفوتنا ــ ونحن نتحدث عن هذين الاسلوبين ــ ان نتحدث

عن ضرورة استخدام الاسلوب العلمي في مجال الدعوة لا ليكـون قسما ثالثا من اقسام الاساليب العميلة في الدعوة ، لانه تابع للاسلوب القرآني باعتباره يمثل في مدلوله ، احد مفردات هذا الاسلوب .. نظرا الى ان مقصودنا بالاسلوب العلمـي ، هو استعراض القـوانين الكونيـة التي اكتشفها العلم الحديث في ظواهر الكون ومشاهده ، وحياة الانسان في تكوينه وحركته في النظام الكوني الشامل .. فان ذلك يفتح قلب الانسان على الله من خلال انفتاحه على اسرار خلقه ، وعظمة قدرته ..

... وهذا هو المنهج القرآني العظيم فقد بـدأ القرآن الكريم في رسم الصورة من خلال المنهج الجديد الذي يريد ان يدفعـه الى تفكير المجتمع وطريقته في مواجهة القضايا ، فابتدأ الموقف بالدعوة الى التفكير في الكون كله ، بما فيه من ظواهر ومخلوقـات ، من اجـل البحث عن اسراره ، وعن القوانين الطبيعية المودعة فيه التي تحكمـه ، وتوجهه في حركته ، وأراد من الانسان ان يرجع الى صفاء فطرته ، وهو يتـأمل والى هدوء عقله وهو يفكر ، لان الفطرة الصافية ، والعقل الهادىء اذا انطلقا في كيان الانسان المنفتح على كتاب الكون المفتوح الذي يقرأ فيه ببصره وبصيرته استطاعا ان يقوداانا الى النتيجـة الحاسمـة .. وهي انه لا بد للكون من مدبر حكيم قادر ، ولهذا نجد القرآن الكريم وثيقة حية شاملة لكل ما في الكون من ظواهر وموجودات واوضاع تحكم سير الانسان ، وسير الحياة ، باعتبارها مادة حية للتفكير الذي يؤدي بأقرب طريق الى الايمان بوجود الله [1] .

وتنطلق الآيات لتوجه النظر الى كل هذا في اسلوب مباشر ...

١ — قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ
قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ ١٠ : ١٠١

---

(١) الاسلوب القرآني في الحوار — فقرة مع الملحدين .

٢ ـ وَيَتَفَكَّرُونَ في خَلْقِ السَّمَاوَاتِ
وَالأرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً
٣ : ١٩١

٣ ـ . . . وَفِي أنْفُسِكُمْ أفَلاَ
تُبْصِرُونَ ٥١ : ٢١

انها الدعوة الواثقة بالحقيقة الكامنة في كل ما في السماوات وفي كل ما في الارض .. فلا تتطلب من الانسان الا أن ينظر ويتطلع ويفكر ... من دون حاجة الى جهد كبير ، او أخذ ورد . وهي ـ في الوقت ذاته ـ دعوة الى الانطلاق في حركة الفكر ، نحو التعرف على اسرار الكون ، والاطلاع على القوانين الطبيعية المودعة فيه ، من اجل اكتشاف الطريقة التي يستطيع الانسان الاستفادة منها في التعامل مع هذه القوانين في مجالات الحياة المتحركة في اكثر من اتجاه .

وبهذا يمكننا ان نقرر ان طريق العلم في الاسلام يمر بطريق الدين على اساس الفكرة التي تطلقها هذه الآيات لتجعل من قضية الايمان بالله حافزاً للانسان على اكتشاف الخالق من خلال اكتشافه لعظمة خلقه ، كما ان العكس هو الصحيح ، وهو ان طريق الدين يمر بطريق العلم ، لان الانسان كلما ازداد علما ازداد معرفة بالله ، وكلما زادت معرفته بالله ازداد تدينه وخشيته من الله وامتثاله لاوامره وهذا ما تعبر عنه الآية الكريمة :

« إنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ
الْعُلَمَاءُ . . . » ٣٥ : ٢٨

اننا نعتقد ضرورة التوفر على الاكتشافات العلمية ، والاخذ بأسباب الثقافة العلمية واستخدامها في عملية الاقناع الفكري بقضايا العقيدة وأصولها العامة .. في اطار الاسلوب القرآني العظيم ..

اسلوبنا بين الانحراف القديم
وبين الانحراف الجديد



ربما يتطور الانحراف في واقع الامة من مرحلة الى مرحلة متقدمة ، فيولد من خلاله واقع جديد يتجاوز الانحراف السابق الى انحراف جديد ، بحيث لا يمثل الانحراف السابق اي شيء في حياة المجتمع لانه اصبح من الامور المألوفة المعروفة التي لا ينكرها احد ولا يعترض عليها احد لوصول الواقع الى المرحلة التي يتحول فيها المنكر الى معروف والمعروف الى منكر .. فلا تعود هناك مشكلة تبحث عن حل ....فقد بدأت المشاكل الجديدة للواقع تقتحم الساحة ، وتلح في الظهور لتفرض الواقع الجديد فماذا نفعل ؟

هل نظل واقفين مع المرحلة الاولى للانحراف في حركة ترجع الى الماضي من اجل نقل المشكلة منه الى الحاضر . لاخراج المجتمع من جو التسليم المطلق بالواقع بعد أن تجاوزه لاثارة المشكلة في حياته من جديد، او تتقدم الى المشكلة الجديدة التي لا تزال الارضية الفكرية والنفسية صالحة لادارة المعركة عليها واثارة الجو ضدها في حركة تجند الفكر والشعور معا في وحدة عملية تتقدم ميدان الصراع وتتحكم لتسيطر على طلائع الانحراف الطارىء قبل أن تفرض وجودها على أفكار الناس وأوضاعهم العامة ... وتبقى المشكلة الاولى في طور التجميد ، ريثما يتم الحصول على النتائج الحاسمة للمعركة الحالية ... لنرجع الى مواقعنا الاساسية حيث نبدأ المعركة في اتجاه تصحيح كل الانحرافات فنحرك المشكلة الاولى من جديد ...



ربما يختار بعض العاملين في الحقـل الديني ، الموقف الاول ، على اساس النظرية القائلة بأن اغفال المشاكل الاولى التي سقطت شعـاراتها صريعة في المعركة أمـام قوى الانحـراف ، سوف يؤدي الى الاعتراف بالانحراف من ناحيـة عملية ، والى الاقرار بشرعيته كأمر واقـع مفروض لا ينكره احد ، ولا يعترض عليه احد تبعا للمثـل المعروف « السكوت علامة الرضا » ... ثم يتطور الموقف الى ولادة جيل جديد يتجاوز كل حساسيات الجيل الماضي ازاء هذا الواقـع ، فلا تبقى هناك أية عقـدة شعورية تشير الى ضرورة اعادة النظر فيه ولو بعد حين . وربما يشارك هذا الاسلوب في مواجهة الانحراف ، الى تبـدل الاحكام الشرعية في وعي الناس ، والى تساقطها واحدة واحدة امام قوة الانحراف .

ولكننا نختار الموقف الثاني ــ بالرغم من ذلك كله ــ لاننا نعتقـد ان ولادة الواقع الجديد الذي يستعد لطرح المشكلة الجديدة التي تتحدى حكما شرعيا ، او مفهوما اسلاميـا لا يزال يعيش في حياة الناس وفـي وجدانهم ، يدل دلالة واضحة على ان ادارة المعركة في اطار القضية الاولى سوف يؤدي الى خسارة كلتا المعركتين ، اما الاولى فلأن الخروج مـن حالة الهزيمة فيها الى حالة النصر ، يتوقف على خلق الارضية الصالحـة للصراع في حياة الناس وافكارهم ومشاعرهم ، قبل الدخول في المعركة ، مما يكلفنا جهدا كبيرا يمنعنا من الدخول في المعركة الثانية ، التـي يتقدم فيها العدو دون مقاومة ، فيجهض كل استعدادات الدفاع في كلا الموقفين ... بل انه يستخدم الحالة النفسية التي يشعر بها الناس تجـاه الانحراف السابق وتعاطفهم معه ، سلاحا يحاربنا به في كلتا المعركتين ... وبذلك لا يحقق الموقف اي ربح على كلا الحالين .. فما الفائدة من الالحاح عليـه .. اما الوقوف مع المشكلة الجديدة ، فانه يفسح المجال للتقـدم وادارة المعركة في ظل ظروف موضوعية طبيعيـة لان الارضية لا تزال صالحـة

والاجواء النفسية التي لا تزال غـير منسجمة مع الانحراف الجـديد ، جاهزة ، اما القوة الذاتية التي يملكها العاملون في سبيل الله ، فـلا تزال كبيرة مما يجعل امكانات النصر كثيرة واحتمالات تحقيقه قريبة جدا ..

ولعلنا لا نذهب بعيدا اذا طرحنا المثال العسكري المعروف في قضايا الحرب ، فهناك في الخطط العسكرية عدة خطوط دفاعية ترسمها القيادات التي تحاول ان لا تتجمد المعركة في خط واحد يفقد معه المقاتـل الفرصة في مواصلة القتال في حالة سقوط الخط في يد الاعداء ، بل يفسح المجـال للجيش المقاتل ان ينسحب الى خط ثان وثالث ، يقف فيه على ارض صلبة محكمة محصنة ، ليقاتل فيها مـن موقع قوة فيتقرر على ضوء النتـائج الجديدة عودته الى الخط الاول للدفاع عنه من جديد او الانسحاب الى خط ثالث ، وهكـذا حتى تنتهي المعركـة بالنصر الكامل او بالهزيمـة الساحقة ...



اما المثال العملي الذي نقرأه الآن كواقع حي يعيش الاسلام فـي معركته المستمرة ضد الانحراف الفكري او العملي في واقع الناس وحياتهم العملية العامة والخاصة فهو مثـال السفور والحجاب كنموذج لمشكلـة الانحراف السابق الذي انتهى امره في كثير من البلدان .. ثم مثال الحرية الجنسية بين الفوضى والنظام كمثال لمشكلة الانحراف المتقدم الذي بدأ نفسه ليفتح الواقع على افق جديد في علاقة المرأة والرجل ، يتجاوز قضية الشرعية الزوجية ، الى قضية الانفلات بعيدا عن نظام الاسرة القائمة على شريعة الزواج بكل ما تمثله من أحكام والتزامات وقوانين .

فقد عاشت البلدان الاسلامية في النصف الاول من هذا القرن الرابع عشر الهجري الصراع بين السفور والحجاب ، وبدأ السفور يفرض نفسه

بفعل القوى الانحرافية المسيطرة في كثير من هذه البلـدان حتى انحسر الحجاب كليا او كاد ، بحيث اصبح منكرا ينظر اليه باستغراب من الطبقات العامة للمجتمع .. ولكن ذلك لم يؤثر على النظرة العامة للاطار الاسلامي الذي وضعت فيه العلاقة الجنسية ، في الاسلام ، في نطاق الاسرة وقوانينها، ولم يوجب زوال الحواجز النفسية التي اقامها الاسلام في نفوس المسلمين ضد الانفلات الجنسي في علاقة الرجل والمرأة ، مما يجعل الزنا عملا فاحشا مرفوضا من الناس جملة وتفصيلا ...

ثم جاءت التطويرات الجديدة في التفكـير الاوروبي في السنـين المتأخرة لتدفع « الحرية الجنسية » الى الواجهة في معركة الحريات العامة لدى الانسان ، لتكون لها قداسة الحريات الاخرى في التفكـير والشعور الانساني ، وحدثت المعركة كأعنف ما يكون ، ولا تزال الافكار الجديدة تفعل فعلها في مجتمعاتنا باسلوب تدريجـي يحاول اصحابه ان يهدمـوا القلاع والحواجز النفسية واحدة واحدة ، دون ان يجرأوا على الهجـوم مرة واحدة ، ولا تزال اكثرية المجتمعات الاسلامية ممن يؤمن بالحجـاب وممن لا يؤمن به ، تعارض هذه الحرية الجديدة ، وتعتبرها بداية للفوضى الجنسية التي تهدم كل مبادىء الاسرة وقـوانينها . لتجعل منها شيئـا بغيضا لا معنى له ، تماما ككل القيود التي يفرضها اعداء الحرية عـلى حياة الانسان وكرامته ... وفي هذا الجو تطرح القضية نفسها في طبيعة الصراع الذي نخوضه ، فهل نخوض المعركة في قضيـة السفور والحريـة الجنسية معا ، او نخوضها في القضية الاولى فقط ، او في القضية الثانية فقط ، او نترك الصراع ونستسلم للهزيمة مقدما ، ونفتح الابواب مشرعة للفاتحين الجدد ... ربما لا يكون الفرض الاول عمليا ، لان كثيرا مـن الذين يحاربون ضد الحرية الجنسية يدافعون عن موضوع السفور ، مما يوجب ارتباكا في صفوف المقاومين للحرية ويؤدي بالتالي الى ضعف يشق

الطريق للاعداء ان ينفذوا الى الساحة بسهولة وهدوء ولا مجـال للفرض الاخير ، لاننا لسنا في موقف الهزيمة السريعة بـلا قتال ، امـا الفرض الثاني ، فلن تكون نتيجته افضل من نتيجة الفرض الاول ، فيتعين الموقف الثالث الذي يحاول ان يربح المعركة معركة الحرية الجنسية او التنظيـم لهذه الغريزة ، ليأخذ منها قوة جديدة يستعد فيها للربح في القضية الاولى في معركة جديدة ... انسجاما مع واقعية الاسلوب ومرونته .

وقد يحسب بعض الناس ، في هذا الاسلوب ، تراجعا عن الالتزام بالمواقف الاسلامية ازاء الواقع ، مما يخضع الطريقة العملية المفروضة الى مزيد من التراجعات المستمرة تبعا لقوة حركة الانحراف ... فينتهي الامر ــ في خاتمة المطاف ــ الى الانسحاب كليا من ميـدان الصراع ولكننـا نرفض هذا الاستنتاج ، لان الموقف الذي نقرره لا يمثل قاعدة الحركة ، بل يمثل نوعيتها في نطاق المرحلة ، كما يعبر البعض عندما يقول ان الخلاف ليس في الاستراتيجية بل في التكتيك ، فاننا لا نتخلى عن المبدأ ولا ننسحب من السعي الدائب تجاه الحركة ، بل كل ما هنالك اننا نجمد التحرك فـي مرحلة معينة ، لنجمع الطاقات في الدفاع عن الموقف الذي يستعد الاعداء لاسقاطه من اجل ان نكتسب بقوة نحشدها من جديد لبدء الحركـة في اتجاه الموقف السابق وبهذا يكون الموقف للتقدم لا للتأخر ، وللقـوة لا للضعف ، وللمحافظة على العقيدة والشريعة لا الانسحاب منها او اهمـال الدفاع عنهما .



وربما كان من الضروري للاستمرار في ملاحقة هذا الجانب العملي المرتكز على النظرة الواقعية السليمة ، ان نرصد الانحراف من خلال التقييم الدقيق للمرحلة التي بلغها في استيعابه للواقع لنعرف كيف نتعامل معـه

وكيف نواجهه ، وكيف تتابع معالجته ، في اسلوب الحركة ، او في اطار التجميد ، لان الخطأ في امثال ذلك يفوت علينا كثيرا من الفرص المتاحة او يدخلنا في فراغ عملي لا فائدة منه الا المزيد من الجهد الضائع والعبث الهزيل .

واخيرا ان رسالية العمل تفرض على العاملين ان يتحركوا في كل مجال من مجالات الصراع ليكتشفوا الارضية التي يتحركون عليها وليفهموا كيف يمكن لهم ان يجعلوا من مواقعهم التي يقفون فيها منطلقا للانفتاح على الواقع من خلال ما يمكن للرسالة ان تعمله ، وما يمكن له ان يهيء لها من ظروف العمل وادواته .

كيف نواجه تحديات
الفكر والانحراف..

قد يواجه الدعاة العاملون في الحقل الديني ، بعض حالات التحدي للعقيدة ولمقدساتها ، مـن قبل الجماعات الكافرة والضالة ، في محـاولة للاساءة الى العقيدة والمقدسات ، فماذا يكون موقفهم ازاء ذلك •

هناك موقفان ، احـدهما ايجابي ، والآخر سلبي ، يتبعان طبيعـة حالات التحدي وظروفها الموضوعية •

(١) مواطن مواجهة التحديات بطرق ايجابية

فقد تفرض الحالة ان يواجه التحديات بتحديات مماثلـة ، تفسح المجال للحوار ، أو تهيء الجولة في ظل الامكانيات الايجابية المتوفرة له ، او تتخذ اسلوب رد الاساءة بمثلها ، بالكلمة حين تكون الكلمة منـاسبة لمواجهة الموقف او بغير الكلمة ، حين لا يسمح الجو لها ان تطلق او تسمع وسط الصخب والضجيج او السخرية والاستهزاء •• وقد نستوحي هذا الموقف من خلال الاساليب النبوية التي كان الانبياء يتبعونها في مواجهـة الكلمات القاسية التي توجه اليهم من جماعات الكفر والضلال كمـا نجد ذلك فيما نقله الله لنا عن قصة نوح عليه السلام وقومه حيث كان عرضة للسخرية منهم عندما بدأ بصنع الفلك في ارض يابسة ليس فيها الماء الذي يمكن ان تجري فيه •• وكان رد الفعل ان بادلهم سخرية بسخرية ، بأمر من الله ، فهم يسخرون منه ، في اطار صنع الفلك في ارضهم الخالية مـن

الماء اما هو فانه يسخر منهم انطلاقا من النتائج السيئة التي سينتهي اليها امرهم في خاتمة المطاف عند حدوث الطوفان وذلك هو قوله تعالى :

«.. وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ ، وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ . فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ» ١١ : ٣٨ — ٣٩

ونلمح ذلك في اسلوب هود الذي واجه به تحديات قومه بعد استنفاد كل وسائل الاقناع ، وبقاء التحديات على حالها • ويتمثل باثارة اسلوب التهديد بالقوة في طريقة مثيرة من عرض عضلات القوة :

«قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ . إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ ، فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونَ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ، إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ . وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً

غَيْرَكُمْ ، وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً ، إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ »١١ : ٥٣ ــ ٥٧

« انهــم ينكرون حجته مــن دون اساس ، ويرفضون دعوتــه ، لاستضعافهم له ولقومه ، ويرمونه بالمس في عقله بسبب مهاجمته لالهتهم •• انه مجموعة من الكلمات غير المسؤولة التي لا يؤمن بها حتى اصحابها •• وقد كان الرد هنا ــ في بدايته ــ اغلاقا للحوار باعلانه البراءة مــن شركاءهم ، بشهادة الله وشهادتهم ليكون ذلك حدا فاصلا بينه وبينهم •• في نهاية المطاف •• ثم واجه اسلوب الاستضعاف واللامبالاة به، باسلوب القوة الذي ينتهي بالاستهانة بكل ما يمثلون من قوة ــ أية قوة ــ امــام قوة الله الذي يستخلف غيرهم بعد اهلاكهم دون ان يستطيعوا الاضرار به بشيء ثم يتحداهم ان يكيدوه ويهاجموه جميعا ، ولا ينظروه ، ويوحي اليهم بذلك باسلوب المواجهة القوية •• انهم لن يستطيعوا اليه » [1] •

(٢)مواطن مواجهة التحديات بطريقة سلبية

وقد تفرض الحالة ان يواجه التحديات بطريقة سلبية ، بسبب ضعف الموقف وفقدانه للعناصر الايجابية التي تدعم الموقف الايجابي ، او وجود ظروف موضوعية تمنع من القيام بأي عمل عنيف ، او تجعل من مواجهــة التحديات بتحديات مماثلة ، عملا يضر بالقضية ولا ينفعها لانه يثير امامها بعض المشاكل والاجواء الحادة التي تفتح لها معارك وخلافات جانبيــة ، بما يفرزه من نتائج الصراع فماذا يفعل ؟

هل يترك المقاومة للتحديات ، حتى بالمظهر السلبي ، بحجة ان الموقف لا يتسع لذلك او لا يسمح به ؟

---

(١) اسلوب الحوار في القرآن فقرة « هود وقومه » من فصل الحــوار القصصي في القرآن الكريم •

او يتقدم لمواجهة التحدي بطريقة الاحتجاج السلبي الـذي يؤذن بالرفض للموقف بطريقة صامتة ، او بطريقة المقاطعـة لهؤلاء في نطـاق مرحلي او عام حسب اقتضاء المصلحة الاساسية للعمل الاسلامي .

لا مجال لاختيار الموقف الاول ، لان اهمال المقاومة للتحدي الكافر او المنحرف ، قد يظهر بصورة اقرار التحـدي والاعتراف بمضمونـه ، فيتحول ذلك الى موقف اضلال للبسطاء والمستضعفين من المؤمنين عندما ينقل اليهم الموقف ، او يتمثل امامهم بصورة حسية فيخيل اليهم سلامـة القضايا النقدية التي يوجهها الكفار والمنحرفـون ضد قضايا العقيـدة والايمان ومقدساتهما .

فلا بد لنا من اختيار الموقف الثاني الذي يعبر عن الرفض للقضايـا المطروحة ، بطريقة الاحتجاج السلبي بالاسلوب الصامت ، ويتمثل ذلـك في بعض مظاهر المقاطعة ، كمقاطعة المجلس الذي يذكر فيه هذا الكـلام السيء وقد عالج ذلك القرآن الكريم في بعض آياته ، فطلب من المؤمنين القيام من المجلس حتى يدخل اولئك الخائضون في آيات الله ، في حديث غيره ، واعتبر الاشخاص الذين يرفضون الانسحاب من ذلك المكان منافقين لانهم يجاملون الكافرين على حساب آيات الله ، وذلك هو قوله تعالى :

« ١ — وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ
أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا
وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى
يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً
مِثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ
وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً» ٤ : ١٤١

« ٢ — وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي
آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا
فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ
فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ . وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ
حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى
لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » ٦: ٦٨ — ٦٩

وقد ورد في حديث الامام جعفر الصادق (ع) :

« لا ينبغي للمؤمن ان يجلس مجلسا يعصى فيه الله ولا يقدر على تغييره [١] » . وفي رواية الجعفري قال : سمعت ابا الحسن عليه السلام يقول : ما لي رأيتك عند عبد الرحمن بن يعقوب فقلت انه خالي فقال : انه يقول في الله قولا عظيما يصف الله ولا يوصف فاما جلست معه وتركتنا واما جلست معنا وتركته فقلت/هو يقول ما شاء ، اي شيء علي منه اذا لم اقل ما يقول فقال ابو الحسن : اما تخاف ان تنزل به نقمة فتصيبكم جميعا ، اما علمت بالذي كان من اصحاب موسى عليه السلام وكان ابوه من اصحاب فرعون فلما لحقت خيل فرعون بموسى تخلف عنه ليعظ اباه فيلحقه بموسى فمضى ابوه وهو يراغمه حتى بلغا طرفا من البحر فغرقا جميعا ، فاتى موسى الخبر فقال : هو في رحمة الله ولكن النقمة اذا نزلت لم يكن لها عمن قارب المذنب دفاع [٣] » . ولعل هذا الموقف السلبي تجاه تحديات الكفر والانحراف ، يلتقي بالمفهوم الاسلامي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. الذي يجعله في ضمن مراحل ثلاث ، الانكار باليد ،

---

(١) وسائل الشيعة ج ٦ ، ص ٥٠٣ .
(٢) وسائل الشيعة ج ٦ ، ص ٥٠٣ .

الانكار باللسان ، الانكار بالقلب ، فان من الراجح ان يراد من المرحلةالثالثة اسلوب الانكار الصامت الذي يظهر على الوجه، بالعبوس والاكفهرار وغير ذلك، وعلى الموقف بالمقاطعة له في بعض الامور او كلها •• فقد ورد في الحديث عن امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام ـ كما في كتاب الكافي ـ قال : « أدنى الكفر ان تلقى اهل المعاصي بوجوه غير مكفهرة» [1]، وقد كثرت الاحاديث عن النبي وعن اهل البيت، التي تطلب من المؤمنين مقاطعة المنحرفين اذا لم يرتدعوا عن المنكر ولم يمكن اصلاحهم بطريقة اخرى»[1]•

وليست هذه الطريقة السلبية في الاحتجاج على التحدي للمواقف الحقة ، بدعا في الطرق المألوفة للناس في التعبير عن الرفض والاحتجاج فاننا نجد الديبلوماسيين في هذه الازمنة ، يواجهون الحملة على دولهم ، او انظمة حكمهم او عقيدتهم ، او رؤسائهم بالانسحاب من الحفل او المؤتمر ، لان الانظمة المتبعة في السلوك الديبلوماسي لا تجيز لهم الاعتراض المباشر بطريقة الرد مواجهة في نفس المكان •

وربما استطاعت هذه الاساليب ان تحقق بعض المكاسب للقضية ، فيما اذا كانت لعملية الانسحاب بعض الآثار السلبية على المجتمع ، فيبادر الى تغيير الجوانب التي اثارت الاحتجاج ، او تجميدها ، او تلطيفها على الاقل •• وربما ساهمت في اثارة المناقشات الاجتماعية حول القضية ، وتحويلها الى صراع يقود الموقف الى ما فيه المصلحة الكبيرة في غالب الحالات • وربما اعطت انطباعا مثيرا عن قوة الموقف الذي يقفه اصحاب العقيدة ، من قضايا الايمان ، فلا يتنازلون عن التمسك بوجهة نظرهم ، مهما كانت الظروف صعبة ، والطريق شاقة ، والموقف مهددا بالصراع ••

---

(١) المصدر السابق ج٦ ، ص ٤١٣ .

(٢) يلاحظ ، وسائل الشيعة ج ٦ ، ص ٤١٤ .

وفي جميع ذلك يظل المؤمنون يواجهون حالات التحـدي ، بـالاسلوب المتحرك الفاعل الذي يبحث عن النتائج الحاسمة لمصلحة العقيدةوالايمان، سواء في ذلك جانب الايجاب ، او جانب السلب •• لالتقائهما في موقف الايحاء بالقوة التي تبحث عن قوة جديدة في ظروف جديدة •

(٣) فكرة الموقف السلبي ليست حاسمة

وهناك ملاحظة دقيقة في محتوى الآيات التي تعرضت لاقرار هـذا الاسلوب في مواجهة التحدي بالطرق السلبية •• وهي ان القرآن الكريم لم يطلب من المؤمنين الجالسين مع الكافرين الذين يخوضون في آيـات الله بغير الحق ، ان يقاطعوهم نهائيا بل اباحت لهم الرجوع اليهم عنـد انتهاء الحديث عن الموضوع الذي يثير التحديات ، ودخولهم في حديث آخر غيره ، لان ذلك قد يمكنهم من ايضاح الفكرة الاسلامية ، في جـو هادىء بعيد عن الاثارة ، أو الرد على التحدي بأسلوب يقنع الآخرين ، وقد نستفيد من ذلـك أن فكرة مقاطعـة الكافرين أو الضالـين والمنحرفـين ليست فكرة حاسمة ، تمثـل الخط التشريعي الذي لا يقبـل التغيير او الزيادة والنقصان ، بل هي فكرة مرنة تضيق وتتسع تبعا للحالات الطارئة الضرورية فتعالج الحالات بمقدار الحاجة ، فربما تقتضي الحالـة تحديد المقاطعة بموقف معين ، وربما تقتضي التحديد بفترة معينة وربما تستدعي الاستمرار في ذلك الى وقت طويل ••

وقد نفهم من ذلك ان الاسلام يريد من المسلم ان يظل مع المجتمـع في علاقة قوية مستمرة ، ليبقى مع خط الدعوة العملي الذي يغتنم الفرص السانحة ، ويستثمر الظروف الملائمة ليقوم بواجبه بعيدا عن كل التشنجات النفسية والسلبيات العملية •



كيف نعرض
افكار الاخرين الى الناس

ربما تدعو الحاجة الى عرض الافكار المضادة للاسلام امام النـاس من قبل الداعية ، وذلك في الحالة التي تفرض الدخول في عملية مقارنـة بين الافكار المختلفة ، لتتركز الدعوة الاسلامية بين خط ايجابـي يقـدم المفاهيم الاساسية للاسلام في عرض مفصل دقيق ؛ يوضح الصورة ويعمق الفكرة ، ويفسح المجال لولادة القناعات الجديدة وبين خط سلبي يبـين فيه الاسس التي ترتكز عليها العقيدة المضادة ، ويدخل في موازنة ومقارنة بين العقيدتين ، تنتهي بالنتيجة الى أفضلية الاسلام ، كعقيدة سماويـة ، على العقيدة الاخرى .. اما القضية التي نريد اثارتها في هذا المجال .. فهي الطريقة التي تعرض فيها الافكار المضادة ... فهل يكون من الضروري ان نحافظ على الموضوعية والحياد في ذلك ، فنتحدث عنها كما لو كنـا خارج حلبة الصراع العقيدي تماما ، كما نتحدث عن أية قضية اخرى لا دخل لها بالصراع فندقق في كل مفردات الفكرة وتفصيلاتها لنتناولها بكل امانة ووضوح وهدوء ..

او نكتفي بالعرض البسيط الذي يعطي الآخرين لمحة عنها ، ولـو بشكل خاطف لاننا غير مسؤولين عن الدفاع عنها من وجهة نظرها ، او ابداء الجوانب الايجابية التي تترك في النفس انطباعا جيدا عنها .. لاننا لسنا دعاة لها لنفعل ذلك ، بل ربما يكون من واجبنا الديني ان لا نفعل ذلك كله لئلا ينخدع البسطاء من المؤمنين في ذلك فيخيل اليهم ان وجود جانب من الحق في عقيدة الآخرين ، يوحي او يثبت انهم على الحق ولهـذا نجد

العامة من الناس لا يوافقون في قضايا العقيدة او الحقيقة على مواجهة التفاصيل بحكم مختلف ، بل يطلقون موقفهم على اساس الرفض المطلق او التأييد المطلق .. فلا مجال في موقف الرفض لاي كلمة تأييد ولا موقع في موقف التأييد لاي كلمة نقد ...

اما نحن ، فنلتقي ، في رأينا في الموضوع ، بالخط الموضوعي الذي يحافظ على عرض الفكرة بامانة واخلاص انطلاقا من مبدأين اسلاميين ، هما مبدأ العدل ، ومبدأ القوة ...

اما مبدأ العدل ، فاننا نعرف تأكيد الاسلام على هذا المبدأ في كل شيء سواء في ذلك الحكم والشهادة والكلمة والعلاقات الزوجية والمالية والاجتماعية وغير ذلك ، في حالة الرضاء والغضب مع الاولياء والاعداء لان قوام الحياة على اساس العدالة ، فلا بد من شموله لكل شيء لتتركز الحياة ، كل الحياة ، على اساس قوي ثابت ونحن نعرف ان من العدالة ان تعرض فكرة خصمك ووجهة نظره كما هي ، فتعطيها حقها من الجوانب المشرقة والجوانب المظلمة ، وبهذا يلتقي العدل مع الصدق ، لانك لو انحرفت فذكرت ما ليس موجودا فيها ، او نسبت اليه ما لا يقر به، لكنت كاذبا في حديثك ، او خاضعا لعملية الايحاء بالكذب وقد تحدث القرآن في بعض آيات العدل عن العدل في اطار علاقات العداوة والصداقة في قوله تعالى :

« وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى » ٦ : ١٥٣

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لله وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً

أَوْ فَقِيراً فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا ، فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً .

٤ : ١٣٦

« وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا إعْدلوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى.

٥ : ٩

فاننا نلاحظ في الآيتين الاولتين ، التأكيد على العدل في القول والشهادة حتى ضد القربى والاصدقاء فلا يسمح الانسان لعلاقة القربى ان تنحرف به عن كلمة العدل والشهادة . وفي الآية الثالثة : التأكيد على مبدأ العدل ــ بشكل عام ــ في جميع الاشياء . مع الاعداء مع التركيز على ان العدالة بهذا الشكل الشامل اقرب للتقوى .

وقد ورد في دعاء الامام زين العابدين (ع) في الصحيفة السجادية ، الابتهال الى الله سبحانه وتعالى في ان يرزق الانسان هذه الروح المتوازنة، التي لا تنحرف مع الاهواء الموافقة والمخالفة مهما كانت الظروف، للايحاء بان هذا الطلب يعتبر من المطالب الحيوية التي يقدمها الانسان الى ربه ، كما يقدم أي شيء آخر يرتبط بحياته :

« اللهم وارزقني التحفظ من الخطايا والاحتراس من الزلل في حال الرضا والغضب حتى اكون بما يرد علي منهما بمنزلة سواء ، عاملا بطاعتك مؤثرا لرضاك على ما سواهما في الاولياء والاعداء حتى يأمن عدوي من ظلمي وجوري وييأس وليي من مبلي وانحطاط هواي [1] » ...

(١) الصحيفة الكاملة السجادية ــ الدعاء ــ ٢٢ ــ ص ٨٣ .

وقد نجد في الفقرة الاخيرة ايحاء بان ذلك ليس مجرد عمل يقوم به كحالة طارئة بل هو جزء من تركيب الشخصية الاسلامية ، التي ينطلق معها الانسان في مناعة نفسية لا تطمع فيه الصديق في جانب الانحراف، لمصلحة الصداقة ولا تمنع العدو من ان يأمن من ظلمه وجوره بعيدا عن أي اعتبار لوجود العداوة بينهما ..

وعلى هذا الاساس ، فان القضية العامة تشمل الفكرة المطروحة لانها مظهر عملي لهذا المبد الاسلامي الشامل لان الانسان قد يتطلب العدالة في الحكم على عقيدته اكثر مما يتطلبها في الحكم على أي شيء آخر من شؤون ذاته وحياته .. لان للعقيدة امتدادا وعمقا في شؤون المصير اكثر من القضايا الاخرى ..

وقد يكون من اقرب الشواهد على ذلك ما نلاحظه في الشكوى التي تطلقها بعض المذاهب الاسلامية من اتباع المذاهب الاخرى ، لانها تنسب اليها ما لا تعتقده ولا تقول به من عقائد ومفاهيم واحكام ، استنادا الى اقوال خصومها ، او الى بعض الكلمات التي قد تعني شيئا لا يقصده قائلها او الى غير ذلك من الامور التي تشارك في اعطاء العقيدة صورة ليست لها ولونا غريبا عنها ... ولا يقتصر ذلك على الاطار الديني في العقيدة، فان هناك التيارات الفكرية السياسية التي تتصارع فيما بينها في حرب الاعلام، حيث يبادر كل من الاطراف الى اعطاء الصورة عن الآخر بما لا يتفق مع الحقيقة ، ولا ينسجم مع الواقع ، لتشويه الفكرة في انظار الناس ، فيكون سببا في ابتعادهم عنها وانتقالهم الى الجانب الآخر عندما لا يكون هناك خيار ثالث خارج عن الخيارين .

اما مبدأ القوة ، فان الاسلام قد اعتبره نقطة ارتكاز في واقع الدين، وفي حركة المسلمين في انفسهم وفي مواجهة اعدائهم ، وفي مجابهة الحياة ،

وعلى هذا جاء الحديث ان المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف وجاءت الآيات القرآنية التي توحي باعتبار القوة قيمة كبيرة ، في المستوى الاعلى للقيم في الاسلام ، وتحدثت بعض النصوص على ان من مظاهر الضعف ، هو الظلم .. لانه يعبر عن حالة خوف من المظلوم وان القوي لا يخاف احدا ولذا فلا يظلم لانه لا يخشى من حرية الآخرين وقوتهم ...

وبهذا ندخل الى قضيتنا بالذات فان الانسان الذي يجد نفسه قويا في الدفاع عن عقيدته ... ضد الهجمات التي يشنها الآخرون لانه يجد عقيدته في مركز القوة الذاتية التي تملك كل عناصر القوة ، لا يخاف من قوة العقائد الاخرى ، ولا من الجوانب الايجابية الموجودة فيها ، ولا من مظاهر الخير التي تقف في قلب الواجهة من مفاهيمها ومبادئها وشعاراتها ...

اما الذي يخاف من كل مظهر ايجابي لعقائد الآخرين ، فانه لا يعيش الثقة بنفسه وبعقيدته في قدرته على الدفاع عنها ، وفي قدرتها على الصمود والثبات .. والا فأي معنى للخوف .. هل هو الخوف على البسطاء ان يضلوا ويخدعوا ؟.. ولكن ما هو دوره كعامل في سبيل الاسلام في تقويم اسباب المناعة الذاتية لاتباع العقيدة من الخداع والضلال ...

ثم ان القضية لا تخلو من عنصر ايجابي قوي لمصلحة العقيدة ، فيما اذا وقف الانسان ليعرض فكرة خصمه بكل امانة ودقة واخلاص ، جامعا بين ايجابياتها وسلبياتها .. ثم يتبع ذلك بعرض فكرته بنفس المستوى من الامانة والدقة والاخلاص .. فان ذلك يزيد المؤمن ثقة بايمانه كما يخفف من ثقة الخصم بنفسه ويوحي له بقوة موقف الايمان في مواجهته .

ولعل ذلك هو السبب في موقف القرآن من عقيدة خصومه ، ونقدهم

له ، وللرسول ،وليعض الاحكام الشرعية فقد نقلها بكل تفاصيلها بكل دقة وامانة ، فقد تحدث عن المشككين وعن الملحدين وعن المنكرين للبعث واليوم الآخر •• وعن القرآن من حيث التشكيك بمضمونه ومحتواه ، ومن حيث التشكيك بمصدره وانه من غير الله •• وعن النبي ، من حيث اثارة الشك حول صفة الرسالة فيه بتلفيق التهم ضده ، بالسحر والكذب والشعر والجنون •••• وبالتشريع من حيث اثارة علامات الاستفهام حوله •• وبذلك يعتبر القرآن وثيقة امينة لتاريخ الدعوة والرسالة والرسول، في كل ما اثير حوله وحولها من شكوك واتهامات •• مما يوحي بثقة الرسالة بنفسها ، وثقة الرسول بنفسه وبطلان كل ذلك ، وقدرته على اثبات البطلان بكل الاساليب القوية الهادئة •• وقد تصاعد هذا الشعور الى المستوى الذي طرح القضية من الاساس ليجعل الاتجاهين في مستوى واحد ، من حيث التشكيك ، والشك الذي يبحث عن اليقين في قوله تعالى :

«وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» ٣٤ : ٢٤

ولكن هل معنى « الموضوعية » ان تعرض الفكرة بشكل محايد لا اثر فيه للموقف الذي تتبناه •• وبكلمة اوضح : هل معنى ذلك ، هو طرح الفكرة المضادة الى جانب الفكرة الموافقة ، كفكرتين يتنازعان قناعة القارىء او السامع من دون ان يكون لطبيعة العرض واسلوبه أي اثر في ترجيح القناعة لمصلحة احدى الفكرتين •• ليكون دور الداعية ، بمثابة دور الباحث الذي يقدم الافكار دون تعليق او ترجيح ليتولى الآخرون مسئولية اتخاذ الموقف الذي يناسبهم ••

ان الجواب على هذا السؤال بالرفض « للموضوعية » بهذا المعنى،

لان الداعية ليس مجرد باحث في علم الاديان او تاريخ الاديان ، كأي عالم او مؤرخ يعرض النظريات والاحداث كما هي ، دون ان يكون له مصلحة في دائرة اختصاصه ، في ترجيح بعضها على بعض .. بل هو داعيةورسول او بالاحرى صاحب رسالة ، يتعامل مع كل شيء من خلال رسالتـــه .. ويتحرك في كـــل طريق لمصلحتها .. وعلى هـــذا الاساس تحـــدد معنى « الموضوعية » بالعرض الامين الذي لا يغفل ايجابيـــات الفكرة .. ولا ينسب اليها سلبيات غير موجودة فيها .. ولكن لا مانع من ان يطرحها ، مع التعليقات القصيرة في اثناء العرض لتوجيه السامع الى نقطة الضعف .. ليدخل الى الفكرة في هذا الجو المشبع بالايحاء ليكون ذلك اقـــرب الى الوصول الى قناعته كما نلاحظ في قوله تعالى :

« وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراًفَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُون أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى : وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ».

٣٦ : ٨٣

فاننا نلاحظ انه اقحم كلمة ــ ونسي خلقه ــ بين الاجمالوالتفصيل، ليثير الانتباه حول غفلة هؤلاء المنكرين للمعاد ... لانهـــم يسألون عـــن النهاية ، دون ان ينتبهوا الى البداية ويتذكروا كيف حدثت ... ثم بـــدأ

في عرض الفكرة ، ونقدها من خلال الاسس التي ارتكز عليها الايمـان بالمعاد . وفي هذا الخط الموضوعي ، الرسالي ، يمكننا ان نسير في اسلوبنا العملي في الدعوة الى الله والى دينه القويم (الاسلام) فنخلص في عرض الافكار افكار الآخرين بكل امانة ودقة ... ولكن مع اعطاء العرض الجو الذي يفتح عيون الناس وافكارهم على ما في الفكرة المضادة من ضعف ، وما في الفكرة الرسالية من قوة وعطاء ...

ولا بد لنا في سبيل الوصول الى ذلك ، من التوفر عـلى دراسة الافكار المضادة بكل دقائقها وتفاصيلها مع التعرف على افضل الاساليب في استخدام هذه المعرفة والتحكم في السلبيات والايجابيات مـن اجـل الوصول بحركة الدعوة الى الهدف الافضل ..

اما قضية الخوف من ضلال العامة ، الذين يعتبرون الاقرار للخصم ببعض الايجابيات اقرارا له بالجميع فهذا ما يجب ان نتحفظ فيه ونتجاوزه، لان دور الرسالة ان لا تستسلم للذهنية السطحية الساذجـة فتجعل مـن اساليبها امتدادا لاساليبها ، او تترك بعض مواقفها حذرا من انفعالاتها بل ربما كان من مسؤولية الرسالة ان تخلق للمجتمع ذهنية جديـدة تعـي الواقع من خلال العمق لا من خلال السطح ، وتضع في حساباتها الفكرية والعملية الحقيقة التالية ، وهي انه ليس هناك فيما نعايش من اوضاع وفيما نؤمن به من مبادىء ، وفيما نقوم به من اعمال وشر لا خير فيه ، او خير لا شر فيه ، لان الالزام بشيء والالتزام به لا ينطلق من الخير المحض الثابت في الاشياء بل من الخير الذي يتغلب على الشر ويرجح عليه ، كما ان رفض شيء وتحريمه لا يرجع الـى الشر المحض في العمـل ، او في الفكرة ، او الواقع ، بل يعود الى غلبة جانب الشر ورجحانه على جانب الخير ولهذا نجد التشريع الاسلامي في الخمر والميسر يتجه الى تفسير الحرمة بغلبة الاثـم على النفع مع اقرار وجود المنفعة فيه وذلك في قوله تعالى :

«يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا». ٢ : ٢١٩

ليكون ذلك قاعدة عامة في التحريم والتحليل والرفض والتأييد وفي النظر الى طبائع الاشياء من حيث هي خير او شر ... وهذا هو ما يجب ان تتجه اليه التربية الاسلامية في صنع الشخصية الاسلامية على اساس المفاهيم الحقيقية للاسلام ... وبذلك تتخلص من الوقوع تحت ضغط العقليات المنحرفة للعامة من الناس في جانب العقيدة ، او في جانب التشريع .. حيث نلاحظ ان بعض العاملين للاسلام من فقهاء ووعاظ وموجهين يخفون كثيرا من اجتهاداتهم وآراءهم ونظراتهم للواقع خوفا من العامة الذين لا يوافقون عليها لاختلافها مع ما الفوه من فتوى ، وما اعتادوه من عمل ، وما قد قدسوه من عقيدة او واقع ... الامر الذي ادى الى بقاء الانحراف وامتداده ، او اختفاء بعض الفتاوى التي لو انطلقت لوفرت على المؤمنين كثيرا من الجهد والارتباك في علاقاتهم ومعاملاتهم لا سيما الاحكام التي تتعلق بغير المسلمين من احكام الطهارة والذباحة وغيرها .. فنحن نعلم ان بعض المجتهدين يرون بعض الآراء المتسامحة في هذا الجانب او ذاك ، ولكنهم اذا جاؤا الى مقام الفتوى احجموا وتحفظوا وقيدوا الفتوى بكثير من القيود الاحتياطية الالزامية التي تؤدي الى وحدةالنتيجة العملية بين التحليل والتحريم في الرأي فاذا فتشت عن السبب في ذلك وجدت الخوف من العامة مبررها الشرعي الذي يحكم الموقف كله ، لانهم يخافون من ان تزول الثقة بهم او يثور التشويش عليهم من خصومهم في مجالات الصراع على الزعامة او غيرها .. ولا يزال الواقع الاسلامي يعاني الكثير الكثير من هذا الاسلوب ، على الصعيد العملي في الممارسات الفردية ، فيما يتعلق بالافراد او في الممارسات الجماعية فيما يتصل

بالجماعات .. ولا يزال الكثير من الاوضاع الشاذة والاساليب المنحرفة التي يقوم بها المسلمون في التعبير عن حبهم لله كالاساليب الصوفيـــة في بعض مظاهرها ، او عن حبهم لاهل البيت كالاساليب التي تتبع في احتفالات عاشوراء تعبيرا عن الحزن على شهداء كربلاء كضرب الرؤوس بالسيوف او جرح الظهور بالسكاكـين والحديد او غير ذلك ممــا يشوه الصورة الحقيقية للمجامع الاسلامي وللمعاني الكبيرة التي يراد التعبير عنها بهــذه الاساليب ... فلا نجد الا الاصوات الخافتة غير الفاعلة تستنكر ذلــك ، اما الاصوات الفاعلة المؤثرة فانها تغلف الكلمة بالف غلاف وغلاف، حذرا من ان تمس ما لا يمس او تعترض على ما لا يقبل الآخرون توجيه الاعتراض اليه ... ولا مانع من ان يبقى الجهل وتتفاعل في النفــوس فيضر باصل العقيدة في نهاية المطاف لينسف الاساس من خلال نسف الصورة المشوهة التي يربطها هذا الواقع المرير ، بالاساس ظلما وعدوانا .

اسلوب الدعوة في مواجهة
الضغوط العامة وعلاقته بالتقية

قد يتعرض العاملون في سبيل الله ، لبعض المواقف الحرجة في ميدان الصراع ، فيتصرفون ـ فيها ـ تصرفا خاطئا يعرّض العمل للاهتزاز او الخطر، بسبب مضاعفات الخطأ التي تؤثر على الموقف ولذلك فلا بد من دراسة الموقف من خلال الظروف الموضوعية المحيطة به ، ليحدد ، على اساسه التصرف الموافق للحكمة وللاتجاه السليم ... اما تفصيل ذلك ... فقد يتمثل في وضع النقاط على الحروف امام بعض الحالات ...

اسلوب الدعوة في اجواء الضغط العسكري والسياسي

١ ـ فقد يكون المجتمع خاضعا لضغط سياسي او عسكري يتمثل في سيطرة وضع معين او فئة معينة على البلد ، بالمستوى الذي لا تكون معارضته ، او الدخول معه في معركة التحديات ، امرا عمليا في اطار المرحلة .. بالنظر الى القوة المتعاظمة التي يملكها ، بازاء القوة الضعيفة التي يملكها العاملون ، او العمل ، بل ربما تتحول المعركة معه الى عملية انتحارية ، يفقد فيها العمل نفسه ، والعاملون حياتهم ، من دون الحصول على أي ربح للحاضر او للمستقبل ، لحساب الاسلام والمسلمين ، بل ربما قد تكون النتائج سلبية ، في هذا المجال ، لانها تساهم في يقظة الجماعات

السياسية والعسكرية ، على وجود القوة الاسلامية الوليدة ، وعلى هذا الخطر الداهم الذي ينتظرها في المستقبل من خلال تعاظم هذه القوى الجديدة . الامر الذي يدعوهم الى العمل على اجهاض كل حركة في بدايتها وتطويق كل تحرك في هذا الاتجاه بما يخلق للعمل صعوبات كثيرة ، تمنعه من النمو والتقدم والانطلاق .

وفي هذا الجو ... لا بد للعاملين من ان يتفهموا الواقع بكل سلبياته وكل ايجابياته فيخضعوا تحركهم لذلك ، فلا يسمحوا لاحد ان يفرض عليهم المعركة مع هذه الجماعات ، في ظروف غير منتظرة ، او في حركة غير مدروسة ، ولا يقبلوا ان يدخلوا في انفعاليات حماسية تثيرها مشاعر القوة الوهمية ، سواء كانت من داخل انفسهم او من خارجها ... بل قد تفرض عليهم المصلحة الاسلامية ، ان يطوّقوا كل حركة وكل صراع يراد لهم ان يدخلوا فيه بكل ما يملكون من وسائل التجميد والتبريد ، لئلا يستسلموا الى المخططات الخبيثة المدروسة بدقة من قبل الاعداء الخبثاء او الاصدقاء الحمقاء .

النفاق والمداراة

ولا نجد هناك اي مانع شرعي من مداراة هذه القوى بالكلمة الطيبة او بالاسلوب الحميم ، او بالتعاون في العمل الذي قد ينفع ولا يضر بأحد ... ولا يعتبر ذلك نفاقا ... لاننا نعتقد ان هناك فرقا بين النفاق والمداراة ... فان النفاق يتمثل في اظهار الانسان خلاف ما يبطنه ، انطلاقا من المصالح الذاتية ، اما المداراة فانها تتمثل في الاسلوب الذي يحاول ان يخفي فيه الانسان بعض ما يضمره ، او يظهر فيه غير ما يخفيه ، انطلاقا من حاجة الرسالة الى ذلك ، او مواجهة الخطط المضادة ، بخطط اسلامية خفية ، تبطل ما يصنعونه وتمحو ما يرسمونه ... وبذلك

تعبير المداراة مظهر اخلاص للعمل ، واسلوب حكمة وقوة ، لانها تنطلق من حسابات الخطة المدروسة على اساس مصلحة الاسلام بينما يعبر التهور والاقدام على مواطن الخطر بروح انفعالية ، خيانة للعمل ، واسلوب جهل وضعف لان الحكمة هي أن تضع الشيء في موضعه ، والقوة ، تتمثل في صلابة الموقف وشدته امام حالات الانهيار النفسي... لتنطلق الحركة من خلال قوتين ، قوة الداخل التي تتمثل بالانضباط والخضوع للقوة ، وقوة الممارسة المتمثلة بقوة التحرك باستعمال ما يملكه من ادوات القتال .

التقية في اطار الاسلوب

وهذا هو الذي يطلق عليه الشيعة الامامية كلمة « التقية » التي تتمثل بالاسلوب العملي الذي يواجه به الانسان حالات الخطر على حياته وعلى دينه ، فينكر بعض ما يعتقده او يصرح باعتقاد ما ينكره ، او يعمل بعض الاعمال التي لا تنسجم مع خط الحكم الشرعي الذي يؤمن به ، كل ذلك في اطار الحالة الطارئة الضاغطة مع مراعاة المصلحة الاسلامية العليا لحركة العمل ككل ... وقد لا تتسع كلمة التقية لكل الحالات التي يتضمنها العمل ، لانها تعني الاسلوب الذي يحكمه الخوف والشعور بالخطر ، بينما قد تكون الحالة الموجودة بعيدة عن هذا الجو ... فلذا قد نختار استعمال كلمة «الواقعية» و «المرونة» كتعبير عن ذلك لان هاتين الكلمتين تعبرأن عن انطلاق اسلوب العمل من خلال دراسته المقارنة بدراسة الواقع وظروفه ومؤثراته لتطبيق حاجات العمل على ذلك كله .

هل التقية شأن شيعي خاص ؟

وقد لا تكون شرعية هذا العمل شأناً شيعيا خاصا بالمعنى المذهبي

للكلمة التي تدخل الحديث في بحث كلامي معقد ، حول الامامة ومعناها وطريق ثبوتها ... وتترك الحديث عن السند الاسلامي من خلال المصادر الاساسية العامة ، وبكلمة اكثر وضوحا ان الشيعة لا ينطلقون في شرعية التقية من قول الامام المعصوم ، الذي يعتقدون امامته وعصمته فحسب ، ليقال لهم ان ذلك لا يلزم المسلمين الذين لا يعتقدون ما تعتقدون ، بل يرجعون في ذلك الى القواعد العامة للتشريع الاسلامي لان أئمة أهل البيت لم يوجهوا شيعتهم وأتباعهم الى ممارسة هذا المبدأ ، باعتباره حكما شرعيا سريا كانوا يحتفظون به ، بعيداً عما يعرفه المسلمون من أحكام شرعية ، بل كانت التوجيهات عمليات تطبيقية للمبدأ الاسلامي الشامل الذي نزل به القرآن الكريم في آياته الكريمة ...

التقية في اطارها الاسلامي

فان من المعروف لدى فقهاء المسلمين ان الاسلام قد رفع عن المسلمين أحكام الاكراه ، في الحالات التي يتعرضون فيها لضغط الآخرين واكراههم على ارتكاب بعض الاعمال المحرمة ، او النطق ببعض الكلمات المحرمة او اجراء بعض المعاملات التي لا يريدونها ، او العقود التي يرفضونها ... فلم يحملهم مسؤولية أي شيء من ذلك في الدنيا ، في اطار النتائج القانونية ، وفي الآخرة في نطاق العقوبة الالهية ، وهذا هو ما ورد في الحديث النبوي المشهور المعروف بحديث الرفع الذي جاء فيه قوله (ص) : رفع عن أمتي تسعة أشياء .. وعد منها .. الاكراه .

ولا يقتصر الموضوع على ذلك بل يرجعون الى ما ورد في علاقة الكافرين بالمؤمنين التي توعد فيها القرآن المؤمنين ، على اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، واستثنى من ذلك حالة التقية ، التي أعقبها بالتحذير الشديد الذي قد يكون مرتكزا على عدم تجاوز الحد باستعمال

الرخصة في غير مواضعها واعتبارها حجـة على الانحراف بها عن الخط المستقيم بشكل مطلق وذلك هو قوله تعالى :

«لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ » ٣ : ٢٨

فقد يرون أن استثناء حالة التقية ، من بين حـالات التحريم ، يشير الى هذا المبدأ بشكل عام ، اذ لا يحتمـل فقيه أن يكون الاستثنـاء او الرخصة في استعمال التقيـة ، مختصا بهذا الموضوع المعين اذ لا ندرك وجه الخصوصية فيه ، فتكون النتيجة الاجتهادية الحاسمة هي انطـلاق الرخصة في كل موضوع من الموضوعات المحرمة شرعا ، في حالة التقية ، التي تجعل الانسان في وضع يخاف فيه على نفسه او عرضه ، وربما على ماله مع بعض التحفظات ...

★ ★ ★

ويذكرون في ذلك قصة عمار بن ياسر التي أنزل الله فيها قرآنا ، فقد نطق بكلمة الكفر التي طلبها منه مشركو قريش تحت وطأة التعذيب وجاء يهرع الى رسول الله (ص) وفي قلبه غصة وفي كيـانه خوف وهلع من أن يكون ذلك سببا لهلاكه عند الله ، فقرأ عليه الرسول (ص) قـوله تعالى :

إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ١٦ : ١٠٦

وقال له يا عمار ان عادوا فعد ، فان اللــه قد أنزل فيك قرآنا ...
ويتابعون قولهم ، ان قضية عمار لا تمثل حالة خاصة تختص بها الاباحة ، بل هي نموذج من نماذج الحالة العامة التي تتعدد فيها النماذج تبعا لتعدد الوقائع ولذا اندفع الرسول (ص) يعالج الحالات المستقبلية التي يتعرض فيها عمار للاكراه ، ونحن نعلم ان القضية ليست قضيـة عمار بالذات ، بل قضية المسلم الذي يتعرض للاضطهاد في عقيدته ، من قبل الكافرين ويهددون حياته بالقتل ، او من قبل المسلمين الذين يخالفونه في الرأي او من قبل الحاكمين الظالمين الذين يريدون ان ينتزعوا منه سرا يهدد حيـاة الحق الذي يؤمن به ، او حياة المؤمنين الذين يتعاون معهم في الوسيلـة والهدف ، لان القضية قضية المبـدأ الذي تخضع له الحالة ، لا قضيـة الحالة بالذات ، فيمتد الى كل حالة مماثلة في حركة الواقع الاسلامي في الحيـاة .



التقية في راي علماء السنة

وقد نجد من بعض اخواننا من علماء السنة اعترافا بالمبدأ من ناحية عامة وان خالفوا علماء الشيعة في التفاصيل . قال الالوسي في تفسيره روح المعاني ج ٣ ص ١٢١ تعليقا على الآية الكريمة « لا يتخذ المؤمنون ... » : وفي هذه الآية دلالة على مشروعية التقيـة وعرفوها بمحافظة النفس او العرض او المال من شر الاعداء سواء أكان العداء لاجـل اختلاف الدين او للاغراض الدنيوية ، غاية الامر ، في صورة اختلاف الدين تجب الهجرة الى أرض يسلم فيها على دينه ، وفي صورة الاغراض الدنيوية خـلاف بينهم في الهجرة . وعدّ قوم من باب التقيـة مداراة الكفـار والظلمـة

والفسقة والانة الكلام لهم والتبسم في وجوههم والانبساط معهم ولا يعد من الموالاة لهم النهي عنها فان ذلك سنة وأمر مشروع .

ويقول ابن تيمية في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم ص ١٧٦ : « اذا كان المسلم بدار حرب او دار كفر غير حرب لم يكن مأمورا بالمخالفة لهم في الهدى الظاهر لما عليه من الضرب بل قد يستحب للرجل او يجب عليه ان يشاركهم أحيانا في هديهم الظاهر اذا كان في ذلك مصلحة دينية من دعوتهم الى الدين والاطلاع على باطن أمرهم لاخبار المسلمين بذلك او دفع ضررهم عن المسلمين او نحو ذلك من المقاصد الصالحة » .

وفي التبصير في الدين للاسفرايني ص ١٦٤ قال : « حقيقة الايمان أن تقر به عند التمكن منه وان انكره عند المخافة من أن يعير اعتقاده شيئا فلا حرج عليه فيه قال الله تعالى : الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان » .

وفي احكام القرآن للقاضي ج ٢ ص ٢٢٣ عند قوله تعالى :

« لاَ تَرْفَعُوا أصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيّ ٢ : ٤٩

« ان الشافعي ونظراءه يجوزون امامة الفاسق ، ومن لا يؤتمن على حبة من مال كيف يصح ان يؤتمن على قنطارين . وأصل هذا ، أن الولاة الذين كانوا يصلون بالناس لما فسدت أديانهم ولم يمكن ترك الصلاة فاذا أحسنوا ولا يستطاع ازالتهم صلى معهم وراءهم كما قال عثمان الصلاة احسن ما يفعل الناس فاذا أحسنوا فاحسن معهم واذا أساؤا فاجتنب اساءتهم ثم كان من الناس من اذا صلى معهم تقية اعاد الصلاة لله تعالى ، ومنهم من كان يجعلها صلاته وبوجوب الاعادة أقول ، فلا ينبغي لاحد ان يترك الصلاة خلف من لا يرضى من الائمة ولكن يعيد سرا في نفسه ولا يؤثر ذلك عنه غيره » . ومن الطريف ان صاحب تفسير

المنار يقول في ج ٣ ص ٢٨١ تعليقا على الآية المتقدمة (وقصارى ما تدل عليه هذه الآية ان للمسلم ان يتقي من مضرة الكافرين وقصارى ما تدل عليه في سورة النحل : (الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان ، انـه مرخص لهم من باب الضرورة العرضيـة لا من أصول الدين المتبعـة دائما) .
اما ملاحظتنا عليه فهي انه ليس هناك من يقول باعتبار الرخصة من أصول الدين ، بل الظاهر أن كل قائل بالتقية لا يتعدى عن مفهومها الذي يرادف الخوف او الضرورة ، الا فيما يتفق مع مصلحة المسلمين ، كما تقدم عن ابن تيمية ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى : اذا جـاز للمسلم ان يتقي مضرة الكافرين جاز له ان يتقي من مضرة غيرهم ، لان الرخصة جـاءت من حيثية الضرر، لا من حيثية طبيعة الكفر الذي يتصف به مصدر الضرر، وهم الكفار . ثم ، اذا جاز للانسان ان يقول كلمة الكفر التي هي اخطر كلمة في حياة المؤمن ، تحت ضغط الخوف من الضرر ، جاز له أن يقـول ما عداها مما يندرج في حكـم شرعي على خـلاف الشرع ، او في كلمة مجاملة او في غيرها ، بطريقة اولى ، لان جـواز الاقوى يستلزم جـواز الاضعف بالضرورة ... ومن المفارقات اننا نجـد بعض علماء المسلمين يعتقدون حجية القياس الذي يمثل التعدي بالحكم الشرعي من موضوع الى موضوع آخر مماثل له في بعض الجوانب للظن بأن وجه الشبه ، هو اساس الحكم الشرعي ، ثم نجدهم يقفون هذا الموقف المتحفظ المتصلب من موضوع التقية الذي يطمئن فيه الانسان الى شمول التشريع لجميع الحالات من خلال ظاهر اللفظ ، او القطع بالعلة التشريعية ...

الصراع المذهبي وعلاقته بالنظرة السلبية للتقية

ولعل الاساس في ذلك ، فيما نظن ، انهم كانوا يعالجون القضيـة من خلال الواقع التطبيقي للتقية الذي كان يمارسه الشيعة في ظل الحكم الاسلامي الذي كانوا يختلفون معـه في كثير من الاحكام الشرعيـة ،

وينظرون اليه نظرتهم الى السلطة غير الشرعية ، ويعتبرونه منحرفا عن خطوط الاسلام وتعاليمه ... وكان هذا الحكم يمارس الضغط القاسي على اتجاه الشيعة كنظرة الى الاسلام وكمفهوم لقضية الحكم ونظامه ولفكرة الامامة ، وكأحكام شرعية تخالف الاجتهاد الرسمي ، وعلى أئمة الشيعة الذين كانوا يواجهون الحكم بالفكر الاسلامي الاصيل الذي يفضح الحكم بشكل غير مباشر ، وينظمون الجماعات التي تحمل الفكر الى الاجيال الآتية ، فكان الحاكمون من الامويين والعباسيين يضطهدونهم بالسجن والسم وغير ذلك وكانت حياتهم وحياة اتباعهم في خطر دائم فكانت التقية سبيلهم الى البقاء والاستمرار في رسالتهم ، وسبيلهم الى المحافظة على حياة اتباعهم ، فأمروا بها ومارسوها على اساس وجود الموضوع الشرعي للرخصة ، تماما كأي حالة من حالات الاضطرار والخوف على النفس والدين والمال او العرض ...

ولكن اخواننا من العلماء المسلمين ، لما لم يعيشوا هذا الواقع في ظل هذا الحكم لم يدركوا طبيعة الحالة الشرعية التي استند اليها أهل البيت وشيعتهم فلم يتبين لهم وجه الحق في ذلك ... او انهم لم يروا ما يراه أهل البيت في نوعية هذا الحكم ، او في الانحرافات الشرعية عن خط الاسلام ، فلم يشعروا بوجود حالة تقتضي المعارضة ، ليكون الخوف مشروعا باعتبار شرعية المعارضة او المخالفة التي تقتضيه ، بل ربما شعروا بأن من واجب الحكم ان يضطهد التشيع في خطه الفكري والعملي ، ويضطهد رجاله ، وان من واجب الشيعة وأئمتهم ان يخلصوا للحكم ولافكاره ولممارساته ... ومهما كان الموضوع فان القضية لا تخرج من الاطار الذي عرضناه ، وهو اخضاع القضية لواقعهم الذاتي في فهم الحالة لا لواقع الآخرين ، مما يجعل الموقف مثل الشخص الذي يأخذ على الآخرين خوفهم ، لانه ليس خائفا مثلهم ، لانه لا يعيش مثلهم

الظروف التي تدعو الى الخوف •• وقد لا يكون من البعيد انطلاق الحساسية ضد هذه الممارسات ، من الاجواء النفسية والاجتماعية التي عاشتها المذاهب الاسلامية ، مما يجعل الاحكام المتبادلة بعيدة عن الانصاف والعدالة في اغلب الحالات ، لبعدها عن الجانب الموضوعي للحكم على واقع الاشياء وطبيعتها ، ولقربها من الجوانب الذاتية المنغلقة على افكارها ونظراتها الخاصة مما يجعل كل فريق ينسب الى الفريق الآخر أقوالا وأعمالا لا يقول بها و لايتبناها في قليل او في كثير • ولعل الفكرة التي ألمح اليها صاحب المنار من اعتبار التقية لدى الشيعة أصلا من أصول الدين ناشئة من هذا الجو الذي أوجب اساءة فهم كثير من النصوص الواردة عن أئمة أهل البيت مثل « التقية ديني ودين آبائي » فان مفهومه الحقيقي هو اعتبارها اسلامية في اطارها الشرعي المحدد تماما ، كأي حكم آخر من احكام الشريعة التي يدين بها الانسان ربه ، من دون أن يكون في النص أية اشارة الى اعتبارها أصلا دينيا يرقى الى مستوى الاصول العامة للدين • وربما كانت أمثال هذه النصوص في تأكيدها على التقية وشرعيتها وأهميتها منسجمة مع قسوة الواقع الذي كان يعيشه أئمة أهل البيت (ع) ووجود حالات كثيرة من حالات عدم الانضباط لدى شيعتهم مما يستوجب حملة نفسية ضد واقع الانفلات لتطويقها من جميع الجهات ••• وقد نجد الكثير من الشواهد على ذلك في أحاديثهم التي يوبخون بها كثيرا من أصحابهم الذين يذيعون بعض أسرار العمل او لا يحافظون على التقية في علاقاتهم ••• فيعرضون حياتهم وحياة اخوانهم وأئمتهم للخطر المباشر وغير المباشر ••

الدعوة الى الموضوعية في معالجة هذا الموضوع

ولكن فهم ذلك كله يحتاج الى فكر موضوعي مجرد يرصد النصوص والاوضاع المحيطة بالاشياء بهدوء وموضوعية وتجرد •••

ليفهم الاجواء التي تحكم ذلك كله ، بعيـــدا عن أي انفعال او هوى او احساس ذاتي ... فان ذلك هو السبيل الصحيح لفهم الواقع ، حكما او عملا أو واقعا فرديا او اجتماعيا ، كما تحدثنا به فيما تقدم من احاديث هذا الكتاب عند معالجتنا لبعض الاستنتاجات الخاطئة للاحكام الشرعية بسبب النظر اليها من خلال الفهم الحرفي للنص ، واغفال الفهم الاجتماعي الذي يضع الجو الى جانب النص ويضع النصوص الى جـانب بعضها البعض لينتهي الى النتيجة الصحيحة على أساس استكمال جميع العنـاصر المؤثرة في الفهم والاستنتاج .



اننا نقف هذه الوقفة مع هذا المبدأ العملي ، وهو التقية ، لشعورنا بأهميته الكبيرة في أسلوبنا العملي في حركة الاسلام ، وواقعيتـه ، لان أفكار هذا المبدأ ومهاجمته انطلاقا من الشعارات المثالية التي تنظـر الى الهدف البعيد وتحلم فيه دون ان تخطط للطريــق الذي يوصل الانسان اليه ، يسيء الى العمل والى طبيعته ، كما رأيناه في محاربة شعار الغـاية تبرر الوسيلة ، واعتباره شعارا « ميكافيليا » يستحل كل شيء في سبيل الوصول الى غرضه وأطماعه ، ولم ندقق في الفكرة لنفهم أن هناك فرقا بين الغاية التي ترتبط بالمصلحة الذاتية والاطماع الشخصية وبين الغـاية التي ترتبط بالمصلحة العامة والاهـداف الكبيرة للامة ، فقد لا يجـوز للانسان ان يسلك للوصول الى أغراضه الا الوسائل والاساليب المحللة الشريفة التي لا تسيء لاحد ، ولكن اذا كان الهدف هو هدف الامـة ، وكانت المصلحة مصلحة المجتمع بشكل عام فان عظمة الهدف ، وأهميـة المصلحة تبرر سلوك أي طريق يتوقف عليه الهدف او تفرضه المصلحـة ، لان الموقف تابع لعملية الخيار بين الغـاية وبين الوسيلـة ... وفي هذه الحالة ، تتقدم الغاية لتبرر الوسيلة وتخرجهـا من دائرة « ضد القيمة »

الى دائرة « القيمة الجديدة » التي تستمدها من قيمة الغاية في نظافتها وعظمتها وطهرها .

وهذا هو ما نريد التنبيه اليه والى خطورته الفكرية والعملية لانه يجعل الانسان خاضعا لاحلام الفكر ومثالياته بعيدا عن واقعيته ومرونته ... ولهذا فاننا نريد من الدارسين ان يدرسوا هذا المبدأ من هذه الزاوية ، ولا يخضعوه لرواسب فكرية ومسلّمات ، لم تستند الى أساس واقعي اسلامي ليستطيعوا ان يخلصوا العمل الاسلامي من أسار هذه الافكار التي تسيء اليه أكثر مما تحسن ، وتضره أكثر مما تنفعه . وبالتالي ، من الارهاب الفكري الذي يمارسه المحافظون التقليديون الذين حمّلوا الاخلاق الاسلامية كثيرا من المثاليات الفلسفية التي لا تستند الى حقيقة ولا ترتكز على أساس تشريعي ثابت .

حدود التقية في الحكم الشرعي

وقد رأينا في هذا العرض الذي عرضناه للحيثيات التشريعية لفكرة « التقية » ولآراء بعض العلماء المسلمين من السنة ، ان الفكرة ليست فكرة مذهبية ، بل هي فكرة اسلامية تخضع لما تخضع لها الافكار الاسلامية الاخرى من حيثيات التشريع وفلسفته .. أما حدودها ، فهي حدود المصلحة الاسلامية العليا ، التي يجب الوقوف عندها ، في عملية موازنة ومقارنة لما يأخذه الانسان وما يدعه منها ، وقد صرح بذلك صاحب مجمع البيان الشيخ الطبرسي في ج ٢ ص ٤٣٠ طبع صيدا قال : (كان اصحابنا يرون جواز التقية في الاحوال كلها عند الضرورة وربما وجبت لضرب من اللطف ولا تجوز في قتل ولا ما يغلب الظن انه استفساد في الدين . وذكر ابو جعفر الطوسي ان ظاهر الروايات وجوبها عند الخوف على النفس كما ورد انها رخصة في الافصاح بالحق ، ثم ذكر حديث الرجلين اللذين أخذهما مسيلمة ليكفرا بالنبي ، فأحدهما كفر ظاهرا وسلم والآخر لم يكفر وقتل فاستحسن النبي فعلهما) .

وقد ورد في أحاديث أهل البيت أن التقية انما كانت ليحقن بها الدم فاذا بلغ الدم فلا تقية [1] . ولكن هل معنى هذا كله ان التقية تغلق على الانسان باب التضحية بالنفس انسجاما مع فكرته ومبدأه لانه لا يريد أن يأخذ بالرخصة ، بل يريد أن يأخذ نفسه بالالزام .. واذا كانت التضحية كذلك فما معنى سلوك ياسر وسمية اللذين كانا يستطيعان أن يقولا كلمة الكفر تحت ضغط الاكراه كما قالها ولدهما عمار .

اننا لا نوافق على ذلك انطلاقا من (حديث مسعدة بن صدقة عن الامام جعفر الصادق (ع) قال : قلت لابي عبدالله « ان الناس يروون ان عليا قال على منبر الكوفة : ايها الناس انكم تدعون الى سبي فسبوني وتدعون الى البراءة مني فلا تبرؤا مني فقال : ما اكثر ما يكذب الناس على علي (ع) ثم قال : انكم ستدعون الى سبي فسبوني ثم تدعون الى البراءة مني واني لعلى دين محمد (ص) ولم يقل ولا تبرؤا مني ... فقال له السائل : أرأيت ان اختار القتل دون البراءة ، فقال : والله ما ذلك عليه وما له الا ما مضى عليه عمار بن ياسر حيث اكرهه اهل مكة وقلبه مطمئن بالايمان فأنزل الله عز وجل فيه قرآنا « الامن اكره وقلبه مطمئن بالايمان») فقال النبي عندها يا عمار ان عادوا فقد انزل الله عذرك وأمرك ان تعود اذا عادوا .) فان هذا الحديث يدل على ان القضية لم تكن نهيا من علي (ع) لهم عن البراءة وانما كانت نهيا عن الانسجام الداخلي والاقتناع الذاتي بذلك لان ذلك يخالف واقع الاشياء ويشرف بالانسان على البراءة

---

(١) وجاء في حديث الامام جعفر الصادق (ع) : وتفسير ما يتقي مثل ان يكون قوم سوء ظاهر حكمهم وفعلهم على غير حكم الحق وفعله فكل شيء يعمل المؤمن بينهم لمكان التقية مما لا يؤدي الى الفساد في الدين فانه جائز . ولا بد في تقدير ذلك من دراسة الحالة من جميع جهاتها ليعرف كيف يؤدي السير عليها الى الفساد في الدين او لا يؤدي الى ذلك ...

من دينه في نهاية الامر ، لأن البراءة ممن كان على دين محمد (ص) في داخل النفس ، ينتهي الى البراءة من الدين بشكل مباشر ، وبهذا تقف القضية في آطارها الصحيح الذي يجعل التضحية في مقام الدفاع عن الفكرة أمرا غير واجب فلا يكون منحرفا عن خط الايمان لو اخذ بالرخصة وقال كلمة البراءة وأحب العافية .

اما اذا اختار خط التضحية وفضل الموت على الحياة في سبيل الصبر على كلمة الايمان وكلمة الولاء فانه يكون في اعلى درجات الايمان ، كما كان شهيدا الاسلام (ياسر وسمية) — ابوا عمار — في تضحيتهما من اجل الايمان فماتا تحت سياط العذاب لانهما لم يقولا كلمة الكفر للكافرين ، وكما كانت القصة في موقف الشهيد العظيم حجر بن عدي واصحابه البررة الذين اختاروا الموت على ان يقولوا كلمة البراءة من الامام علي (ع) . ان الموضوع هنا هو انه هل يجوز للانسان اتباع سبيل التقية في حفظ نفسه أو لا يجوز الامر الذي يضع القضية في خط اعتبار التقية انحرافا عن خط الايمان او انسجاما معه ، وليس الموضوع هو انه هل يجوز أن يضحي الانسان بنفسه في سبيل عقيدته مع قدرته على النجاة وتجاوز حالة التضحية بطريقة مشروعة [1] .

المرونة الواقعية في سيرة النبي محمد (ص) والائمة من اهل البيت

اما المرونة العملية ، والواقعية في سلوك النبي محمد (ص) فقد نلاحظه في موقفه في قضية صلح الحديبية عندما اراد كاتبه ان يكتب عهد الصلح بينه وبين مشركي قريش فاضاف الى كلمة « محمد » كلمة « رسول الله» فاعترض المشركون على ذلك لانهم لا يقرون بهذه الصفة ولولا ذلك

---

(١) النزعة الواقعية في الاسلام . للمؤلف (مفاهيم اسلامية عامة . الحلقة الثامنة) .

لما حاربوه فامتنع الكاتب من حذف الكلمة ، ولكن رسول الله ، وافق على ذلك ومحاها بيده فقد نجد في هذا السلوك مرونة واقعية في الاسلوب .. جعلته يتجاوز ذلك لئلا يعطل قضية الصلح التي كانت مصلحة للواقع الاسلامي ، آنذاك .

وقد نلاحظ ذلك في سلوك اهل البيت عليهم السلام وتعليماتهم الى اصحابهم في علاقتهم باخوانهم المسلمين الذي يختلفون معهم في شؤون المذهب ، فقد ورد النص على معاشرتهم وعيادة مرضاهم وتشييع جنائزهم والصلاة في، مساجدهم والاذان لهم وغير ذلك من الامور التي تسد الثغرات وتقلل من السلبيات وتقرب الافكار والمشاعر ، وتفسح المجال لولادة جو روحي جديد يمكن للحوار المستمر القائم علىالايمان والواقعية ان يعطي ثمارا كبيرة ، بدلا من المقاطعة التي لن تؤدي الا الى مزيد من البعد ومزيد من العداء ، من دون ان تشارك في آي لون من الوانالايجابية في العقيدة والسلوك .

التورية من الاساليب الواقعية لمواجهة الضغوط

وقد يذكر الفقهاء اسلوبا آخر في تجاوز الضغوط التي يتعرض فيها الانسان لقول ما لا يعتقد ، او عمل ما لا يجوز ، او مدح من لا يستحق المدح وذم من لا يستحق الذم ، وهو اسلوب (التورية) الذي هو (عبارة عن ايراد لفظ ظاهر في المعنى وارادة المتكلم خلافه) وقدجاءت النصوص الدينية من طريق السنة والشيعة في جوازه فقد روى سويد بن حنظلة قال : خرجنا نريد رسول الله ــ ص ــ ومعنا وائل بن حجر فاخذه عدو له فتحرج القومان يحلفوا وحلفت انا انه اخي فخلوا سبيله فاتينا رسول الله (ص) فاخبرته ان القوم تحرجوا ان يحلفوا وحلفت انا انه اخي فقال : صدقت : المسلم اخو المسلم » ، فان الظاهر من كلمة الاخ ، الاخاء في

النسب ، ولكنه أراد الاخاء في الدين من غير ان يقيم دليلا على ذلك ليوهم السامع المعنى الاول ليحصل من خلال ذلك على مراده وهو انقاذ هـذا الرجل من دون آن يكذب في داخل نفسه ...

وجاء في الحديث عن الامام جعفر الصادق ـ ع ـ في الرجل يستأذن عليه فيقول للجارية قولي ليس هو ههنا قال : لا بأس ليس بكذب ... ومن المعلوم ان المقصود من كلمة الجارية ، هو نفي وجوده في مكان مـا في البيت لا في البيت كله لانه يكـون كذبا واضحا .. لا مجرد ايهـام وتلبيس .

وسئل الامام الصادق عن قوله تعالى : «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ» قال مـا فعله كبيرهم وما كذب ابراهيم قيل : وكيف ذلك قال : انما قال ابراهيم ان كانوا ينطقون ، فما نطقوا وما كذب ابراهيم » ، وسئل الامام جعفر الصادق عن قوله تعالى (ايتها العير انكم لسارقون) قـال انهـم سرقـوا يوسف من ابيه ألا ترى انهم قالوا نفقد صواع الملك ولم يقولوا سرقتم صواع الملك .

اما قيمة هذا الاسلوب فهو المحافظة على نظافة الداخل والبقاء على موقف الصدق من ناحية نفسية .. مع التخلص من المأزق الحرج الـذي وقع فيه ، والخروج من جو الضغط الشديد بدون سلبيات دينية .

وخلاصة الحديث ان بامكان الانسان المسلم ان يجد السبيل القويم لمواجهة الضغوط التي يتعرض اليها ، بالطرق الواقعية التي يقرها الاسلام في عملية توازن دقيقة بين طبيعة الموقف وبين حاجة الانسان او الدعـوة الاسلامية ، او العمل الاسلامي الى الحياة والامتداد والثبات .

اسلوب الدعوة في اجواء الضغط العاطفي

ـ وقد يخضع الموقف لحالة عاطفية مضادة للموقف الحق الذي يقفه الداعية ، وذلك في موقف الابناء من الآباء ، فان علاقة الابناء بالآباء تخضع لشعور عميق بالقداسة الروحية التي تستمد قوتها من العاطفة التي تعتبر وجود الابن امتدادا لوجود الاب •• مما يولد في داخل الابناء تقديسا لمصير آبائهم واخلاصا لافكارهم وعقائدهم •• فتكون النتيجة ان يرفضوا الدخول في الدين الجديد ، لان ذلك يبعدهم عن عقائد آباءهم، التي تجمع الى جانب العقيدة صفة التقليد ، ويسلمهم الى القناعة بانحرافهم عن الخط الذي يجعلهم في النار في الدار الآخرة ، فكيف نواجه هذه الحالة الصعبة ، التي واجهها الانبياء كما لم يواجهوا حالة اخرى مماثلة في الصعوبة لانها ليست قضية فكر يناقش ويحاكم ، بل قضية عاطفة تجيش وتثور وترق وتدافع عن العقيدة من خلال الشعور والاحساس ، لا من خلال العقل والفكر •

اننا نواجه الحل في اسلوب القرآن الكريم فقد تحدث لنا في قصة النبي موسى (ع) مع فرعون وحواره معه ان فرعون وجه اليه سؤالا حاول ان يستفز به موسى للدخول في جدل حول آباء المجتمع الذي كان يحضر جلسة الحوار ، ليثيره ضده ، لان طبيعة الدعوة الى عبادة الاله الواحد الاحد التي يدعو اليها موسى ، يفرض ضلال الذين يعبدون غيره من الآباء والابناء ، وهلاكهم في الدنيا والآخرة •• الامر الذي يؤدي الى ضغط عاطفي على مشاعر هؤلاء تجاه آباءهم •• ولكن موسى كان ذكيا في جوابه حيث تجاوز السؤال واوكل الجواب الى علم الله تعالى، معفيا نفسه من مسؤولية الجواب عن ذلك لانه من الامور التي لا يحيط بعلمها فلا يجوز له ان يجيب بما لا سبيل له الى العلم به •

« قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأولى . قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى » ٢٠ : ٥١ ــ ٥٢

ونلاحظ ان في هذا الجواب مرونة ذكية تتجاوز الضغط العاطفي من جهة ، وتطلق التحذير الخفي من جهة اخرى باعتبار ان الكتاب الذي يضم علم ذلك مستمد من الله الذي لا يضل في علمه ولا ينسى شيئا منه.

وهذا الاسلوب ، من اروع الاساليب في الحكمة والمرونة واللياقة، لانه لا يسيء الى عاطفة الابناء بالدخول في تفاصيل غير محببة بالنسبة اليهم، ولا يضر بالفكرة لانه لا يتنكر لاي جانب من جوانبها ، بل يترك الامر لله الذي قد يعفو وقد يعاقب ، من دون ان يعني ذلك رفض استحقاق العقوبة للمنحرف عن طريق الحق .

ولعلنا نحتاج الى السير مع هذا الاسلوب في كثير من الاحاديث التي تثار في حالة الجدال العقيدي ولا سيما المذهبي منه .. عندما تكون العاطفة المذهبية متجهة الى تقديس شخص لا يستحق التقديس مما يوجب صعوبة لدى اتباعه ومحبيه ، ان تجعلهم يعتقدون ــ بصراحة ــ بان مصيره الى النار .

مع العلاقات العاطفية بالابطال المنحرفين

ــ ٣ ــ وربما تكون العاطفة سياسية او عسكرية او فنية ، لدى الاشخاص الذين يتعاطفون مع الآخرين على اساس البطولات السياسية والعسكرية والفنية ... فقد يكون من الحكمة ان نبتعد عن اسلوب تصنيف هؤلاء في النار او في الجنة لان امر الجنة والنار ليس بايدينا ، بل هو بيدالله الواحد القهار الذي تحدث عن نفسه انه يغفر الذنوب جميعا

وانه لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وان رحمته وسعت كل شيء ، ولان التصريح بذلك ، ولو على اساس استحقاق العقوبة ، لا يفيد القضية شيئا بل قد يضرها لان العاطفة قد تنتهي بالانسان الى رفض كل شيء يصطدم بعاطفته وان كان منسجما مع عقله ... ولان بذل الجهود في سبيل الربط لهذا الانسان بالفكرة ثم بالعمل المتواصل على توثيق هذا الرباط ، أفضل من استنفاد الجهود فيما لا طائل تحته من قضايا الجنة والنار الذي قد يكتشفه الانسان بطريقة عفوية فيما اذا امتد في خط الايمان ، وتعمق في معانيه ونتائجه ... ولان الافاضة في هذا التصنيف البشري لاهل الجنة او اهل النار قد يعطي انطباعا سيئا عن الفكرة لانه يوحي بان هؤلاء الذين استطاعوا بناء الحضارة في الدنيا ، من خلال علومهم وفنونهم وجهودهم وبطولاتهم السياسية والعسكرية والفكرية هم من اهل النار ، بينما تكون الجنة من نصيب المتواكلين والجاهلين والخاملين والجامدين الذين لم يقدموا للحياة اي شيء ، ونحن نعرف خطورة هذا الانطباع على قيمة الدين في تفكير الناس ، واحترامه في نفوسهم ، مما يجعل أمر الحديث عنه والبحث عن دور الحق والباطل في مفهومه ، غير ذي معنى لدى هؤلاء ، لان الكتاب يعرف من عنوانه ، فيما يمكن ان يقولوا . ولكن لو تركنا ذلك جانبا ، واقبلنا على الموضوع من جذوره وخاطبنا في هذا الانسان فكره وعقله وضميره واستطعنا ان ندخل الاسلام الى كيانه .. فاننا سوف ندخل الى شعوره من خلال ايمانه بالاسلام وستزول العاطفة عن كل شيء لا يتصل بالاسلام . وسيعرف بعد ذلك ان قضية الاخلاص لله والارتباط به هو الذي يعطي لاي عمل من الاعمال الخيرة التي يقوم بها الانسان في الحياة ، معنى الخير والصلاح في كيان الانسان وقيمته الذاتية ، وان هناك فرقا بين صلاح الانسان في ذاته من خلال اعماله ، وبين صلاح العمل في نفسه من خلال فائدته للمجتمع ، لان الصلاح الذاتي بسبب العمل يخضع لدوافع العمل الخيرة ، بينما

صلاح العمل يخضع لطبيعة تأثيره في المجتمع •• فلا مانع من ان يكون الانسان شريرا بينما يكون عمله خيرا لان دوافعه العملية كانت اقرب الى الشر منها الى الخير ••• وعند ذلك يزول عنه كل انطباع سيء فيما يتعلق باهل الجنة واهل النار •

الاسلوب في علاقة العاطفة بالعقيدة

اما علاقة العاطفة ، بقضية العقيدة فقد عالجها القرآن بقوة وحذر •• بطريقة تختلف عن الطريقة السابقة ، لاننا لا نستطيع اغفال الجواب التفصيلي هنا كما اغفلناه هناك ، لان قضية مصير الآباء لا يدخل في موضوع العقيدة سلبا وايجابا بشكل مباشر ، بل قد يكون في الحديث عنه بعض السلبيات •• اما هنا فان العاطفة تواجه نفس العقيدة وجها لوجه ، لانها تقف حاجزا منيعا بين الانسان وبين الايمان لان في ذلك اساءة الى ذكرى الآباء وعقيدتهم التي تحمل معنى القداسة ••• وبذلك تتحول القضية من حالة الى منهج •• لان الموقف يواجه المسألة المطروحة من حيث علاقتها بالمنهج الفكري للعقيدة ، هل تخضع العقيدة للتقليد وللتراث والدوافع والمؤثرات العاطفية ، او انها تخضع للفكر والعقل والمحاكمات العلمية والعقلية ••• او بالاحرى ، هل الانسان ظل للاخرين الذين تربطهم به علاقة تاريخية ، وامتداد لشخصياتهم وتأريخهم او هو كائن مستقل يصنع لنفسه ولأمته الفكر والعقيدة والتاريخ ، كشخصية مستقلة تصل الى قناعاتها واعمالها بصورة مستقلة •• حتى التراث وعقائد الماضي ، التي قد تتبناها ، فانها تتبناها من خلال الطريقة الموضوعية في فهم الاشياء ومحاكمتها ، لا من خلال كونها تراثا وتاريخا مقدسا معصوما ••• وقد واجهها الاسلام بطريقة مثيرة ، تصدم العاطفة بقوة ، وتحطم مقدساتها بعنف وتناقش قواعدها الفكرية ، بفكر قوي •• وتهاجم آباءهم

في مستواهم الفكري بلا رحمة كما نواجه ذلك في الآيات الكريمة التالية :

«١ – وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ» ٢ : ١٧٠

«٢ – وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُم لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ»٥ : ١٠٥

«٣ – قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنْ الْوَاعِظِينَ . إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ» ٢٦ : ١٣٦ – ١٣٧ – ١٣٨

«٤ – بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ، قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ، قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ فَانْتَقَمْنَا

مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ» ٤٣ : ٢٢ ــ ٢٥

الاسلام يحارب التقليد ، بالتركيز على المنهج

فاننا نلاحظ في كل هذه الآيات عنفا في المواجهة ، ولكنه العنف الذي يثير الاساس الفكري للقضية ، ليثير لديهم دوافع التفكير الهادىء في القضية المطروحة .. وهي تبرير العقيدة بانها عقيدة الآباء وتبرير الخلق بانه خلق الاولين ، وتبرير الشريعة بانها الشريعة التي ألفينا عليها اباءنا ، والسؤال المطروح امام ذلك كله في القرآن الكريم ، هو اثارة التفكير في المستوى العقلي والعلمي لهؤلاء الآباء .. هل يملكون الثقافة العلمية ، والقوة العقلية التي تبرر للانسان ان يعتمد عليهم في قناعاته التي ترتكز على شيء من العقل وشيء من العلم .. واذا كانوا لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ، كما في الآية الاولى ، او لا يعلمون شيئا ، فكيف يبررون اتباعهم لهم ورفضهم لما انزل الله ... مع ان القضية لا تحتمل المقارنة في اي وجه من وجوهها ، اذ لا معنى للمفاضلة بين ما ينزل الله من شريعة او عقيدة وبين ما يصنعه الآباء من جهل وانحراف ، ولكنه الاسلوب القرآني الرائع الحكيم الذي يريد للانسان ان يصل الى قناعاته من خلال المناقشة لها حتى في الاشياء التي لا ضرورة لمناقشتها في قليل او كثير .. فهل يستطيع ان يجد المبرر ، او هل تصمد الحجة امام الحقيقة القاطعة التي تكشف له اذ آباءه لم يصلوا الى ما وصلوا اليه بسبب عقل او علم او هدى بل كانوا ينطلقون من المواقف المضادة للعلم والعقل والهدى ، فكيف يتبعهم في ذلك ...

ثم يطرح القضية للتفكير من زاوية اخرى .. بعد ان يقرر ان هذا المنهج في الوصول الى الايمان ، من خلال تقليد الآباء ، يمثل ظاهرة عامة

في حياة الناس ، تواجه الانبياء بالرفض لرسالاتهم انطلاقا من ذلك ، فهي منهج للايمــان بما آمن به من الآبــاء ومنهج للرفض لما لم يؤمنوا به ... والسؤال المطروح ... هو اثارة التفكير في نفس الفكرة المطروحة امامهم ومقارنتها بالفكرة التي يعتقدهــا الآباء .. فليكن للآباء فكرهم القوي المرتكز على العقل والعلم والهدى ، ولكن من يثبت عصمتهم عن الخطــأ في الفكر ، وهــل يخرج تفكيرهم عن اي تفكير آخر محــدود بخضع لاحتمالات الخطأ والصواب ، تبعا للمؤثرات المحددة التي شاركــت في ولادته مما تحتمل الحق والباطل .. واذا كان الامر كذلك فان المطلــوب تحديد الموقف من الفكر الجديد ، اذا كان اهدى واصح مما وجدتم عليه آباءكم ، فهل تصرون على رأيكم او تتبعــون الفكر الاصح والاقــوى والاهدى ... ويحدثنا القرآن الكريم انهم لم يحاولوا التفكير والمقارنة، بل اندفعوا للتأكيد على الالتزام بموقف الكفر من دون مناقشة او جدال ولذلك كان رد الفعل ... انتقام الله منهم في الدنيا قبل الآخرة ...

الاسلوب الاسلامي يفرض نفسه على صراعنا مع العاطفة

ونحن هنا ــ نريد الانطلاق من خط هذا الاسلوب القرآني في طرح المنهج للمناقشة ، من خلال المستوى العقلي والعلمي لاشخاص التراث من الآباء والاجداد او من غيرهم ، ومن خلال المحتوى الفكري والــروحي للعقيدة التاريخية ، والعقيدة الجديدة ، للوصول بواسطة المقارنة للنتيجة المطلوبة وهي تفضيل الرسالات السماوية التي جاء بها الانبياء على عقائد الآباء والاجداد ..

ونحسب ان قيمة هذا الاسلوب هو انه يعيد الانسان الــى النظر للواقع ، بعيدا عن اي هالة مقدسة ، او عظمة فارغة ، او عاطفة ساذجــة ، بل يربطه به وجها لوجه سواء في ذلك واقع الانسان الذي تنطلق منــه

الفكرة او واقع الفكرة التي يعتنقها الانسان ... لينتهي في نهاية الامر الى ان الانسان ليس فوق مستوى الخطأ والاشتباه او الجهل والانحراف، وان الفكرة ليست فوق مستوى المناقشة والانكار والبطلان ، فربما يكون الحق مع انسان آخر أكثر وعيا وفهما ، وربما تكون الحقيقة موافقة الفكرة اخرى اعمق جذورا واوسع آفاقا .. وليس للانسان الا ان يفكر من قاعدته الفكرية من دون خضوع لاحد ، او التقليد لاحد ... ويحاكم كل الافكار المطروحة امامه من موقع العقل لا من موقع العاطفة .

وقد نشعر بالحاجة الى هذا الاسلوب في جميع الحالات العاطفية التي تدعو اصحابها الى اتباع عقيدة معينة بسبب اعتناق شخص آخر لها من قريب او صديق او حبيب او ابتداعه لها ، مما يخلق في داخل نفسه شعورا بالالفة لكل شي يخصه ويرتبط به .. او بمسؤوليته عن النجاح لها ، لان ذلك ينعكس على نجاح نفس الشخص فان علينا ان نهز قناعات هؤلاء العاطفيين بالفكرة ، بهذا الاسلوب الواقعي الذي يتجه الى تعرية اصحاب العقيدة واتباعها من حيث الامكانات الفكرية والعقلية التي يتمتعون بها .. ومن حيث المؤثرات الذاتية التي قد تجعل العقيدة نابعة من مصلحة شخصية او طمع ذاتي بعيدا عن كل معنى للاخلاص والنزاهة والتجرد ، ثم استعراض تاريخ الفكر وتطوره ، وثغراته ، وما يعرض عليه من تغير وتبدل وصلاح وفساد كسبيل من سبل دفعه الى عقد المقارنة الفكرية بينها جميعا ليكتشف بنفسه او بواسطة الجدل الفكري حولها خطأ تلك وصواب هذه .

ولا مانع من التوسع في ايجاد علامات استفهام اخرى ، غير التي طرحها القرآن الكريم في هذا المجال ، لان القرآن الكريم لا يريد استيعاب كل الاسئلة التي يمكن ان تطرح ، مما يمكن ان يتجدد في نفس الانسان ، لتجدده في صعيد الواقع وحركته ، بل كل ما استهدفه القرآن

هو تقديم المنهج الذي يجب ان يسلكه الانسان في اسلوب محاكمة هـذا المنهج في العقيدة او في طريق الوصول الى العقيدة ، وبذلك تكون الثقافة القرآنية قاعدة للانطلاقات الفكريـة في مجال الثقافـة الواسعة وايحاءاً بالآفاق الجديدة التي يمكن للانسان ان يبلغها او يكتشفها في رحلته الى الفكر المجهول الممتد في رحاب الحياة ، ان الاسلام يريد للانسان ان يفهم كيف يطلب الله منه ان يواجه الحياة بعقل منفتح يحمل مسؤوليـة فكره وقناعاته من خلال حركة الفكر واستقلاله وحيويته ، لتكون المسؤوليـة منطلقة من موقع الارادة الحرة التي تعرف مواقفها جيدا على اساس مـن وعي وعلم واخلاص ، وبذلك يشعر الانسان كيف يحترم فيـه الاسلام انسانيته وحرية تفكيره عندما يمنعه ــ تحت طائلة العقاب ــ من اخضاع انسانيته وفكره لارادة الآخرين على اساس من العاطفة والمنفعـة او اي شيء آخر . وهذا ما يجب أن يثيره الدعاة امام الناس عند عرض هـذه الجوانب العاطفية وعلاقتها بالعقيدة او بالعمل، وموقف الاسلام من ذلك.

اسلوب الدعوة في اجواء الضغط الغوغائي

ــ ٣ ــ وقد يدخل الانسان في حوار حول قضايا العقيدة والشريعة مع بعض الناس ، او يقف ليثير بعض الحديث في شؤون ذلك ، فيحـاول آخرون ممن لا يتفق معهم في خط الايمان ان يصرفوا الحديث الى غير ما يريد ويحولوه عن الاجواء التي تسيطر على الحديث والحوار الى اجواء اخرى موافقة لما يحملونه من عقيدة ، ولما يثيرونه من اوضاع ، ليوجهـوا به الاهتمام الى ذلك ، فتظل الافكار مشدودة اليهم خاضعة لتأثيرهـم ، حتى في حالة الحديث عن عقائد اخرى ومبادىء اخرى ، فانهم يحاولون ان يجعلوا اتجاهه في الخط الذي يرسمونه ، والجانب الذي يثيرونـه ، لانهم يدركون ان قيمة الاجواء العامة للفكرة ، حتى لو أثيرت بشكـل مضاد ، تتمثل في التعبئة النفسية بمشاعر الاجواء واحاسيسها واهتماماتها

الخاصة والعامة مما يجعل من عملية جلب الناس الى الفكر الذي يريدونه، وقيادتهم نحو الاهداف التي يستهدفونها عملية سهلة للغاية لان دعـوة الناس الى أي عقيدة تحتاج الى عنصرين ، احدهما ، ربط الناس باجواء العقيدة واهتماماتها، وثانيهـما ، ربطهم بافكار العقيدة ومحتواهـا ولا يستغني الثاني عن الاول لان الانسان يفقد اهتمامه بالاشياء المطروحة او يبتعد عن اجواءها لانه يعيش في اجواء اخرى بعيدة عنها واهتمامـات غيرها غريبة عنها ..

اساليب الضلال في اثارة الاهتمام بالانحراف

وهذا هو ما يحاوله الكثيرون من اتبـاع المبادىء المضادة للدين ، لابعاد الناس عن اجواء الدين واهتماماته ، فيبادرون الى اثـارة قضايـا الحياة ومشاكلها وحاجاتها الآنية والمستقبلية لا سيما الاشياء الملحة منها، مما هو قريب الى احساس الانسان وشعوره واهتمامه ، ثم تتنوع المحاولة في اتجاه اثارة الحلول على الطريقة التي يفكرون بها ، وتوجيه المناقشات الى الجو الذي يعيشون فيه ليظل الحوار مشدودا الى الفكرة والجو معا حتى في الاتجاه المضاد .. فيحصلون من خلال ذلك على نتيجتين ، ابعاد الناس عن التفكير الديني بابعادهم عن اجواءه وتقريب الناس الى افكارهم بتقريبهم الى اجواءها .. كمرحلة اولى من مراحل تحصيل القناعات فـي نهاية المطاف بما يريدون وبما يفكرون ، كما ألمحنا اليه .

اسلوبنا العملي في توجيه المجتمع الى الاسلام من خلال قضاياه

ولعل من افضل الاساليب في مواجهة ذلك ان لا نبتعد في احاديثنـا عن الاجواء والاهتمامات التي يثيرونها امام الدعوة ، ولا ننسحب مـن الميدان احتجاجا على ذلك ، لانهم يربحون الموقف في كلتا الحالتين ، بـل

تحاول توجيه قضايا الحياة ، التي تثار ، الى الخط الاسلامي ، على الطريقة القرآنية التي تربط الظواهر الطبيعية والاجتماعية والذاتية بالله من حيث هو السبب الاعمق في الاشياء واسبابها ، وادخال العنصر الالهي في الاوضاع الصعبة التي يواجهها الانسان من الخوف والجوع ونقص الاموال والانفس والثمرات ، وظهور الفساد بين الناس في البر والبحر وانتشار الظلم ... باعتبار ذلك بلاءا من الله وامتحانا واختبارا للانسان على قدرته على الصبر والصمود بايمانه حتى في اشد الاوقات حراجة .... ثم ربط ذلك كله بافعال الانسان النابعة من ارادته واختياره ، لتكون تلك الظواهر نتائج طبيعية لتلك الافعال فتتركز في وعي الانسان الفكرة الاسلامية التي تربط بين الظواهر الحياتية وبين حركة الانسان فيها ، فلا يكون الانسان مجرد عنصر سلبي تتحكم فيه ظواهر القضاء والقدر ، بل يتحول ــ في المفهوم القرآني ــ الى عنصر ايجابي يشارك في دفع عجلة الحياة وتحريكها ، وفي صنع القضاء والقدر ، وهذه هي الطريقة القرآنية الرائعة التي واجه فيها الانسان الظواهر الطبيعية الاجتماعية القلقة ، فعالجها بالطريقة التي ترتبط فبها بالله من جهة ، من حيث هو صانع السنن الكونية للحياة ، وبالانسان من جهة اخرى من حيث هو صانع الظواهر العملية لتلك السنن وهذا ما تتمثله في قوله تعالى :

«وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ
وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ
وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ» ٢ : ١٥٥

«وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً
مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ
مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا

اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ »١٦ : ١١٣

« ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ »٣٠: ٤٣

« ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » ٨ : ٥٣

« وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً » ١٧ : ١٦

« إِنَّ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا » ٤ : ٩٧

« وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ » ١١ : ١٠١

ولعل قيمة هذه الطريقة ، ان الانسان يظل قريبا من الله ومن الحياة معا ، في محاولته لفهم ظواهر الكون وفي قدرته على تغييرها من خلال ارادته ، على اساس الاستعانة بالله والانسجام مع ارادته وبذلك يفوّت

الداعية المسلم ، الفرصة على اولئك الذين يحاولون ان يعزلوا التفكير الآلهي عن الحياة ويبعدوا الانسان عن الاستعانة بالله ويركزوا في وعيه الفكرة التي تجعل الانسان مشدودا الى الارض في كل شيء ... ويتوصلوا — من خلال ذلك — الى اثارة القضايا الاجتماعية في اطار الفكر المادي بعيدا عن الفكر الروحي ... فلا تعود قضايا الحياة من خلال ممارسة الدعاة المسلمين الدعوة في هذا الاطار — وقفا على اولئك ، بل تكون حقا طبيعيا للعمل الاسلامي المنفتح على الله والحياة معا في نطاق التكامل الفكري ، والتوازن الكلي الذي تخضع له القاعدة الاسلامية في التفكير والممارسة .

واذا اثيرت قضايا الانحراف اليومية الخاصة والعامة ، فان الداعية المسلم يقف ليوجه الناس الى ضرورة التخلص منها ومحاولة تغييرها بالاسلوب القرآني الذي يعرض الانحراف بصورة منفرة تبعد الناس عنها من حيث ما تمثله من فساد وضرر في الدنيا والآخرة ، ومن حيث ما تؤدي اليه من عذاب الله وعقابه في الآخرة ، ولا يكتفي بابراز الجانب الذاتي للانحراف بعيدا عن الجانب الديني ليظل الانسان مشدودا الى الاجواء الروحية التي تجعل من العمل مسؤولية امام الله ، وذلك كما في قوله تعالى :

«وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ، أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ .»
٨٣ : ١ — ٦

« وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا

تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ . وَلاَ تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ ، دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » ١٦ : ٩١ — ٩٢

«الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّما الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هم فِيهَا خَالِدُونَ يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ » ٢ : ٢٧٥ — ٢٧٦

«وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » ٨ : ٤٦

وبهذا الاسلوب يستطيع الداعية ان يحقق هدفه من بقاء الجو الروحي في حياة الناس اليومية ، وامتدادا الى كل قضية مادية او معنوية .. مما يسهل عليه الدعوة الى الانضباط ، ويمنع الدعوات الاخرى من السيطرة على حياة الناس ، لاننا نشعر بأن الآخرين لا يستطيعون السيطرة على الواقع الا من خلال وجود الفراغ الفكري والروحي والعملي لدى الناس الذين يقبلون على كل دعوة تحاول ان تملأه ، لان الفراغ ضد ارادة الحياة وواقعها ، فاذا امكن للداعية المسلم ان يملأ هذا الفراغ بالاساليب الاسلامية الواقعية القويمة فلا يبقى هناك مجال لان يلتفت الناس الى هذا او ذاك من دعاة الشر والضلال .

ولا بد للدعاة المسلمين الذين يخططون للعمل ويوجهونه في اتجاه الواقعية والاستقامة ان يتوفروا على دراسة الآيات القرآنية والاحاديث النبوية الشريفة والاساليب الواقعية الحكيمة في كل اللغات مع دراسة تفصيلية لبعض حيثيات التشريع التي يمكن ان تفسر الاحكام الشرعية او تستعرض فوائدها ونتائجها العملية ، ليستطيع أن يغني ثقافته وتجربته بما يحقق له املاء الفراغ في حركة العمل الاسلامي ...

اسلوب الدعوة امام اجواء التشويش

ـ ٤ ـ وقد يحاول البعض ان يثيروا التشويش في اجواء الحديث كما حدث ذلك في عهد النبي محمد (ص) عندما كان يتلو القرآن الكريم فيما حدثنا الله به في قوله تعالى :

«وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ» ٤١ : ٢٦

فقد عجزوا عن معارضة القرآن ، ومواجهة التحدي الذي واجههم به ، فلجأوا الى اساليب التشويش الغوغائية ، فاصدروا الى اتباعهم الامر بعدم الاستماع الى القرآن ، ومحاولة اللغو فيه ، بمعارضته باللغو والباطل وباثارة الضجيج حوله حتى لا يتمكن احد من سماعه ومن فهمه ، وكان من قصدهم ان يحصلوا على الغلبة بهذا الاسلوب ولم تتحدث الآية عما يجب على النبي فعله ، ولم تذكر لنا ما الذي فعله معهم كرد للتحدي ، بل كل ما جاء به القرآن الكريم هو اطلاق التهديد في وجوههم وانذارهم بالعذاب الشديد في قوله تعالى :

«فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ» ٤١ : ٢٧ — ٢٨

وربما كان ذلك هو الرد الطبيعي عليهم ، لانهم ليسوا في مجال الاصلاح والارشاد ، ليذكرهم او يعظهم او يوجههم ، بل كانوا مصرين على العناد والاستكبار والتحدي بالباطل والضلال .. فليس لهم الا النار والعذاب الشديد . ونحن نعلم ان النبي لم يلتفت الى ذلك كله بل كان يجدد المحاولة ويتابعها ويصر عليها حتى يتعب الآخرون من ضلالهم، فيستمعوا اليه اخيرا ليعرفوا الجديد في ذلك كله . ويغتنم النبي الفرصة ليجدد الدعوة ويطلق كلمة الحق .. ونحن نجد في حديث السيرة انه كان يجد الواحد والاثنين والثلاثة من اولئك الذين لم يستسلموا لغوغاء قريش وضلالهم ، ولم يمتنعوا عن الاقبال عليه في بعض الفترات ليسمعوا منه قليلا ويفكروا بعد ذلك فيما سمعوه ، وقد يكررون المحاولة وقد

يثيرون بعض الاسئلة ، التي تثيرها الدعوة فيهم •• ويدخلون في الاسلام افرادا •• وبذلك كان الاسلام يستقبل في كل يوم ، مسلما جديدا او اكثر من ذلك •

وهذا هو الاسلوب الذي تتبعه في مثل هذه الحالات ، في الاصرار على الموقف مهما كلف الامر ، لان اعداء الله لا يلجأون الى هذه الاساليب الا بعد استنفاد الاساليب المعقولة التي تواجه التحدي بمثله ، والكلمة بالكلمة •• ولكنهم لا يلبثون ان يتعبوا ويرجعوا ويرتدوا على اعقابهم خاسرين ، امام قوة الرسالة واصحابها وصلابتهم في مواقفهم ••

ومن الاصرار على الموقف تتنوع المحاولة التي يقتضيها الحال ، فقد يكون للداعية بعض القوة الاجتماعية التي يمكنه من خلالها ان يقضي على الضوضاء بالعنف والشدة ، او باللطف والمرونة ، وقد لا يكون له شيء من هذه القوة ، ولكنه يملك قوة الشخصية او قوة الحجة والاسلوب ، او لباقة التحرك ومواجهة مثيري الضوضاء بكل اساليب السخريةوالاستهزاء، وغيرها من مظاهر الحرب النفسية التي تهزمه نفسيا وتجعله اضحوكة الآخرين ، وفي كل الحالات يمكن للانسان ان يسلك أي طريق من طرق العنف واللين ليجابه به هذا الوضع المثير للضوضاء والشغب ، لان الموقف ليس هو موقف الاحترام للانسان في عقله وفكره ، بل موقف احترام الرسالة في دعوتها وايمانها ، واحترام حرية الآخرين في الانفتاح على ما في الرسالة من خير وهدى وايمان •

وقد يقتضينا الموقف التأكيد على ضرورة الدراسة الموضوعية للحالة ، ومعرفة طبيعة القوى التي تتحكم في الواقع ، والاطلاع على القوى الخفية التي تختبيء وراءه ، لئلا يقوم الانسان ببعض التصرفات العنيفة التي تضر بالعمل وتخلق له مشاكل جديدة ، او يقوم ببعض التصرفات

الهادئة التي توحي بالاستسلام فتؤدي الى ضعف العمل في نفوس الناس .. وقد يكون هذا الموقف جزءا من خطة يراد منها ايجاد النزاع والخصام الذي يشوه وجه الدعوة ، ويبعد الآخرين عنهـا ، ويدخلها في معـارك جانبية او مواقف صعبة لم تستعد لها .. وقد يكون هناك اشياء اخرى..

وفي نهاية المطاف ... ان على الانسان ان يقدر المشكلة بقدرهـا ، ويواجهها بحكمة ، بالحكمة التي تضع كل شيء في موضعه ... وتلبس لكل حالة لبوسها ، وتحسب لكل حركة حسابها ، ولكل كلمة او حركـة نتائجها وآثارها ..

اسلوبنا بين سلبيات
الواقع وايجابياته

١٩

في المجتمعات المسلمة الكثير الكثير من السلبيات المتمثلةبالانحرافات العملية التي يقوم بها افراد مسلمون او جماعات مسلمة ، فيتركون بعض الواجبات ، ويفعلون بعض المحرمات ، ويبتعدون بمفاهيمهم ونظراتهم الى الحياة عن مفاهيم الاسلام ونظراته، مما يجعل الدارسين لهذه الانحرافات التي تكاد تمثل دور « الظاهرة » في حياتنا العامة ، يرددون الكلمة التي قالها بعض المفكرين الغربيين « الاسلام شيء والمسلمون شيء آخر » انطلاقا من الفجوة الكبيرة بين الدين واتباعه .

وقد أخذ الوعاظ والخطباء هذه الظاهرة ، فحاولوا ان يؤكدوا عليها في خطبهم ومواعظهم ، ليطلقوا صيحة الانكار على الواقع الذي يواجهونه ، ويبرروا اساليب التوبيخ والتقريع التي يوجهونها الى ابناء الشعب ، ويندوا بذلك كله في عملية اثارة انفعالية تتصاعد فيها درجة الحماس الى المستوى الذي يجرد المسلم من اسلامه فيحكم عليه بالكفر والمروق والضلال .. ثم يزيد الامر اتساعا فيوجهون اللوم الى العصر ، ويرجعون الى العصور الماضية ليذكروا الناس بما كان عليه اهلها من طاعة الله وامتثال لاوامره ونواهيه ، ويستمرون في ذلك كله حتى يفقدوا الانسان المسلم ثقته بنفسه ، ويدفعوه الى الياس بكل ما يعمله ، او يقوم

به من طاعة ، لينتهي الى النتيجة اليائسة ، وهي انه لم يعد صالحا لشيء ، لاي شيء ، مهما كان نوعه .



ونحن ـ هنا ـ نرفض الاتجاه بالوعظ في هذا الوجه ، لاننا نشعر بوجود كثير من الايجابيات الى جانب السلبيات ، فاذا كان بعض المسلمين ينحرفون عن بعض الواجبات ويفعلون بعض المحرمات ، فانهم قد يقومون ببعض آخر من الواجبات ، ويتركون بعضا آخر من المحرمات ، وقد تزيد حالة الانضباط عن حالة الانحراف وقد تنقص عنها ، وقد يتساوى الامران ..

ثم اذا كان الانحراف مظهرا عاما للاكثرية فان هناك انضباطا للاقلية في أكثر الشؤون الاسلامية سواء فيذلك العبادات او المعاملات او العلاقات العامة ، مما يتصل بجانب المال والنفس والعرض حتى تواجهك الصور الرائعة التي تجسد لك الايمان الصافي الثابت الذي يتصل ايمانه بالجذور العميقة الضاربة في الارض ، فلا ينهار امام أي اغراء ، ولايسقط أمام أي تحد ، بل يقف ليواجه الاغراء بالخوف من الله ، ويجابه التحدي بقوة الله .. لانه حصل ايمانه من خلال القناعة والمعاناة ولم يحصل عليه من خلال التقليد والمحاكاة .. مما يجعله احساسا متصلا بذاته ، نابعا من روحه .. وقد تتلفت لتجد مثل هذه الصورة ظاهرة في قلب المناطق الموبوءة التي تتحدى كل ايمان ، وتصرع كل مقاومة .. ليكون ذلك شاهدا على ان الانسان يمكن ان ينطلق الى الحياة بايجابيات انسانيته المستقيمة على خط الايمان ، من البيئة التي تزرع الارض كلها بسلبيات الانحراف من كل نوع . وقد تفتح كتب التاريخ والسير ، لتكتشف أن النماذج المعاصرة قد تتفوق على بعض نماذج التاريخ لانها لم تواجه

تحديات الانحراف واغراءاتــه ، كما يواجهها الانسان المعــاصر في عصر الشهوات والغرائز اما المقارنة بين العصور الماضية ، وبين هــذا العصر ، التي يخرج منها الواعظون والخطباء ، بالنتيجة التي تجعل من ذلك العصر عصرا ذهبيا •• بينما تجعل من هذا العصر عصرا اسودا في المجال الديني فلا نجدها ايجابية في جميع الاحوال ، لاننا قــد نستسلم للمقارنة فــي الجوانب العبادية ونحوها ، ولكننا لا نستطيع اقرارها ــ تماما ــ فــي الجوانب الانسانية بكل ما تحمله من علاقات •• سواء في ذلــك علاقــة الحاكم بالمحكوم ، او عــلاقات الناس بعضهم ببعض •• فقد يهمنــا ان نشير الى غنى العصر الحاضر بالجانب الانساني الذي يكافح فيه الانسان حتى الموت من اجل ان يوفر لقمة العيش الكريمة للمجتمع بشكل عــام واذا كان هذا الجانب ، قد ينحرف في تصوراته او في بعض خطوطه ، فلا يمنعنا ذلك من ان نظل على نظريتنا الطبيعية المقارنــة •• لان الجــانب الداخلي الذي يرتبط بطبيعة المبدأ ، يظل سليما من ناحية عامة •



ان وجود هذه الايجابيات التي تستطيع ان تضيء كثيرا من الجوانب المظلمة في حياة انساننا المعاصر ككل ، يستطيع ان يخفف كثيرا من ضراوة وجود السلبيات •• فيحقق لنا التوازن في النظرة والتوازن في الحكم •• لننتهي من خلال ذلك كله ، الى تحقيق التوازن في الموقف •• ومن ثم الى تحقيق التوازن في ممارسة الوعظ والتوجيه في حياة الناس •

ومن هنا نبدأ محاكمة هذا الاسلوب في ضمن نقاط :

١ ــ اننا نؤكد خطورته لانه يعطي انطباعا سلبيا عن واقعية الاسلام بعدم قابليته للتطبيق على اساس التجربة المعاصرة المطروحة التي لا تحتفظ

بأي ايجابيات عملية ازاء هـذا الحشد الكبير من السلبيات •• وتتـم الصورة لدى السامع او القارىء اذا عاد الى دراسة التاريخ مـن خلال سلبياته ، لا سيما في اسلوب بعض المذاهب الدينية التي تحكم على اكثر الناس في العصور المتقدمة ، بالضلال ان لم يكن بالكفر •• اذ كيف يمكننا ان نثق او نؤمن بواقعية اي حل ، لا يستطيع ان يعطي المشكلة نـافذة واحدة مفتوحة على الحل في اطار الواقع •

٢ ــ انه يفقد ثقة الانسان بقدرته على تصحيح نفسه فـي اتجـاه الاستقامة ، فاذا كانت الصورة قاتمة في اغلب جوانبها •• فكيف يستطيع الانسان ان يقنع نفسه بانه قادر على ان يجسد الصورة المضيئة في اعماله واقواله ••

٣ ــ انه يزيف الواقع ــ في نظر الناس ــ عندما ينقل لك جانبـا واحدا من الصورة ، ويلقي الظلال الثقيلة على الجانب الآخر منها، فتبدو الصورة قاتمة لا لون فيها ولا ضياء ، ولا حياة مما يربك للانسان خطواته، ويعطل له سلامة نظرته الى الواقع ، ويـؤدي به الى الخطأ في الحكـم ، والانزلاق بالمستقبل في منحدرات الحاضر المجهول الذي لا يعرف الى أين مصيره •

٤ ــ انه يختلف عن الاسلوب القرآني الذي انطلق ، ليطلق الصورة كما هي في الواقع •• فاذا انتقل بنا الى الجانب المظلم ، حملنا حملا الى الجانب المضيء ، واذا كان الجو غائما فان بوادر الصحو تشق السحـاب والضباب لولادة الضحى من جديد ، ليظل الانسان مع الجانـب المشرق من الصورة •• فينفعل بها في عملية خير وايمان •

والآن نحن مع الاسلوب القرآني في بضع آيات تبدو فيها عمليـة المقارنـة بين مظـاهر الخير وبين مظـاهر الشر في حيـاة المجتمـع :

«١ – فَمِنَ النّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبّنَا آتِنَا في الدُّنْيَا وَمَا لَهُ في الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبّنَا آتِنَا في الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النّارِ . أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمّا كَسَبُوا وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ .»
٢ : ٢٠٠ – ٢٠٣

«٢ – الّذِينَ اتّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكبوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» ٢٩ : ٤١

«٣ – . . الّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصّلاَةَ وَمِمّا رزقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . وَالّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلى هُدًى مِنْ رَبّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . إِنَّ الّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ . خَتَمَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَعَلى سَمْعِهِمْ وَعَلى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . وَمِن

النّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ . يُخَادِعُونَ اللهَ وَالّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إلاّ أنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ »٢ : ٣ — ١٠

« ٤ — وَمِنَ النّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ . وَإذَا تَوَلّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنّسْلَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ . وَإذَا قِيلَ لَهُ اتّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزّةُ بِالإثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنّمَ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ . وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ . »
٢ : ٢٠٤ — ٢٠٨

«٥ — . . هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ

لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ . وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣١ : ٣ — ٨

★ ★ ★

وهكذا نجد القرآن الكريم يعرض المواقف المتنوعة التي يبدو فيها الخير الى جانب الشر ، ومحبة الله الى جانب محبة غير الله والايمان الى جانب الكفر والنفاق ، ليظل الانسان مشدودا الى واقع الحياة المستند الى مبادىء الحق ، فيتحرك نحو الحق بروح واثقة بالمستقبل من خلال الحاضر ، فلا ينهزم نفسيا امام مظاهر الباطل وقوته ، لان الباطل ليس وحده المسيطر على الحياة .. بل الحق موجود مثله في اطار يتسع للحياة، ويسمح لها بالامتداد معه ..

وبهذا الاسلوب القرآني الحكيم يمكن للخطوات العملية ان تتقدم في اتجاه البقاء في ميدان الصراع ، فلا تنسحب منه امام تهاويل الاطراف الاخرى ..

وربما كان من الضروري للدعاة والموجهين والوعاظ ، ان ينطلقوا في عملية واسعة دقيقة لدراسة الواقع ليتعرفوا الى ما يحمل من ايجابيات في خط الوجود للاسلام الفردي والجماعي ، والى ما يحمل من سلبيات في ذلك الخط .. ليحققوا من خلال ذلك هدفين :

١ — الحصول على المعلومات اللازمة لهم في عملهم التبليغي والتوجيهي ، عندما يريدون ان يدخلوا في اساليب المقارنة بين الايجابيات وبين السلبيات ، كوجه من وجوه اساليب الدعوة والعمل ..

٢ ـ ان يطلعوا على مدى القوة التي يملكها الاسلام في جانب التطبيق العملي في حياة الناس ويعرفوا ـ على الطبيعة ـ المجالات التي يمكننا تقويتها ، لوجودها في مواقع امكانات القوة ، والمجالات التي لا يمكننا فيها ذلك ، من خلال الظروف الموضوعية الحالية ، فلا نتحرك نحوها بشيء ـ ولو موقتا ـ لان ذلك يعتبر جهدا ضائعا لا مجال له .

الفصل الخامس

مع الدعوة في اسلوبها التربوي

١ ــ الاسلوب الوعظي وقيمته العملية .
٢ ــ التوازن في اسلوب الدعوة بين الخوف والرجاء .
٣ ــ فلسفة الثواب والعقاب في اسلوبنا العملي .
٤ ــ نحو اسلوب تربوي جديد في علاقاتنا بالله .
٥ ــ هل للاسلام الفاظ خاصة في اسلوب التعبير ؟
٦ ــ الاسلوب الخاطىء في نقد الحضارة الحديثة .

الاسلوب الوعظي وقيمته العملية

هناك في حركة الدعوة الاسلامية في الحياة العملية المعاصرة ، اتجاه يحاول عقلنة الاسلام و « عصرنته « وتحديثه » ليستطيع ان يدخل الحياة من بابها الواسع ويفرض نفسه على التفكير الحديث من خلال مفاهيمه وتشريعاته التي لا تبتعد عنه وعن تصوراته ومسلماته .. ويقصدون بذلك ابعاد العنصر الغيبي في كل مجال يمكن ابعاده ، عن طبيعة الدعوة الاسلامية ، فكرة واسلوبا .. فتحاول تفسير القضايا الواردة في القرآن كقضية الملائكة ، والجن والوحي وغير ذلك حتى المعاجز التي يقوم بها الانبياء اثباتا لنبواتهم ، بتفسيرات طبيعية تضعها في موضعها الطبيعي من سائر الموجودات ، من دون ان يكون لها اي معنى عميق خارج نطاق الطبيعة . ثم يحاول هؤلاء ان يبعدوا الاساليب الوعظية عن اسلوب الدعوه ، فلا يشجعون الاساليب التي تتحدث عن الايمان والاسلام والانسجام مع خط الشريعة العملي من خلال الحديث عن الجنة والنار ، والحساب والعقاب والثواب لان ذلك قد يكون مفيدا ومعقولا في الجماعات البدائية ، او القريبة منها ، لانها لا تدرك المعاني الكبيرة التي تتضمنها العقيدة والشريعة مما يجعل امر مخاطبتهم بها غير عملي . ولكنه لن يكون مفيدا للجماعات المتعلمة او المثقفة التي لا تحتاج الى التخويف والترغيب من اجل تقريبهم الى الاسلام لان من الممكن ان تخاطب الدعوة عقولهم وافكارهم باسرار العقيدة وخصائص التشريع في سبيل الوصول الى قناعاتهم ، وفي هذه الحال قد يعتبرون الحديث عن الحساب والعقاب اساءة الى مستواهم الفكري ، لانه ـ بنظرهم ـ يشبه ممارسة الارهاب والضغط النفسي للحصول على تأييد فكرة ورفض اخرى ، وهذا مما لا يتناسب مع احترام الانسان لحريته الفكرية القائمة على القناعة

من خلال الحجة والبرهان .

اما تعليقنا على ذلك كله ، فهو اننا لا نريد ــ في حديثنا هــذا ــ مناقشة الاتجاه في جميع ركائزه ومتفرعاتــه لان البحث ليس في هــذا الاتجاه بل نريد ان نشير ــ مجرد اشارة ــ الى ان رفض العنصر غــير الطبيعي او غير العادي فيما تشتمل عليه بعض مفردات العقيدة او التشريع او القصص الديني ، لا يتناسب مع الايمان بما وراء الطبيعة مــن اسرار وموجودات ، لان ذلك هو الفرق بين الدين وبين غيره ، فان الــدين يقر الايمان بالماورائيات كمبدأ وان كان لا يؤمن بالشمول لكل شيء فــي موضوع التفاصيل ... وعلى هذا الاساس فاننا لا نجد ضرورة لهــذه التفسيرات والتأويلات بعد ان كانت القضية واردة من حيث المبــدأ في العقيدة اذا لم يكن هناك الدليل على التأويل والتفسير لان الظاهر القرآني يعتبر مقبولا ومفروضا وحجة في مدلوله الا اذا قامت هناك ادلة عقلية او لفظية على خلافه ، كما يقول علماء الاصول واللغة العربية ..

اما اذا كان الاساس في ذلك هو محاولة الايحاء بالجانب العقلــي بالعقيدة والتشريع باقناع الآخرين بالاسلام فان ذلك يعني اعترافا بمــا ألمحنا اليه من ارتكاز الايمان بما وراء الطبيعة في غيره على اساس غــير معقول ، وهذا مما يؤدي الى خلاف الغرض المقصود ، مع ان من الممكن اقناعه بالمبدأ في الجوانب الغيبية في العقيدة من خلال الدليل العقلي على معقولية ذلك في اكثر من مجال .

٢ ــ اننا لا نعتقد اقتصار الحاجة الى الاساليب الوعظية على الفئات غير المتعلمة ، بل نعتقد شمول الحاجة لكل الفئات ، لانها لا تطرح لتكون اساس قناعة فكرية ، بل لتكون سبيلا للاهتمام الفكري بالمسألة المطروحة فان كثيرا من القضايا التي تواجه الانسان في حياته لا تثير في ذاته اي نوع من انواع اهتمام ما لم ترتبط بعنصر الخطورة على جانب مــن جوانــب حياته ، ولهذا كانت الافكار تتحرك وتنطلق في الموضوعات المرتبطة بمواقع

المسؤولية المباشرة اكثر من الموضوعات التجريدية التـــي لا علاقة لهـــا بالمسئولية من قريب او من بعيد ..

ثم لا تقتصر القضية على اعتبارها سبيلا لاثارة الاهتمام الفكري ، بل تتعدى ذلك الى ان تكون سببا من اسباب تقوية الدوافع الذاتيـــة لحركة الارادة نحو العمل فاننا نعرف ان الارادة لا تفرض العمـــل عـــلى اساس من القناعات العقلية بحسن العمل وقبحه ، بل على اساس حسابات العقاب والثواب ، او الربح والخسارة لان القناعة الفكرية لا تتحول الى جانب الحركة اذا لم تتحول الى قناعة تهز العاطفة والشعور الذي يخضع في اغلب الحالات لقضايا الثـــواب والعقاب ، ولهذا وجدنا التشريعـــات الجنائية موجودة في اكثر الشعوب ثقافة ، واعظم الدول حضارة .

٣ ــ ان الاديان لا تعتمد في اثبات عقائدها الرئيسية التـــي تمثل القواعد الاساسية الثابتة للدين على الثواب والعقاب ، بل تعتمد ــ في كل ذلك ــ على الادلة العقلية العميقة المرتكزة على الوجدان الصافي والفطرة السليمة ، بل نلاحظ ان الاسلام حارب الذين يستندون في قنـــاعاتهـــم واعتقاداتهم الى عقائد الآباء من دون دليل ، وطلب من الناس ان يحصلوا على هذه القناعات من خلال ما وهبهم الله من حسن ، وما رزقهم من عقل، فان الحس والعقل اذا استخدما في طريق الحقيقة باخلاص ، استطاعا ان يصلا بالانسان اليها من اقرب طريق .

٤ ــ ان قيمة الاساليب الوعظية التـــي اثارتها الاديان في طريـــق الدعوة ، انها لا تكتفي بتحقيق الانضباط العملي للانسان فـــي مواجهة الانحراف ، بل تعمل على تعميق جانـــب الاعتقاد والايمان بالله وفهـــم الحياة ، فهي تدفع الانسان الى الاحساس بوجود الله في السر وفي العلن، في حالة الفكر وفي حالة العمل ، في حالة الانفراد وفي حالة الاجتمـــاع

بالآخرين .. فهو يلاحق تفكيرك ، وانت تفكر ، وعملك ، وانت تعمل ، وكلماتك التي تسر بها او تعلن ، وانت تتكلم ، مما يجعل الانسان يعيش الاحساس بالله ، في موقع المسؤولية ، كأعمق ما يكون الاحساس ، حتى لتحس به ماثلا بكل عظمته ورحمتــه في قلبك وفكرك وضميرك .. وبالتالي في حياتك وحركة مصيرك .. وهي تدفع الانسان الى الانضباط أمام الاغراء حتى في الحالات التي يفقد فيها الموقف رقابة الآخرين الذين يخاف الانسان سطوتهم ، من قوى المجتمع او قوى السلطة ، ليشعر بقوة الله تنظر اليه بعين القدرة ، ولتشير اليه ، نحو نتائج المسؤولية بيد القوة وتعمق هذا الشعور حتى يتحول الى احساس مرهف بالمسؤولية الروحية التي هي في اعلى مستوى من المسؤولية في حياة الناس .

وهي ــ في الوقت نفسه ــ تثير امامك قصة الدنيا والآخرة ، لتجعل من الدنيا دار عمل ، بكل ما للعمل من معنى فردي وجماعي ، يغني حيـاة الناس بالفكر والعمل ، وبناء الكون على أسس سليمة بناءة وتجعل مـن الآخرة دار مواجهة لنتائج المسؤولية . كما يروى عن الامام علي (ع) في قوله : اليوم عمل ولا حساب وغــدا حساب ولا عمل ، وبذلــك يحفظ خطواته العملية في الدنيا من خلال عمق الاحساس بطبيعتها ، من ان تزل أو تنحرف او تموت وتنهار ، بينما لو كانت الفكرة غير تلك الفكرة، لكان الموضوع مختلفا ولكانت الدنيا بالنسبة اليه فرصة الجريمــة والاساءة والفساد لان اصحابها لا يفكرون بغيرها ، ولا ينتظرون ــ بعدها ــ شيئا آخر ولو بعد حين .. وبهذا تكون فكرة الآخرة منطلقا لفهــم جديــد للحياة يخرجها عن مفهوم اللذة المنفلتة الى مفهوم العمل المسؤول ومــن اطار الفوضى والعبث الى اطار الحكمة والغاية ..

وتتغير علاقته بالانسان وبالاشياء لتتحدد بالمفهوم الذي يحقق رضا الله وينفذ ارادته ويوحد المضمون حينما ينفتح على كل ما حوله ليشعر بان تصرفاته تجاه الانسان والاشياء لا تخضع لنزواته بل تخضع للخطــة

التي وضعها الله للحياة في محاربة الظلم في نفسه وفي غيره ، وفي مجابهة الفساد في كل شيء ، وفي اخضاع الاوضاع التي يتحرك فيها الى الاحساس العميق بالمسؤولية التي تربط العمل بقضية الثواب والعقاب في الآخرة ، كما تربطه بالحالة النفسية التي يعيش فيها الانسان قناعاته الذاتية التي تحكم علاقته بالاشياء التي من حوله .

٥ ـ ان الاساليب الوعظية تحدث في نفس الانسان تغييرا كبيرا في نظرته الى العمل من خلال قضية المصير ، لان طبيعة الموت الذي يعتبر بداية الحياة الآخرة التي يواجه فيها الانسان نتائج المسؤولية ، ليس محددا في زمانه ومكانه وسببه فيمكن ان يحدث في أي لحظة ، وفي اي موضع وبأي سبب ، مما يجعل الانسان في يقظة دائمة تجاه العمل فلا يستسلم للامل الواسع الكبير ، او للتمنيات المستقبلية في تصحيح الانحراف ، لان الواقع الذي يشاهده في كل يوم يتحدى آماله بالحياة .. ثم الجو المرعب الذي يملأ نفس الانسان في الحديث عن يوم القيامة عندما يقوم الناس لرب العالمين ويواجه فيه الانسان مصيره في نطاق ما عمل ، بعيدا عن كل الشفاعات والمجاملات وغيرهما مما اعتاد الانسان ان يجعله مساعدا في مصيره الدنيوي فيزداد احساسا بدقة الموقف وضرورة مواجهته بحساب دقيق لحيثيات كل عمل وكل كلام ، عندما « تأتي كل نفس تجادل عن نفسها » ، لا سيما ان اساليب الوعظ الديني القرآني الذي يرتكز على اثارة موضوع الآخرة امامه تحشد الكثير من الاجواء والاوضاع والحالات التي تدفع الانسان الى الشعور بجدية الموقف وبعظمته وخطورته، لينطلق تفكيره وارادته من موقع ذلك الاحساس .. فقد نجد التركيز على ان جسد الانسان يتحول الى أشرطة تسجيل تدار في يوم القيامة بشكل لا يدع له مجالا للكلام ، وان هنالك ملكين يسجلان عليه كل عمل في كتاب يقدم اليه ليقرأ فيه كل ما عمل ليواجهه بوضوح كامل وان الله يعلم ما يخفى على هذين ، وما لا يسجل الجسد .. ان هذه الصورة التي يشعر

فيها الانسان بان المعلومات الدقيقة ، والرقابة الدائمة تحاصره في كل اعماله ، فلا تترك شاردة ولا واردة ، ولا صغيرة ولا كبيرة الا احصتها عليه وقدمتها اليه في يوم القيامة .. ان هذه الصورة ، حين يستمر تقديمها اليه بالاساليب الوعظية القرآنية وغير القرآنية قادرة على ان تثير في نفسه الاهتمام العميق المستمر بالمسؤولية التي تواجهه في كل شيء .. ولا نعتقد ان اي اسلوب آخر قادر على الوصول الى هذا المستوى الكبير من الانضباط .. لانه يفقد العوامل الذاتية التي تقتحم عليه حياته لتفرض عليه هذا الموقف او ذاك ، وقد اعتبر « الوازع الديني » من اقوى العوامل المؤثرة في حياة الانسان .. ولذلك نلاحظ امتداد الالتزام الديني بعيدا عن اية سلطة زمنية او مادية ضاغطة بل قد ينطلق الانضباط في حركة مضادة للضغوط الشديدة التي تدفع الانسان الى الانحلال الديني فيثور الانسان عليها من خلال دوافعه الدينية ويتحمل في ذلك كل عذاب واضطهاد حتى الاستشهاد .. وقد يتمثل الالتزام الديني الذي ينبع من الايمان بالله واليوم الآخر ، بالضرائب المالية الشرعية التي يدفعها الانسان المسلم طواعية واختيارا من دون اية قوة تدفعه الا قوة الايمان التي لا يرجو فيها الا ما عند الله من ثواب ، ولا يخاف فيها ــ الا ما يوعد عليه من عقاب ، هذا في الوقت الذي نرى فيها الدول ــ بمختلف انظمتها ــ تحشد الحشود الكثيرة من الموظفين الذين يعهد اليهم بجمع الضرائب بمختلف اساليب الضغط والقوة ، فلا يتوصلون الى ذلك الا بجهد جهيد في نطاق ضيق لا يتسع لكثير من الناس لان المسؤولية لم تنبع من الداخل الذي يستمد مشاعره ودوافعه من ارتباط القضايا بمصيره الخاص ، بل كانت تنبع من الخارج الذي يمثل القوة الضاغطة التي تستعمل القهر اساسا للتنفيذ .

وبكلمة واحدة : ان قيمة الاساليب الوعظية ، تتحدد بقيمة تأثيراتها في حياة الانسان من خلال انضباطه العملي امام دعوة المسؤولية ، مقارنة

بالاساليب الاخرى التي تغفل هذا الجانب ، وقد عرفنا كيف يحقق الوعظ المنطلق من الحكمة ، اغراضه واهدافه في كيان الانسان وحياتـه بشكل افضل .. مما يجعل الاتجاه نحو اغفاله اتجاها في غير مصلحـة الاسلام وتشريعه .

٦ ــ ان التأكيد على هذا الاسلوب ينطلق ــ في نظرنا ــ من واقع الحقيقة الدينية التي تحاول ان تعمق في نفس الانسان مسؤوليته العملية في الدنيا ، وتربطه بالدار الآخرة من حيث تجسيدها لنتائج المسؤولية فلم تنطلق القضية من خطة عملية لربط العمل بالآخرة ، من حيث سلامة العمل واستقامته ، بل من خلال تكامل التصور الاسلامي للايمان بالله وبالدار الآخرة ، مما يجعلنا في حاجة الى تقوية هذا الايمان واستعادته في كـل فترة ، ليبقى حيا في الاعماق .. وذلك بالنظر الى ان ارتباطه بعالم الغيب يجعله بعيدا عن الاحساس ، وبالتالي بعيدا عن حركة الايمان في النفس .. وهذا مما يوجب التأكيد على تكرار ذكره ، واثارة الاحساس بـه في اوضاع الانسان اليومية ، ليصبح شيئا قريبا الى الشعور الذاتي ، مألوفا للنفس والوجدان .. بنفس القوة التي كان مألوفا فيها للعقل وللفكـر ليستمر مع الشعور كما يستمر مع العقل .. وبذلك يتحول الاسلـوب الوعظي ، من موقع العمل ، الى موقع الايمان ، ومن حركة الاسلوب الذي يحفظ للعمل انضباطه وتوازنه ، الى حركة الواقع الذي يحفظ للايمـان قوته وحيويته ، ليحلق بجناحين بـدلا من ان يتعثر في الانطلاق بجنـاح واحد ..

وفي نهاية المطاف : ان علينا ان نحافظ للدين الاسلامي على طابعـه المميز كدين يحتضن الدنيا والآخرة .. لتبقى لدينا عناصره الروحية التي تبعث فيه القوة والحياة ، فلا يتحول الى مجرد قوانـين دنيوية ، لا أثر فيها للروح ، ولا مجال فيها للارتباط بالمعاني الحية التي يثيرها الايمـان بالله وبالدار الآخرة في نفوس المؤمنين . وفي الحياة .

التوازن في اسلوب الدعوة
بين الخوف والرجاء

في حديثنا السابق كنا نؤكد على قيمة الاساليب الوعظية في مجال العقيدة ، وفي مجال العمل •• ولكن كيف نمارس هذا الاسلوب او بالاحرى كيف نواجه الانسان المنحرف العاصي بالموعظة عندما نريد اثارة الموقف في داخل نفسه في اتجاه الطاعة او كيف نوجه الانسان الذي يريد ان يخطو نحو الايمان من جديد هل نلجأ الى اسلوب الترغيب الذي يتمثل في الثقة برحمة الله التي وسعت غضبه والامل في العفو عن الذنب الذي حدث او الذي سيحدث في المستقبل •• او نلجأ الى اسلوب الترهيب الذي يتمثل في وعيد الله وتهديده للعاصين والمتمردين والفاسقين الذين تجاوزوا الحد في عصيانهم وطغيانهم •

في الاساليب القرآنية نواجه الاسلوبين معا ، فهناك النداءات الالهية التي تدعو المذنبين الى التوبة والاستغفار والدعاء ، ليغفر لهم الله كل شيء •• فيما عدا الاشراك بالله ، وليحقق لهم كل شيء في حدود مصلحتهم •

«قُلْ يا عِبَادِيَ الّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ الله إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إنّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» ٣٩ : ٥٣

« إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ
وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » .
٤ : ٤٨

« وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي
قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ
فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ
يَرْشُدُونَ » ٢ : ١٨٦

وهناك الآيات التي تتحدث عن رحمة الله تعـالى التي وسعت كل شيء وان الله سيكتبها للذين يسيرون في الطريق الحق .

« فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ
وَاسِعَةٍ » ٦ : ١٤٧

« وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا
وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً » .
٤٠ : ٧

« وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ
فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ
الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ »
٧ : ١٥٦

★ ★ ★

وهناك ـ في مقابل ذلك ـ الآيات التي تتحدث عن يوم القيـامة وأهواله ، وغضب الله وعذابه ، في جو ترتعد فيه الفرائص ، ويشيع منه الرعب في كيان الانسان .

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ
زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا
تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ
وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى
النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنْ
عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ ٢٢ : ١ ـ ٣

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ
سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ
مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ
وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً
أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ١٠ : ٢٧ .

وأمّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ
فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهُ وَلَمْ
أَدْرِ مَا حِسَابِيَهُ يَا لَيْتَهَا كَانَتْ
الْقَاضِيَةَ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ هَلَكَ
عَنِّي سُلْطَانِيَهْ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ
الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا
سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ إِنَّهُ كَانَ لاَ
يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ وَلاَ يَحُضُّ عَلَى
طَعَامِ الْمِسْكِينِ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ

هَهُنَا حَمِيمٌ وَلاَ طَعَامٌ إلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ
لاَ يَأكُلُهُ إلاَّ الْخَاطِئُونَ ٦٩ : ٢٥ — ٢٧

★ ★ ★

اما الجواب عن السؤال ، فهو اننا تتبنى كلا الاسلوبين ، كما جاء القرآن بذلك ، ولكن بالطريقة القرآنية التي انطلقت — في كلا المجالين — بشكل متوازن .. فقد تحدثت بأسلوب الترهيب والوعيد بالعذاب ازاء حالات التمرد مع الذي لا يتراجع ولا يتنازل عن موقفه، حتى يلاقي الله على هذه الحالة ، وتتحدث بأسلوب الترغيب والوعد بالثواب والعفو والمغفرة ازاء حالات الانفتاح الروحي على الله ، بعد انغلاق ، او البدايات التي تريد ان تخطو الخطوات الاولى في طريق الله ثم حاولت في الحالة الاولى، ان تفتح للانسان بصيصا من النور ، يفتح له باب الامل ، كما حاولت في الثانية ان توقفه امام بعض المواقع التي تثير احساسه بالخطر ازاء حالة الانحراف الطارئة .. ليبقى الانسان متوازنا بين الحالات التي تواجهه لئلا يسلمه الموقف الى القنوط في حال اغلاق جميع النوافذ عليه ولئلا يدعوه الموقف الى التساهل واللامبالاة بالمعصية في حال مواجهته بالامل الكبير الواسع بغفران كل شيء وبهذا يتحقق التوازن في الموقف ، الذي يتحرك في اتجاه اتقان العمل وتركيزه في حالة نفسية متوازنة بين الخوف والرجاء ..

وقد تحدثت بعض كلمات أهل البيت عليهم السلام عن الحدود التي يقف عندها الرجاء والخوف ، فقد ورد عن الامام جعفر الصادق عليه السلام انه قيل له : قوم يعملون بالمعاصي ويقولون نرجوا فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم الموت فقال : هؤلاء قوم يترجحون في الاماني كذبوا

ليسوا براجين ، ان من رجا شيئا طلبه ومن خاف من شيء هرب منه [1] •

فقد نفهم من هذا الحديث ، ان الخوف والرجاء ليستا حالتين نفسيتين مجردتين ، بل هما موقفان عمليان يتمثلان بالطلب لما يرجوه ، وبالهرب مما يخاف منه •

وعلى ضوء ذلك ، فا نعلينا ان ندقق في الاسلوب الوعظي ليكون منسجما مع الاسلوب القرآني الذي يواجه الحالات النفسية من خلال نقاط الضعف والقوة ، في اطار الظروف الموضوعية التي يعيشها الشخص في حياته العملية ، لئلا يطلق الكلمة في أسلوب عشوائي يضع الخوف في موضع الرجاء ، او يضع الرجاء في موضع الخوف فيختل التوازن الروحي والعملي ، فيكون الانحراف في الموقف او التعقيد فيه ، نتيجة لذلك • وقد جاء الحديث عن امير المؤمنين عليه السلام ــ فيما رواه اسامة بن منقذ ، قال (ع) :

ألا أدلكم على الفقيه كل الفقيه •

قيل : بلى يا امير المؤمنين •

قال : « من لم يؤيس الناس من رحمة الله ولم يقنط الناس من روح الله ولم يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يؤمن الناس من مكر الله ولم يزين للناس المعاصي ولا ينزل العارفين الموحدين الجنة ، ولا ينزل العاصين الموحدين النار حتى يكون الرب عز وجل هو الذي يقضي بينهم ولا يأمنن خير هذه الامة من عذاب الله تعالى ، والله عز وجل يقول : « فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون » ولا ييأس شر هذه الامة من روح

---

(١) وسائل الشيعة (نقلا عن الكافي) ج ٦ ص ١٦٩ .

الله تعالى ، فالله سبحانه يقول : انه لا ييــأس من روح الله الا القــوم الكافرون » [1] .

اننا نريد ان نثير الحديث في هذا الاسلوب ، ولسنا نريد ان نفيض فيه وفي محتواه ، لان كل ما نهدف اليه ، في هذا الكتاب ، هو توجيــه التفكير الى الاساليب التي تلتقي مع ايجابيات الدعوة الاسلامية وتبتعد عن سلبياتها في كل المجالات .

---

(1) لباب الآداب : ٣٩٣ . (نقــلا عن مصادر نهج البلاغــة واسانيده) ج ٤ ، ص ١٠٤ .

فلسفة الثواب والعقاب
في اسلوبنا العملي

من بين القضايا التي تلفت نظرنا في دراستنا للواقع الحياتي الذي يعيشه الانسان المسلم ، وطريقة ممارسته للواجبات الشرعية ، او اجتنابه عن المحرمات ــ هي قضية الروحية التي تدفعه الى العمل ، او تحفزه الى الاجتناب ، فهو لا يندفع الى العمل بدافـــع ذاتي ينطلـــق من شعـــوره بحاجته ، كانسان ، الى ان ينطلق في اتجـــاه الخير المتمثل فيمـــا عليه من واجبات ، او يبتعد عن اتجاه الشر المتمثل فيما لديـــه من محرمات ، بل القضية عنده قضية ثواب ينتظره فيما اذا اطاع ، او عقاب يخافه فيما اذا عصى ، فالعقاب والثواب هما اللذان يوجهان حركات الانسان ويطبعان سلوكه ، دون ان يكون لنوعية العمل وطبيعته ، من زاوية ذاتية ، اي اثر في هذا المجال ــ الامر الذي يجمد التشريع في نطاقه العملي ، ويجعـــل منه مجرد شيء ميت لا يوحي بشيء ، ولا يحقق اي هـــدف ويحوله الى عملية تجارية تخضع لحساب الربح والخسارة في كل دوافعها وأوضاعها.. وتتوالى النماذج الحية لترسم لنا بعض ملامح هذه الصورة .

فهناك من الناس ، من يتصدق ، لانه يجد في الصدقة ثوابا ، لا لما تحمله في داخلها من معان انسانية وروحية تجعل الانسان ينفعـــل بآلام الآخرين ، ويتحمس لمشاكلهم ، ولذا فقد تجد الصدقة تصل عند البعض ، الى الحد الذي لا يستفيد منه الفقير شيئا لقلتها .. لان مثـــل هذا كاف لتحصيل ثواب الصدقة لانه يحقق عنوانها في الحياة .

وهناك من الناس ، من يصلي ، ويقضي ليله ونهاره بالصلاة ، لان هذه الصلاة تساوي مقداراً معينا من الحسنات ، وصلاة اخرى تساوي مقدارا آخر اكثر او اقل ، لا ، لان الصلاة تربطه بالله وتنقذه من الضعف الانساني الذي ينحدر به الى الهاوية ، ولذا فان افعال الصلاة واقوالها لا تمثل عنده الا حروفا ميتة يقرأها كما يقرأ أي شيء استظهارا وحكاية او افعالا جامدة يؤديها بطريقة آلية من دون احساس او شعور ٠

وربما نجد بعض الاجتهادات الفقهيـة التي توحي بهذا المفهـوم في بعض افعال الصلا ، فنرى بعض الفقهاء يفتي بالمنع من استخدام ألفاظ الدعاء الورادة في سورة الفاتحة مثل :

« إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » أو
« إهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ »

في دعاء ذاتي ينفعل به الانسان كما ينفعل بأي دعاء ينبع من اعماقه، لان المطلوب في القراءة ، فيمـا يرى هو التـلاوة التي تعنـي ان يتلفظ الانسان بهذه الكلمات ، كما يقرأ رسالة انسان لانسان آخر ، ليسمعهـا لذلك الانسان او لغيره ٠

ولسنا في معرض مناقشة هذا الرأي ، ولكننا نحاول ان نشير الى بعض قواعد هذا الاتجاه في حياة الانسان المسلم وانطلاقه من اسلـوب معين في فهم الآثـار الدينيـة ، لا من خطأ شخصي عـابر لا يرتكز على اساس ٠

وعلى ضوء هذا الاتجاه الذي ألمحنا اليه ، يتحول الاهتمام الى الكم لا الى الكيف ، فليس من المهم لدى اصحابه ، نوعيـة المعاني الداخليـة

الروحية التي يحصل عليها من الصلاة ، بل المهم لديه كمية الركعات التي يؤديها في ليله او في نهاره .

وهناك من الناس من يفهم الدعاء عند ممارسته له ، كما يفهم الصلاة فليس الدعاء عنده تعبيرا عن احساس الانسان بخالقه ، وحاجته الى الاعتراف او الشكوى او المناجاة الذاتية التي تفصح عن علاقة الانسان بالله ، ومن هنا تنوعت أشكاله وألوانه ومضامينه وأساليبه ، فيما لدينا من ادعية الانبياء والاوصياء ، كعلاج نفسي او روحي او تربوي .. ولكنه يتحول الى مجرد صفحات تتلاحق امام ناظر القارىء ، او كلمات تتوارد في خاطره دون ان يفهم لها اي معنى ولذا فقد يلفت نظرك بعض الكلمات المبهمة الغامضة التي لا تعرف معناها ، بل تتلوها انطلاقا من الاسلوب العام الذي يجعلك تدعو ، لتثاب وتؤجر ، فاذا كان الثواب معلقا على القراءة ، فلتكن القراءة كيفما تكون ، ما دام الثواب حاصلا كيفما كان.. وهكذا تحول الدعاء الى (روتين) يومي لا يمثل اي شيء في حياةالانسان الداخلية ككل عمل روتيني جامد لا معنى له ..

وهناك من الناس من يمتنع عن الغيبة ـ في جانب المحرمات ـ خوفا من العقاب المترتب عليها ، لا من خلال اقتناعه بضررها ، فتراه يبادر الى أن يتلمس الرخص الموجودة فيها ـ فيما يستثنى منها ، بلهفة وشوق، ولن نعدم البعض الذي يصرح للناس بأن الله لو خيره فيما يختاره من المحرمات لاختار الغيبة ، لانطلاق النفس معها ، في لذة ولهفة ، الامر الذي يدلنا على ان هذا التشريع لم يستطع النفاذ الى اعماق الانسان ليهذب له دوافعه ومقاصده واحاسيسه بحرمة الآخرين بل كل ما استطاعه هو ان يلجم له لسانه .



ونحسب ان مثل هذا وغيره قد انطلق من سوء فهم دور الثـواب والعقاب في التشريعات الاسلامية واعتبارهما غاية للعمل ، لا وسيلة لانفتاح الانسان على ما في العمل من خير او شر ، او منفعـة او مضرة ، وعلى ما يترتب عليه من مصالح ومفاسد .

★ ★ ★

ولتوضيح الفكرة التي نحن بصددها لا بد لنا من التعرف على دور التشريع في حياة الناس لنتعرف من خلال ذلك على خطر هذا الانحراف في فهم الثواب والعقاب ودورهما في الجانب العملي من حياة الناس .

اننا نرى للتشريع دورين في حياة الانسان :

الاول : في المجال الاجتماعي : وهو حمايـة المجتمع من انحرافات الافراد وذاتياتهم ، الامر الـذي يتمثل في منع ممارسة الانحراف بـأية وسيلة كانت ، وعلى أي نحو وجـد ، سواء اندفـع الفرد نحوه بشكل ذاتي ، او بشكل قهري ، لان القضية ليست الاقضية ايجاد الاجواء النظيفة للمجتمع ، التي يستطيع الكيان كله ان يتنفس فيه ويعيش حياته في هواء نقي خال من ادران الشوائب التي تدنس طهر الضمير في الانسان .

ومن الطبيعي ــ كما قلنا ــ ان نقرر في هذا المجال : ان حاجتنا الى تمثل التشريع في انضباط الانسان في الاتجاه التنفيذي للقانون والمحافظة على ان لا توجد المعصية حية امام الناس لئلا ينهار الانسان امام عوامـل الاغراء ودوافعه تماما ، كما تعمل السلطـة على منع انتشار الميكروبات والجراثيم حفظا للصحة العامة ، وحماية للأمة من نتائجها السيئة وعواقبها الوخيمة .

ولا مانع ــ في هذا الاطار ــ من انطـلاق الثـواب والعقـاب ،

كحافزين يمنعان الانسان من المعصية ويدفعانه الى الطاعة ، ويحفظان له التوازن العملي في حياته العامة والخاصة ، لان القضية ــ هنا ــ تتصل بالشكل لا بالمضمون ، وبالخارج لا بالداخل •

الثاني : في المجال الفردي :

هو بناء الشخصية الاسلامية في داخل ذات الانسان ليعيش المعاني الحية التي يريد الاسلام اثارتها في وجدان الفرد وتفكيره من اجل تركيز الخط الاسلامي للحياة ، وتوجيه المسيرة الانسانية في اتجاه الخير النابع من اعماق الانسان وضميره •

ومن الطبيعي ، ان مثل هذا الدور يحتاج الى طريقة معينة في التربية وفي السلوك ، تنفذ الى اعماق الانسان ، فتبعث الحياة في الكلمات التي يقرأها الانسان في صلاته ودعاءه لتؤدي دور التعبير الصادق عن خلجات الانسان ومشاعره ولتتحول سبحات الروح الى معان تتراكض في دماء الانسان واعصابه فتهز له وجدانه ومشاعره في عملية اثارة روحية رائعة •

وكما هو الحال في الكلمات ، تنطلق القصة في الافعال والحركات ، فلا بد من ان تملك حركات الانسان صدق التعبير عن المعنى لئلا تكون مجرد حركات لاشعورية يؤديها الانسان ببلاهة الآلة وسذاجتها وجمودها •

ان بناء الشخصية الاسلامية ــ بواسطة التشريع ــ يحتاج الى الايحاء الدائم المتواصل بمعاني الخير ، في الكلمة والحركة ، والايماءة والاشارة ، تماما كقطرات الندى التي تتساقط تباعا على الارض ، قطرة قطرة ، فتبث فيها الطراوة ، وتهيئها لموسم خصب جديد من دون ضجة ولا ضوضاء ، بل بهدوء الصباح الوادع في بساطته وسماحته ووداعته •

ان روعة هذا الاسلوب ، هو ، انه يخرج الانسان من دور الممثل الى دور البطل ، من اجل ان لا تكون الكلمة مجرد صوت ، والعمل محض حركة ، بل لتتحول الكلمة الى معنى والعمل الى حياة ، او مدخل للحياة .

وعلى ضوء هذا نفهم الحقيقة التالية : وهي ان اثارة العقاب والثواب لم تستهدف اعتبارهما غاية ساذجة للعمل ، بل استهدفت افساح المجال للانسان نحو توجيه خطاه نحو العمل ليتعود عليه في عملية ممارسة يومية ليكون الخير بالتكرار عادة عفوية يصدر عنها الانسان طواعية واختيارا دون تكلف ، وليطلع ــ تدريجيا ــ على ايحاءات الخير في العمل، ومنابع الاريحية فيه ، فينسجم معه انسجام الارض مع البذرة عندما تنفذ اليها رويدا بهدوء ، والبذرة مع الينابيع الخيرة في الارض عندما تبدأ الحياة في اثارة داخلها بالري والايناع .



لقد أدركت الشرائع ــ ومنها الشريعة الاسلامية ــ طبيعية التمرد التي تطبع النفس الانسانية عندما تدعى الى خير او تدفع عن شر ، فحاولت أن تثير طبيعة الرغبة والرهبة في داخلها ، لتخفف من غلوائها ، وتطامن من حدتها ، وتحطم التمرد في أعماقها .. فكان الثواب والعقاب بمثابة الاشارة الحية التي تدل الانسان على الطريق ، لتفتح عينيه على ما فيه من جمالات ، حتى اذا وضع الانسان قدمه في بداياته ، وانطلقت اول الخطى في اتجاهه ، وانفتحت العيون على ما فيه من خير وجمال .. تلاحقت الخطى ــ بعد ذلك ــ يزحم بعضها البعض من دون التفات الى أي شيء آخر غير حب الجمال ، والانطلاق في مجالاته .

ان التشريع يحاول ان يجعل الخير طبيعة في الانسان ، بواسطة

العمل ، ولن يستطيع العمل ان يصل بالانسان الى هذا الهـدف ، الا اذا عاش في داخل الانسان ، بما هو فكرة ومعنى وحياة ، لا بمـا هو حركة ولهو وعبث، ولهذا فاننا نرى من الخير للعاملين ان يعطوا الثواب والعقاب دورهما الاساسي في الاثارة ، ووضع الاقـدام في الطريق •• ثم تبـدأ المحاولة ــ بعد ذلك ــ في اثارة المشاعر نحو ما في الطريق من خير وجمال لئلا يسير الانسان في الطريق ، كالاعمى الذي لا يملك دربه ولا يهتدي طريقه لتتحول ممارسة الانسان للعمل الى حب ، ويتحول الحب الى قيمة تفرض وجودها في الاعماق وتكشف طبيعتها في النتائج •

ان القضية هي قضية اسلوب الداعية في فهم التشريع ، وفهم العمل، وفهم الناس والحياة •• ومن واجبنا ان نبدل هذا الاسلوب الذي يعتبر القضية قضية تجارية تضمن الربح وتحمي من الخسارة ، لنخرج الانسان من جموده ، ونثير فيه حركة الحياة المتطلعة أبدا نحو النـور ، النابضة دائما بالحب والخير والجمال ، ليكون الانسان ، انسان الحيـاة الواعي المنفتح ورائدها المخلص الامين •



وبكلمة واحدة : ان الوعد بالثواب يمثل ــ في نظرنا ــ الحـافز الذي يحفزنا الى العمل ، اذا افتقدت نفوسنا الحافز الذاتي ، من أجل ان نضع أقدامنا على اول الطريـق حتى نبصر الهدف بـوضوح ، فتلتصق أفكارنا به ، •• ولكنه تحول الى مجرد شيء جامد يبعث العمل في اطـار رتيب ، لا يلامس الروح ، ولا يستثير الاحساس •• ونحن هنا من أجل الدعوة الى ضرورة وضع الخطة العملية في اسلوب الداعية ، لتغيير ذلك •

نحو اسلوب تربوي
جديد في علاقتنا بالله

ومن جديد نقف مع اسلوب الدعوة في اثارة قضية الثواب والعقاب فاذا كنا ــ فيما نقدم من حديث ــ نحاول التعرف على الآثار والنتائج السيئة التي تخلفها اساءة فهم الدور الطبيعي لهما في التشريع الاسلامي ، فلا بد لنا من الوقوف امام ظاهرة محسوسة في موقف الانسان المؤمن من الله •• فقد نلاحظ ان الانطباع الذاتي الذي يسود نفسه هو انطباع الخائف الراغب الذي تتمثل صلته بربه في خوفه من عقابه وفي شوقه الى ثوابه •• اما العلاقة الروحية التي يوثق الحب روابطها ، ويشد الايمان اواصرها ، ويقوى عرفان الجميل والاحساس بالنعم نوازعها •• اما هذه العلاقة ، فقد لا نجدها الا لدى القليل القليل من اولئك النفر الذين عاشت المعرفة في دماءهم وانطلقت نفوسهم مع الروح الالهية الخالدةالتي لا تقف عند حد ذاتها وكمالها الذاتي •

وقد لا نعدم البعض الذي يقول : ان من الممتنع على الانسان ان يعبد ربه لذاته، او لانه أهل للعبادة، ويرى هذا البعض ان مثل هذه العبادة تقتصر على الانبياء والاوصياء ممن ارتفعت نفوسهم عن الاحساس بالثواب والعقاب الى المستوى الذي يؤهلها لترتفع الى حيث القداسة المطلقة في عظمتها وبهائها وجلالها وقد يعتبر من مآثر الامام علي بن ابي طالب عليه السلام وخصائصه قوله في الدعاء المنسوب اليه :

« الهي ما عبدتك خوفا من نارك ولا طمعاً في جنتك
ولكن وجدتك اهلا للعبادة فعبدتك .. »

ولكن هذا الكلام لا يدل على الاختصاص لو صحت نسبته الى الامام — بل يدل على مدى معرفة الامام علي بالله ، كما عبر عنها في بعض كلماته المأثورة عنه :

« لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينا .. »

وقد نجد في بعض كلماته ما يتضمن الاشارة الى امكان ممارسة الانسان المؤمن لمثل هذه العبادة ، واثارة الهمم نحو السعي الى ذلك :

« ان قوما عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار وان قوما عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد ، وان قوما لم يعبدوا الله رغبة ولا رهبة فتلك عبادة الاحرار [1] .. »

ولعل في اضفاء صفة العبيد والتجار للقسمين الاولين ، توجيها للمؤمنين بالابتعاد عن هاتين الصفتين الى الصفة الثالثة ، لان صفة الحرية من الصفات التي يتطلع اليها كل انسان يحترم نفسه وحياته .

ثم .. ما الذي يمنع الانسان ان يحب الله ، ويعبده لذاته ، لا بدافع الرغبة والرهبة ، ما دام الانسان يملك ان يحب اخاه الانسان ، لا لشيء سوى الدوافع الذاتية للحب ، وقد لا نعدم فيما نقرأ من تاريخ وفيما نعايش من احداث ، الافراد الذين يمارسون التضحية في سبيل من يحبون، مهما كانت نوعيتهم ، ومهما بلغت مرتبتهم دون اقل امل في الثواب ، او

---

(١) وسائل الشيعة (نقلا عن نهج البلاغة) ج ١ ، ص ٤٦ .

خوف من العقاب ، بل ربما تكون القضية عكسية في اكثر الاحيان ، اذا كان الثواب او العقاب في الجانب الآخر •

* * *

وربما نجد في بعض اللمحات في العبادة ، ما يومي الى هذا الاتجاه في كيفية ممارسة العبادة فيما يتعلق بعلاقة الانسان بالله ، ففي تشريـــع النية في الصلاة وفي غيرها من العبادات نجد ان النية المفروضة هناك هي : نية « القربة الى الله » ولعل الايحاء الذي تعطيه هذه النية ، هو انطـــلاق الانسان في عمله من زاوية الحب لله التي تتمثـــل في ارادة القرب منـــه والحصول على رضاه ، الامر الذي يحقق صفة التجرد في علاقة الانسان بربه • وقد نلاحظ في بعض كلمات الامام علي عليه السلام ، التأكيد على هذا الاتجاه في التوجيـــه فنراه يقول ــ في كلماتـــه القصار ــ في نهـــج البلاغة :

« لو لم يتوعد الله على معصيته لكـــان يجب ان لا يعصى شكرا لنعمه » •

ويقول في كلمة اخرى ــ :

« أقل ما يجب لله على العباد ان يستعينوا بنعمه على معاصيه •• »

فقد يتضح لنا من هاتين الكلمتين : ان الامام علي في سبيـــل اثارة النفوس نحو نعـــم الله العظيمة ، والايحاء بان عـــلى الانسان ان يعيش علاقته بربه ، في اتجاه الاحساس بالجميل وشكر النعم لا باتجاه التهديد والوعيد فحسب •



وفي القرآن الكريم بعض الآيات التـــي تشير الى علاقة الحب التي يريد الاسلام اثارتها في نفس الانسان المؤمن ، كأمر واقع يعيش في الحياة العملية كما في قوله تعالى :

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ . وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ ٢ : ١٦٥

ففي هذه الآية مقارنة بين مشاعر المؤمن ، وبين مشاعر غير المؤمن ، على اساس المحبة لله ، او المحبة لغيره من الشركاء كايحاء بان ذلك هـــو الخط الشعوري للايمان في حياة الانسان المـــؤمن ، وان على المؤمن ان يسير عليه في علاقته الروحية بالله ، لئلا يكون اخلاص غير المؤمن لاوليائه اشد من اخلاص المؤمن لربه ، مع الفرق الكبير بين علاقته بالله وعلاقـــة غيره بغير الله ، فان علاقته بالله تنطلق من طبيعة وجوده بكل ما يشتمل عليه من حقائق ونعم والطاف ، مما يجعـــل الدوافع المحبة اساسا ثابتـــا يرتبط بحقيقة الوجود ، بينما لا ترتبط المحبة لغير الله الا بالاوهام .

وقد ورد ذلك في آية اخرى حاولت ان تدعو المؤمنين الى الارتباط برسالة الاسلام وبرسوله كشاهد على محبة المؤمنين لله التـــي يدعونها لانفسهم واكدت ان ذلك هو الطريق لمحبة الله لهم .. وذلـــك هو قوله تعالى :

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٣ : ٣١

وعلى اساس هذا الخط تخضع المحبة المطلوبة للحالة النفسية التي

ترتبط بالعمل ، او بالاحرى تتجسد بالعمل لتكون العلاقة بالله تجسيداً لطاعته فلا تصبح مجرد انفعالات وجدانية تتمثل في اوضاع استعراضية كما يفعله بعض دعاة الصوفية ، الـذين يعبرون عن حبهم لله بحركات معينة ، قد تكون اقرب الى الحالات المرضية منها الى الحالة العبادية الخاصة وفي الجانب الآخر نجد الآيات الكريمة الكثيرة التي تجعل محبة الله للمؤمنين من حيث الجوانب العملية والخلقية فنقرأ :

« إنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِين
٢ : ٢٢٢
فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ٣ : ٧٦
« واللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ٣ : ١٤٦
« واللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ٥ : ٩٣
إنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ٣ : ١٥٩
« إنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ٥ : ٤٢ » .

ونجد في مقابل هذه الآيات آيات اخرى تمنع هذا الحب عن الـذين ينحرفون عن الخط المستقيم ويتمردون على الله ، ويتحدون ارادته فنقرأ الآيات التالية :

« إنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ٢ : ١٩٠ »
« واللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ٣ : ٥٧
إنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ٨ : ٥٩
إنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ٢٨ · ٧٧
إنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ١٦ : ٢٣

وهكذا نفهم من هذه الآيات كلها ، ان الله يريد ان يوحي للنـــاس بان عليهم ان ينشدوا الارتباط به في اطار المحبة التي تعمر قلوبهم بالايمان به والاخلاص له ، وتملأ السنتهم بذكره ، وتوجه حياتهم الـــى رضوانه وغفرانه ، ويحلموا في وجدانهم ــ بمحبة الله لهم ، من خلال ما يقدمونـــه له من طاعة ، وما يفيضه عليهم من رحمة .. لتتحول المحبة الى منطلـــق للعمل وينبوع للرحمة ، وعنوان للحياة التـــي تربط قيم الارض بقيـــم السماء .

* * *

وفي الدعاء : نجد الحب الالهي الذي يعبر عن نفسه ، في لهفة نابضة بالنور والحياة ، وذلك في دعاء الامام علي بن الحسين زين العابدين (ع) :

« الهي لو قرنتني بالاصفاد ومنعتني حبك من بين الاشهاد ودللت على فضائحي عيون العباد وامرت بي الى النار وحلت بيني وبين الابرار مـــا قطعت رجائي منك ولا صرفت وجه تأميلي للعفو عنك ، ولا خرج حبـــك عن قلبي انا لا انسى اياديك عندي وسترك علي في دار الدنيا » انه الحب الذي يظل متقدا مشتعلا في قلب المؤمن دون ان يخفف منه عقاب المحبوب.

وقد نجد الكثير الكثير من ذلك الذي يوجه الانسان الى ان تكون علاقته بربه علاقة حب لا علاقة رغبة او رهبة فحسب ولكننا لسنـــا بصدد تعداد هذه الآثار الدينية التي انطلقت في هذا الاتجاه ، فلعل في بعض ما اوردناه كفاية في الموضوع .

* * *

ان كل ما نحاوله ــ في هذا الحديث ــ هو توجيه الدعوة في هـــذا

الاطار ، والتخطيط لاسلوب عملي يستهدف الاتجاه بالوعظ في هذا المجال ، لان مثل هذا الحب اذا انطلق في قلب الانسان المؤمن وضميره لاستطاع ان يحميه من الانحراف ، ويمنعه من الزلل، ويجعله اكثر اندفاعا في سبيل العمل واشد اخلاصا لربه ، الامر الذي يجعل العمل للاسلام اكثر سلامة وابعد عن الانحراف ذات اليمين وذات الشمال .

ان الانسان الذي يعيش حب الله في قلبه ، هو انسان لا يفهم للخوف معنى ، ولا يجد للتخاذل في طريق الجهاد سبيلا .

ولهذا فنحن ملزمون بايجاد مثل هذا الانسان في طريق الاسلام الطويل ..

اما الحديث عن التربية الماضية المنحرفة التي تريد ان تفرض الاسلوب المنحرف في علاقة الانسان بالله ، فان باستطاعة التربية الجادة الواعية ان تصحح الانحراف وتربط الانسان بربه في علاقة حب وايمان .





هل للاسلام الفاظ خاصة
في اسلوب التعبير

هناك جدل لا يزال يدور بـين الجماعات التي تؤمن بالاديان ، او بالمبادىء التي تنطلق من منطلقات تاريخية ، حول الالفاظ التي يملكها هذا الدين او ذاك ، او يستعملها هذا المبدأ او ذاك ، مما يدخل في دائرةالالفاظ المصطلحة التي تعبر عن مبدأ ، او خط ، او حقيقة اجتماعية •• هل يجب علينا استعمال هذه الالفاظ في احاديثنا الآن ، او في اساليب الحوار التي تدور بيننا وبين الآخرين اولا يجب علينا ذلك ، لان العبرة بالمضمـون لا بالشكل ، وبالمعنى لا باللفظ ••• وبتعبير اقرب الى طبيعة الفكرة التـي يثور حولها الجدل : هل من الضروري لكل مبدأ من المبادىء او دين من الاديان ، أن يكون له الفاظ مصطلحة ، او « رسمية » يستعملها اتباعه ، بحيث يمكن السامع الذي يستمع الى أي مجموعة من هذه المجمـوعات التي تنظـم نفسها في حزب او منظمة او تجمع دينـي ، أن يحـكم على طبيعتها ، من خلال الفاظها ، وان لم يستكمل معرفة الفكرة التي يثيرونها امامه •• او ليس من الضروري ذلك ، لانه لا يرتبط بالجوانب الحيويـة للعمل •

ذلك هو موضوع الجدل الذي يدور ويثور بين مختلف الجماعات، الدينية وغير الدينية •• فما هو موقفنا من ذلك ، كدعاة مسلمين ، نعمل على ان تكون الدعوة الى الاسلام هي السبيل الى تحقيق الحيـاة الحرة الكريمة للانسان ، على اساس مبادىء الاسلام ومفاهيمه وتشريعاته •

هل نقف عند الكلمات التي كانت تصدر من النبي محمد (ص) لتعبر عن بعض المفاهيم والاوضاع او التي جاء بها القرآن ليحدد فكرة ، أو ليشرع حكما .. او اننا لا نقف عندها ، بل نتجاوزها الى ما نستحدثه من تعبيرات مألوفة الى فكر الانسان المعاصر ، مع الاحتفاظ بمضمون الكلمات الاولى ، في المفهوم والوقائع والتشريع .. او نتحفظ في بعضها، ونتبنى بعضها ، تبعا للحيثيات الواقعية التي تفرضها مصلحة العمل وحداثته .



ان الجواب عن ذلك .. لن يدخل في نطاق البحث عن الحكم الشرعي من حيث الوجوب والتحريم ، اذ ليس لدينا هنا ، ما يقتضي الوجوب والتحريم شرعا ، بل يدخل في نطاق الحديث عن مصلحة العمل الاسلامي ... اننا نحسب ان السبب في التأكيد على الكلمات الخاصة : هو الحفاظ على شخصية الدين ، او المبدأ ، لاننا نشعر بالحاجة الى ان تكون لكل دعوة شخصية مستقلة في حركتها في الحياة وفي سلوك اتباعها لتحافظ على وجودها من الذوبان والضياع وتحمي حركتها من الاهتزاز والانهيار.. ولا ينكر أن للكلمات،ولبعض الرموز،والاشكال اثرهافي تحديدذلك في الداخل وفي الخارج .. وبذلك كانت المبادىء المعاصرة تحافظ على ان يكون لها رصيد من الكلمات التي تشير الى فلسفتها واهدافها .. كما نلاحظه في المذهب الماركسي الذي يحمل اتباعه دائما على استعمال كلمة التناقضات « في كل مجال حركي ، للتأكيد على الاتجاه المادي الديالكتيكي في الممارسة العملية ، باعتباره يقوم على اعتبار التناقضات الداخلية في كل ظاهرة ، اساسا للحركة التطورية في المجتمع .. وهكذا تتحول الكلمات الى ايحاء دائم متحرك ، بفلسفة الفكرة واهدافها .. وعلى ضوء ذلك يتحدد الجواب .. فاننا نريد ان تتبنى الكلمات التي يكون لها مدلول يوحي بطبيعة المعنى وامتداده وذلك كما في كلمة « الجاهلية » التي

تحولت من كلمة لغوية تفيد معنى « الجهل » الذي هو ضد العلم الى كلمة اسلامية ، تعطي المنهج الكامل للحياة الذي لا يتجمد في فترة زمنية معينة ، بل يمتد الى كل المراحل الزمنية التي يحتويها تاريخ البشرية في ظل الطريقة الكافرة البعيدة عن الاسلام ثقافة وسلوكا وحكما ومنهج حياة ، لانها تمثل — في مدلولها — الذهنية التي يجهل معها الانسان طريق الصواب ، وان خيل اليه انه يعرفه جيدا ، كالكثيرين من الناس الذين يحسبون انهم يعلمون وجه الحق في الوقت الذي لا يلتفتون الى انهم يخوضون في الباطل ، في ظل الوهم الكبير الذي يخيل اليهم انه العلم •• وبذلك يمكن للجاهلية — في مفهومها الاسلامي — ان تلتقي بالتقدم العلمي في مجالات الطبيعة ، اذا كان هذا التقدم لا يخضع للمنهج الاسلامي في الحكم والسلوك والتشريع والحياة •

وهناك كلمة « الجهاد » التي اصبحت تحمل من المعاني الاسلامية التشريعية ما لا تحمله اية كلمة اخرى تلتقي بها في المعنى ، مثل كلمة « الكفاح « والنضال » وغيرها مما تعودوا ان يستعملوه في حالات الحرب ، والصراع السياسي والعسكري •• فاننا نؤكد على ضرورة ابقاء هذه الكلمة التي تحولت الى كلمة اسلامية موحية ، والامتناع عن استعمال مرادفاتها الاخرى في هذا المجال ، للحفاظ على الايحاء المستمر بالمعاني الاسلامية في حركة التشريع وفي حركة التاريخ الاسلامي ، وفي الممارسات العملية الطويلة لاساليب المسلمين في اطار العلاقات العامة مع الآخرين في الحرب والسلم •

ولكننا لا نوافق على استعمال كلمة « العصابة » التي اطلقها النبي محمد (ص) على المجموعة القليلة من المسلمين في معركة بدر في قوله (ص): « اللهم ان تهلك هذه العصابة لا تعبد، وان شئت ان لا تعبد لا تعبد»، لان هذه الكلمة تحولت الى مدلول جديد يمثل المجموعة القليلة من الناس

الذين يمارسون العدوان على الناس بمختلف اشكاله واوضاعهواصبحت من كلمات السباب ، بدلا من ان تكون من الكلمات التي تدل على التجمع المترابط الذي يشبه احاطة العصابة بالراس وخلاصة الفكرة : اننا نؤمن بان قيمة الكلمة تتمثل في عطاءها الفكري وفي تجسيدها للمعنى الذي يراد التعبير عنه بها ، ولا تحمل أية قيمة ذاتية ، ونؤمن ــ الى جانب ذلك ــ بان الكلمات تموت كما يموت الاشخاص وقد تصاب بالتشويه كما يصاب بالتشويه كثير من الناس ، وقد تحيا بعض الكلمات ، فتبعث من بعد موت •• ونؤمن بان احتضان الدين لاية كلمة في نصوصه الدينية او في تصريحات قادته ، لا يعني قداسة الكلمة ، او اعتبارها جزءا من شخصية الدين ، فقد يكون التعبير بها منطلقا من حيويتها في ذلك الوقت ، وعلى ضوء ذلك •• فان الموقف هو ان نلاحق تلك الكلمات في نموها وتطورها، وحياتها وموتها ، وشبابها وهرمها ، لنتبنى منها الكلمات التي تحمل الحياة في حروفها ، وتجسد الفكر ، والتاريخ في مدلولها ونرفض الكلمات التي فقدت مدلولها الاصيل ، وتحولت الى مدلول مضاد ، او التي ماتت فيها الحياة • فاصبحت ميتة لا توحي بأي شيء •• الا كما توحي رؤية الميت بالذكريات الضائعة معه •• وبهذا تظل الدعوة تعيش التجدد والنمو والحياة في كلماتها واساليبها ، كما عاشت الحياة الخالدة في فكرها وتشريعها ومفاهيمها •

الاسلوب الخاطىء
في نقد الحضارة الحديثة

قد يكون مــن مظاهر الخطأ في اساليب التوجيه الاسلامي ، هــو طبيعة الحديث عن الحضارة الحديثة وعيوبها ومشاكلها ونتائجها السيئة في حياة الناس .

فقد ظهر لدينا في السنين المتأخرة ، اتجاه جديد في ابعاد الناس عن حضارة هذا القرن ، وما ترتكز عليه من مظاهر الحرية الفردية التي فتحت الطريق للانسان امام الانحلال وهيأت له الاجواء الملائمة لاستثارة غرائزه وشهواته الجنسية الى أبعد مستوى ، مما جعل الاخلاق العامــة عرضة للفساد والانهيار لفقدان الرادع الذاتي والاجتماعي الذي يمنع الانسان من الاستجابة لنداء الشيطان ودعاءه .

وقد تمثل هذا الابعاد الموجه عن هذه الحضارة بعدة اساليب ، كان من ابرزها التركيز على اسلوب الاحصائيات العالمية في عدد جرائم الجنس، وحــوادث الادمان ، وطبيعة العلاقات التــي تربط الجنسين ، الرجــل والمرأة ، ومدى الحرية التي اصبحت تطبع تلــك العلاقات ، سواء فــي الاوساط الجامعية ، او في غيرها من اوساط الشباب التي وصلت الحرية الجنسية فيها ، الى الحد الذي يجعل منها قضيــة شخصية لا تهم غــير اصحاب العلاقة ، اذا لم تحدث أثرا عكسيا في المجال الاجتماعي العام .

وهكذا اصبحت ترى الصحف والمجلات الاسلامية ، مملوءة بشــل

هذه الاحصائيات التي تنطق بفظاعة النتــائج المترتبة على مواكبة هــذه الحضارة والاعتماد عليها باعتبار هذه النتائج شاهدا حيا على الانهيــار والانحلال .

ونحن لا نناقش هذا الاسلوب كواحد من الاساليب التي يراد منها التركيز على خطر هذه الحضارة على المفاهيم الخلقية الاسلامية العامة ، ولكننا نناقش اعتبارها مبدأ عاما وخطة اساسية لنقد هذه الحضارة .. وذلك لان مثل هذا الاسلوب قد يجدي في نطاق المجتمعات التي لا زالت مؤمنة بالقيم والمثل الاخلاقية التي تبدو ــ على اساسها ــ مثــل هــذه النتائج امرا فظيعا يبعث على القرف والاشمئزاز ويدفع الى الاحتجــاج والاستنكار ، ككثير من المجتمعات الاسلامية التي لم تستطع المفــاهيم الحديثة للحياة والاخلاق ان تتغلب على مفاهيمها الروحية او تمحو مــن حياتها آثار تلك المفاهيم ، او تفقدها الميزان الصحيح الذي يحتفظ للمفهوم بمصداقه ، وللكليات بجزئياتها ، دون خلل او ارتباك . قــد يجدي هذا الاسلــوب في تركيز الحاجز النفسي الذي يحجز المسلم عــن الاندفاع اللاواعي مع مظاهر هذه الحضارة ونتائجها بمايثيره في اعماق هذا الانسان من الشعور بالخطر الداهم على ما يؤمن به من القيم والمفاهيم، وبالتالي، على العقيدة التي انطلقت منها هذه القيم والمفاهيم الروحية نفسها ــ مما يجعل الثورة على هذا الواقع امرا مستمرا تبعا لاستمرار عوامل الاثــارة ودوافعها ولكن .. هل يجدي ذلك في المجتمعات المنطلقة مــع المفاهيم الحديثة للحياة وللاخلاق والانسان ، وهل يمكن له ان يثير في نفــوس اهلها ما يثيره في نفوس المجتمعات المحافظة .

هذا هو السؤال الذي نحسب انه لن يحصل على نتيجة ايجابيــة حاسمة في مجال العمل الجــدي المثمر ، فان من الممكن ان يكون هــذا الاتجاه سائرا على اساس خاطىء في اسلوب نقــد الحضارة لان هــذه

المظاهر التي تدور الاحصائيات في نطاقها ، لم تكن نتيجة مغامرات شخصية ، او انحرافات ذاتية مجنونة ، بل كانت نتيجة فلسفة معينة تحاول ان تفلسف الانحراف على انه ثورة ، وتفسر التمرد على القيم والمفاهيم الروحية بانه حركة في حياة المجتمع ، وتعتبر الانسان وحده مصدر القيم دون اعتبار لاي شيء يتجاوزه او يخرج عنه .

وقد اتخذت الاخلاق ، في ضوء هذا ، معنى جديدا يتسع لكل ما تتسع له الحرية الفردية في نطاق النظام الاجتماعي العام في العالم فليست هناك مفاهيم مفروضة ، او قيم مسلمة لننطلق منها في الحكم على الواقع ببديهيات الوجدان ومسلمات النظرة بل كل ما عندنا ــ في هذا المجال ــ هو المفاهيم الحديثة المنطلقة من فلسفة التمرد مهما كانت النتائج ، او المفاهيم الروحية القلقة التي اصبحت غائمة حتى في أفكار بعض القائمين عليها الذين يعيشون الارتباك والقلق والحيرة بين النظرية والتطبيق .

واذا كان الواقع هو هذا الواقع ، فكيف يمكن لاسلوبنا ان يغير النظرة الى الاشياء في حالة اختلاف المقياس بين الكاتب والقارىء فما يعتبره الكاتب ضد سلامة الاخلاق واستقامتها ، يعتبره القارىء امرا طبيعيا ينسجم مع اخلاص الانسان لنوازعه وصدقه مع نفسه ومع ارادة الحياة في وجدانه .

فهل يمكن للانسان الذي يعتبر العلاقات الجنسية امرا شخصيا شديد الخصوصية ، لا يهم الا صاحبه ، ان يثور امام احصائية تقول : ان عدد العلاقات الجنسية التي تسود الشباب والفتيات قبل الزواج في اوروبا وغيرها ترتفع الى نسبة ٩٠ ٪ او اكثر من ذلك او اقل . وهل يمكن ان يستنكر الاحصائية التي تقول بفقدان الفتاة لعذريتها قبل الزواج بنسبة ٩٩ ٪ ما دام يعتبر العذرية والمحافظة عليها امرا سخيفا يرجع الى عقلية

القرون الوسطى • وهل يمكن ان يستفظع الجرائم وامثالها مـن الامور التي اصبحت تحتاج ــ في نظره ــ الى دراسات اجتماعية ونفسية واسعة لتدرس الحل في نطاق المشكلة ، وتعتبر واقع المشكلة اساسا للحل •

وقد يبتعد هؤلاء ويرون ان مجرد انطلاق الانحراف من التمرد على واقع معين لا يبرر لنا الرجوع الى هذا الواقع بل لا بد لنا من البحث عن الحل الذي ينسجم مع الواقع الجديد •

اننا نناقش فائدة هذا الاسلوب في هذه المجالات المعقدة التي يرتكز فيها الانحراف على الفلسفة وينطلق فيها التمرد من الفكر ، لان مثل ذلك يحتاج الى اسلوب يرتفع الى مناقشة المفاهيم ومحاكمتها في نطاقها الفكري والفلسفي والاجتماعي بشكل عام ثم •• في ملاحظة الواقع في ضوء هذه المفاهيم او تلك ، لئلا تبتعد النظرية عن التطبيق والمفهوم عـن المصداق • ولا بد لنا في سبيل الوصول الى ذلك ، مـن التوفر على دراسة هـذه الظواهر بدقة وعمق لنتعرف العوامل المؤثرة في ولادتها واستمرارها، فقد لا يكفينا ــ في معرفتها ــ ان ننطلق من ملاحظة واحدة شاردة نأخذها في سرعة وارتجال لان ذلك قد يبعدنا عن الحل تبعا لبعدنا عن فهم المشكلة ، كما يفعله البعض من الباحثين الاسلاميين الذين وضعوا امامهم نقدا واحدا للحضارة الغربية وهو فراغ الانسان الغربي من الروح ، ثم لم يكلفـوا انفسهم عناء التدقيق في طبيعة ذلك ، من حيث ما يعنيه معنى الروح لديهم، او ما يتلاقى معه من اسباب اخرى تصنع المأساة في اعماق الانسان •• مما ادى الى ان يواجهوا كثيرا من الملاحظات او من علامات الاستفهام ، التي تشير الى وجود المشكلة ذاتها في المجتمعات التي تعيش معنى الروح ، والى فقدانها في بعض المجتمعات التي تنكر وجود الروح ، على اساس الايمان بالمادية فلسفة ومنهجا للحياة •

وبكلمة واحدة : ان من الخير لنا ان نناقش اي انحراف . واي تطور

جديد يختلف مع مفاهيمنا الاسلامية ، على اساس من النفاذ الى اعماقه ، والوصول الى منابعه الاصيلة في ذهن الانسان وفكره وحياته، لنستطيع الاحتفاظ بالمستوى اللائق للعمل ، والتطور الطبيعي للمشكلة ، لئلا يكون العمل شيئا جامدا باردا لا يثير حرارة ولا يدفع الى حياة بل يبقى مجرد اصداء تتلاشى في الفراغ .

وهناك ناحية مهمة لا بد لنا من ملاحظتها تتعلق بانساننا المسلم الذي نخاطبه ونتحدث معه ، وهي : ان هذا الانسان ليس محبوسا في قمقم سحري ، او في غرفة موصدة الابواب والنوافذ ، ليبقى على مفاهيمه وتطلعاته ونظراته الى الكون ، ليفكر فيها بهدوء ، او يجترها في تثاؤب وكسل ، بل هو منطلق في سرعة الحياة وحركتها مع كل الرياح التي تهب في كل يوم ، والعواصف التي تعصف بالاشياء التي تحيط بفكره وبحياته، والزلازل التي تهز الكون من حوله وتتحدى اعماقه ومشاعره في هزة فكرية جديدة .

وفي هذا الجو ، تولد نفسه في كل يوم ولادة جديدة بفكرة جديدة، وتطلعات مثيرة ، تبعا للمؤثرات التي تندفع الى الداخل بكل عزم وقوة .. وقد تهتز قناعاته الاسلامية بخفة وحذر ، وقد يفلسف تلك القناعات بفلسفة تبقي عليها في اطارها الفكري ، ولكنها تدخلها في أجواء شعورية تبتعد بها عن أجواءها الاصلية ..

فلا يمكننا ــ في هذا الجو ــ ان ننظر اليه نظرتنا الى الانسان الذي يعيش الالتزام الاسلامي في فكره وشعوره وحياته ، بل لا بد من ان ننظر اليه من خلال الظروف الموضوعية الموجودة في العالم التي يمكن ان تغير تفكيره او تهزه هزة مفاجئة تقلب له بعض احكامه في الاتجاه المعاكس .. ونبني اساليبنا العملية على ضوء ذلك كله ، تماما ، كما نتحدث مع أي

انسان بعيد عن الاسلام ، ليبقى التوجيه الاسلامي سائرا في تركيزالمفاهيم الاسلامية مع المسلمين وغير المسلمين على السواء ، من خلال البحث عـــن الينابيع الاصيلة للفكر وللحياة في كل زمان ومكان •

ذلك هو بعض الحديث فيما نراه من خطأ ، وفيما نظنه من انحراف في اسلوب العمل والتوجيه ، وذلك هو ما ينسجم ويلتقي مـــع مفهـــوم الحكمة والموعظة الحسنة التي أمر بها القرآن الكريم في اسلوب الدعوة والعمل •

الفصل السادس

قضايا ومواقف

١ ـ ان وضوح الفكرة عندنا لا يعني وضوحها للآخرين .
٢ ـ عندما يتحول الحكم الشرعي الى تقليد .
٣ ـ موقفنا من الانحراف اذا استحالت مقاومته .
٤ ـ موقفنا من الواقع السياسي .
٥ ـ موقفنا من الانحرافات الفكرية والعملية للعامة .
٦ ـ هل الوجود الدولي للاسلام هو كل شيء .

ان وضوح الفكرة عندنا
لا يعني وضوحها للاخرين

هناك حقيقة تفرض نفسها علينا في البداية في مجال الدعوة ، وهي : ان وضوح الفكرة لدينا لا يعني ان الآخرين ينظرون اليها بنفس الوضوح، فربما كنا نتطلع اليها من خلال الجوانب المضيئة عندنا ، بينما يكون عنصر الضوء غير متوفر في الجوانب الاخرى التي يعيش فيها الآخرون ، لانهم لا يملكون ما يهيء لهم ذلك ، تماما ، كما يكون الصحو في بعض الآفاق مجالا للانطلاق مع اشعاع الشمس ، بينما تجعل السحب الدكناء الآفاق الاخرى في ظلام دامس •

وقد يبدو هذا طبيعيا عندما نلاحظ اختلاف وجهات النظر في فهم بعض الاشياء العادية في الحياة ، كنتيجة طبيعية لاختلاف العادات والظروف والافكار •

ولعل قيمة هذا الاتجاه ، في ملاحظة موقعنا تجاه الآخرين ، تبرز في اتاحة الفرصة لنا في الانطلاق نحو موضوعية أكثر وفهم ارحب ، في سبيل تعرف وجهة النظر الاخرى ، من حيث طبيعة الفكرة التي يؤمنون بها من جهة ، ومن حيث نوعية الموقف الذي يتخذونه منا ، من جهة اخرى، الامر الذي يجعلنا اكثر قدرة على الحركة بوعي ، وعلى ضوء الاجوبة الصحيحة لما يرد من التساؤلات ومعالجة القضايا المعروضة في مجالات البحث •

وقد يكون من حسنات هذا الاتجاه ، انه قد يفتح اعيننا على بعض

الجوانب التي قد تشارك في اعطاء وجهة نظر معينة خاطئة عن بعض مواقفنا كما في بعض التعابير التي قد تكون ذات مدلول خاص في بعض المناطق بحيث يمكن استخدامها ضدنا في مجال الاثارة دون أن نقصد منها أي شيء ، تماما ، ككلمتي « الحرب » و « السلم » اللتين تختلف ايحاءاتهما حسب اختلاف البلدان التي عاشت مآسي الحروب وويلاتها ، او التي كانت بعيدة عن اجوائها .

وقد يكون لبعض الاندفاعات الذاتية التي تثار من خلال الحماس للفكرة ، اثر في تشويه الفكرة نفسها ، لما تعطيه من مدلول عاطفي ساذج للموقف نفسه .

وما دمنا في مجال البحث عن خطوط هذا الاتجاه الذي نريد سلوكه في طريق العمل ، فقد نجد من المفيد لناجداً الاطلاع على المؤثرات الفكرية والعاطفية والسياسية والاجتماعية وغيرها من الاشياء التي استطاعت التأثير في اتجاه بعض الاشخاص الى دعاية مضادة لنا تزيف لهم واقعنا وتقدم لهم الوجه المظلم من الصورة في الوقت الذي لا يتاح لهم المجال للاطلاع على الجانب المضيء .

وقد يستسلم بعض الاشخاص الى بعض الفجوات التاريخية والفكرية التي قد تفهم فهما سيئا ، نتيجة بعض التحليلات الخاصة او بعض المناهج الدراسية المعينة التي قد تؤدي الى نتيجة عكسية في بعض الاحيان .

ان علينا مراعاة ذلك كله قبل اتخاذ اي موقف سلبي او ايجابي من الطرف المقابل ، وبكلمة واحدة : أن ندرس الموقف كظاهرة موضوعية لا ترتبط بواقعنا العاطفي من قريب أو من بعيد .

وربما يكون علينا ـ في ضوء هذا ـ ان نقلع عن كل موقف يصف الآخرين بالعناد والجحود والنكران بالحق الواضح بحجة وضوح الحق عندنا ، كما ان علينا ان نمتنع عن كل اساليب اتهام الآخرين بالكفر والزندقة والالحاد لمجرد اثارتهم بعض الشبهات ، او بعض علامات الاستفهام في بعض جهات العقيدة ، فقد تكون هذه التساؤلات ناشئة عن حسن نية واخلاص للوصول الى معرفة الحق ، وربما لا تكون كذلك ، ولكن علينا ـ في كلتا الحالتين ـ ان نسلك هذا الاسلوب الموضوعي ، لئلا يكون للمعاندين حجة عن طبيعة الاسلوب الديني للعمل ، ولئلا يشعر المخلصون بالغبن والحيف والاسى امام محراب الحقيقة .

« وقد نجد في حوار ابراهيم مع ربه تجربة رسالية رائعة في اسلوب العمل ، فقد طلب من ربه ان يريه المعجزة التي يطمأن بها قلبه في مشاهدته عملية احياء الموتى على الطبيعة كطريقة من طرق الوصول الى الايمان الحق » . فقد نستوحي منها اسلوبا عمليا جديدا في مواجهة ردود فعل الآخرين على ما نقدمه اليهم من افكار ، وذلك بان نضع في حسابنا الحقيقة التالية وهي : ان الافكار التي نقدمها للآخرين في اثبات قضايا العقيدة ، قد تقنعهم فكريا ولكنها لا توصلهم الى مرحلة الايمان الروحي العميق التي يلتقي فيها العقل والقلب في عملية يمتزج فيها الفكر بالشعور فيتحول الى طمأنينة روحية يشعر فيها الانسان بالاطمئنان والسكون الذي يغمر فكره وروحه في سلام روحي عظيم ، ولهذا فان علينا ان لا نستنكر عليهم هذا الطلب ، تماما ، كما لم نجد هناك اي انكار من الله على نبيه عندما قدم هذا العرض له من اجل الحصول على الطمأنينة القلبية بعد حصول الايمان الفكري .

ومن البديهي ، اننا لا نستطيع تقديم المعجزة للآخرين ، كما قدمها الله لنبيه ، ولكننا نستطيع تقديم الافكار الواضحة القريبة من حياتهم

حتى يحسوا ان قضية الايمان تتحرك معهم في كل ما يعملونه او يمارسونه من علاقات . وقد نعرف من هذا كله ، ان على الداعية ان يكون حركة دائمة في الحياة في مواجهة الواقع ، ليفهمه من موقع حاجتنا اليه ، كمادة خام من مواد العمل . مما يدعونا الى ان نبعث الحركة في التوجيه والوعي في المعرفة ، لتخرج من جمودها الفكري الذي يحولها في أغلب الحالات الى قطع اثرية جامدة في متاحف الافكار » [1] .

أما الآيات التي ادارت الحوار بين ابراهيم وبين الله سبحانه وتعالى فهي قوله تعالى :

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّي أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢ : ٢٦٠

وقد حاول القرآن الكريم ان يؤكد — في أكثر من آية — على أن يصف معارضيه بعدم العلم ، ويرجع الى ذلك كل الاساليب التي اتبعوها معه في حربهم للنبي ، ووقوفهم امام دعوته ، وان لم يجعل هذا الجهل عذرا شرعيا مبررا لذلك كله نظرا الى قدرتهم على التعلم والانفتاح على الحق من اقرب طريق .

---

(١) اسلوب الحوار في القرآن ، فصل الحوار القصصي في القرآن ، فقرة « قصة ابراهيم » .

وقد ركز من خلال ذلك على استقبال المجتمع الاسلامي لكل انسان يريد ان يتعلم وان يبحث عن الحقيقة . مهما كانت صفته ، ومهما كان لونه وهذا ما نستوحيه من الآيات الكريمة التالية :

وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْلَمُونَ ٩ : ٦

قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ١٦ : ١٠١

بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ٢١ : ٢٤

وقد اراد الله من النبي محمد (ص) ان يتبع معهم اسلوب الصفح واللطف من اجل ان ينتهي بهم الى النتيجة الفضلى وهي العلم بالحقيقة والسير معها والاهتداء اليها وذلك بمساعدتهم على أن يتعلموا ويعلموا قال تعالى :

فَاصْفَحْ عَنْهُمْ . وَقُلْ سَلاَمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ٤٣ : ٨٩

وهكذا نجد القرآن الكريم ــ في هذه الآيات ــ يرشدنا الى تفهم الواقع الموضوعي الذي ادى الى المعارضة والمقابلة وان لم يكن لهذا الواقع ما يبرره عندهم باعتبار امكان التخلص منه .

ولعل مما يتصل بموضوعنا الذي نعالجه ، هو ان البعض ممن يمارسون مهمة العمل التبليغي في الحقل الديني ، قد ينفتحون على واقع

الانحراف عن الاسلام في العالم ، في كثير من البيئات التي لم تسمع بالاسلام ، أو سمعت به سماعا عابرا ، كما نسمع نحن عن بعض الاتجاهات البعيدة عن حياتنا من دون ان تثير فينا اي اهتمام ، فيصدرون احكاما عنيفة قاسية على هؤلاء الناس الذين انحرفوا عن الاسلام لانهم لم يلتقوا بعقيدته وفلسفته ومفاهيمه العامة عن الكون والحياة .. اما حيثيات هذه الاحكام فتتلخص في اقامة الحجة عليهم من خلال حكم العقل الفطري بضرورة البحث والتفتيش عن الحقيقة ، بمجرد ان يطرأ احتمال عابر يوحي بوجودها في دائرة معينة او في مبدأ خاص ، انطلاقا من القاعدة العقلية التي تحكم بلزوم دفع الضرر المحتمل ، لان احتمال الحق في جانب يساوي احتمال العقوبة من الله على اهماله وتركه ، وفي هذه الحالة ينطلق الانسان بوحي فطرته وحكم عقله الى الفحص عن مدى جدية هذا الاحتمال وانسجامه مع الواقع ليصار الى التدقيق فيه ، لاتخاذ الموقف الحاسم منه رفضا او تأييدا ، فاذا لم يفعل ما تدعوه اليه الفطرة ويحكم به العقل ، كان حقا على الله ان يعاقبه على انحرافه ما دامت الحجة قائمة والطريق واضحا .

ولكننا نعلق على هذا التصور السريع للواقع في نقاط عديدة :

١ ــ أننا نوافق على القاعدة العقلية المذكورة ، من ناحية المبدأ ، ولكن حركتها في داخل الوجدان الذاتي تتوقف على ان يتحرك الاحتمال في النفس بالمستوى الذي يهز اعماقها هزة خوف عميقة تدعو الى القلق . أما اذا كان الاحتمال عابرا يضع الفكرة في موقع الوهم الذي لا يلامس النفس الا ملامسة خفيفة تطفو على السطح ولا تنزلق الى الاعماق ، فلا تتحرك القاعدة في الوجدان لافتقارها الى موضوعها الطبيعي وهو «خوف الضرر» .

٢ ــ ان وجود الأفكار المضادة السابقة الخاضعة لتربية معينة ، او

دراسة فكرية خاصة ، قد يمنع من حدوث الاحتمال الوهمي للفكرة الجديدة ، فكيف بـ « الاحتمال الشكي » الذي يتساوى فيه جانب الوجود والعدم او « الاحتمال الظني » الذي يترجح فيه جانب الوجود على مقابله •• وهذا هو ما نلاحظه في حالتنا الذاتية عندما نلتقي باسماء وعناوين المبادىء والاديان التي تختلف عما ندين الله به ونعتقده من الاسلام ، فانها لا تثير في داخلنا اي احتمال مهما كان ضعيفا ، ولذا فاننا نكون منسجمين مع انفسنا عندما نتوقف عن الفحص والبحث والتفتيش عما تحتويه هذه المبادىء والافكار ، ولا نفكر في خروجنا عن طبيعة القاعدة العقلية ، فلماذا نعطي لانفسنا حقا او عذرا لا نمنحه للآخرين ، افليس هذا اخلالا بالميزان العادل الذي يدعوك الى ان تعامل الآخرين بما تحب ان يعاملوك به •

٣ ـ اننا نعتقد ان قيام الحجة على أي شيء من الاشياء المتعلقة بحياة الانسان وعقيدته ، يحتاج الى خلق الظروف الملائمة التي تضع الانسان في اجواء الفكرة ، فتثير ـ في داخله ـ التفكير لينقله الى جو المناقشة والصراع الذي ينتهي به الى الاقتناع او الرفض ، ولهذا فلا يكفي ان يمر الاسم او العنوان امام ناظريك بفعل حديث طارىء او بعيد عن اجواء الموضوع ، اذا لم يحدث هناك ما يدفعك الى البحث او يغريك به من علاقته ببعض جوانب عملك ، او مشاكل حياتك او ما شاكل ذلك ، تماما، كأي قضية اخرى ترتبط بقضايا الحياة فانك لا تنفعل بها اذا لم تقتحم عليك أوضاعك ومشاغلك في هزة نفسية مفاجئة •

وعلى ضوء هذا فينبغي للعاملين أن يوفروا الظروف الموضوعية التي تهيء العقل البشري للانفتاح على طبيعة الفكرة ليتضح له جانب السلب والايجاب فيها ، ليسعى اليها من موقع اهتماماته الفكرية ، فان وضوح الجوانب المتعلقة بالفكرة الذي يدفعنا الى هذا الاهتمام لا يعني وضوحها لدى الآخرين ليثير فيهم ما يثيره فينا من اهتمامات فكرية ••

وهذا هو ما نلاحظه لدى التيارات العقيدية والسياسية المعاصرة فانها لا تكتفي بالبوادر الفردية التي يمكن ان تثير أو لا تثير بل تحاول أن تدفع الاجواء المثيرة الى داخل حياة الانسان لتدفعه نحو الحركة في الاتجاه الذي تريده ، ولعل هذا هو السبب في ان الانبياء لا يكتفون بالاعلان عن رسالتهم الى الناس ليسمعها من يسمع ، او يسمع بها من لم يسمع ليندفع اليها بشكل فطري ، بل يندفعون الى جعل وجودهم قضيةمتحركة في اكثر من موقع من خلال لقاءهم المستمر بالناس ، واصطدامهم بالقوى الطاغية الموجودة في مكان الرسالة وزمانها ، ومواجهتهم حملات النقد والتشهير والتوبيخ والرفض ، ليتحول وجودهم الى مشكلة تثير الاهتمام وتدفع الى الحركة •• وربما كان السبب في ذلك كله ما ألمحنا اليه وهو اقامة الحجة على الناس من الجانب الذي تفرضه طبيعة الرسالة ، لا من الجانب الذي تستدعيه تمنياتها واحلامها الغارقة في الضباب •

٤ ـ اننا نجد في هذه النظرات التي تدرس حيثيات الحكم من بعيد، لونا من الوان الاسترخاء اللذيذ ، والراحة الكسولة التي يستسلم اليها بعض الناس ليوزعوا الاحكام هنا وهناك وليحملوا المسؤوليات هذا او ذاك مما يؤدي الى الاستهتار بالمسؤولية في حركة العمل ، فيتركوا السعي الدائب الى اقتحام المجاهل الجديدة التي لم تبلغها الدعوة ، ويهملوا المجالات التي يمكن للرسالة ان تنفتح فيها على قوة كبيرة ، ومنطلقات واسعة •• تدفع العمل الى مرحلة متقدمة في اتجاه الهدف الكبير •• وهذا هو ما نعيشه في ظل الاجواء الرسمية او التقليدية التي جعلت الدعوة الاسلامية تنكمش وتنقلص وتتراجع عن كثير من مواقعها في الشرق والغرب للتيارات الدينية المتحركة في نطاق اساليب التبشير التربوية والصحية والاجتماعية ، او التيارات السياسية والالحادية المتحركة في اطار الواقع السياسي والاقتصادي الذي يطرح المشكلة في طريق الحلول العملية الباحثة ابدا عن موقع للتقدم والاستثمار •

عندما يتحول الحكم
الشرعي الى تقليد

لعل من بين الظواهر التـي اصبحت تطبع سلوك المسلـم ، بسبب الخطأ في اسلوب التوجيه ، هو ما نلاحظه من تحول بعض الاحكام الشرعية في حياة المجتمع الى تقاليد ، يتبناها الناس كما يتبعون التقاليد القوميـة والعشائرية والاقليمية ويدافعون عنها كما يدافعون عن حرمة تقاليدهم..

اما السؤال الذي يفرض نفسه علينا ، فيتمثل في التساؤل عما يمثله ذلك في فاعلية الحكم الشرعي وقدرته على البقاء ، فهل يعتبر خطوة ايجابية مشجعة او خطوة سلبية مزعجة .

ربما نجد ــ في النظرة الاولى ــ في تحول العمل الشرعي الى تقليد من تقاليد الامة ، تطورا مفيدا يجعل انسجام الفرد معه اكثر مما اذا بقي ــ حيث هو ــ مجرد حكم شرعي خالص ، لان الخروج على التقاليد قد يكون عملية صعبة يتمثل فيها الخروج على اوضاع المجتمع وارادته، نظرا الى ان التقاليد تتحول ــ بفعل مرور الزمن ــ الى جزء من شخصية الامة وحياتها ، ويعتبر التمرد عليها تمردا على كيان الامة وحرمتها ، كأي شيء يوحي بالقداسة والاحترام .. اما اذا كانت القضية قضية حكـم شرعي مجرد ، فلن تكون القضية بهذا المقدار من الصعوبة ، لان الموضوع يصبح موضوع الوجدان الديني ، والوازع الداخلي الذي يمنع الانسان مـن المعصية ، ويدفعه الى الطاعة ، فهو الذي يحمي الانسان مـن الجريمة ،

ويقوده الى السير مع ارادة الله سبحانه وتعالى من دون اي مانع خارجي .. ذلك هو الفرق بين أن تتحول الاحكام الشرعية الى تقاليد ، وبين أن تبقى ـ حيث هي ـ مجرد اوامر ونواهي في الكتب الدينية والفقهية .

ولكن هناك جانبا آخر ينبغي التأكيد عليه في التقاليد المستندة الى الاحكام الشرعية ، وهو ارتباطها المستمر بجذورها الشرعية لئلا تنفصل عن ركائزها الاساسية وتصبح مجرد شيء لا معنى له ، فان من الملاحظ أن ممارسة الامة للتقاليد ، ليست ممارسة واعية تنبع من وعي الامةلضرورتها وحاجتها اليها ، او من الاحساس بارتباطها بجذورها الاصيلة التي انطلقت منها ، فربما تكون تلك الجذور منسية تماما فلا تدور في فكر احد ابدا، وربما تكون سخيفة لا يشرف الارتباط بها اي مجتمع من المجتمعات لان نشوء التقاليد يخضع ـ غالبا ـ لبعض العوامل الطبيعية التي تتعرض لها حياة المجتمع ، مثل قوة الحادثة التي انطلقت منها وضخامة حجمها الاجتماعي ، الامر الذي يجعل تكرارها امرا مفروضا وطبيعيا ، أو قوة السلطة التي ارادت لهذا التقليد او ذاك ان يتركز ويخلد في حياة الناس، او غير ذلك من العوامل التي تدفع العمل الى ان يتكرر في حياة الامة ، حتى يصبح عادة من عاداتها التي تؤديها بشكل آلي عجيب ، لارتباطه بنمو الانسان في حياته من البداية .

وما دامت القضية قضية حركة لا واعية ، تنشأ من التكرار الساذج في حياة الامة وتاريخها ، فقد تتعرض ـ في مراحل التطور الاجتماعي ـ الى بعض الهزات التي تحاول اقتلاعها من وجود الامة ، فربما تستيقظ الامة على بعض الاوضاع الثورية التي تثير الافكار والمشاعر ، بشكل غير معقول ، ضد ذلك كله ، باسلوب ثوري او توجيهي يحاول تحليل العادة واخضاعها الى بعض المقاييس الفكرية والاجتماعية التي تجعل من وجودها واستمرارها شيئا لا مبرر له . ثم تبدأ بعد ذلك ـ عملية ازالتها منالوجود

الاجتماعي للامة ، بشكل تدريجي ، او فوري ، حتى تصبح شيئا غريبا عنها تبعا لابعاده عن واقعها وتكرر فقدانه من حياتهم .

وربما يعيش بعض الافراد ، من دون حاجة الى الثورة ، وهم يمارسون هذه التقاليد او يواجهونها في حياتهم ــ طبيعة القرف الفكري، والشعور بالتفاهة عندما يضطرون الى القيام ببعض الاعمال التي لا يفهمونها ، او لا يعرفون جدواها وفائدتها ، تماما ، ككل انسان يعبث او يضطر الى العبث دون ان يكون هناك أي دافع ذاتي له ، وربما يفهمونها فهما عكسيا ناشئا من عدم معرفتهم بالمنابع الاصيلة التي تمدها بالحياة وتبرر وجودها كجزء من كل ، لا شيئا مستقلا لا يرتبط بقاعدة ، ومن الطبيعي ان ابعاد اي جزء عن هيئته التركيبية ، واعتباره شيئا مستقلا ، يوجب فقدانه لاكثر خصائصه الذاتية تبعا لاختلاف الجزء والكل .

ولعل هذا وغيره يدفعنا الى التركيز الواعي على الطبيعة الشرعية لهذه التقاليد واعتبارها جزءا من الخط العام الكلي الذي يحقق مع بقية الاجزاء الاهداف الكبرى للتشريع ليكون منطلقا مع الانسان بحافزين : الحافز الاجتماعي الذي يجعل الخروج عليه خروجا على تقاليد الامة ومقدساتها ، والحافز الديني الذي يجعل التمرد عليه تمردا على ارادة الله ــ هذا من جهة .

أما من جهة اخرى ، فليبقى قائما في وجدان الناس ، كعادة تخضع لفلسفة ، وترتبط بخطة، وليست شيئا مجردا ، الامر الذي لا يجعل ممارسة الناس لها ممارسة لا واعية ، او عملية جامدة جافة ، بل عملا واعيا يرتبط بالعمل من خلال معناه الذي يعيش في نفس الانسان كشيء مقدس معقول.

ومن الطبيعي ، ان مثل هذا التركيز لهذه التقاليد ، يمنع من الانتفاض عليها ، ومن اثارة روح التمرد ضدها لانه يفقد الثائرين مبرر

الثورة عليها ، ويجعلهم يمارسون التمرد على ارادة الله في ذلك ، مما يجعل للمقاومة دورها القوي في تحطيم الحركة وتعطيلها في اقسى الظروف .

ولعل من ابرز الامثلة التي نجدها امامنا في هذا المجال ، هو موضوع الحجاب الشرعي الذي استطاع ان يفرض نفسه في الحياة الاسلامية ، كتقليد اجتماعي شامل يستوعب المجتمع كله فيما مضى من حياةالمسلمين، حتى اصبح الطابع الاسلامي للحياة في المجتمع الاسلامي ، وعاد مجتمع الحجاب سمة مميزة له ، في نظر الاوربيين وغيرهم ، وبدأت الاساطير التي هيأت لها اجواء قصص الف ليلة وليلة ، ترسم لها خطوطا معينة في حكايا الحريم والسلطان ،واضيفت الى ذلك بعض التجاوزات والقيود القاسية الزائدة على طبيعة الحكم الشرعي التي زادت من ظلام الصورة، فاسودت الصورة في الواقع وفي الخيال ، وابتعدت كثيرا عن الخطوط الاولى للتشريع ، فلم يعد الحجاب مجرد حكم شرعي يخضع لحدود الاحكام الشرعية ومجالاتها ، بل عاد نظاما يرتبط بكثير من الطفيليات الزائدة التي علقت به على مر السنين وتحولت حمايته الاجتماعية الى كونه طابعا يميز شخصية الامة ويرتبط بتاريخها ، اكثر من كونه حكما شرعيا يرتبط بايمان الفرد وخوفه من الله تعالى حتى المؤمنين بدأوا يعيشونه في نطاق التقليد اكثر مما يعيشونه في اطار الحكم الشرعي ، ومضينا نسمع كلمة « العيب » تطلق في مجال التنديد بالمتساهل في هذا المجال اكثر من كلمة « الحرام » .. وهكذا نشأت المرأة المسلمة في اكثر من بلد على اعتبار السفور عيبا مجرد عيب ، لا تمتنع عنه الا كما تمتنع عن بعض الاشياء المعيبة لدى المجتمع تبعا لقوة الضغط الاجتماعي الذي تمارسه القوى الاجتماعية التي تملك السيطرة على سلوك الافراد ، ولهذا رأينا القضية تأخذ جانب التساهل من جانب المرأة كلما خف الضغط من قبل المجتمع ،

مما ادى الى اتساع حركة السفور شيئا فشيئا ، كلما اشتدت الدعوةاليه، حتى في كثير من الاوساط الدينية لان مفهوم « العيب » قد انعكس من السفور الى جانب الحجاب وتحول الضغط الى جانب آخر •

وعادت النتائج ــ كما نراها الآن ــ تمثل انحسارا كبيرا ــ لهذا التقليد ــ عن حياة الامة ، لانفصاله عن منابعه الاصيلة من جهة ، وطغيان المقاييس الفكرية الحديثة التي انتشرت فعزلت المقاييس الدينية عن النفاذ الى هذا التقليد لتربطه ببقية اجزاءه في البنية العامة للتشريع •

وبكلمة اخيرة : ان انقلاب النظره في فكرة الحجاب وقيمته في حياة المجتمع ، لم ينشأ من مجرد تمرد الناس على الحكم الشرعي ، بل نشأ من اعتباره تقليدا لا معنى له وجزءا من تاريخ الامة ، ومرحلة من مراحلها الماضية ، وبهذا امكن للمفكرين المحدثين ، أن يمهدوا للانقلاب عليه ، ككثير من التقاليد البالية التي انحسر ظلها عن الحياة في حركة التطور والانفتاح على كل ما هو جديد •

وعلى ضوء هذا كله ، نجد ان من الخير لنا ان نفسح المجال للتوجيه الواعي الذي يبعث الحركة في جمود التقاليد الشرعية ويوقظ روح الحياة في حركتها المتطلعة ابدا نحو الاستمرار والبقاء ، لتبقى للحكم الشرعي روح الاستمرار في تحريك الانسان في حياته العملية ، ولتبقى للتقاليد سيطرتها الاجتماعية ، من خلال روح العقيدة التي ترتبط بجذورها الضاربة في اعماق النفس المسلمة •• وبهذا الاسلوب الواقعي نقطع الطريق على الخطوات التي تعمل على ان تفصل النهر عن الينبوع ، والشجرة عن الجذور ، لتستطيع ان تجفف النهر المتدفق ابدا في اتجاه الخصب والرخاء، او تمنع الشجرة الصاعدة ابدا في اغناء الحياة بالخضرة المهتزة في آفاق لجو المترامي الفسيح •

ما هو موقفنا من الانحراف العملي
اذا استحالت مقاومته

هل ننسحب من الميدان انطلاقا من طبيعة ارتباط واقع الدعوة بواقع العمل ، فاذا اصبح العمل مستحيلا اصبحت قضية الدعـوة بلا معنى ، او اننا نبقى في الطريق نتابع النداء تلو النداء ، والدعوة تلو الدعوة ، وان لم يجبنا غير الصدى .

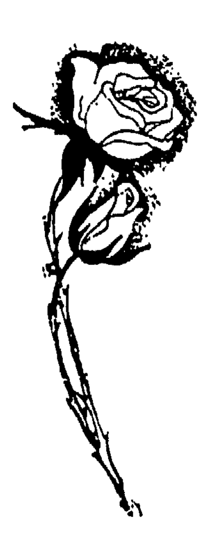
ربما يرى بعض العاملين لزوم اختيار السؤال الاول في طريق الجواب نظرا الى ان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر يعتبران من الواجبات التي تقع في طريق العمل ، ومن الطبيعي ، في هذا المجـال ان تفقـد الدعـوة مبرراتها اذا فقدت هدفها ، ولذلك قال بعض العلمـاء : ان هذا الواجب يعيش في اطار احتمال التأثير وامكانية تصحيح الانحراف .

ولكننا لا نرى ذلك ، بل نعمد الى اختيـار السؤال الثاني من خلال حقيقة اساسية وهي : ان للحكم الشرعي مجالين : احدهما المجال الداخلي الذي يعيش في التشريع في داخل النفس فكرة وعاطفة يوحي للنفس بالعمل ويحاكمها في حالات الانحراف ،وهو الذي يمثل الضمير الديني في حيـاة المسلم ، ثانيهما المجال الخارجي الذي يمـارس فيه الانسان المسلم تطبيق الشريعة في حياته الخارجية ولا بد للمسلم ـ من اجل ان يكون منسجمـا مع اسلامه ـ من ان يعيش تعاليم الله في كلا الحالين لتركيز البناء الخارجي للعقيدة على قاعدة ذاتية في نفس الانسان .

ولهذا فان علينا ــ في حالة استحالة تقويم الانحراف ــ في المجال الثاني ــ ان لا نغفل المجال الاول فيجب أن تتابع الدعوة للاحتفاظ بالاستقامة في خط العقيدة لتبقى المسؤولية حية داخل الذات كعقيدة تتحكم في النفس لئلا يمارس الانسان جريمته او انحرافه وهو مرتاح الضمير •

وبكلمة أدق : ان الانسحاب من الدعوة عند اليأس من تصحيح الانحراف وتقويمه سوف يؤدي الى تأكيد الانحراف في حياة الانسان العقيدية ، في تصوراته للحياة ، في المفاهيم التي يؤمن بها بعيدا عن مفاهيم الاسلام الاصيلة ، بالاضافة الى الانحراف الخارجي ، وسينتهي بالتالي ، الى انعدام الاحساس بالذنب عند ممارسة العمل غير الشرعي ، مما يقتضي تحطيم الحواجز النفسية التي يريد اقامتها في النفس من اجل ان تكون ضمانة على الانحراف في الفكرة والتصور ••• وستكون النهاية أن يصبح المعروف منكرا والمنكر معروفا ••• فتتغير الصورة وتتبدل الى العكس تماما ، كما وعد الرسول في حديثه عن نتيجة الاهمال وانعدام المسؤولية في حياة الامة عند امتداد الانحراف • ومن هنا نجد ان القضية لا تدخل في نطاق الامر بالمعروف والنهي عن المنكر لتخضع لشروطها الفقهية بل تدخل في نطاق التبليغ ومحاولة ابقاء العقيدة حية في نفوس المسلمين •

بقيت هنا ملاحظة على طبيعة السؤال وهي : اننا لا نصحح فرض انحراف لا تمكن مقاومته فلا بد لهذا السؤال من ان يمثل جانب المرحلة المعينة التي يمكن فيها هذا الفرض ، لا طبيعة العمل نفسه في مدى الزمن •



موقفنا من الواقع السياسي

قد نصطدم بالـواقع السياسي الذي تعيشه الامـة عبر التيـارات المتضاربة والاتجاهات المختلفة ، فنلاحظ ان هذا الواقع لم يعـد مجرد وضع يعيش في نطاق طبقة معينة من الناس ، بل اصبح يشمل كل قطاعات الامة ، حتى عاد اشبه شيء بالزاد اليومي لكل انسان ، ومضى كل واحد من هذه الفئات يتبنى اتجاها معينا من هذه الاتجاهات سواء في الخـط العام او في تفاصيل الاحداث ، لان هناك اجهزة دائمة تحاول تدريبه على ممارسة السياسة على الخط الذي تنتهجه وتسير عليه .

وقد نشأ من ذلك ، ان السياسة عادت تمثل حساسية خاصة لـدى الامة ، فهي تحاكم وتهاجم هذا الحاكم او ذاك او هذه الانظمة او تلك ، بأسلوب عاطفي حاد تستخدمه كل فئة لمحاربة الفئة الاخرى حتى انطلقت كمقياس للحكم على طبيعة الافكار نفسها ، واعتبر الخط السياسي لايـة جماعة حجة للحكم على نظافة الفكرة التي تدعو لها ، وعدم نظافتهـا . ولذلك نجد ان علينا ان نكون حذرين ازاء هذا الواقع فلا نحاول تأييـد جهة دون جهة ، ولا الوقوف مـع جانب دون جانب ، لان ذلك يفقدنـا شخصيتنا المستقلة ، ويجعلنا نحمل اخطاء الجهة التي نؤيدها ، وبالتالي ، يجعلنا في معركة لا نؤمن بشعاراتها وواجهاتها ، ويجرنا — في النهاية الى بعض المنعطفات الخطرة التي قد تؤدي بنا الى الدمار . وعلى هدى ذلك فلا بد لنا من تحديد الخط الذي يميز حركة العقيدة ويحفظ لها خطواتها،

ويحدد لها ابعادها . ليكون العمل منطلقا في اتجاهه ، من اجل ان تكـــون للعمل وللعاملين شخصية مستقلة ، لا تتعاون مع الآخرين الا في الخطوط التي تلتقي فيها معهم ، تعاون الند للند ، لا التابع للمتبوع •

ولعل القضية تبرز بوضوح اكثر ، اذا استطعنا ان نلاحظ الواقـــع السياسي الذي يعيش العالم فيه اليوم ، بين اتجاه اليمين المتمثـــل فـــي السياسة الغربية ، واتجاه اليسار المتمثل في سياسة المعسكر الاشتراكي •

ونلاحظ ــ في اطار ذلك كله ــ ان سياسة اليمين قد انطبعت بطابع الاتجاه الذي يرعى الاستعمار والتخلف ، ويعتمد على افقـــار الشعوب النامية ، واستثمار خيراتها ، لتكون بقرة حلوبا ، وسوقا دائما لتصريـــف منتوجاتها الزراعية والصناعية •

اما سياسة اليسار ، فقد اخذت طابع الاتجاه التحرري الذي يرعى حرية الشعوب واستقلالها والعمل على تقدمها والانطلاق بها نحو الاكتفاء الذاتي في مجال الصناعة والزراعة • وسواء كان هذا الطابع الذي انطبعت به هذه السياسة او تلك ، نابعا من واقع الاتجاه الذي تتحرك فـــي اطاره السياسة ، او منطلقا من الدعاية التي ارادت لهذا الواقع ان يأخـــذ هذه الصورة في اذهان الناس ، فقد فرض نفسه على التصور العـــام وانتهى ، فما هو موقفنا من هذين الاتجاهين •

ربما يجـــد بعض الناس ، ان علينا ان نسير في اتجاه اليمـــين لان المعسكر الذي يمثله ويتبنى هذا الاتجاه ، لا يحمل عقيدة معينة تصطدم بالدين وتجعل من محاربته رسالة يعمل من اجلها ، بل ربما نجده يشجـــع الدين في بعض مواقفه ، ولا اقل من انه يترك له حرية العمل في مجالاتـــه العامة كجزء من فكرة (الحريات العامة) التي يؤمن نظامه بان على الدولة ان تحميها وتكفلها للناس •

ويجد هذا البعض من الناس ان هذا يصلح مبررا كافيا للاندماج معه في الخط السياسي الذي يستهدف اضعاف المعسكر الآخر الذي نصطدم معه وجها لوجه في خط العقيدة ، الامر الذي يجعل من عملية التعاون معه قضية خطرة تتجه بنا نحو الانهيار العقيدي •

وقد يجد فريق آخر من الناس ان البذور التحررية التي زرعها الاسلام في حقل العقيدة والتشريع تأبى على الانسان ان يضع يده في يد اولئك الذين يدعون الى الحرية في بلادهم ولكن لتكون الحرية حريتهم الخاصة التي تعيش على حساب حرية الآخرين ، وعلى حساب كراماتهم وعزتهم الذاتية •

ويرى هذا الفريق في التعاون مع هؤلاء ، ابتعادا عن الروح الحية التي تتفجر بها طبيعة الاسلام ونظامه الاجتماعي ولذا ، فلامجال لاختيار جانب اليمين ابدا اذ لا مجال للبقاء في المعسكر الذي يحارب من اجل حرية الاستعباد وحماية التخلف ، وسياسة التجويع والافقار بحجة مهاجمة المعسكر الاخر •

اما نحن فنعتقد ان علينا ان نرسم الاتجاه الذي يتفق مع مصلحة الاسلام الحقيقية العليا ، ولا ينحرف عن خط الشريعة السمحاء ، ولن نجد في اختلافنا مع المعسكر الاشتراكي في الخطوط الاولى للعقيدة مبررا لرفض كل خطواته السياسية في مجال العمل الدولي اذا كانت منسجمة مع المصلحة العليا للاسلام ، كما لا نجد اي مبرر للاتجاه مع اليمين في سياسته ، اذا كنا مختلفين معه في كل خطواته السياسية •

ان علينا ان نرسم سياستنا المستقلة التي تحدد لنا مواقع اللقاء مع الآخرين من دون الذوبان فيهم او الانصهار معهم وتجعلنا اكثر حرية في الحركة على اسس المصلحة العليا للاسلام من غير تقيد بخط معين لهذا الاتجاه

او ذاك .. ومن هنا فان علينا ان نفرق بين قضايا الفكر وبين قضايا السياسة فلا يفرض علينا الاختلاف في العقيدة ، اختلافا عمليا في القضايا الاخرى التي لا تضر بمسيرتنا الفكرية بل يجب علينا ان نكون موضوعيين في كل خطوة للعمل ، بشرط ان لا نكون ساذجين في ممارستنا للموضوعية او في اتجاهنا نحوها ، لان الحذر — في كل عمل — يمثل قاعدة الاساس التي يرتكز عليها البناء .

وربما كان من الضروري لنا ان نتابع احداث الواقع وحركته في كل مكان في عملية رصد دقيقة شاملة لطبيعة الاحداث ، وللعلاقات التي تربط بين القوى الفاعلة في الكون ، ومدى قوتها وضعفهـا ، وعلاقتنا بها ، او امكان ايجاد هذه العلاقة بأقل قدر ممكن من السلبيات ، في اطر المصلحة الاسلامية العليا ، وملاحقة المتغيرات السياسية التي قد تعيد النظر في اكثر من خطة موضوعية على اساس الحسابات السابقة ، لان الثـوابت ليست موجودة في خطط التحرك الا فيما يتعلق الامر بالمبادىء العامة ، والخطوط العريضة .. ولعل من البديهي في ذلك ان يكون لدينا اختصاصيون في اي جانب من هذه الجوانب ليتوفروا على دراسة القضايا السياسية بدقة وعمق وشمول . لان الاعتماد على الظواهر البارزة من الاحداث يقرب الخطـة من السطحية والارتجال ويبعدها عن العمل .. ويعرضها — بالتالـي — للخطر ، لان الموضوع ليس موضوع فكر يخطىء ويصيب، بل موضوع حركة يمكن ان يؤدي انحرافها الى الوقوع في المهوى السحيق .. ولعلنا لا نحتاج الى التأكيد على ضرورة الممارسة والاندماج في الجو كشرط من شروط الحصول على المعرفة الدقيقة الشاملة ، لان الثقافة السياسية ليست ثقافة نظرية .. تخضع للقراءة والدرس ، بل تحتاج — الى جانب ذلك — الى الاحساس بالواقع في حركة الحياة .

موقفنا من الانحرافات الفكرية والعملية العامة

هناك فكرة تتردد كثيرا على لسان بعض العاملين للاسلام من علماء الدين ، ومن الوعاظ وخطباء المنابر وهي التأكيد على ضرورة حفظ عقائد العوام ورعايتها من كل ما يزلزلها مما يدعو الى الشك او يثير الارتياب ..

والفكرة صحيحة في طبيعتها وفي مدلولها ومعطياتها العملية .. فان العامة من الناس يمثلون القوة الضخمة التي تتحرك فتحرك العمل الديني في كل مجالات الحياة التي تتحرك فيها ، لأن التزامها الديني واصرارها عليه ، يحقق ذلك كله .. وهدا ما يجعل القيمة الكبيرة لحركة الدعوة الاسلامية في توجيههم وتركيزهم واثارة مشاعرهم الدينية في هزة روحية فاعلة .. تحرك العاطفة لخدمة العقيدة وتثير المواقف لحماية الايمان .

ولكن هؤلاء الذين يثيرون هذه الفكرة لا يقصدون منها ذلك ، بل يحاولون ان يصلوا بها الى نتيجة خطيرة تتعلق ببعض القضايا المنحرفة التي يمارسها العوام باسم الدين حتى انهم اعتبروها من شؤون العقيدة الاساسية التي تصل الى مرتبة القداسة ، فلا يجوز المس بها من قريب او من بعيد ..

وخلاصة ما يريدونه هو ان يبقى هذا الانحراف ، في طبيعة الممارسة لمثل هذه القضايا سواء في جانب الشكل والمضمون ، ما دام ذلك لا يضر بالعقيدة الاساسية بل القضية ــ على العكس من ذلك ــ فانها تفيدها

وتخدمها لانها تربط الناس بها من خلال ما اعتادوه وما ألفوه من اوضاع وعادات ومعتقدات اما اذا حاولنا ان نحارب مثل هذا الانحراف ، ونبعد الناس عنه ، عندما نجعل من رسالتنا الدعوة الى تركه وتنفير الناس منه ، فان النـاس سيعيشون الاهتزاز الفكري بالاساس القـوي للعقيـدة لما يعتقدونه من الارتباط بينهما حتى اذا انهار احدهما انهار الآخر معه ...



ولكننا نختلف عنهم في ذلك .. فاننا نعتقد أن من مهمة الرسالة أن تضع منهج التفكير ، ومنهج العمل كما تضع العمل نفسه في اطاره التشريعي المناسب .. وبذلك كان الاسلوب جزءا من العمل ، فلـم يترك الاسلام للانسان في كثير من المبادىء العـامة الحرية في اختيـار الاسلـوب الذي يناسبه في تحقيقها وتطبيقها على الواقـع ، فقد شرع للانسان العبـادة ، ولم يتركه ليعبد الله كيف شاء بل رسم له طريقة العبادة واعتبرها توقيفية لا مجال فيها للزيادة والنقصان ، سواء في ذلك اقوالها وافعالها « وشرع للانسان القواعد العامة للنشاط الجنسي ، ولكنه لم يتـرك الامر للانسان ليمارسه تحت أي عنوان ، بل جعله في اطار العلاقة الزوجية ... ثم حدد الطريقة التي تتحقق فيها هذه العلاقة من حيث كلمات العقد التي تقـال ، وشروطه فلا يجوز مثلا انشاء العقد بكلمة الهبة كأن تقول المرأة للرجـل وهبت لك نفسي .. بل لا بد من انشاءه بكلمة الزواج كأن تقول المـرأة مثلا .. زوجتك نفسي ، وما اشبه ذلك ، لانه يريد للعلاقة الزوجيـة ان تنطلق في نطاق التعاقـد الذي لا يخضع لفكرة الملكيـة التي تعطيها كلمة الهبة ، بل يريد لها ان تعيش في نطاق معنى الزواج ، الذي يجسد معنـى الحياة التي تستمر من خلال الارادة المتبـادلة الخاضعة لقـانون التعاقد الارادي في ظل الاحكام الشرعية ... وهكذا نجد الطريقـة نفسها ، في

موضوع الطلاق الذي يمثل انهاء العلاقة الزوجية فقد اريد له ان يتحقق في كلمات معينة لا تقبل التغيير والتبديل ..

وعلى ضوء ذلك فاننا نفهم ضرورة التوفر على دراسة الاسلوب كما نتوفر على دراسة العمل نفسه .. لانه ربما يسيىء الى نفس الفكرة من حيث المعنى الذي يطبعها بطابعه ، كما رأيناه في موضوع الزواج في كلمة « الزواج » وفي كلمة « الهبة » .. فنواجه الاساليب التي تضر بالفكرة ، لننقدها بقوة من اجل ابعادها عن محيطنا الفكري والعملي.. اما الاساليب التي تنسجم مع جو الفكرة ومعانيها فنشجعها ونحضنها ونسير عليها .

وقد يتمثل هذا المنهج فيما تعارف عليه المسلمون الشيعة في تعبيرهم عن حب أهل البيت ، وتعاطفهم مع أجواء المأساة التي تجسدت كأقسى ما يكون ، وكأوجع ما يكون ، في تاريخ الائمة عليهم السلام واعلانهم الاحتجاج المستمر على ذلك التاريخ المصبوغ بالدم ، المتفجر بالالم ، المتجسد في الصورة الوحشية والهمجية التي مارسها طغاة تلك العهود ضد هذه الصفوة الطاهرة التي كانت تعيش الاسلام وتجسده في كل ما تطلق من فكر ودعوة وفي كل ما تمارس من عمل وجهاد .

وهذا شيء رائع وضروري .. لجهتين .. الاولى : ابعاد الناس عن التعاطف مع تاريخ الطغيان وربطهم بتاريخ التضحية والشهادة ، كطريقة تربوية لمواجهة الانسان المسلم بتاريخه في سلبياته وايجابياته بعيدا عن كل القداسات الزائفة التي يثيرها الماضي في نفس الانسان لاغفال الاخطاء الكبيرة او تحويلها الى مقدسات اجتهادية تبرر الخطأ باسم الاجتهاد .. فان الانسان اذا واجه التاريخ الذي يعيش معه الاجواء الحميمة ، بعقلية الناقد الذي يملك روح الحياد وعقليته ، استطاع ان يواجه الواقع الحاضر بنفس الروح التي تنقد السلبيات وتحتضن الايجابيات على أساس ايمانه وعقيدته ..

الثانية : انطلاق الجانب العملي في اتجـاه تحويل الصور التاريخية المشرقة التي تصور لنا معاني التضحية ومواقف الاستشهاد الرائعـة ضد قوى الطغيان والكفر والضلال ، التي صنعت مأساة الانسان في التاريخ ، الى صور حية تتحرك في مواقفنا العملية المتحركة ابدا ضد انواع الطغيان والظلم والانحراف سواء في الداخل ، الذي يتمثل في حكم الطغاة الظالمين، المتسلطين على العباد والبلاد بالقهر والغلبة ، او في الخارج ، الذي يتمثل في القوى الاستعمارية والكافرة التي تعمل للسيطرة على الناس كطريـق من طـرق السيطرة على مقدراتهم الفكريـة والاجتماعيـة والسياسيـة والاقتصادية ، ليستغلوا ذلك كله فيما يفكرون به من قضايا وما يضعونه من مخططات ، وما يتحركون من خطوات ، وما يستهدفونه من أهـداف . فان الالحاح على التاريخ ومتابعتـه بالاستيحاء والايحـاء .. يؤدي الى انطباع الشخصية الانسانية المتعاطفة معه بطابعه الانساني الرائع .

وفي الجانب المقابل لذلك .. يتحرك الانسان المسلـم الذي يعيش الاحتجاج الدائم على خطوات الظلم التي صنعت المأساة الدامية ، من اجل ان يمنع القوى الظالمة من صنع المأساة الجديدة للانسان المعاصر .. وذلك عندما يتحول مفهوم الثورة على الظلـم الى فكر واحساس وحركـة .. كنتيجة طبيعية للتوجيه المستمر ، وللتربية الواعية المتكررة ...

اننا نشجع اثارة التـاريخ لتحقيق هذين الهدفين ، مما يجعـل من التاريخ معنى يتحرك في الحاضر ويتجسد في الواقع ، لا مجرد ماض يثير في داخلنا الزهو بأمجاده ، او يفجر في أعيننا الدموع حزنا على مآسيه .. فاننا قد نفهم أن يتحرك الماضي من مشاعرنا بشكل عفوي طبيعي لارتباطنا العاطفي والروحي به ، كما يتحرك مشاعر الانسان امام اية حالة مأساوية ترتبط بالذات ولكننا لا نفهم الدعوة الى الانفعال بالمأساة لذاتها ، مـن دون هدف محدد يرتبط بمعطياتها الحـاضرة والمستقبليـة على صعيـد

الرسالة •• لان الماضي لا وجود له في الحاضر كمرحلة زمنية من مراحل الحياة ، اما أبطاله فقد وقفوا امام اللـه •• وانتهت المأساة بكل آلامها وانفعالاتها معهم •• فما معنى أن تحزن عليها من ناحية ذاتية •••

اننا نشجع الموضوع من ناحية المبدأ •• ولكن ماذا عن الاسلوب المتبع في ممارسته •• ان الاساليب المتبعة كتعبير عن هذا الحزن الخالد •• تتمثل في عدة ألوان ، منها ، اقامة المجالس التي يتقدمها الخطباء الذين يتحدثون عن المأساة بطريقة معينة ليثيروا بها المشاعر والانفعالات ، ومنها ، الخروج بمواكب جماهيرية تنشد الاهازيج الشعبية وغير الشعبية ، مما يتضمن قيمة المأساة وايحاءاتها بأسلوب مثير ، قد يصاحبه اللطم على الصدور العارية وغير العارية ، ومنها ، ضرب الظهور العارية وغير العارية بالسلاسل الحديدية التي قد تجرح وقد تترك آثارا سوداء على الجسد •• ، ومنها ، جرح الرؤوس بالسيوف وغيرها حتى تسيل الدماء الغزيرة ، فتصبغ الاكفان البيضاء التي يلبسونها على اجسادهم •• ومنها ، اقامة الحفلات والندوات الخطابية التي تتحدث عن المأساة من ناحية مداليلها الاجتماعية والسياسية وغيرها •• مع استثارة الجوانب المأساوية بطريقة فنية رائعة تستثير المشاعر بالصورة واللمحة والفكرة ، لا بالصوت المثير للطرب المتفجر من الحان القارىء للمأساة ، ومنها ، ما يصنعه بعض الهنود من اضرام نار كبيرة ثم المرور عليها بدون اية معاناة للألم •• كذكرى للنار التي أضرمها الامويون وانصارهم في خيام الحسين في كربلاء ••

هذه هي الالوان البارزة لاساليب التعبير عن الحزن المقدس ازاء مأساة كربلاء •• وقد شاركت في حدوثها وانتشارها ، تقاليد وعادات شعبية عاشتها الشعوب في طريقتها في التعبير عن احزانها ••• او عواطف جامحة صدرت من بعض الاشخاص ، فاستحسنها الآخرون ، فأصبحت عادة من خلال ذلك •• ولم يثبت وجود اسباب شرعية تستمد معناها من

نصوص دينية ، او ايحاء من شخصيات دينية معصومة ولكنها مع ذلك عاشت وفرضت نفسها على الواقع الديني الشيعي ، كأقوى ما تكون التقاليد ، وأعمق ما تكون العادات لانها انطلقت من موقع القداسة الدينية لا من موقع العادات والتقاليد المجردة •• واستطاعت — من خلال ذلك — أن تحدث تأثيرا كبيرا في ايجاد رابطة قوية بين الناس وبين أهل البيت ، سواء في ذلك الاطفال والشباب والشيوخ من الرجال والنساء ، لان هذه الاساليب تخاطب العاطفة والشعور فتنفذ الى الاعماق بشكل عفوي طبيعي •• وتأصلت هذه المحبة حتى تحولت الى شيء يرتبط بالذات كما ترتبط به علاقاته الشخصية ، وربما انفصلت عن جذورها الدينية لدى بعض الاشخاص الذين لا يحترمون الالتزامات الدينية في افكارهم واعمالهم ، ولكنهم يتعاطفون مع مأساة أهل البيت ويحبونهم من الاعماق•

وكان لهذا الاثر الكبير الذي احدثته هذه الاساليب في النفوس ، دوره البارز في ولادة الفكرة التي تربط بين استمرار هذه الاساليب المأساوية ، وبين بقاء الدين او علاقة الناس بأهل البيت ، في النفوس حتى عادت اثارة الجوانب السلبية في هذه الاساليب ، تشبه الحديث عن القضايا التي تدعو الى الكفر او المروق والخروج من الدين •

وتطورت الفكرة ، فأصبح بعض الناس يخافون على الذين يستنكرونها ، او ينقدونها ، ان يصابوا ببلاء او بضربة سماوية في الدنيا ، من قِبَل أهل البيت (ع) لانهم يقفون في مواقف العداوة لهم ، ولاحياء شعارهم •• ولم يقتصر الامر على ذلك بل اصبح بعض علماء الدين يصرح بأنني أخاف من الحسين عليه السلام على نفسي ، اذا تعرضت لبعض هذا الحديث •• وكأنما الحسين (ع) وهو يعيش في رحاب الله ، انسان يفكر في القضية من ناحية ذاتية ، كما يفكر الناس في قضاياهم الذاتية ، فيثأر

كما يثأرون من الشخص الذي يعاندها حتى اذا كان ذلك نتيجة اجتهاد فكري او موقف نفسي صادر عن حسن نية .

★ ★ ★

اننا نريد ان نناقش هذه الفكرة من جانبين :

الاول : الجانب الذاتي لهذه الاساليب وعلاقتها بالفكرة من ناحية سلبية او ايجابية .

الثاني : الجانب الرسالي .. من حيث علاقتها بالامتداد الديني في حياة الناس .

★ ★ ★

اما الجانب الاول .. فاننا لا نريد ان ندخل في الجوانب التشريعية الفقهية في هذا الموضوع لنتحدث فيه من خلال الحلال والحرام ، فنقف كما وقف البعض ، لنثير قضية الضرر الذي يترتب من هذه الاساليب على الانسان حينما يجرح نفسه ، او يدمي صدره وظهره ، فيجيب فقيه ، كما أجاب البعض ، بأن الضرر ليس محرما على الاطلاق ، بل المحرم منه هو الضرر الذي يؤدي بالنفس الى التهلكة ، انطلاقا من الآية الكريمة

« وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ »

٢ : ١٩٥

وغيرها من النصوص الدينية التي تحرّم الاعمال التي تشارك في نهاية حياة الانسان مهما كان نوعها ، لا نريد ان ندخل في هذا البحث .. لاننا نود ان نعالج القضية من زاويتين ـ ١ ـ زاوية الانسجام بين طبيعة المأساة

وبين طبيعة الاساليب • ــ ٢ ــ زاوية النتائج السلبية التي تنتج عن ممارستها في واقعنا الحاضر •• مما يحدث تشويها في صورة الدين واتباعه ••

اما قضية الانسجام بين المأساة والاسلوب •• فاننا نقرر انها مفقودة تماما لان الحجة الكبيرة التي يقدمها انصارها ، هي المؤاساة •• فانالحب لاي انسان كان ، او اعزازه، يتمثل في مؤاساتك له في احزانه، ومشاركتك له في آلامه •• لان المشاركة والمؤاساة تخفف عنه الكثير مما يحس به ولانها تدل على انفعالك بما ينفعل به ، وتعاطفك معه ، بكل ما يحس به ويعانيه ••• ولنا مع هذه الحجة وقفات ••

١ ــ اثارة سؤال : لمن المؤاساة •• هل هي للشهداء ، او لمن يتعلق بهم •• فان كانت للشهداء فما معناها في الدنيا بعد انتقالهم منها ، وما معناها في الآخرة ، بعد ان كانوا في شغل شاغل عنها •• وعن كل ما تثيره من انفعالات واحاسيس •

وان كانت لأهاليهم فلمن هي •• للنبي (ص) او لعلي (ع) او لفاطمة (ع) فلا نحسب ان القضية تعيش في هذا الاطار من اهتماماتهم ، لانهم في رحاب الله ــ كما كانوا في الحياة لا ينفعلون بالمواقف الذاتية التي تربط الناس بعضهم ببعض ، كما ان قضية الحسين في كربلاء •• عاشت في طريق الرسالة وانطلقت في التضحية والاستشهاد من خلال شعاراتها العامة ، لا من خلال شعارات الذات •• فكيف يمكن ان نخضعها للاطار الذاتي لاصحاب الرسالة ومجاهديها ••

٢ ــ ان طبيعة المؤاساة تتبع طبيعة المأساة •• فاذا كانت المأساة ذاتية كانت المشاركة من موقع الذات بالاساليب الذاتية ، اما اذا كانت

المأساة منطلقة في طريق الرسالة •• فلا بد ان تكون المؤاساة منبثقة عن ذلك •• فاذا كانت آلام الامام الحسين واحزانه •• من خلال ما كان يفكر به من قضايا النـاس ومشاكلهم ، من حيث الحكم الظـالم الذي يسيطر عليهم ، ومن حيث النظام المنحرف عن خطا الاسلام ، الذي يطبق عليهم باسم الاسلام •• واذا كانت الثورة الحسينية •• نتيجة لهـذا الاحساس العظيم بالمسؤولية الرساليـة الاسلامية في التحرك نحو احـداث التغيير الجذري في المجتمع •• ولو بأن تشق الطريق الى حركات اخرى وثورات جديدة •• فان المؤاساة تتمثـل في الآلام التي تمر بهذا الطريق فاذا كان الحسين قد تألم وهو يقاتل في سبيل الله •• فان مؤاساتنا له ان نتألم ونحن نجاهد في هذا السبيل •• لان ذلك هو معنى المشاركـة •• بأن تشارك في موقع الالم وصفته ، لا من خلال طبيعته الذاتيـة المجردة •• فلم تكن ثورة الحسين •• من اجل ان يتمخض التاريخ عن اشخاص ، يعيشون في بيوتهم بكل استرخاء وكسل •• ولا يضحون في سبيـل الرسالة بأي شيء بل ربما تكون حياتهم في الموقف المضاد للرسالة •• ثم يوحون لانفسهـم بقداسة الشعور ، فيذرفوا بعض الدموع حزنا على الحسين الذات •• لا على الحسين الثورة في سبيل الفكرة ••

٣ ـ اننا لا نوافق على علاقتنا بأهل البيت علاقة ذاتية لنعمـل على توثيق هذه العلاقة من الجانب الذاتي ، بل العلاقـة الصحيحة هي علاقـة الولاية ، التي تمثل المحبة العملية ، وهي الاتباع والقـدوة في السير على الطريق الذي ساروا فيه ، والعمل على تحقيق الاهداف التي عاشوا لها ، في توضيح الصورة الحقيقية للاسلام حتى لا يبقى هناك مجال لشبهـة ، ولا يبقى هناك موقع لزيف •• بل هي الحقيقة الاسلامية الواضحـة التي نزلت على قلب النبي محمد (ص) فأوضحهـا القرآن بآياتـه وجسّدها محمد بأقواله وأفعاله •• ثم الجهاد في سبيل افساح المجال للتطبيق العملي

السليم الذي لا التواء فيه ولا انحراف . وعلى هذا الاساس فان الاسلوب الذي ينسجم مع الفكرة .. هي اعتبار الحزن « سبيلا للتعبير عن التفاعل بالمأساة من خلال القداسة الرسالية لابطالها مما يعطي لمعنى الشهادة طابعا اسلاميا مقدسا ، يتمثل في صورة المأساة السائرة في طريق الآلام مع خطى الرسالة ثم .. الاتجاه في اعتبار العلاقة بين ابطال الاسلام والمسلمين علاقة روحية تتفاعل بآلامهم من خلال تفاعلها برسالتهم .. باعتبارهم التجسيد العملي الحي المتحرك لهذه الرسالات فلا تبقى العلاقة بهم جامدة جافــة ، بل تتفجر بالمحبة والحزن العميق المتطلع لآلام المــاضي على اساس آلام الحاضر والمستقبل ..

وفي هذا الاتجاه ، لا بد من ان يكون الاسلوب منسجما مع مفهوم هذا الحزن وذلك بالانطلاق مع المأساة بالصور الفنية الرائعة التــي تجسد المأساة بالكلمة الموحية ، وبالحركة المعبرة .. التي لا تفترق فيها المأساة عن وحي الرسالة ، او عن تطلعاتها الانسانية الاسلامية فيشعر الانسان بأن هذه المأساة ليست مأساة الانسان التاريخي ، بل هي مأساة الانسانيــة في كل مراحل الحياة .. لانها نتيجــة موقف القضيــة التي تجسدت في الذات وليست نتيجة لموقف الذات في اطار القضية ..

ثم تحويل مجالس المأساة الى نــدوات يعيش الانسان فيها قضاياه ومشاكله وآلامه في عملية مقارنة بين الماضي والحاضر ليظل الايحاء بالعبرة والحركة في كل مجالاتها .. ثم محاولة استغلالها في الدعوة الاسلامية التي ضحى الحسين من أجلها ، وكانت ثورة كربلاء سبيلا لتحقيق بعض اهدافها الكبيرة في الحياة ..

ولا ندري كيف نوفق بين هذا كله .. وبين ضرب الرؤوس بالسيوف او جرح الظهور بالسلاسل او ادماء الصــدور باللطم .. ولا ندري ماذا

تحقق كل هذه الامور من الهدف الكبير الذي عاشت كربلاء واستمرت من اجل ان يعيش او يستمر في حياتنا •• انها لا تحقق الا هدفا عاطفيا ينفعل بشخصية المثل ، ولا ينفعل بشخصية البطـل ، فضلا عن ان يعيش هذه الشخصية ، ثم يزول كل شيء •• لتبقى العاطفة التي لا تلبث ان تزول امام عصف الرياح الهوجاء المضادة •

٤ ـ ان الدعوة التي اطلقها أئمة أهل البيت عليهم السلام ، لاحياء هذه الذكرى ، او للحزن العميق على المأساة كانت تمثـل خطة اسلاميـة للربط العاطفي بين الانسان وبين المأساة •• من خلال المفاهيم الاسلاميـة العامة التي كانت المأساة من اجـل ان تعيش وتستمر •• وقد عبر احـد الائمة عن ذلك بقوله : احيوا أمرنا رحم الله من أحيا أمرنا •• مما يجعل القضية هدفا تسعى اليه في كل خطواتها وأساليبها بعيـدا عن الجـوانب الذاتية التي تربط بين الانسان وبين ابطالها •• وبذلك ينعـدم الاساس الـذي ترتكز عليه هذه الاساليب في تمثيلها للمعـاني التي تثيرهـا هذه الذكريات في حركة الاسلام في الحياة •



واما النتائج السلبية التي تتمثل في ممارستها في الواقـع المعاصر ، فهي اننا نعتقد ان مثل هذه الاساليب تعتبر من وسائل التعبير عن العاطفة •• ونحن نعلم ان الوسائل التعبيريـة ، سواء منها ما كان بالكلمة او ما كان بالفعل تتطور تبعا لتطور الزمن •• فربما تتحول بعض هذه الوسائل الى صورة من صور التخلف والبدائية بالنظر الى انها انطلقت من المستـوى البدائي الذي عاش فيه الآخرون وتجاوزه الزمن •• فاذا كان الزمن الماضي يسمح بوجودها لانسجامها مع مستواه ، فان هذا الزمن لا يسمح بذلك فقد أصبحت مثـل هذه الامور مثيرة للاشمئزاز ، كمـا نلاحظه في ردود

الفعل التي تحدث لدى الكثيرين من الناس ، من دون ان يكون للجانب الديني أثر في ذلك •• ولذلك فقد اصبحت ممثلة للتخلف في حياة الفكرة واصحابها في نظر الناس مما يلزمنا تغييرها الى اساليب جديدة واستحداث وسائل اخرى تختلف عنها في الشكل والجو والفكرة • لانها فقدت قيمتها العملية من خلال ذلك •



واما الجانب الثاني •• وهو علاقتها بالامتداد الديني في حياة الناس •• فاننا لا نمانع في تأثيرها العميق في ذلك في الماضي ولكننا نتساءل : هل يقدر للنتائج الدينية التي تنطلق من هذه الاساليب ان تتجمد عندها ، فلا تتنفس خارج نطاقها في أفق جديد وأسلوب جديد ، وهل نقف عن التفكير بتجديد الوسائل الكفيلة باعطاء هذه النتائج بشكل أفضل ومحتوى اعمق •• وماذا نفعل اذا جاءت بعض الظروف الشديدة القاسية فسيطرت على هذه الاساليب وقضت عليها •• هل تترك العمل الدائب الذي يفتش عن الجديد الذي يدعم الفكرة ويفسح لها مجال البقاء والاستمرار ونستسلم للرياح الهوجاء التي تعبث بنا في كل اتجاه •

هذه بعض علامات الاستفهام التي تبحث عن جواب ، لنحدد على ضوئه الموقف الحاسم ، ولن يكون الجواب الا رفض التوقف عند هذه الوسائل ، ليتجمد التطور العملي في الاساليب ، في هذه الاشكال وفي هذه المرحلة •• فان للدعوة في كل زمان اكثر من اسلوب ، واكثر من وسيلة ، فيجب البحث عما يمكن أن يحقق الاهداف الاساسية، ثم يفسح لها المجال لتعيش مع الوسائل القديمة المشوهة ، ليتعود الناس على الاجواء الجديدة فينشأ لديهم ذوق مرهف ، يألف الاشياء الجميلة الرائعة ، وينسجم مع الاساليب الهادئة الوديعة التي تنطلق في حياة الناس ، لترفع من مستواهم

الفكري ، وتربطهم بقضاياهم الكبيرة من خلال ما توحيه المعاني الحية التي تملأ العقل والروح والحياة •• وبذلك تزول الاساليب القديمة المشوهة عندما ينفر الناس منها فيتركوها بشكل عفوي طبيعي هادىء كما نجد حدوث ذلك بالتجربة عندما انطلقت الوسائل القديمة والوسائل الجديدة جنبا الى جنب في كثير من المناطق ، مما أدى الى زوال القديمة في بعض المناطق ، أو زوال جمهور كبير من جماهيرها في مناطق اخرى ، واقتصار اقامتها في بعض منها على التجار الذين ينتفعون باقامتها•• وهكذا استطعنا ان نعطي فكرة جيدة عما يمكن ان تحققه الوسائل الجديدة من أهداف او تجسده من معان •• وبذلك تتفادى سلبيات الصدمة العنيفة التي يحدثها العنف القاسي في طريق ازالتها من الوجود •

ثم اننا نعتقد ان الخوف من الضلال لا أثر له اذا انطلق من شخصيات معروفة بالدين والاستقامة مع القيام بحملة توعية وتوجيه في ضمن خطة مدروسة مركزة تشرح ظروف نشوء مثل هذه الاوضاع، مقارنة بالظروف الجديدة التي تقتضي استبدالها بأوضاع أخرى ، وربما كان للتقدم الثقافي والاجتماعي أثره في ذلك •

اننا نركز على ذلك من نقطتين مهمتين :

النقطة الاولى : ان قيمة المنهج الذي يلاحق هذه الاوضاع من اجل تجديدها ، انه يفسح المجال للتجديد وللتطوير في ظل الفكر الاسلامي الملتزم مما يجعله منطلقا في اتجاه التجديد من اجل الاسلام ، بينما يسبب أهمال ذلك نشوء الدعوة الى التجديد والتطوير من خلال مناهج الكفر والضلال ومحاولة القضاء على المبدأ من الاساس •

النقطة الثانية : ان يظل العاملون في سبيل الله ، في ملاحقة دائمة

للاساليب المتبعة في كل المجالات الدينية الفكرية والعملية ، ودراسة ألوانها المتنوعة ، من حيث توفر امكانات استمرارها في خدمة الهدف الكبير او فقدان مثل هذه الامكانات ، او اهتزازها بين ظروف البقاء وبين ظروف الزوال •• مما يحقق للعمل دراسة ميدانية واقعية تكتشف الخطأ في بداية وجوده او تستوحي الخطر قبل وقوعه •• وينطلق التجديد والتخطيط لعملية التغيير بهدوء ومعرفة •• تمهد للايجابيات بعيداً عن السلبيات •• وتلاحق المستقبل بالتوجيه والتوعية قبل أن تدركه أخطاء الماضي فتخنقه في مهده •• فلا يبقى هناك مجال للصدفة او المناسبة التي ينتظرها العاملون من اجل ان تقوم بعملية الانقاذ •

وقد يتمثل هذا المنهج المنحرف في اسلوب ممارسة بعض المبادىء العامة ، فيما يجري عليه بعض المسلمين في تعبيرهم عن المحبة لله، بالاسلوب الذي يجعل منه ــ سبحانه ــ موضوعا للغزل تماما كأي موضوع آخر في اسلوبه ومحتواه ، ويعتذرون عن ذلك بانهم يقصدون من ذلك الرمز للحالة النفسية التي يعيشها المؤمن تجاه ربه وربما تمثل ذلك بحلقات الذكر التي يعقدها المتصوفون او بعض مدعي الصوفية التي يرتفع فيها الوجد ويتعاظم حتى يعرض صاحبه للاغماء او لما يشبه الاغماء من اهتزاز وحركات شبه هستيرية ، تتردد فيها كلمة الله بطريقة مثيرة تتلاحق فيها الحروف تبعا لتلاحق الحركات العضوية للانسان •• وربما يتمثل هذا المنهج في طريقة الحديث عن سيرة النبي محمد (ص) وعن شعورهم تجاه النبي محمد (ص) في الفاظ غزلية تعبر عما يحس به الانسان ازاء النبي محمد من محبةخالصة وعشق عظيم بما يحس به العاشق ازاء معشوقه •• في علاقة شخصية خالصة •

واحسب اننا نرفض هذا الاسلوب في طريقة التعبير عن محبة الله او التعبير عن محبة النبي كما رفضناه في طريقة التعبير عن محبة اهل البيت

.. لان علاقتنا بالله هي علاقة العبودية التي يتمثل فيها الحب من خلال العمل ، الذي يحبه الله ويرضاه ، أو من خلال الكلمات الهادئة في دعاء الانسان لربه على المنهج القرآني الذي ارادنا القرآن ان تتبعه ونحتذيه في عملية ايحاء هادىء .. وذلك بمناجاة الانسان لله في حاجاته ورغباته ، وفي آلامه واحلامه ليدلل على ارتباطه بالله من خلال الشعور بالحاجة المطلقة اليه في كل شيء ، أو المناجاة التي يعبر فيها المؤمن عن الاعتراف بالذنب والرجاء للمغفرة والرضوان كدليل على رجوعه اليه في كل الحالات .. وقد ألمحنا ــ في فصل سابق ــ الى دلالة بعض الآيات القرآنية على ان التعبير عن الحب يتمثل في اتباع الارادة الآلهية التي يجسدها النبي كما في قوله تعالى : قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله .. وبهذا نستطيع ان نقرر ابتعاد مثل هذه الاساليب عما هو معروف ومألوف في المنهج الاسلامي الصحيح ..

اما علاقتنا بالنبي فهي علاقة اتباع الرسول من خلال الرسالة ، لا من خلال ذاته .. مما يجعل للرسالة مدلولها الوجداني والفكري والعملي في تقديسنا له وتعظيمنا لذكراه ، فلا معنى للصفات الجمالية التي نطلقها عليه في حسن الخلقة وروعة ، التكوين ولا معنى للاعلان عن الحب الذاتي من خلال المشاعر الذاتية لمعنى الحب ، بل ينبغي ان ننطلق في تعظيمه من خلال الصفات الرسالية او الصفات الذاتية المرتبطة بالرسالة والايحاء الدائم بالعلاقات الرسالية التي تجعل من ارتباطنا بالرسالة طريقا للارتباط به فكرا وروحا وعملا .. وبهذه الطريقة يجب ان تكون دراستنا للسيرة وقراءتنا لها .. لنخرج من ذلك بنتيجة كبيرة لمصلحة الثقافة الاسلامية او الالتزام الاسلامي بالحياة .

ان كل ما نريده في هذا الحديث هو توجيه التفكير الاسلامي والتربية الاسلامية الى نقد الواقع العملي للحركة الاسلامية في كل اسلوب وفي كل

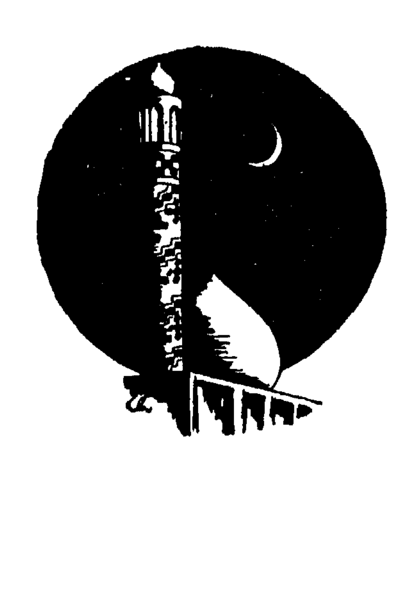
فكر ، وفي كل عمل ، بعيداً عن طبيعة الغوغائية التي ترفض مناقشة المألوف والمعروف لديها ، بحجة انه مناقشة للمقدسات الدينية ، لارتباط هذه الامور لديهم بالحقيقة الدينية •• فاننا نعتقد ان المقدسات الدينية هـي الحقائق الدينية الاصيلة التي تثبت امام النقد ولا تخضع في طبيعتها لاي اعتبـار آخر غير الحجة والدليل •• وبذلك نستطيع ان نحفظ الدين من كل مـا يعلق به ـ في مسيرته الطويلة ـ من شوائب وزوائد دخيلة فيه ، ونخلصه من الوقوع تحت رحمة العوام والجهال الذين يفرضون على الدين فهمهم السطحي او الخاطىء للاشياء الاساسية في الحياة •

ولعل مما يزيد القضية خطورة هو اننا نواجه في واقعنا الـديني ، التحديات العنيفة للدين بشكل عام وللاسلام بشكل خاص •• سواء فـي ذلك التحديات التي تواجه الفكر والمفهوم الديني للحياة او التي تواجـه الشريعة والقوانين التي تنبثق منها ، او التي تواجه التطبيق العملي لذلـك كله •• وقد يكون من بين هذه التحديات التي تواجهنا هي ما يثيره انصار الكفر والضلال ، من الضباب حول هذه الاوضاع الشاذة في ممـارستنا لبعض المبادىء العامة للدين ••

ولهذا فان مواجهتنا لها بالنقد والتأكيـد على عدم علاقتها بـالدين واعتبارها شيئا طارئا منطلقا من بعض المؤثرات الشخصية والاجتماعيـة وغيرها يساعد على الوقوف بوجه هـذه التحديات بحزم وقوة وتفـويت الفرصة على اولئك الذين يصطادون بالماء العكر ويساعد في الوقت نفسه على توضيح الصورة الاسلامية الحقيقية للمسلمين مما يجعل من كل مسلم قوة واعية تفتح عيونها على كل ما هو زائف وعلى كل ما هو اصيل ليستطيع مواجهة التحديات بنفسه على اساس المعرفة العميقة الواسعة •

واخيراً : اننا ملزمون بالدفاع عن الاسلام الذي نزل على قلب النبي

محمد (ص) وبلغه للناس .. وذلك هو المقياس الصحيح لسلامة اي عمـــل وقداسته .. اما الاشياء الاخرى التي لا تتجسد فيها الحقيقة الاسلاميـــة الخالصة ، لانها من الامور الزائدة المحرفة او المزيفة ، او لانها من الاساليب والوسائل التي تختلف في قيمتها وعلاقتها بالفكرة ، حسب اختلاف الاوضاع والاحوال الزمنية والاجتماعية فلسنا ملزمين بالاخلاص لها والانسجام معها في حياتنا فضلا عن الدفاع عنها .. لانها ليست من اصول الاسلام وليست من فروعه بل يجب ان تخضع للنقد والمحاكمة على اساس مـــن المـــوازين الاسلامية الصحيحة للحكم على صلاح اي شيء او فساده وبذلـــك نضمن للاسلام سلامته من التزييف والتحريف ، ونضمن لمقاييسنا ابتعاده عن الميل والانحراف .. ونضمن لحاضرنا ومستقبلنا ان لا يعيش تحت رحمة الاشياء المألوفة .. ليتحول الدين عندنا الى تقاليد وعادات لا قيمة لها في المجـــال الفكري الا من خلال شياعها بين الناس وتحولها الى واقع عملي مألـــوف لدى العامة من المجتمع .



هل الوجود الدولي للاسلام
هو كل شيء

ربما يكون من مظاهر الانحراف في اساليب التوجيه ، لـدى بعض العاملين للاسلام ، هو محاولة التركيز على الوجود الدولـي في الاسلام ، كمنطلق اوحد للعمل ، دون السماح للاساليب الاخرى بالسير في الاتجـاه العملي للاسلام .

وبكلمة اخرى : ان هناك فئات من العاملين تشجب كثيرا من الاعمال الاصلاحية في مجال الدعوة ، وترى ان من مهمة الداعية أولا . هو الاعداد لملء الفراغ النفسي المرعب الذي يعانيه الانسان المسلم من خلال ممارسته لازمة الحكم وشعوره بالضياع تجاه الاشكال المتعددة للحكم اللااسلامي، وذلك باثارة قضية الحكم الاسلامي امامه ، أملا يعيش له ، وهدفا يعمـل من اجل ان يتحقق ، الامر الذي يركز لـه شخصيته ، ويعمق في داخلـه الاحساس بدورها المنتظر في بناء الحياة .

ونحن لا نمانع في التأكيد على هذا الجانب الـذي يوقظ حركيـة الاسلام في العمل ، لا سيما ان قضية الحكم اصبحت تمثل الاطار الـذي يضم كل دعوة او عقيدة كاملة ، بحيث عادت ضرورة حية لاثارة الاهمية بها لدى المجتمع الذي يرى في الفكرة التي لا تعيش للحكم ، شيئا قلقـا لا يعمل الا لتجزئة حياة الانسان في نشاطات اخلاقية فردية واجتماعيـة لا تحل مشكلة ولا تشارك في مصير .

ولكننا لا نرى سلامة الاسلوب الذي يتعمد اغفال القضايا الاخرى التي تفسح للانسان مجال الالتزام الفردي باحكام الاسلام وتعاليمه، كهدف مرحلي يستهدف افساح المجال لتحرك الاسلام في الاتجاه الـذي يحـاول اغناء الفرد روحيا وفكريا بالمضمون الحي للاسلام ، لئـلا يعود الانسان المسلم مجرد صوت يرفع قضية ، او كف تحمل لافتـة ، او حركة تحمـل شعارا من دون ان يحس بحرارة الفكرة في داخل الوجدان ، وحلاوة الكلمة في دعوة الايمان •

اننا لا نشجع اغفال هذه الحركة العملية في داخل الانسان المسلم لئلا يعود مجرد مفكر يفكر للاسلام ، لا يتحول تفكيره الى التزام ، او تخطيطه الى عمل •

أما السبب في ذلك ، فاننا نعتقد ان للاسلام وجودين ، احدهمـا في اطار الدولة ، وثانيهما في الاطـار الفردي والاجتماعي ، وبذلك يختلـف الاسلام عن غيره من المبادىء الفكريـة والاجتماعية السائدة فـلا يمكن للانسان المسلم ان ينتظر قيام الدولة الاسلامية ليطبق الاسلام على نفسه في حياته الفردية والاجتماعية ، بل لا بد له من ان ينسجم مع المفاهيم الاسلامية في جميع شؤون حياته ، وادوارها ليحقق طبيعة المسلم (الفرد) في طريق تكوين المسلم (المجتمع في اطار الدولة) •

ولعل الاساس في ذلك ، ثابت في طبيعة التصور الاسلامي للحياة التي يريد ايجادها وتركيزها من حيث انطلاقها من داخل الذات السائرة ابدا في خط العقيدة ، لا من طبيعة النظام العام الذي تقره السلطة ، ولهـذا لـم يجعل وجود السلطة شرطا اساسيا لتطبيق الاسلام في حياة الفرد والمجتمع بل اعتبر التكليف نافذ المفعول حتى في حال غياب السلطـة الحاكمة ، او انحراف الحاكم ، ولم يكن ذلك الا لان الاسلام يؤمن بالاهداف المرحلية

في مجال العمل والتطبيق ، فاذا لم يمكننا بلوغ الهدف الكامل من التشريع في اطار تطبيق النظام الاسلامي بجميع خطوطه وشرائعه فقد نستطيع بلوغ بعض مراحل هذا الهدف على الصعيد الفردي والاجتماعي ، وبذلك نكفل للاسلام استمرار مسيرته في حياة الانسان في جميع الظروف والحالات كدين يبني للانسان ضميره ويرعى حياته .

ونعود فنقرر ونؤكد : اننا لا نهدف من ذلك كله الى ان يتقاعد الانسان المسلم عن العمل الهادف الى اعادة الاسلام الى مكانه الطبيعي في قيادة الحياة ، بل نريد ان نقرر : ان هذا الانفتاح الاسلامي على حياة الانسان في جميع الاحوال والظروف يدفع المسلم الى البقاء في الخطوط الدقيقة للاسلام والالتزام بمبادئه وتعاليمه من دون انتظار للاشارة التي تعلن قيام الحكم الاسلامي .

وكمثل على ذلك .. نجد ان المبادىء والتيارات الحديثة التي تحاول ان تنظم حياة الانسان في اطارها العقيدي ، تلزم الانسان بالسير في خطها العام قبل ان تتسلم السلطة ، لان الفكرة — في مفهومها — لا تستطيع الحياة الا في داخل هذا الاطار ، فلا فائدة في الالتزام الفردي بحدودها المعينة في اطار يختلف عنها اختلافا كبيرا لان ذلك لن يقدم او يؤخر شيئا في هذا الموضوع .

وعلى هذا الاساس ، فلا مانع للانسان الاشتراكي أن يمارس دور الرأسمالي في حالة غياب الاشتراكية عن الحكم لان دوره يمثل حلقة من سلسلة متصلة فلا يعطي النتيجة المطلوبة بشكل مستقل ما لم ينضم اليها ...

اما الاسلام فلا يمكن ان يسمح للانسان المسلم ، مهما كانت الظروف والاحوال ، بان يمارس الربا في المجتمع الرأسمالي بل يريد منه ان يبقى على

التزامه الشرعي في جميع علاقاته ، فاذا كان هناك مجال للرخصة ، او سبيل للتسامح ، فلن يكون ذلك في اطار الربا من حيث الشكل والمضمون ، بل يحاول ان يوجد له صيغة قانونية اخرى تبتعد به عن السير في هذا الاتجاه وليس ذلك الا ليحفظ للانسان نظافته الداخلية ، والتزامه الفردي ، قبل ان يدخل في المجتمع ليكون عضوا فيه ، لان مجال الاسلام ليس هو الفرد وحده ، ولا المجتمع وحده ، بل الفرد في اطاره الذاتي والاجتماعي، وكذلك المجتمع ، كافراد يحاولون ان يندمجوا في الكل ، وككل يهدف الى ان يرعى الاجزاء من الانحراف والذوبان والتلاشي في غمار الضياع .

وبذلك نتخلص من النماذج الاجتماعية التي تعتذر عن عدم التزامها الاسلامي بانتظار الحكم الذي تدعو اليه حيث يستطيع ان يطبق الاسلام بجملته على الافراد بما يقدمه من اجواء نظيفة يستطيع الانسان — معها — بان نتنفس روحانية الاسلام فيحمي خطاه من الانحراف والزلل .

اننا نعتقد ان من واجب العاملين للاسلام ، ان يستثمروا اي مجال للنشاط الاسلامي ، فيندفعوا فيه وان لا يجمدوا العمل في نقطة معينة ، ليظل العمل حرا في حركته ، ينتقل من جو الى جو ، ومن مجال الى مجال ، ليعطي كل دور القوة للدور الآخر ، وتتجمع كل الادوار لتسند او تدعم الدور الكبير الذي ينطلق ليستوعب الحياة كلها في الفكر والعقيدة والتشريع ، وليحكم الحياة على اساس كلمة الله وشريعته .

الفصل السابع

مع النبوة في أساليبها ودروسها

١ ـ التجربة النبوية وكيف ندرسها .
٢ ـ دروس الدعوة في حياة الانبياء .
٣ ـ دروس الدعوة في حياة النبي محمد (ص) .
٤ ـ مخاطبة الامة في القرآن من خلال النبي .

الحركة النبوية
وكيف ندرسها ؟

لم يكن العمل الاسلامي بدعا من الاعمال .. لنبحث له عن جـذور جديدة ، او بالاحرى ، لنعمل من أجل ان نمد له جذوره في اعماق الحياة ، بل هو امتداد للعمل الرسالي الذي تمتد جذوره الى الاعماق البعيدة فـي غور التاريخ ، لانه يرتبط بتاريخ الرسالات والنبوات الغنية بالتجـارب العملية في مجال الدعوة ، اسلوبا وحركة وجهاداً وتضحية في سبيل اللـه ، ويرتبط بالرسالة الاسلامية في حركتها المنطلقة في حياة النبي محمد (ص) في رسالته وجهاده وتضحيته وطريقته في الحياة وفي اسلوب العمل وطريقـة التبليغ ، وفي حياة الائمة والصحابة والمجاهدين والعلماء العاملين والدعـاة المسلمين في كل زمان ومكان ...

واذا كان للعمل هذه الجذور العميقة الممتدة ، من حيث هو حركـة دينية اسلامية ، فلا بد لنا من ان نلتفت الى كل التجارب الماضية في مجـال الحركات الرسالية ، ولا نغفل ما رافقها من نكسات وانتصارات وما تبعهـا من ارباح وخسائر وما طرأ عليها من مفاهيم موافقة للخط الرسالي او مخالفة له .. وما حدث فيها من انقسامات على اساس اختلاف الفكر ، او اختلاف الموقف ، او اختلاف المصالح والاطماع ، .. فقد يكون لذلك كله تـأثير على طبيعة العمل في اطار الفكرة او على طبيعة الحركة في اطار الاسلوب ، او على طريقة الممارسة في نطاق التطبيق ، لان ذلك يمثل بعضا مـن ثقافة افراد الامة ومن انتماءاتها ، ومن رواسبها المختفية في اللاشعور التي تترك

بصماتها على حركة العمل المعاصر تبعا لخضوع الانسان المسلم لتلك التأثيرات ولان ذلك من جهة اخرى ، يرسم للفكرة الدينية صورتها في وعي الناس وفكرهم ويولد لهم المشاعر المتناقضة تبعا لتناقض الصور التاريخية، للتجربة الدينية المتنوعة ، ويحدد لهم مواقفهم الايجابية والسلبية على اساس ذلك ولان ذلك يمتد فيعمق الفكرة وشمولها، فيغنيها بالحياة، تارة من خلال اتجاه او تفسير او تجربة حية ، ويفقرها ، تارة من خلال الاتجاهات التي لا تملك الغنى الروحي في المعاني الحية للحياة وقد يجمدها في بعض المفاهيم والافكار ويحركها في بعض آخر .. وربما يعزلها عن الامة في جانب او يدخلها ، في جانب آخر ، الى صميم حياتها . وهكذا يبقى للتاريخ الرسالي بكل جوانبه المشرقة والمظلمة دوره الكبير في حركة الرسالة وامتدادها في نطاق الحاضر والمستقبل ..

فكيف نواجه ذلك التاريخ ، وكيف نرتبط به وكيف نستفيد من تجاربه ...

ذلك هو السؤال الذي يواجهنا في هذا الحديث .. ونحاول الاجابة عنه ... ولكن لا بد لنا ــ قبل ذلك ــ من استعراض الاسلوب الذي نعالج فيه ، ذلك التاريخ والطريقة التي نحاول ان نستخدمها في فهم قضاياه ...

اننا نلاحظ اننا ندرسه بشكل تقريري جامد ، ينقل القصة من خلال استيحاء قداسة الرسول لا قداسة الرسالة او بالاحرى من خلال تنفيذها بشخصية صاحب الدعوة ، من غير التفات الى حركة الرسالة وشخصيتها في حركته وشخصيته .. وفي هذا الجو ، تبدأ القصة كسيرة ذاتية للرجل لا للرسول ــ حتى ان الرسالة ، تمثل ، في طريقة العرض ــ حدثا من احداث حياته الخاصة ، اما اخلاقه واساليبه في العمل فهي من مميزاته الفريدة التي لا يمكن لاحد ان يبلغ شأوها ، او يقترب من مستواها ، فلذا،

فلا مجال لدى هذا الاتجاه ، من الاحتـــجاج على اتباع الاسلام بـــاخلاق النبي واعماله ، لان تلك المميزات مـــن خصائصه الذاتيـــة وليست ميزة اسلامية يمكن للآخرين ان يحتذوها ويقتدوا بها في حياتهم العامة كمسلمين يعملون على التدرج في مدارج الكمال ...

وقد شارك هذا الاتجاه ، في تركيز العلاقة بين الانبياء واتباعهم على اساس شخصي ، مما جعل التقديس الروحي يتجه الى الاشخاص ، اكثر مما يتجه الى الرسالة .. فنراهم يمارسون الكثير من الطقوس التـــي تمثـــل الاخلاص للنبي ، في الاحتفال بذكراه وزيارة قبره ، بينما لا نجد مثل هذا الاهتمام في ممارستهم لواجبات الرسالة وطقوسها والتزاماتها .. وقد تطور هذا الوضع الى نشوء نوع من انواع المدح النبوي الذي يتغزل فيه المادح بحسن النبي وجماله ويقف ليبث فيه وجده ولوعته وشوقه تماما كما يتغزل اي حبيب لحبيبه فلا تشعر بالرسالة ، في هذا الجو ، الا من خلال الجانب الذاتي الذي يثيره الغزل ... واصبحت هذه القضية ظـــاهرة عامة في كل الارتباطات النفسية التي يشعرون بهـــا ازاء الانبياء والاولياء والعلمـــاء والائمة ، فان القضية تبدأ بالارتباط بالرسالة التي تربطهم بالرجـــل مـــن خلالها لتنتهي بعد ذلك الى الارتباط بالرسالة من خلال الرجل ، او الـــى الارتباط بالرجل فقط ، كما نلاحظه في الطريقة العملية والتربوية في توجيه كل المشاعر والاحاسيس الى الذات المقدسة في علاقة حب شخصي لا دخل له بالدين ، الامر الـــذي نلاحظ فيه ، انهم يثأرون للتعـــدي على كرامـــة الشخص بالسب او الكلام المهين من قبل الاعداء ولا يثأرون للتعدي عـــلى الدين او على ذات الله العظيمة المقدسة ، بالسب والشتم بل وربما يمارسون ذلك في سلوكهم الخاص عن قصد او غير قصد ..

وقد اصبح من المألوف ان نجد هناك خلافات حادة بين العلماء او بين العامة من الناس حول تفضيل هذا النبي على ذاك النبي او تفضيـــل احـــد

الائمة على نبي او اكثر من نبي ، او المقارنة بين منزلة السيدة مريـم بنت عمران (ام المسيح) وبين مقام السيدة فاطمة الزهراء (بنت الرسول ص) ... لان القضية تحولت الى شيء يرتبط به الزهو الذاتي بالانتماء الى هذا الشخص او ذاك او هذه او تلك .. مما يجعل لمسألة المفاضلة والتقييـم دورا كبيرا في الموضوع .. والا فما معنى كل هذا الحديث ... وما أثره ...وهل يعدو الا ان يكون ترفا فكريا لا فائدة منه، او عبثا فارغا لا طائل تحته ،.. ان هذا الاسلوب التقريري التقليدي في فهم علاقاتنا بالرسول هو الذي أدى الى هذه النتائج الفكرية والعملية .. لاننا لم نشعر بالرسالـة وهي تتحرك في مراحل القصة وادوارها بل كان كل شعورنا يتركـز على الرسول ، وهو يتحرك ، فتتحرك الرسالة من خلاله ، لتفهم تبعا لفهمـه ، وهذا ما نتحفظ فيه ، ونرفضه انطلاقا من منهج القرآن الكريم الذي كان يتحـدث عن الرسول من خلال الرسالة ، سواء في ذلـك في اخـلاقه او محاوراته ، او في حربه وسلمه ، وعلاقاته بالناس وبأهل بيته وازواجه ... ثم اطلق الفكرة الاسلامية الواضحة التي تدفع المسلمين الى الانتماء الـى النبي من خلال صفته الرسالية ليكون الانتماء الى الرسالة بالذات وذلـك في قوله تعالى :

مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِن رِجَالِكُمْ
وَلَكِن رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ
٣٣ : ٤٠

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ
قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ
عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ

فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ
الشَّاكِرِينَ ٣ : ١٤٤

ونجده في حديثه عن الانبياء الذين تقدموا على النبي محمد (ص) في الزمان .. ينطلق من الفكرة التي لا تخرجهم من اطار البشرية ، الا في نطاق الرسالة وارتباطهم المباشر بالله ، من طريق الوحي ،.. فهم يمرون في حياة الناس مروراً خفيفاً ، من خلال رسالتهم التي هي رسالة الله وارادته الخالصة في الحياة ، فهي التي تبقى وتخلد ، اما هم فسيموتون كما يموت سائر الناس ، ولذلك فانهم يعملون لتحقيق ارتباط الناس بالرسالة لا بهم بالذات ، الامر الذي جعلهم لا يتحدثون عن انفسهم الا من خلالها ولا يوجهون الناس الى اي نوع من انواع التقديس الذي اعتاده الناس في اية كلمة او اشارة عمل مما استحدثوه من بعدهم من دون ان يكون لهم دخل فيه .

وقد نجد ذلك في الآيات التي تتحدث عن حوار نوح مع قومه .. حيث نلاحظ انه وقف امامهم وقفة الرسول الناصح الامين الذي يبلغهم رسالات ربه ولا يملك لنفسه أي شيء خارج هذا الاطار ولا يستطيع ان يغير او يبدل في مهمته وفي التعليمات الموجهة اليه لانه يخاف من المسؤولية ومن العقاب تماما كأي مسؤول آخر يتجاوز حدود مسؤوليته او يتمرد عليها ...

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ إِنّي
لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنْ لاَ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ
إِنّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ
فَقَالَ الْمَلأُ الّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ

مَا نَرَاكَ إلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إلاَّ الَّذِينَ هُمْ أرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ . قَالَ يَا قَوْمِ أرَأيْتُمْ إنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أنُلْزِمُكُمُوهَا وَأنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ وَيَا قَوْمِ لاَ أسْألُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إنْ أجْرِيَ إلاَّ عَلَى اللهِ وَمَا أنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إنَّهُمْ مُلاَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ وَيَا قَوْمِ مَنْ يُنْصِرُنِي مِنْ اللهِ إنْ طَرَدْتُهُمْ أفَلاَ تَذَكَّرُونَ وَلاَ أقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلاَ أعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أقُولُ إنِّي مَلَكٌ وَلاَ أقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْراً ألله أعْلَمُ بِمَا فِي أنْفُسِهِمْ إنِّي إذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ ١١ : ٢٥ ـ ٣٢ .

فاننا نلاحظ انه لم يحاول ان يربطهم بذاته من خلال اي شيء غير عادي ، بل حاول ان يبعدهم عن احتمال اي شيء من هذا القبيل ، مما اعتاد الناس ان يظنوه او يرغبوه او يزعموه للانبياء من قوى خارقة مادية وروحية .. ثم انطلق يدافع عن موقفه من اتباعه الفقراء ، من موقع الرسالة

التي تحترم اتباعها ، ومن مركز الرسول ، الذي لا يخذل المؤمنين ، بل يخشى الله لو أراد ان يفعل ذلك خضوعا لضغط القوى المسيطرة في المجتمع •

واذا تتبعنا القرآن الكريم عن الانبياء لوجدنا نفس الفكرة ونفس الروح ونفس الاسلوب ••

وعلى ضوء هذا نبدأ الجواب عن السؤال : كيف نواجه ذلك التاريخ •• فقد نجد اننا نواجهه كتاريخ للرسالة التي نحملها ، من حيث تجسيده للتجارب الاولى في حركتها الصاعدة ، ومن ثم فان علينا ان ندرسه بالروح التي تعمل على ان تستلهم تجاربه الناجحة ، في تجاربنا العملية ، ونستوحي من خطواته المتعثرة ما يجنبنا من الوقوع في عثرات الخطوات المماثلة ، مع استبعاد القضايا التي تخضع لحدود الزمان والمكان فلا تمتد الى غير مرحلتها الزمانية ، ولا تتسع لغير ظروفها المكانية •• لتبقى لنا النتائج العامة الشاملة التي تحتضن كل تطورات الحياة ، وتظل في عناصرها الاساسية فوق قوانين التغير والزوال • لانها تخاطب الانسان في حدود انسانيته وجوهرها الاصيل •

وفي ضوء ذلك لا تعود شخصية النبي في نطاق التاريخ ، مجرد شخصية تاريخية مقدسة نتعاطف معها في خشوع كما يتعاطف الانسان مع مقدساته في غيبوبة صوفية غائمة ، تجتر الالفاظ والعواطف والمعاني التقليدية ، بشكل تقليدي ممل •• بل تعود الى وعينا ، لنمثل دور القوة الفاعلة المحركة للرسالة في حركة التاريخ ، فتكون صلتنا بها صلة رسالية سواء في ذلك جانب الفكر وجانب الشعور •

وتشمل دراسة التجربة ، في هذا المجال ، عناصر النجاح في شخصية النبي الداعية ،من حيث هي عناصر لنجاح الدعوة وعناصر الفشل ، فيطبيعة

الواقع الموضوعي الذي يحيط بالتجربة من حيث هي عقبات امام تقـدم الدعوة ونموها واساليب الدعوة ، وطريقة العمل ، ونوعية الحركة ، ومـا تشتمل عليه من ايجابيات وسلبيات وتنويع المؤثرات التي تحكم التجربة ، في اسلوبها العملي ، باستبعاد المؤثرات الآنية المنبثقة عن الظروف الموضعية المحدودة ، واستبقاء المؤثرات المنطلقة من طبيعة الدعوة ، ثم دراسة ردود الفعل الناتجة عنها •• وتأثيرها على سير الدعوة في مناطقها التـي تحركت فيها ، وفي خارجها •• وفي انعكاس النجاح والفشل على شخصية اتبـاع الدعوة واعداءها ، وعلى امتدادها الى خارج حدود الزمان في أجيال جديدة ومواقع متقدمة •

وقد ينبغي لنا التأكيد في هذا المجال على جانب الصمود والصبر في التجربة النبوية ، بتصوير الاوضاع الصعبة والظروف القاسيـة ، والوان السذاب والاضطهاد والتنكيل ، والاساليب المتنوعـة من الحرب النفسيـة المتمثلة بالسخرية والاستهزاء والتخويف والتهويل •• وغير ذلك من الامور التي كان يعانيها الانبياء واتباعهم •• من طغاة عصرهم من القادة واشياعهم •• فقد نخرج من التأكيد على هذا الجانب والافاضة فيه بفوائد ثـلاث : الاولى : التركيز على قيمة الدين في اغناء المؤمنين بالرصيد الروحي الكبير المتصل بالله ، الذي يشحنهم بالقوة على مجابهة مواقف الاضطهـاد بالصبر الهادىء ، والنفس المطمئنة ، وعلى الارتفاع بالمشاعر القوية فـوق حدود المأساة ، فلا تملأ المأساة ــ التي تحيط بهم ــ عيونهم بالدموع ، بل تملأ قلوبهم بالرضا ، وعيونهم بالفرح الروحي ، ومواقفهم بالاصرار على تحويل المأساة في واقعهم الذاتي الى تجربة تتحرك لمنع حدوث المأساة فـي حيـاة الآخرين ، الثانيـة : الايحاء للدعاة المسلمين بواقعية المـواقف الصامدة الصابرة ، وقيمتها في تحقيق النتائج الايجابية في نهاية المطاف على اساس من التجربة والايمان •

الثالثة : اغناء التاريخ الرسالي الحركي بالابطال في حركة النبوات ، سواء في ذلك ما يتمثل في بطولات الانبياء او في المواقف البطولية لاتباعهم من المؤمنين • فاننا نشعر بالحاجة الملحة الى الابطال التاريخيين الذين يمتزج فيهم جانب البطولة بجانب القداسة ، او الذين تجتمع فيهم معاني البطولة ومواقف التضحية في نطاق العقيدة لئلا نحتاج الى استعارة اسماء ابطال آخرين لا يمثلون خط الرسالة ، في اساليبنا التربوية التي تعتمد في بعض مجالاتها ، على أسماء الابطال ومواقف البطولات ليجتمع للامة عنصر القدوة الى جانب عنصر الفكرة •

وقد كان من بين الاهداف للقصة في القرآن الكريم ، هو تثبيت النبي والذين آمنوا معه على ما كانوا يلاقونه من العذاب والاضطهاد والحرب النفسية ، بالاسلوب الاستعراضي لتاريخ النبوات السابقة •• ونتائج مواقفها الصامدة الصابرة ، ليجدوا في ذلك العزاء والامل بالنصر من جهة من خلال الواقع التاريخي ولينفتحوا على ما في الايمان بالله من غنى روحي يبعث الحياة والطمأنينة والسكينة في قلوب المؤمنين •• كما نجده في الآيات التالية :

١ ـ وَلَقَدْ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ ٦ : ١٠

٢ ـ قَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِينَ يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنْ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ وَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا

وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِي نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ٦ : ٣٣ — ٣٤

٣ — وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ١١ : ١٢٠

٤ — وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ٢٢ : ٤٢

٥ — وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً ٢٥ : ٣١

٦ — وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ٤٣ : ٦

٧ ـ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا
إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا
إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ
وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا
دَاوُدَ زَبُوراً وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ
عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ
عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً رُسُلاً
مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ
عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ
عَزِيزاً حَكِيماً ٤ : ١٦٣ ـ ١٦٥

٨ ـ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ
عَدُوّاً شَيَاطِينَ الأِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي
بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ
غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ
وَمَا يَفْتَرُونَ ٦ : ١١٢

فاننا نلاحظ في هذه الآيات استعراض اساليب الاستهزاء والايذاء والتكذيب ، بشكل عام ، التي قوبل بها الانبياء السابقون من قبل شياطين الانس والجن ، فكانت مواقفهم تتمثل بالصبر والصمود ، حتى جاءهم النصر من عند الله ... لتوحي للنبي أولا ، من خلال الايحاء اليه ، بأن عليه ان يكون امتدادا لهذا التاريخ العظيم ، والا فليحاول ان يبتغي نفقا في الارض او سلما في السماء لان ذلك هو سنة الله في الحياة في رسالاته

وفي رسله ، ولن تجد لسنة الله تحويلا ولن تجد لسنة الله تبديـلا ، فلا رسالة الا بجهاد ولا جهاد الا بصبر وارادة وتصميم .

★ ★ ★

ولعلنا نخلص ــ من هذا العرض الطويل ــ الى النتيجة العملية في الدراسات الدينية التي يحتاجها الداعية في ثقـافته الذاتية ، وفيما يقدم للآخرين من عطاء ثقافي اسلامي ، يستهدف ربط حركة الدين الحـاضرة بالحركة الدينية الممتدة في أعماق التـاريخ .. وذلك في قصص النبيين كتجربة للدعوة وكمنطلق للحركة وكموقف للتنفيذ .. مع مقارنة واعية، بين واقع الرسالات في تصوير القرآن لها بالصورة الدقيقة المشرفة ، وبين ما أضيف اليه من تزوير وتشويه وتزييف ، في التـاريخ الموضوع الذي أريد له ان يقدم لنا الصورة المشوهة القاتمة لحركة الرسالات ولشخصية الرسل ...

اننا نؤكد على هذا الجانب الثقافي من دراساتنا الدينية ، لانه يمثل احد العناصر الحية لبناء الشخصية الثقافية الدينيـة ، فيمـا تملكه من انطباعات ، وفيمـا تحمـله من تصورات ، وفيما تؤمن به من تفاصيـل العقيدة ..

وقد يبدو للبعض من الناس ، ان هذا الجانب القصصي ، لا يرتبط بنا بشكل مباشر لان علاقاتنا بالانبياء السابقين تقتصر على الايمـان في مستوى اخذ العلم والخبر بوجودهم وبرسالاتهـم من دون ان يكون لذلك أثر عملي في حياتنا العامة والخاصة ، لان علاقتنـا الرسالية تبـدأ وتنتهي بالنبي محمد (ص) وبرسالته وشريعته، فهي المنطلق الوحيد لنا من ناحية فكرية ، وهي المصدر الاساسي من الناحية التشريعية ..
ولكننا نرفض هذه الفكرة لان القرآن الكريم قد أكد على وحـدة

الرسالات ، كما اكـد على وحدة الايمان بالرسل ، كما يشهد بقـوله تعالى :

قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا
وَمَا أُنْزِلَ إِلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ
مُوسى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيّونَ مِنْ
رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ
وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ٢ : ١٣٦

وبهذا فان المسلمين يتبنون كل ما جاء به الانبياء مما حدثنا عنـه القرآن الكريم والسنة الصحيحـة الا ما ثبت نسخه لارتباطـه بظروف موضوعيةمحدودة بزمان ومكان معين، لان الاسلام يتبنى ذلكويزيد عليه انسجاما مع كلمة النبي محمد (ص) « انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق »٠ وقد عرفنا في بعض من الحديث المتقدم السر الذي يربط الحركة الدينية المعاصرة بحركة الدين في التاريخ ٠٠٠ الامر الذي يجعل من الخطأ في فهم هذا التاريخ ، انحرافا في فهم الاسلام ومن النقص في هذا الجانب الثقافي نقصا في الثقافة الاسلامية لدى الداعية المسلم ٠٠ في المضمون والاسلوب هذا في تاريخ التجارب الرسالية الدينية من وجهة عامة ٠٠٠

اما قصة التاريخ الاسلامي ، والتجربـة الاسلاميـة النبوية ، وما يتفرع عنها من تجارب الائمة والصحابـة والتابعين فان لنا منها موقفـا آخر ، باعتبارها التجربة الام لكل حركـة اسلامية سابقـة ولاحقـة ، والينبـوع الصافي الذي يرتوي منـه الظامئون الذين يعانون من ظمـأ المعرفة المحـرق الذي يحس به كل من استقبل الحيـاة بدعوة الاسلام وواجه مشاكلها بحلوله ، مما يجعله يواجه في كل مشكلة جديدة رغبـة

شديدة في معرفة طبيعة الحل ، من خلال الينابيع الاولى ، والجذور الثابتة في اعماق الارض ..

اما تجربة النبي محمد (ص) بالذات فهي شريعة اسلامية ، لان عمله رسالة ومصدر تشريعي كما ان قوله رسالة ومصدر للشريعة .. انطلاقا من الآية الكريمة التي تدعونا الى التأسي به والاقتداء بعمله :

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ
أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ
وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً ٣٣:٢١

ولقد جاء القرآن الكريم ليؤكد لنا على عمق هذه التجربة ودورها الكبير ، فقد كان يرعاها ويوجهها بالتأييد تارة وبالنقد اخرى ، والايحاء بالتوجيه الروحي والعملي في مجالات اخرى حتى تحول القرآن الى وثيقة أمنية مقدسة للتجربة الاسلامية الرائدة ، فقد جاء في السيرة النبوية الشريفة ان النبي كان يواجه المشكلة في حياة المسلمين ، في شؤون الحرب والسلم .. وكانت المشكلة تتفاعل في واقعهم حتى تتحول الى قلق ينتظر كلمة النبي الذي كان ينتظر كلمة الله .. وربما تمتد القضية الى وقت غير قصير .. والنبي ينتظر ، والمسلمون ينتظرون وربما يبدو من بعض المسلمين الرأي الذي يحلو للآخرين فيتحركون للتنفيذ ، ويهم النبي بموافقتهم على ما يريدون فينزل الوحي بعد ذلك ليصحح الخطأ الذي وقعوا فيه ، أو يبارك الخطوة التي ساروا عليها ، ويحل لهم المشكلة التي تخبطوا فيها .. وبهذا كانت كل آية تمثل موقعة حرب او واقعة سلم او خلافا وقع بين المسلمين انفسهم ، أو بينهم وبين الكافرين ، حتى اوضاع النبي العائلية ومشاكله الخاصة .. كان لها جانب كبير في القرآن لانها تمثل تجربة اسلامية رائدة في السلوك العائلي للأسرة المسلمة في مسؤولية

رب العائلة امام أسرته ، ومسؤوليتهم أمامه ... وقد جاءت الآية الكريمة التي ترد على سؤال او اعتراض بعض الناس حول السبب في نزول القرآن آيات متفرقة ، وعدم نزوله دفعة واحدة ككتاب شامل ...

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ
عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ
لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً
٢٥ : ٣٢

قال في مجمع البيان [١] : « اي لنقوي به قلبك فتزداد بصيرة وذلك انه اذا كان يأتيه الوحي متجددا في كل حادثة وفي كل أمر كان ذلك أقوى لقلبه وأزيد في بصيرته » .

وقد نواجه في القرآن الكريم المواقف الحادة الحاسمة التي كانت تواجه النبي والمسلمين ، بحساب المسؤولية الدقيق فيما يأخذون وفيما يتركون ، حتى انك لا تشعر ، وانت تقرأ الآيات الكريمة في هذا المجال بالاجواء الهادئة الساكنة التي تلف الواقع ، بل تنفجر أمامك الاجواء لتراقب بقلق واهتمام ، امكانات الانحراف امام حالات الضعف ، فتبادرها بالتهديد والوعيد او باللوم والعتاب او بغير ذلك من الاساليب التي تنطلق من الله سبحانه في خطابه الى النبي ، كايحاء للامة .. مما يجعلك تعيش جو الدعوة وهي تتحرك في نطاق المسؤولية ، تماما كأي داعية امام أي مسؤول ، فيوحي اليك بأن قصة الرسالة لا تحتمل المجالات الشخصية والحسابات الذاتية لانها قضية الانسانية التي لا يمكن ان تستجيب لأي انفعال عاطفي على حساب مصالحها الحيوية ، مهما كانت

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن ج ٧ ، ص ١٦٨ ــ طبعة صيدا .

الظروف والاعتبارات والاشخاص « وقد قدمنا الحديث عن هذا الجانب في فصل سابق » .

وربما كان من القضايا التي يجب ان تتوفر عليهـا في دراستنا .. طبيعة المجتمع الذي عاش فيه النبي في بدء الدعـوة ، وعقائده وثقافته وعلاقاته وطريقة مواجهته للاحداث ، وأسلوبه في الجـدال .. لنستطيع فهم التجربة النبوية بشكل عميق مستوعب ، ونفهم ـ الى جانب ذلك ـ كيف يمكن لنا ان ننقل هذه التجربة الى حياتنا عند مواجهتنا المجتمـع الذي نتحرك فيه فيما اذا كانت الاوضاع والمعطيات العامة متوافقـة في سلوك كلا المجتمعين مع استبعـاد المؤثرات الخاصة التي تحكـم بعض الاساليب المطروحة في التجربة ..

وربما تظهر قيمة هذه الدراسة ، في تحديدنا الخطوط الفاصلة بين النظرية والتطبيق، فقد تنطلق التجربة في سلوك النبي من حيث هو مشرّع يرسم خطا عريضا لا يخضع للحدود المعينة التي تحدد الفكرة في اطـار المناسبة وقد تنطلق في سلوكه ، من حيث هو داعيـة ينطلق في حركتـه من دراسة المبدأ والواقع في عمليـة تطبيقية تستمد عناصرها من الظروف والاوضاع الآنية المحيطة بالتجربة .. وقد تتمثـل في التجربة سلوكيـة الحاكم الذي يتحرك من خلال السلطـة التنفيذية الممنوحة له من الله بما أراه من وجه الحق في القضية ..

ان علينا ان ندقق كثيرا في هذه الجوانب عندما نريد ان نقرر أي حكم او مفهوم او موقف على اساس التجربة لئلا نقع في خطأ الخلط بين جهات انطلاق التجربـة من حيث الصفات المتنوعـة التي تحكم شخصية النبي الذي اجتمع له ما لم يجتمع لنبي قبله ، من الصفات العمليةفقد كان يتحرك من خلال صفة الرسول والداعية والمشرع والحاكم ، ولكل واحدة من هذه الصفات اسلوب يختلف عن اسلـوب الآخر وحكم يختلف عن حكمه ...

* * *

وقد يكون من بين القضايا التي يجب ان ندرسها في التجربة الاسلامية الاولى ، هي التفرقة بين تجارب النبي بالذات التي مارسها بنفسه ، او أقر عليها غيره ، وبين تجارب غيره من المسلمين في عهده ، وبعد وفاته ، لان التجربة النبوية معصومة من الخطأ لا سيما في مجال الدعوة بينما لا مجال للقول بعصمة تجارب غيره ما لم تكن مقرونة بموافقته واقراره (الا في أئمة أهل البيت علي وأولاده الاحد عشر الذين يقول الشيعة الامامية بعصمتهم) .. فلا بد من عرض هذه التجارب على المبادىء الاسلامية العامة ، وممارسة عملية الاجتهاد فيها ، لنستطيع اعتبارها تجربة اسلامية رائدة للحركات الاسلامية الاخرى .. والا فان اجتهاد اصحاب هذه التجربة قد لا يكون حجة علينا ، ولا يكون مسلّم الحجية عند جميع المسلمين ..



وربما كان من الاخلاص لهذه الدراسة ، ان نترك الطريقة التي اعتمدناها في دراستنا لابطال التاريخ الاسلامي من حيث التأكيد على الجانب الذاتي ، واعتبار الجوانب الرسالية مجرد صفات ذاتية ترفع من مستوى البطولة فيه ... مما قد يؤدي الى قبول أي حديث مهما كان ضعيفا اذا كان متلعقا بجانب من جوانب العظمة الشخصية في حياته ، حتى ولو كان على حساب القيم الاسلامية كما نراه في الابحاث التي تتوفر على دراسة السيرة لكثير من ابطال هذا التاريخ من الائمة والصحابة وغيرهم ، فينسبون اليهم بطولات لا اساس لها ، وفضائل وكرامات لا مبرر لها استنادا الى احاديث ضعيفة يرويها الكاذبون والوضاعون والغلاة ممن لا يخافون الله فيما يرون وفيما يحدثون ، لقاء عقدة نفسية او ثمن بخس يبيعون به دينهم وضميرهم .. وينقل الباحثون والدارسون والمترجمون ذلك كله .. لانهم يريدون ان يحققوا زهوا

بالعظمة والقداسة فيمن يحبون او ينتمون اليهم ولو على حساب السيرة الحقيقة والتاريخ والعقيدة ، ويعتذرون عن ذلك بأنها ليست من احاديث الحلال والحرام حتى يدقق فيها المدققون ، او يرفضها المحققون الذين لا يقبلون الا ما كان خاضعا لميزان الجرح والتعديل في علم الحديث والرجال .. ولكن هذا العذر غير مقبول لدى الذين يشعرون بأن من مسؤولية المسلمين ان يحافظوا على مقياس الحق في الاشياء في كل المجالات سواء في ذلك جانب الحكم او المفهوم او الموقف فلا يسمحوا للزيف أن ينفذ الى شيء من ذلك لان الصورة الاسلامية لا تكتمل الا من خلال استكمال كل الجوانب العامة والخاصة .. وليست القضية كما يزعم هؤلاء من انها لا تشكل خطورة على الاسلام .. بل ربما كانت الخطورة فيها بشكل اكبر واشد ، لان الارتباط بالاشخاص من خلال هذه القيم المفتعلة الموضوعة ، يوجب ارتباطا بكل مايفكرون به او يعملونه او يقولونه ، ولان افتعال القيم يفسح المجال لولادة تقييم منحرف ينعكس على طريقة الحكم على الاوضاع والاشخاص مما يوجب الاساءة الى بعض الذين يفقدون هذه الصفات واعطاء الذين يجدونها اكثر مما يستحقون ونعتقد ان كثيرا من هذه البطولات او الفضائل الوهمية التي اضيفت الى تاريخ هؤلاء بدون حساب ، لو حذفوها
واقتصروا على الامور الحقيقية منها ، لكان في ذلك كفاية للابطال الحقيقيين ، فان الحقيقة تكفي صاحبها من دون حاجة الى اية زيادة او افتعال .

اننا نريد ان نتخلص من ذلك ليكون ارتباطنا بالرسالة طريقا للارتباط بالاشخاص الرساليين ، وتقديسنا لمعناها سبيلا لتقديس الاشخاص الذين تعيش تلك المعاني في نفوسهم ، لتظل الرسالة قاعدة رئيسية للانتماء وللمشاعر وتحديد العلاقات في بدايتها ونهايتها ...

اما الطريق الى الوصول الى ذلك ، فهو التركيز على الرسالـة في دراسة تاريخ ابطـال الاسلام لتكون الدراسة سبيلا الى معرفـة تأثير الرسالة على حياتهم وسلوكهم وقيمته ومقـداره ، واثرهم في حركتهـا وقوتها وتطورها مما يجعل مفتاح الدخول الى حيـاة الشخص رسالتـه وليس العكس ••• وقد نستطيع بذلك ان نفهم ابطالنا فهما جديـدا لا يبتعد عن الواقع ولا يقترب من الاسطورة ، مما يؤدي الى فهم جديـد لبعض مفاهيم الرسالة واوضاعها من خلالهم ، ويغلق الباب امام عبـادة الشخصية لدى المسلمين •



دروس الدعوة

في حياة الانبياء

في حديثنا السابق ، كنا نقول : ان علينا ان نتوفر على دراسة تاريخ الانبياء في حركتهم الرسالية من اجل الدعوة الى الله والى شريعته ... لانها تمثل ـ في حركتنا الاسلامية ـ التجارب الدينية الرائدة في مدلولها واسلوبها الواقعي .

ونحن هنا .. نحاول ان نستوحي بعض هذه التجارب التي عاشوها في جهادهم وفي ممارساتهم العملية بالذات ، او في ممارسات المؤمنين بهم، او في الاجواء التي اثيرت ضدهم كردود فعل للدعوة لنتعلم منها بعض الدروس التي نشعر ـ بأنها لا تزال ـ بالرغم من تقادم عهدها ، حية نابضة بالجدة والحياة لانها ليست وليدة الظروف الموضوعية المحددة بل هي خطة الرسالة الرائدة التي انطلقت من حاجتها اى الخط الواضح الطويل في رحلتها الصاعدة الى القمة ، فكا نلها من ذلك ، مع كل نبي ، وحي جديد ، ودرس كبير للرسالات من بعده يمنحها الانطلاق ويعطيها المبادرة .. وتتحرك هي لتغنيه من جديد بدرس جديد للحياة وللمستقبل.

وقد استعرضنا في كتابنا « اسلوب الحوار في القرآن » في فصل « الحوار القصصي في القرآن الكريم » طرفا كبيراً من قصص الانبياء بأسلوب تحليلي يحاول ان يستفيد منها الدروس العملية التي نحتاجها في حياتنا الحاضرة والمستقبلية في اطار النشاط الديني في حركة الدعوة

الاسلامية في كل مكان • ونقطف لكتابنا بعض احاديث ذلك الكتاب في موضوعنا هذا •• بطريقة العرض الموجز ••

١ - في حياة نوح (ع)

في دراستنا لقصة نوح (ع) مع قومه من خلال الآيات القرآنية التي تحدثت عنه اكثر من مرة •• نلاحظ عدة امور :

اولا : اننا نجد صورة الكافرين الدين يدخلون عملية الحوار مع نوح (ع) فلا نجد امامنا الفكر الذي يجابه الفكر ، والمحبة التي تلتقي بالمحبة ، بل نواجه - بدلا من ذلك - العقلية الضيقة التي ترفض التفكير بكلمات الرسول ، لتنتقل الى التفكير بشخصه وتأبى ان تعيش في أجواء الدعوة ، لتعيش فيالاجواء الذاتية والطبقية لاتباعها ، وبهذا يكون تحديد الموقف خاضعا لشخصية الداعية الذاتية والاجتماعية ، ونوعية الاتباع المادية والطبقية ، من دون ان يكون للفكرة اي حساب لديهم سواء في ذلك معطياتها الروحية او الانسانية في اطار المستقبل في حياة الامم •

ثانيا : في سورة نوح نقف وقفة طويلة امام التقرير الاخير الذي أنهى فيه نوح (ع) مهمته ، وقدمه الى ربه واضعا فيه كل محاولاته في ما قام به من حوار وما أوضحه من بيان للرسالة ، ودعا اليه من ايمان بالله ، ومشيرا فيه الى ردود الفعل التي كانت من قومه ضده ، سواء في طريقة الرد عليه او في طبيعة التصرف معه ، وداعيا الله أن يستبدل هذا القوم من الناس بغيرهم لان التجارب كلها قد استنفدت فلا مجال لتجربة جديدة ، ازاء أمل جديد ، بل ربما يسبب وجودهم الخطر على المستقبل لان الاجواء التي يعيشون فيها أصبحت موبؤة ، بالمستوى الذي لا تنتج فيه الا جماعة مثلهم في كل شيء • وبقي مع ذلك كله ينتظر الامل من الله في أمل غير محتسب ، ومفاجأة غير منتظرة ، لان اليأس لا يدخل في

الحساب اذا كان الموقف مرتبطا بالله ... ونفهم من هذا كله عدة نقاط (فيما يوحيه الينا هذا التقرير الرسالي) :

(أ) ــ ان نوحا النبي ، كان لا يترك فرصة الا وينتهزها في تذكيرهم ولا يدع اسلوبا الا ويلجأ اليه في تعريفهم بالله حتى انه كان نقدم اليهم في كل مرة الفرصة للرجوع الى التوبة ، التي يبدأ فيها الانسان من جديد ، تاركا وراءه كل ظلمات الماضي ولكنهم كانوا يرفضون ذلك كله ، ويتبعون القوى المترفة المضادة التي تحاول الوقوف امام كل رسالة تضيء للامة دربها الطويل لتخرجها من الظلمات الى النور لان هذه القوى لا تعيش الا في الظلام ومن اجل بقاء سيطرة الظلام .

(ب) ــ ان من حق الرسالة على الرسول ومن واجب الدعوة على الداعية ، أن لا يترك هناك اي مجال للعذر من اية جهة كانت ، لان روح الرسالة تمثل روح الجندية التي تجعل من الانسان قوة لا تملك نفسها ، بل تشعر بأنها ملك للرسالة بكل ملكها وطاقاتها واوقاتها فتسير حيث تأمرها الرسالة ان تسير ، وتتحرك حيث تريد لها ان تتحرك ، وتقف حيث تطلب منها ان تقف ، فلا تملك لنفسها اية حرية في ممارسة قضاياها الشخصية بعيداً عن موقع الرسالة .

(ج) ــ ان اليأس لم يدخل قلب نوح (ع) ، بل كان الوحي الالهي هو الذي أنهى مهمته الرسالية عندما اوحى اليه انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن ، بعد ان كان قد ذكر فشل كل التجارب التي قام بها في هدايتهم وطلب من الله النصر عليهم .

(د) ان دعاء نوح عليهم لم يكن من قبل الانفعال الذاتي الذي يدفع اليه ضيق الصدر وخيبة الامل بل على اساس موقع الرسالة التي أقامت الحجة على الكافرين فلم يبق مجال هناك لحجة او مكان لعذ فأصبح من

مصلحة الانسان الذي يرتبط بحركة الرسالة ونموها، ان يفسح المجال لجو جديد يتنفس فيه الناس روح الايمان وروحانيته ... فكان الدعاء عليهم باعتبار انهم يشكلون القوة الضاغطة في مجتمع الكفر الذي لا يلد الا مجتمعا مثله لما يملكه من القوى المادية .

(هـ) ـ ان الرسالات الآلهية لا تتحرك في حياة المجتمع لحماية الامتيازات الطبقية للطبقات المترفة بل كانت ـ على العكس من ذلك ـ حركة واعية في سبيل الحد من امتيازاتهم الظالمة ورفع مستوى الطبقات المحرومة في المجتمع ، ولذا كان الاغنياء المترفون هم القوة المضادة التي وقفت في وجه رسالة نوح بينما كان الفقراء الذي هم (أراذل المجتمع) ـ حسب تعبير الكافرين ـ هم اتباع الرسالة وجنودها المخلصون المقربون من الله ورسله لانهم وجدوا فيها خلاصهم في الدنيا قبل الآخرة .

ونلاحظ ـ في هذا الاتجاه ـ كيف يكون هذا التاريخ الديني الذي يتبناه الاسلام كحقيقة حياتية ثابتة مستمرة دليلا على رد الفكرة الظالمة التي يقول اصحابها : ان الاديان السماوية جاءت من اجل ان تكون (مخدرا) روحيا تستغله الطبقات المستغلِّة لتخدير الطبقات المستغلَّة ولذا فان الظاهرة الدينية تعتبر من ـ وجهة نظرهم ـ ممثلة للوجه البارز للمصالح المشتركة بين رجال الدين وبين رجال الظلم والاستغلال .

ثالثا : في سخرية الكافرين من نوح عندما رأوه يصنع الفلك ، وسخرية نوح بهم .. نأخذ الدرس التالي ان بامكان الداعية ان يستخدم اسلوب السخرية كرد فعل لسخرية خصومه ، فيما اذا استنفد الوسائل الرسالية معهم دون جدوى ، لان من غير الطبيعي أن يسكت أو يرد بالكلمة الطيبة في موقع تتحول الكلمة الطيبة الى مجال للسخرية والاستهزاء .

ان اساليب السخرية التي يستخدمها خصوم الرسالات ، جزء من وسائل حرب الاعصاب التي يراد منها تدمير المؤمنين تدميرا معنويا لدى انفسهم ولدى الآخرين ، بما توحيه من اعطاء صورة واضحة عن قابلية الفكرة واصحابها للسخرية ولاعتبارها موضعا للتندر والاستهزاء ، مما يمنع الآخرين من الانتماء اليها خوفا من التعرض لذلك ، او يضعف الروح المعنوية لدى اصحابها ، ولهذا فانها لم تنشأ من حركة عفوية ، بل كانت خاضعة لخطة مدروسة ، فلا بد من مواجهتها بخطة مثلها او افضل منها حيث يحشد الدعاة فيها كل ما لديهم من الموهبة الشخصية في فن السخرية والتندر بافكار الآخرين وشخصياتهم كوسيلة من وسائل الدفاع عن النفس والعقيدة حتى ينتهي الامر الى تحطيمهم نفسيا ومعنويا بنفس السلاح الذين حاربونا به وهذا هو الذي استهدفه القرآن من توجيه نوح الى السير مع قومه في هذا الاتجاه العملي ..

رابعا : في قصة نوح مع ولده ، وحواره معه ، ومع الله في شأنه : نعرف الحقيقة التالية : انه ليس من المفروض في اولاد الانبياء ان يكونوا صالحين ، وان كان من الافضل ان يكونوا كذلك فليس معنى ان يكون الانسان صالحا ان يكون أولاده صالحين على أساس ان عدم صلاحهم يضر بالحكم بصلاحه لان الولد خاضع ، في صلاحه وفساده لتأثير البيئة العامة ـ وهو المجتمع ـ كما هو خاضع ـ في ذلك ـ لتأثير البيئة الخاصة ـ وهي البيت ـ فعلى الاب ان يعمل كل جهده ، فاذا نجح في ذلك فقد حصل على ما يريد ، والا فقد ادى واجبه .

ان القضية بكل اختصار ـ تتحدد بالمسؤولية في اطارها الشرعي ، فان مهمة الرسول ، وكل داعية غيره تتلخص في دعوة كل الناس ـ ومنهم المقربون بالدرجة الاولى ـ وبذل كل جهد في هذا السبيل ، بالفعل وبالكلمة وبالترهيب والترغيب ، بنفسه وبالاستعانة بغيره ، فاذا استنفذ

كل جهده فقد قام بمسؤوليته سواء في ذلك حالة الرفض ، وحالة القبول من الاقربين او من الابعدين من دون ان ينقص ذلك من مكانته فـي كلا الحالين .

ـ ٥ ـ ان على صاحب الرسالة ان لا ينحرف مع عاطفته ازاء اهله، فيما اذا استحبوا العمى على الهدى ، بل عليه ان يبقى مع رسالته، لتكون هي المؤشر الذي يحدد له مسار عاطفته كما يحدد له مسار حياته فقد يكون للانسان الحق في السير مع مشاعره العاطفية التي تربطه بالآخرين ما دامت عاطفته لا تقترب من عقيدته والتزاماته فاذا اقتربت العاطفة منهما وقفت العاطفة او تأخرت لتتقدم العقيدة والمبادىء في طريق الحياة الطويل .

٢ ـ قصة صالح مع ثمود :

في حوار صالح مع قومه ثمود نلتقي بنقطتين بارزتين فـي اسلوب العمل :

النقطة الاولى : محاولة المستكبرين تشكيك المستضعفين بالرسالة، باسلوب ذكي يتعمد اثارة سؤال ساذج امامهـم ، ظاهره طلب الحقيقـة وباطنه ارادة التضليل ، للايحاء اليهم بان عليهم اعادة النظر في قناعاتهم ، على اساس ان القضية تدخل في مجال الاخذ والرد ، لانها لا ترقى الـى مستوى الوضوح الكامل ليكتشفوا انها لا تمثل الحقيقة اليقينية ولـكن المستضعفين وقفوا بقوة ليؤكدوا ايمانهم باسلوب قوي ، مما جعل اولئك يكشفون هويتهم بالكفر والعناد والتحدي العنيف .

قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ
قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ، لِمَنْ آمَنَ
مِنْهُمْ ، أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ

مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إنّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنون
قَالَ الّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إنّا بِالّذِي آمَنْتُمْ
بِهِ كَافِرُونَ ٧ : ١٧٥

ولا بد لنا من التوقف قليلا امام هذه النقطة ، لنتأمل جيداً ، ــ هذا الاسلوب ــ الذي قد نواجهه فيما نواجه من اساليب الكفر والضلال ، عندما يتوجهون الينا بطريقة التحبب والتودد ، وكأنهم يقولون لنا : هل انتم تجدون او تمزحون في اعلانكم عن الاعتقاد بما تعتقدونه ، او بما تثيرونه من قضايا ، ويضيفون بعد ذلك ــ اننا لا نعتقد هذا ، لانكم ــ لدينا ــ في المستوى الكبير من الوعي والعلم والرؤية الواضحة التي تجعلكم في المركز الثقافي الذي يرفض أن يتقبل هذا فكيف يمكن ان يؤمن به ...

انه الاسلوب الخبيث الذي يحاول ان يجعل من قضية الايمان والعقيدة ، قضية تسيء الى كرامة الانسان لدلالاتها السيئة من الناحية العقلية والفكرية ..

وقد يضعف الكثيرون امام هذا الاسلوب ، ممن يحاول دائما ان يستثير ثقتهم بأنفسهم من خلال رأي الآخرين بهم او مدحهم لهم ، فيسقطون ــ في النهاية ــ من حيث لا يشعرون وينهزمون من حيث لا يعلمون ...

ونحن لا نمانع من استخدام هذا الاسلوب مع الكثيرين من المضللين من خصومنا في العقيدة لاننا ننسجم مع واقع الاشياء عندما نمارسه ، بسبب الاساس غير المعقول الذي ارتكز عليه هؤلاء في كفرهم وشركهم وضلالهم ، ولعلنا نجد في القرآن الكريم ، الكثير من الاشارة الى هذا الاسلوب في حديثه مع المشركين والكافرين عندما يطلب منهم الرجوع الى

عقولهم وافكارهم ، ليكتشفوا ان عقائدهم وافكارهم لا تتناسب مع العقل الواعي والفكر العميق ..

النقطة الثانية : محاولة الكافرين اثارة جانب الكرامة الاجتماعية في نفس صالح ـ النبي ـ والايحاء اليه بان هذه الدعوة قد افقدته مركزه لديهم ، وثقتهم به ، واعتمادهم عليه ليكون ذلك حافزا له على التراجع عنه .

قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا
مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ
ما يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَا تَدْعُونَا
إِلَيْهِ مُرِيبٍ ١١ : ٦٢

ولكنه يواجههم بمنطق الرسالة لوضوح الموقف لديه من جهة ، واعتبار الرسالة رحمة من الله من جهة اخرى فهي تعوضه عن كل شيء يفقده من تقديرهم مما لا يرقى الى مستوى القيمة الحقيقية امام تقدير الله .. ثم التركيز ـ من جانبه ـ على انهم لا يستطيعون ان يقدموا له اي عون او نصر في مواجهة عقاب الله ـ لو اراد عقابه وعذابه ـ في حالة انحرافه عن الخط وسيره على حسب ما يريدون او يقترحون .

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى
بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ، وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً
فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا
تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ١١ : ٦٣

وقد نحتاج الى الوقوف على هذه النقطة كما وقفنا على النقطة السابقة فنجد في هذا الاسلوب الذي اتبعه قوم صالح مع نبيهم نموذجا

لاكثر الاساليب خطورة على العاملين الذين يعيشون نقطة الضعف في جانب الكرامة الشخصية في نطاق قيم المجتمع ومقاييسه .

فقد يتعرض العاملون الى مثل هذا الاسلوب الذي يوحي بان التزامهم بخط الدعوة الى الله يفقدهم الثقة الاجتماعية ، بما يثيره في نفوس المجتمع من حساسيات ازاء ما يقدسه ويحترمه من تقاليد وقضايا ، وبما يلتصق بهم من نعوت وألقاب لا تشرف صاحبها او حاملها لدى الوسط الاجتماعي ، وذلك في كلمات الرجعية والتأخر والخيانة التي تقابلها كلمات التقدمية والتطور والوطنية والاخلاص ، وقد يشعر الانسان بالانسحاق امام ذلك كله عندما يبقى مختنقا في اطار ذاته بعيدا عن رسالته مما يجعله يعيش الارتباط برسالته من خلال ارتباطها بذاته وبمركزه الاجتماعي ، فيذوب ، مع الكلمات تماما كما يذوب الملح في الماء ... بكل سذاجة وهدوء .

ان على الداعية فيما تريد الآية الكريمة ان توحيه ، ان ينفتح على رسالته ليدرك خطأ الاساس الذي يجعل الثقة خاضعة لمقاييس الباطل واعتباراته بدلا من موازين الحق وقيمه ، وليؤمن بان الانسان الرسالي هو الذي يشعر بان ثقة الرساليين هي القيمة التي تملأ النفس ، اما غير الرساليين فانهم لا يمثلون شيئا في ميزان الثقة لدى اصحاب الرسالات بل القضية بالعكس من ذلك فان الموقف المنتظر منهم ان يثيروا امام العاملين كل الاساليب الضاغطة والمدمرة التي تحطم ثقتهم بانفسهم وثقة الآخرين بهم .

مع ابراهيم

ـ ١ ـ في حواره الذاتي مع نفسه في رحلته الفكرية الى الله ، عندما وقف يحاور نفسه في الاعتقاد بألوهية الشمس والقمر والكواكب

فقد رأينا في ذلك اسلوبا عمليا يمكن للداعية ان ينفتح عليه في طريق الدعوة الى الله .. فان من الممكن لنا ــ في مرحلتنا العملية ــ ان نستفيد من حواره مع نفسه كيف نهيء الاجواء الاجتماعية كالندوات الثقافية والمحاضرات الفكرية وغيرها من المجالات التي يقف فيها الداعية مع الجماهير ليتطلع الى ما يدور في افكار الناس من قضايا وما يختبىء فيها من مفاهيم ، وما يعيش في انفسهم من قناعات ليبدأ مناقشتها من خلال الايحاء لهم بانها تمثل احدى مراحل نموه وتطوره الفكري في رحلته من الشك الى الايمان لتبدو العملية لديهم كحالة شخصية عفوية من حالاته التي لا ترتبط بأي نوع من انواع الاساءة الى حس الكرامة الذي يتأثرون به ، وليشعرهم بانه في موقف عرض قناعاته السابقة التي اهتزت بفعل الافكار الجديدة التي حصلت له والمواقف الصحيحة التي لم يكن قد اكتشفها بعد ، وبهذا فانه يبتعد عن فكرة الدخول معهم مباشرة في جدل ومناقشة لما يعتقدونه ، ولما يفكرون به . انهم ــ في خطى هذا الاسلوب ــ يستطيعون اكتشاف خطأهم من دون سلبيات تماما كمن يقرأ كتابا او قصة تتعلق بالآخرين فينسجم ــ معها ــ كما ينسجم مع قصص الآخرين ليفاجأ ــ في نهاية المطاف ــ بانه استطاع ان يكتشف نفسه ويعرض خطأ موقفه من دون سابق انذار .

وقد نستفيد ــ من هذا الاسلوب ــ في محاولاتنا الكتابية التي نريد من خلالها عرض الافكار التي تثار حول العقيدة ــ معها او ضدها ــ في اسلوب الحوار الذاتي الذي يبتعد عن اسلوب الوعظ الذي يخاطب الآخرين ، الى اسلوب المناجاة الذي يخاطب فيه الانسان نفسه وعلى ضوء هذا ، يمكننا ان نشق الطريق لادب الدعوة الاسلامية في التجارب الادبية القرآنية في الشكل والمضمون من اجل ان تتفاعل على الاسس الفنية للادب مع الاسس الواقعية العملية للدعوة الى الله ..

ـ ٣ ـ في حواره مع قومه عندما قام بتكسير الاصنام ، واتهم كبير الاصنام بذلك عندما سأله قومه عن الفاعل ، وطلب منهم سؤالهم ان كانوا ينطقون .. فقد نحتاج اليه في بعض الحالات التي نشعر فيها ازاء الواقع الذي يعيشه مجتمع الانحراف بوجود بعض الثغرات الكبيرة والصغيرة التي غفل عنها اصحابها ، فانه من الطبيعي لنا ان نكتشف ذلك ونفتح المعركة التي تفسح المجال في الدخول الى الحوار الذي يصل بنا الى الهدف الذي نريده ، من مواجهتهم بالخطأ الكبير فيعقيدتهم او في سلوكهم على الطبيعة ، ودفعهم الى احد الموقفين ، اما موقف الاعتراف بالحقيقة من خلال اكتشاف الخطأ ، واما موقف الظهور بمظهر العناد والمكابرة ، الذي يفقدهم الشعور بالاحترام لدى الآخرين ولدى انفسهم فيفقدون بذلك كل قوة للتأثير على الآخرين في السير على خطى الانحراف والضلال ..

ولا بد لنا ـ في سبيل اتباع هذا الاسلوب ـ من الانفتاح على افكار الآخرين وممارساتهم لنكتشف نقاط الضعف ونقاط القوة، لنستفيد من ذلك كله في معركة الحوار من اجل العقيدة .

ـ ٤ ـ في حواره مع نمرود فقد واجه ابراهيم النبي في حياته طاغية من اكثر الطغاة تمرداً حيث بلغ به الطغيان حداً خيل اليه معه انه الآله الذي يجب علي الناس ان يعبدوه من دون الله ، وقد وقف ابراهيم معه موقفا حاسما قويا ، حاول فيه ان يثير قضية الالوهية وارتباطها بالقدرة المطلقة التي لا يملكها هذا الطاغية فطرح فكرة الحياة والموت ، وان الله ـ رب ابراهيم ـ هو الذي يحي ويميت .. ووجد هذا الطاغية الفرصة لاستغلال سذاجة اتباعه البسطاء في اسلوب التمويه الذي يعتمد على التلاعب بالالفاظ ، فاجاب ابراهيم بانه يحي ويميت لانه يستطيع ان يبقي المحكوم عليه بالموت ، فيهبه الحياة ، وان يعدمه فيقضي عليه بالموت ، فيكون مالكا

لامر الحياة والموت ، اذن فهو يملك صفة الآله الذي يحي ويميت .. ولم يترك له ابراهيم الفرصة الذهبية التي يأخذ بها زهو طغيانه وتمرده فتحداه بالظواهر الكونية الثابتة التي خلقها الله في الكون وطلب منه تغييرها اذا كان آلها حقا ، وقدم له عرضا بالشمس التي خلقها الله لتشرق من جهـة المشرق وطلب منه ان يحول طلوعها الى جهة المغرب فبهت الذي كفر ولـم يملك جوابا لهذه الحجة المفاجئة ...

اما فائدتنا — من هذا الحوار — فهو مواجهة الكثيرين ممن يحاولون ان يموهوا الحقائـق على البسطاء مـن الناس باللجوء الـى الاساليب الساذجة التي يخدعـون فيها الناس ، سواء في ذلك ما يتعلـق بشؤون العقيدة وما يتصل بامور الحياة فنعمل على ان نستلهم اسلوب ابراهيـم النبي في الانتقال الى التحديات الواضحـة التي لا تخفى على احـد ولا تنطلي ، بالنتيجة ، على احد ، مما يعطل خطة التمويه والتضليل ..

ولا بد لنا — في سبيل الوصول الى ذلك — من النفاذ الـى واقع الاساليب المضللة التي يخضع لها البسطاء من الناس والاساليب الصارخة التي تملك قوة التحدي ، من دون ان يستطيع الآخرون ردها او مقاومتها على الاقل ، وهذا ما يفرض على العاملين ان يقوموا به من أجل ان يلاحقوا الواقع واساليبه التي تحكمه وتوجه خطواته بكل وعي ودقة وشمول ...

موسى وهارون — مع فرعون

فقد طلب الله من موسى ان يذهب الى فرعون كرسول ، وكـانت هناك مشكلة بينه وبين قوم فرعون وكان يشكو من عقدة في لسانه وبيانه فطلب من الله ان يشرك — معه — اخاه هارون في الرسالة .. فاجابه الله الى ذلك ، وطلب منهما ان يتجها الى فرعون بالقول اللين وذهبا اليه وكان هناك حوار متنوع متلون بينهما وبين فرعون .. وحاول فرعون — فيه —

ان يخرج عن الموضوع فمنعه موسى من ذلك بلباقة وذكاء .. واستمر الحوار الى نهايته اما حصيلتنا من ذلك في اسلوبنا العملي فهو امور :

ـ ١ ـ ان يقف الداعية من نداء المسؤولية موقف الاستجابة، مهما كانت حالته النفسية من خوف او قلق فلا يجعل من ذلك مبررا للاعتذار والهروب بل يحاول ان يفكر في الموضوع كما فكر موسى في البداية ان يلجأ الى الله في ابتهال وخشوع يستعرض فيه طاقاته التي يخشى على الرسالة من ضعفها واهتزازها فيطلب من الله ان يقوي فيه تلك الطاقات من أجل الحصول على ثقة روحية مستمرة من الشعور بالمدد المستمر من ربه ، ثم يلتفت من جهة أخرى ـ ليطلب من الله ، ان يشرك معه الانسان الذي يمكنه ان يقدم للرسالة طاقة مساعدة تضاف الى قوة الرسول ولعلنا نستفيد من هذه الآيات الفكرة التالية : وهي ان على الداعية ان لا يشعر بالفردية والذاتية التي قد تمنعه من الاستعانة بغيره في عمله ، او قبول مثل هذا العرض من الآخرين ، بحجة ان ذلك يفقده زهو الاستقلال بالمهمة من جهة ، ويخلق انطباعا بقصوره عن الاضطلاع بالمسؤوليات العملية في نظر الآخرين من جهة اخرى .

اما السبب في ذلك فهو ان القضية ـ في العمل الرسالي ـ ليست قضيته الخاصة ليدخل الموضوع في نطاق حساباته الشخصية او مركزه العملي ، بل ان القضية قضية الفكرة التي يؤمن بها ، والدعوة التي يحمل مسؤوليتها ، مما يجعل قضية النجاح والفشل قضية الامة ، ولذا فان عليه ان يضع في حساباته عندما يريد الانطلاق في العمل فيدرس كل العناصر التي تساهم في الوصول بالخطة الى اهدافها الكبيرة .. سواء في ذلك الاشخاص الذين يتعاون معهم او الوسائل التي يتبعها في سبيل الوصول الى ذلك ، وربما كان موقف موسى في حواره مع ربه ، وطلبه اشراك هارون معه يمثل القمة في وعي المسؤولية بعمق واخلاص حيث لم يجد أية

غضاضة في موقفه ان يقدم لله عرض اشراك اخيه في المسؤولية ، والقصة قصة نبوة — لانه يتمتع بصفات لم يجدها في نفسه مما تحتاج الرسالة اليه .

انه الدرس القرآني العظيم لاولئك الذين يفكرون بالعمل الرسالي من زاوية الانانيات الشخصية والاعتبارات الذاتية التي تمنع الانسان من التعاون مع اي انسان كان ، او الاستعانة به في مجال العمل حفاظا على ان لا يعطي للآخرين انطباعا عن حاجته الى غيره .

— ٢ — ان الله يريد من الداعية ان يشعر دائما — في أي موقف من مواقفه — ان الله معه بحيث يسمعه ويراه ويسمع تحديات خصومه ويرى اعمالهم فان ذلك يجدد في نفسه القوة في كل المواقف التي يتعرض فيها لنوازع الضعف التي تفرضها تحديات الخصوم وتهويلاتهم انه — في ظل هذا الشعور — لا يحس بالوحدة ولا يستسلم لاية حالة من حالات الانسحاق ازاء قوة الاخرين .

— ٣ — ان ينطلق — في اسلوبه — مع الاسلوب الذي يفتح قلوب الآخرين ، وافكارهم على كلمة الله فيفتش عن الكلمة الواضحة المشبعة بالوضوح والقوة والحنان ، وعن الاسلوب الهادىء الذي يوحي بالثقة ويدعو الى التفكير الهادىء ويبتعد ، مهما امكنه ، عن الكلمة المعقدة القاسية ، وعن الاسلوب المتشنج الذي يوحي بالقلق ، ويدفع الى التحدي ...

اما السبب في ذلك فهو ان الخط الرسالي ينطلق من حقيقتين واقعيتين :

الاولى : ان على العاملين ان لا يتركوا امام الآخرين اي حاجز نفسي

او فكري يحول بينهم وبين وعي الرسالة وفهمها وتقبلها والانفتاح عليها ، فلا يبقى لهم اي حجة للانكار او للاعتذار من ناحية البلاغ ليكون انكارهم ـ لو حدث ـ بعد اقامة الحجة عليهم ، وليد العناد والمكابرة على ضوء قوله تعالى :

لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ
وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ٨ : ٤٢

الثانية : الايمان العميق بان الانسان مهما طغى وتجبر وابتعد عن الله فانه يظل متحمسا لدعوات الحق ومعاني الخير من خلال الدوافع الخيرة المنطلقة من فطرة الله التي فطر الناس عليها ، الراقدة في اعماقه ، المستيقظة في بعض الحالات على صوت الخير والكلمة الحلوة التي تنفتح عليها الروح في حالات الهدوء والتأمل ، ولذا فان علينا ان نلقي الى كل انسان ، مهما كانت درجة انحرافه بالكلمة الحلوة والصوت الخير المملوء بالمحبة ، فربما يلتقيان بالجو الروحي الهادىء الذي يكون منفتحا على الهداية من خلال ذلك كله • وربما كان هذا هو السر في التوجيه الالهي لموسى وهارون ان يتحدثا مع فرعون بالقول اللين ، املا في ان يتذكر ، بتذكيره بمعاني الخير ، وفي ان يخشى بتخويفه من المصير المظلم الذي يستقبله عند الله اذا استمر في طريقه المنحرف في اجواء الضلال •

-- ٤ ـ ان يعي الداعية كل الاساليب التي يحاول الخصوم ان يتبعوها في سبيل ابعاد اجواء الحوار عن الهدف الاساسي والفكرة الاصيلة للحوار ، فيرجعهم الى الفكرة من جديد ، باسلوب حكيم يتميز باللباقة والذكاء ، كما فعل ذلك موسى عليه السلام ـ فيما اشرنا اليه في حديث سابق •

ـ ٥ ـ في حوار السحرة مع فرعون ، بعد ايمانهم بموسى قبل ان يأخذوا الاذن بذلك من فرعون .. فقد انكر عليهم ان يؤمنوا قبل ان يأذن لهم ، كأن عملية الايمان تحتاج الى الاذن الفرعوني كما يحتاج اليها أي عمل آخر يتعلق بقضايا الادارة والحياة . ولكن تلك هي سيرة الطغاة وعقليتهم في كل زمان ومكان عندما يريدون ان يملكوا على الناس عقولهم وافكارهم فلا يفكرون الا بما يقدمونه لهم من افكار ، ولا يؤمنون الا بما يدعونهم اليه من عقيدة فالتفكير ممنوع ، والايمان محرم بدون الاذن الرسمي من قبل السلطة الرسمية التي تملك العقول كما تملك الاجسام والاعمال .. ثم يحاول ان يخفف عن نفسه وقع الصدمة وحرج الموقف باعتبار ان ما حدث يشكل نقطة ضعف في سلطانه لان المتمردين هم من اتباعه المقربين ، فيحاول أن يصور لنفسه وللآخرين ان القضية ـ من البداية ـ لم تكن تمرداً عفويا يصدر عن قناعة بالدعوة الجديدة، ورفض للسلطة القديمة ، بكل ما تمثله من افكار ، بل كانت مؤامرة سابقة مدبرة بين موسى وبين هؤلاء السحرة ، باعتباره استاذهم الكبير الذي علمهم السحر وأرادهم أن يقوموا بهذه التمثيلية لاظهاره في موقف المنتصر في مقابل فرعون الذي يقف موقف المهزوم ولم يفلح تهديده لهم في جعلهم يتراجعون عن موقفهم، بل وقفوا موقف اللامبالاة امام كل صرخات التشنج التي يطلقها فرعون ليقولوا له بكل قوة : اننا لن نؤثرك على ما شاهدناه من البينات فافعل ما تريد فليس امامك الا ان تقضي علينا ، ولن يشقينا ذلك بل يسعدنا لاننا سنحصل على السعادة في الفوز والشهادة في سبيل الله ، ومن اجل الوقوف ـ مع كلمته ـ وقفة ايمان كبير .. وعلى كل حال فانك انسان زائل لا تملك الا القليل فلست ضمانة لاحد حتى لنفسك .. اما الله فهو الخالد الباقي والضمانة الدائمة لانه مالك كل شيء حتى انت .. فهو خير لنا وأبقى من كل شيء في الحياة .

انه الموقف الرائع ، والنموذج العظيم للايمان الصامد امام الكفر

الطاغي ، في اروع صورة للصراع الدامي بين قوى الكفر والطغيان، وبين قوى الحق والايمان .

اما نحن .. فنشعر بالحاجة الكبيرة الى ان تتمثل هذا الموقف فيما نواجهه من تهاويل الطغاة وتهديداتهم وحجرهم على حرية الفكر الاسلامي الذين لا يريدون لاصحابه ان يتحركوا فيه الا بمقدار صالح للاستغلال ، حيث يتحول الى واجهة تحمي ما خلفها من انحرافات واخطاء لما تضيفه من قداسة الحق وحصانة الايمان ...

ان هذه النماذج العظيمة في تاريخ الرسالات تطرح امامنا الشعار القرآني في تجسيد عملي رائع .. ان الله خير وابقى للذين آمنوا وعملوا الصالحات في الدنيا والآخرة .

ــ ٦ ــ في حواره مع قومه في شأن البقرة التي ذكر القرآن قصتها .. فقد صدر لهم الامر بذبح البقرة ولكنهم لم يأخذوا الموضوع جديا ــ في بداية الامر ــ واعتبروه ــ او هكذا ارادوا ان يصوروه ــ مزاحا وسخرية بهم (مع ما في هذا التصور من اساءة لمقام النبوة) لانهم لم يجدوا علاقة بين ما سألوا عنه من فصل الخصومة ومعرفة القاتل ، وبين الامر بذبح البقرة حتى اذا رأوا الامر جديا حاولوا ان يتلاعبوا به او هكذا يخيل الينا من اسلوبهم في السؤال ، وواجه موسى الموقف باعصاب باردة واجوبة هادئة تجيب عن السؤال باضافة قيود تشريعية للواجب المفروض حتى ارتفع الى المستوى العالي الذي كلفهم بعد ذلك مالا كثيرا .

وقد يكون من الحق لنا ان نفهم هذا الاسلوب ، كطريقة تربوية عملية حازمة ، حاولت ان تغلق الباب على اساليب التلاعب بالاوامر الملقاة اليهم في ملاحقة تفاصيل الواجب الذي يبدأ بالتصاعد التدريجي في شروطه تبعا لتصاعد الاسئلة مما يجعل القضية تبدو كما لو كانت أمرا

طبيعيا لا تكلف فيه ولا صعوبة ، ليفهموا ــ بشكل صامت ــ ان الفضول الجاد او الهازل يكلف صاحبه كثيرا من الجهد والخسارة ، ولا سيما فيما اذا كان الفضول منطلقا من اللعب والعبث بموقع المسؤولية التي لا تترك أي مجال للفضول لانها تعبر عن ارادتها وحدودها بشكل محدد واضح لا اثر للغموض فيه ..

اما العبرة من هذا الموقف ــ الحوار فهي : ان على العاملين تناول المسؤوليات الموجهة اليهم من المسؤولين ــ بكل بساطة ــ على اساس مفاهيمها البسيطة الواضحة من دون ان يتكلفوا لها قيودا اضافية ، فما دامت القضية قد صدرت لهم مطلقة بلا قيد ، فليتقبلوها كذلك ، فاذا كان هناك تقصير في البيان ، او اغفال لبعض الجوانب المرتبطة بالمسؤولية ، كان ذلك من الامور الداخلة في واجبات المسؤول الاول ، لا في واجباتهم، فأن لهم العذر كل العذر في ترك ما لم يبين لهم على اساس القاعدة العقلية المعروفة « قبح العقاب بلا بيان » .

اننا لا نمانع من محاولة العاملين التعرف على ما التبس عليهم امره من جوانب المسؤولية ، مما يحتمل اكثر من وجه ، او تختلف فيه الانظار، على اساس بعض الامور الطارئة التي تلقي ظلا من الغموض على الموضوع، فيبدأون باثارة علامات الاستفهام في ذلك كله ، بل نجده مرتبطا بشؤون الاخلاص للعمل وللمسؤولية بشكل عام ، لئلا يضيع العاملون في ضباب الاحتمالات المتعددة والوجوه المتضاربة .. ولكن هذا ينحصر فيما اشتبه علينا امره ، واختلف علينا وجهه حتى وقفنا فيه في موقف الحيرة ، او فيما يشبه الحيرة مما يضع القضية في اطار الخطورة من ناحية تشريعية ، ولعل هذا الذي ألمحنا اليه ، هو الذي تشير اليه القصة المعروفة عن النبي محمد (ص) التي اشرنا اليها آنفا ونذكرها ــ هنا ــ بتفاصيلها .

« فقد روى ان رسول الله (ص) خطب اصحابه فقال : ان الله كتب

عليكم الحج ، فقام عكاشة ، ويروى سراقة بن مالك ، فقال : في كل عام يا رسول الله .. فاعرض عنه حتى اعاد مرتين وثلاثا فقال : ويحك وما يؤمنك ان اقول.نعم ، والله لو قلت نعم لوجب ، ولوجب ما استطعتم ، ولو تركتم لكفرتم فاتركوني ما تركتم وانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم الى انبياءهم فاذا آمرتكم بشيء فاتوا منه ما استطعتم، واذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه » .

فقد يكون في هذا الحديث اشارة من النبي محمد (ص) الى ما كان من بني اسرائيل في موضوع ذبح البقرة وارشاد اله المسلمين ان يتقبلوا الاوامر والنواهي المطلقة من دون اعتراض او فضول لئلا تضيق عليهم الامور من غير ضرورة .

ــ ٧ ــ في حواره مع قومه عندما مروا على جماعة من عباد الاصنام فطلبوا منه ان يجعل لهم آلها كما لهم آلهة ..

ما معنى هذا الطلب من هؤلاء الذين يجاهد موسى من اجل ان يحررهم من فرعون على اساس رسالة الله وكلمة التوحيد ليكونوا القاعدة القوية ، لحركة الرسالة الممتدة نحو تحرير المجتمع كله ، فنحن نعلم ان جهاد موسى لم يندفع من موقع عائلي او قومي ، بل ارتكز على الموقع الرسالي الذي يجد في المستضعفين قوة صالحة للتحرك من اجل قربهم للروح الثورية في بناء المستقبل الجديد ويجد ــ الى جانب ذلك ــ في بني اسرائيل آنذاك ــ جماعة قريبة الصلة بالايمان وما يمثله من قيم لانهم يشكلون الطرف المضطهد المعارض للعقلية الفرعونية وما تمثله من انحراف .. ومن هنا نعرف مأساة موسى مع قومه ، ومدى ما كان يحسه من خيبه الامل ، بعد الصراع العنيف الذي خاضه ضد فرعون، والمواقف الهائلة التي واجهها ، من ملاحقة الكافرين له وخوضه البحر ببني اسرائيل

في معجزة آلهية عظيمة ، فأي طلب هذا الطلب ، فاين الرسالة ، واين التوحيد ، وماذا عن آله موسى الذي كانت الدعوة الى توحيده سببا في كل ما حدث ، الم تكن تلك المعاجز والخوارق التي شاهدوها كافية في تركيز هذا الايمان كما آمن السحرة في موقف التضحية الرائعة من اجل اعلاء كلمة الله والانسجام مع رسالته ..

ليس هناك تفسير لهذا الطلب الا الطفولة الفكرية التي تفكر بعقلية الاطفال عندما يطلبون من آباءهم ان يشتروا لهم لعبة مثل لعبة اقرانهم من الاطفال الآخرين ، فربما لم يشاهد قوم موسى الاصنام الحجرية في بلادهم من قبل ، حتى اذا شاهدوها كانت الصورة مشوقة لهم في ان يكون لهم آله يلمسونه ويرونه في لعبة عبادية حالمة .. ولم يفقد موسى هدوء الرسول فقد كان مزاج الرسالة هو الذي يحدد له مشاعره لا مزاج الانسان العادي فكان جوابه مزيجا من عنف الحكم على عبدة الاصنام بالهلاك والضلال وبطلان العقيدة والعبادة ، ومن العقاب المرير لقومه ، والتذكير بفضل الله عليهم حيث اخرجهم من ظلمة الاضطهاد والعبودية ، الى نور الطمأنينة والحرية ، والاعلان لهم بان قضية الآله ليست موضوعا يمارس فيه الانسان دوره في الاختيار والتغيير والتبديل ، بل هو الحقيقة التي تهز اعماق الانسان وتنير حياته لتفرض نفسها في وعيه ووعي الكون كله .

ولعلنا نجد في بعض المجتمعات الاسلامية ما يشابه هذه الطفولة الفكرية ، ولكن في مجال آخر ، فقد يكشف بعض الناس من الحاكمين او المحكومين تقليعة جديدة من تقاليع الكفر والضلال ، او شكلا معينا من اشكال الحياة او تفكيرا خاصا من انماط التفكير المطروحة في الساحة الفكرية من تيارات الشرق والغرب ، فيواجهونه كما يواجه الانسان الاشياء الجديدة في حياته ، بالاعجاب والدهشة والتمني الطفولي باقتناء مثله

واحتذاءه لا لشيء الا من جهة الشعور بالغيرة ، او حب التقليد والمحاكاة ومشاركة الآخرين اوضاعهم وافعالهــم مما يسبب وقوعهم في كثير مــن الاخطاء والانحرافات والارتباكات ، في حياتهم العامة والخاصة عندمـا تتحول الى قطع منفصلة ترتبط كل قطعة منها بفكرة تختلف في جذورهـا ومعطياتها واشكالها عن فكرة اخرى ، فيتحول الانسان الى مسخ مشوه، وتضيع الشخصية لتتوزع بين عدة شخصيات متنوعة في الشكل والجوهر، كما نشاهده في واقع المجتمعات الاسلامية التي تفكر على اساس اسلامي في بعض جوانب الحياة وتفكر على قاعدة غير اسلاميــة في جانب آخر ، فتختلف ممارساتها العملية في السلوك الاجتماعي ، عن ممارساتهـا فــي السلوك الاقتصادي او السياسي او غير ذلك، انطلاقا من العقلية الاسرائيلية لبني اسرائيل التي تجعلهم يتوجهون الى قادتهم بأسلوب التمني او الضغط، ان يجعلوا لهم تخطيطا يشابه تخطيط الآخرين وسلوكا يتمشى مع طريقتهم في السلوك ولكن المنطق الرسالي الذي يفرض خطأ ذلك التفكير ، هــو الذي يفرض خطأ تفكيرنا الجديد ، لان القضية واحدة في جذورها وان اختلفت في شكلها فان الحقيقة واحــدة لا تخضع للرغبات وللنــوازع الذاتية ، بل تخضع للظروف الواقعية الموضوعية التي شاركت في وجودها فهي التي تقرر امر بقاءها او زوالها ...

لــوط وقومــه

كانت المهمة التي ارسل الله بها لوطا الى قومه ، هي محاولة تخليصهم من عادة الشذوذ الجنسي المذكر (اللواط) وقد عانى لوط من قومه الشيء الكثير حتى ارسل الله عليهم العذاب .. فما هو الذي نستوحيه من هذه القصة .. هذا ما نحاول ان نجيب عنه في عدة نقاط :

ــ ١ ــ ان يشعر الداعية المسلم بقيمة النظرة الاسلاميــة في تنظيم العلاقات الجنسيــة على اساس طبيعي في حياة الناس وذلك من خــلال

التأكيد القرآني على ذلك في هـذه القصة ـ بتكريرها عـدة مرات ـ وبالعذاب الشديد الذي انزله الله على قوم لوط الذين ابتدعوا الانحراف والشذوذ ..

وعلى ضوء ذلك فلا بد من التخطيط لمعالجة هذا الجانب من التشريع الاسلامي في الاطار السليم الشامل الـذي يريد الاسلام ان يضع فيـه الانسان بعيداً عن اي انحراف وشذوذ في كـل مجالاته ، لان ذلك هـو السبيل الصحيح لاستقامة مسيرته الحياتية نحو الهدف الكبير من اقامـة الحياة على قاعدة طبيعية مستقيمة .

وقد يفرض علينا هذا الاهتمام ، في هذه المرحلة من العمـل ، هـو التيار الفكري الجديـد الذي اجتاح التفكـير البشري حول القضيـة الجنسية ودورها في الحياة ، حتى اصبحت قضية الحرية الجنسية احـدى قضايا الحرية في العالم الحديث ، فاعتبرت القيود المفروضة على ممارسة الجنس ، المشروع وغير المشروع ، اضطهاداً للانسان وتقييداً لحريتـه ، وبدأت الموجة تتسع وتتصاعد حتى أصبح من المألوف ان يتظاهر الكثيرون من الشاذين جنسيا مطالبين باباحة الشذوذ الجنسي المذكر والمؤنث فـي التشريعات القانونيـة للحياة الاجتماعية لينسجـم التشريع المدني مـع مقتضيات الحاجات الانسانية باعتباره حلا عمليا لمشاكل جماعات كثيرة من البشر الذين لا يزالون يعانون من اضطهاد القوانين المحرمة التي تقيد من حريتهم وتمنعهم من ممارسة رغباتهم المنحرفة ، واستطاعت هذه الحملات أن تعطي بعض ثمارها في بعض البلدان الاوروبية العريقة في المحافظة على الاخلاق والتقاليد ، بما يشبه المفاجئة ، فقد اقر مجلس العموم البريطاني، التشريـع باباحة الشذوذ الجنسي تحـت ضغـط انتشاره في المجتمـع البريطاني، لا سيما لدى الطبقات الاجتماعية العليا من ذوي المراكز الكبيرة في الدولة والمجتمع ، وتطور الانحراف بشكل آخر فبدأنا نسمع بطلبـات

الزواج بين رجلين او بين امرأتين وقد تنقل لنا الاخبار ، احاطة مثل هـذا الزواج بطقوس دينية من قبل بعض الكهان، ان علينا ان نواجههذهالموجة الخطيرة بالاسلوب الاسلامي الذي لا يجابه النتائج ومظاهرها السلبيـة بالنقد المباشر ، بل يندفع الى الاسباب والمبررات الفكرية والاجتماعيـة التي افرزتها ، في حركة نقدية للواقع الاجتماعي الذي عاشت فيه مثل هذه الحركات ، وانـدفعت فيه تلك التيارات لتعريتـه ، وتوضيح الركـائز الاساسية الخاطئة التي ارتكز عليها في تطوره المنحرف الشاذ ، ومقارنته بالقواعد الاسلامية لبناء الانسان ــ الفرد ، وبناء الانسان ــ المجتمع ــ الذي ينطلق به الاسلام في الاتجاه الطبيعي السليم ، من غير حاجـة الى السير في مواكب الشذوذ والانحراف ..

ــ ٢ ــ ان نتعمق في استيحاء الصفات التي اطلقها القرآن الكريـم على الشذوذ الجنسي ، في حملـة لوط عليه ، مثـل كلمة (الفـاحشة) و « الخبائث » و « الاسراف » و « المنكر » ونتوسع في تحليـل معناها ومدلولها في اطار الفهم الحديث لذلك كله ، لنستطيع ان نثبت فاعليتها في حركة الدعوة في الحياة ، لان الالفاظ قد تموت بموت مداليها التي كانت تأخذ شكلا معينا وتلبس ثوبا معينا .. عندما يتجاوز الزمان تلكالاشكال، ويمزق تلك الثياب ، ولكنها قـد تبعث وتتجدد فتحيا مـن جديد ، اذا استطعنا ان نعطي المعاني حياة جديدة ، ونلبس الالفاظ ثوبا جديدا .. وقد ننجح ــ في ذلك ــ اذا عملنا على ربط هذه المعاني بالوقائع والنتائج التي يفرزها الشذوذ ، لنعرضها للانسان المعاصر صورة حية نابضة توحي له بجميع المعاني التي اوحى بها القرآن الكريم الى المسلمين الاولين .

ولنضرب لذلك مثلا ، بكلمة « المنكر » وكلمة « الخبيث » « فقـد لا نستطيع ان نحقق بطرحهما في حركة اسلوب الدعوة اي نوع من انواع الاثارة الرافضة التي تدعو الى ردود فعل ضد الفعل الشاذ ، لان الواقع

المنحرف قد حوله الى معروف بعد ان كان منكراً ، وجعله طيبا بعد ان كان خبيثا ، على اساس تحوله الى شيء يتصل بممارسة الانسان لحريته .. وفي هذه الحال قد نحتاج الى الدخول في اعماق الكلمة لنحرك فيها المعنى الذي لا يجعل الانكار والخبث صفتين طافيتين على السطح ، بل يجعلهما حقيقتين ترتبطان بموقع الفعل من قضية مصلحة الانسان على المستوى الخاص والعام ، وتؤثران على مصيره ومستقبله ، تماما كالشيء الذي يحلو مذاقه وتخبث نتائجه ، فان الصفة الحلوة التي تقفز الى البال ، في البداية، لا تلبث ان تترك مكانها للصفة المرة في نهاية المطاف ، بعد التجربة المريرة الطويلة ..

واذا استطعنا الوصول الى هذه النتيجة فسنكتشف ان قضية ممارسة الانسان لحريته ، لا تخضع للمزاج الذي يلاحق الحرية في كل مجال حتى على حساب سلامته ومصيره ، بل القضية تخضع لموقع الحرية من حركة الحياة ، فقد يشعر بالحاجة الى ان يتنازل عن حريته في ممارسة رغباته الذاتية ، لمصلحة حريته في ممارسة حاجاته المصيرية ، وبذلك ــ تتحول حرية المزاج الى شيء « منكر » و « خبيث » ينكره مستقبله ، وترفضه حياته ..

ــ ٣ ــ أن نستفيد من اسلوب لوط وطريقته في المواجهة ، فقد واجههم بالصفات الحقيقية لهذا العمل الشاذ ومدى انعكاسها على ميزان القيمة لديهم ، ثم اعلن نظرته اليهم وموقفه الاخير منهم ، ورجع الى ربه في نهاية المطاف فلم يخضع لاي حركة تشنجية ، تدفعه الى مزيد من الكلمات المثيرة ، سواء منها ما يجرح الاحساس ، ويثير الشعور او ما يخرج عن الموضوع ويبعد عن القصد ، لان الهدف من ذلك كله ان يحقق الوصول الى قناعاتهم بدعوته ، وايمانهم بكلامه ، او اقامة الحجة عليهم ، وليس الهدف ان يفجر غيظه ضدهم او يحقرهم او يذلهم انطلاقا من حالة نفسية

عصبية معقدة كما يفعل كثير من الدعاة الذين يدخلون مشاعرهم الذاتية في مواقفهم العملية ، فتختلط خطوات الرسالة بنوازع الذات •

شعيب وقومه

كانت رسالة شعيب تستهدف تخليص قومه من الانحراف في سلوكهم الاقتصادي المتمثل في التطفيف الذي يمثل اعطاء الآخرين ، دون حقوقهم، واخذهم منهم اكثر مما لهم من حق •• كما صوره القرآن في قوله تعالى :

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا
عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ، وَإِذَا كَالُوهُمْ
أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ٨٣ : ٤

ونلاحظ في هذا المجال نقطة مهمة لا بد لنا من اثارتها في حركة العمل الاسلامي واسلوبه في الحياة وهي : ان رفض هؤلاء القوم للمبدأ التشريعي الذي يحرم التطفيف ، يرجع الى اعتقاد خاطىء وهو حرية التصرف المطلق فيما يملكه الانسان من مال ، فليس لاي تشريع ان يقترب من هذه الحرية بأي نوع من انواع التضييق والتقييد ، وهذا ما يعبر عنه احتجاجهم على ذلك بقولهم •• أصلاتك تأمرك ان نترك ما يعبد آباؤنا او ان نفعل في اموالنا ما نشاء •

وقد كان شعيب منسجما مع القاعدة الآلهية التي لا تعتبر الحرية وعدمها ، الا بالمقدار الذي يحقق للانسان مصلحته العامة ، وللحياةتوازنها الدقيق ، ولذا كان التشريع يتحرك على اساس تحقيق هذا التوازن عندما يقيد او يطلق ، أو يعطي الحرية ويقيدها ، فيما يحلل او فيما يحرم ، وقد كان التطفيف نوعا من انواع الاستغلال الخبيث الذي يجسد التعدي

على حقوق النــاس وسرقة اموالهم مما يسبب اخلالا بالتوازن الذي تريد ان تقيمه الاديان في حياة الناس من حيث تحقيق العدالة في التعامل الذي يجعل المتعاملين متساويين فيما يأخذان او فيما يعطيان تبعا للالتزام العقدي الذي ينظم الحقوق والمسؤوليات ، وعلى هذا الاساس جاء تحريمه، منعا للفساد في الارض ٠

وقد نخرج ــ من هذا كله ــ بنتيجة حاسمة ضد كثير من الدعوات التي تبشر بمبدأ الاقتصاد الحر الذي يسمح للانسان بأي نوع من انواع التعامل سواء منه ما كان مضرا بمصلحة الانسانية وما كان غــير مضر ، ويوفر للانسان الضمانات القانونيــة في حماية عمليــة الافساد السياسي والاقتصادي والاجتماعي التي يمارسها تحت ستار التجارة الحرة التــي تتحرك بفعل دوافع الربح والخسارة بعيــدا عن اية جوانب اخلاقيــة او انسانية ٠ وهذا هو ما يتمثل في التفكير الرأسمالي الحديث الذي يشجع هذا كله في اطار الحرية الاقتصادية التي تعتبر في مفهومهم احدى الركائز الاساسية لقضية الحرية في الكون ٠٠ وقد ادى هذا التفكير الــى افساح المجال لولادة الاستعمار الذي يستعبد الشعوب ويستغل ثرواتها الطبيعية، و يحولها الى وحدات استهلاكية لتصريف المنتجات الصناعية بكــل مــا يستتبعه من حماية التخلف والجهل والخرافة والوقوف بقسوة ضد نوازع التحرر والاستقلال السياسي والاقتصادي ٠٠ وقد كان من نتائجه الكبيرة الى جانب ذلك العمل على اثارة الخلافات الدينية والاجتماعية والاقليمية وغيرها ، وتحويلها الى نزاع مسلح معقد طويل يستنزف طاقات الشعوب وثرواتها من اجل تحريك مصانع الاسلحة التي لا تزدهر الا في الحروب مما يجعل من السياسيين في كل بلد ، عملاء طبيعيين لاصحاب المصانع من اجل دفع الفتنة اشواطا الى الامام ، واثارتها من جديد كلما قاربت الركود والهدوء ٠٠٠

ان هذه القصة ، تؤكد لنا رفض الحرية الاقتصادية بمفهومها الذي لا يخضع للمفهوم الانساني والاخلاقي ... وتجعل قضية الحرية في التصرفات المالية واقعة ضمن نطاق مصلحة الانسان ، وتوازن الحياة ، لتسمح بما يدخل في ذلك ، وتمنع ما يخرج عنه في كل زمان ومكان .
وربما نشعر بالحاجة الى التأكيد على كثير من المؤمنين او العاملين في سبيل الله ، الذين يغفلون عن الخط الدقيق الفاصل بين الحرية الاقتصادية كما تفهمها الرأسمالية ، وبين الحرية الاقتصادية كما يفهمها الاسلام ، من خلال تشريعه الملكية الفردية وحمايتها فان الرأسمالية تطرح شعار قوم شعيب الذي عبر عنه القرآن الكريم في احتجاجهم على منعهم في ان يفعلوا في اموالهم ما يشاؤون ، لانهم يرون الحق لهم في ذلك كله ، بينما يطرح الاسلام شعار شعيب « ان اريد الا الاصلاح ما استطعت » « ولا تعثوا في الارض مفسدين » فهو يؤمن بالملكية الفردية بشرط ان لا يستغلها اصحابها في افساد البلاد والعباد سواء في ذلك ، مصادرها ومواردها،فاذا تحولت الى عنصر افساد وقف الاسلام ليقيدها ، بكل قوة وعنف لتجري الحياة على اساس من الحرية الملتزمة لا الحرية المنفلتة .

ثم اننا نستوحي من الاهتمام الاسلامي بقصة شعيب وقومه ، حيث كررها اكثر من مرة ان للجانب الاقتصادي اهمية كبيرة في الحركة النبوية في كل وقت ، بحيث تقف في مركز الاوليات التشريعية لعلاقته بقضية التوازن في الحياة .. وعلى ضوء ذلك ، نرى ان على الداعية اعطاء هذا الموضوع المستوى الكبير من اهتمامه في مجال الدعوة والعمل بالتركيز أولا : على الجوانب التشريعية الاقتصادية في الاسلام لاعطاء النظرة الصحيحة في مواجهة الحلول الاسلامية للمشاكل الاقتصادية ، الى جانب المشاكل الاخرى ، وثانيا : بالوقوف ، بشدة ضد الممارسات المنحرفة للاقتصاد ، مهما كان نوعها ، سواء منها بالتطفيف وغيره لان القرآن لم

يشجب التطفيف لنفسه بل شجبه لنتائجه السيئة في حياة الناس ، باعتباره افسادا للضمير وللحياة ، واستغـلالا للازمة الخانقة التـي تضغط على الضعفاء ازاء حاجتهم الى الاقوياء ، فيمكننا على اساس ذلك ، مواجهـة قضايا الاحتكار والاستغلال غير المشروع ، والتجارة المحرمة التي تسيء الى الصحة والاخلاق والى قضايا الحرية والكرامـة والغش والسرقـة والرشوة والنظام الربوي ، والمعاملات التـي تعمل على افساد الواقـع السياسي والاجتماعي فتتحـول تلك المواجهة الى محاربـة المحتكريـن والمستغلين والمرابـين والغشاشين واللصوص وتجار السياسة والـدين ومثيري الفتن والحروب كطريق من طرق الاثراء غير المشروع على حساب حياة الناس واستقرارهم ، وهذا هو الموقف الذي يؤكد للنـاس الخطـة الاسلامية الشاملة للتنظيم الكامل للحياة بجميع جوانبها على اساس قوي ثابت ويقطـع الطريـق على اعـداء الدين الذين يعملـون على تشويهه وتصويره بالصورة القاتمة التي تحصره في نطاق ضيق في التشريع العبادي والاخلاقي المثالي الذي لا يقترب مـن حياة الناس وآلامهم الا بطريقـة تخديرية مثالية •• ويثـيرون الحروب الاعلامية ضد العاملـين للاسلام باعتبارهم حلفاء طبيعيين للانظمة الاحتكارية والاستغلالية وللقائمين عليها من المحتكرين والمستغلين والمرابين لانهم لا يثيرون الضجة عـلى الفساد الاقتصادي واصحابه ، بل يكتفون باثارة الحملات على الفساد العقائدي والاخلاقي الذي قد يرتبط كثيرا بالفساد الاقتصادي •

اننا نثير هذه القضايـا لنواجهها من خلال خطـة مدروسة مرتبطة بالخطة العملية الشاملة لحركة الدعـوة واسلوبها في عرض الاسلام امام الناس لان ذلك هو واقع الاسلـوب الاسلامي الذي اوضحـه القرآن الكريم في تشريعاته وفي مفاهيمه ، وفي حركته العملية التي تعتبر امتدادا لحركة النبوات والرسالات الالهية في الكون •• وبهذا نبتعد عن الذهنية

المحدودة التي تخضع في تخطيطها وحركتها لردود الفعل الآتية من الآخرين لا الى قناعاتها بضرورة التفكير الواسع العميــق الذي يستبق المشاكل قبل حلولها لمنع حلولها ، ويواجه ردود الفعل قبل حدوثها ليمنع حدوثها. لان عظمة الحركة ــ أية حركة ــ بمقــدار ما تمهد الطريق للحيــاة التي تتقدم فيها الايجابيات على السلبيات وتحقق الارباح بعيدا عن الخسائر لتكون ردود الفعل « لو حدثت » واقعة خارج نطاق الخطأ كاحتجاج من الآخرين على عدم حدوث الخطأ .. وتلك هي قيمــة القرآن في قضايــا التشريع ، وقصص التاريخ .. انه يثير امام الانسان قضايا كثيرة ليفكر فيها تفكيرا هادئا سليما يوحي بالثقة ويعين على السير في الاتجاه السليم.

خاتمـة المطـاف :

وربما كان في هذا المقــدار الذي اقتطفنــاه من فصل « الحــوار القصصي في القرآن » من كتابنا « اسلوب الحوار في القرآن » ، ما يكفي لتوضيح الفكرة التي أردناهــا في هذا الفصل من اعتبار التاريخ الديني للانبياء اساسا للانطلاق الى تجاربنا من خلال التجارب الرسالية .. وقد يكون من واجب العاملين في سبيل تربية اسلامية رسالية ان يتوفروا على دراسة التجربة النبوية ، بشكل مفصل دقيق ، فان هذا الاتجاه يمنحهم فهمــا جديدا للقرآن ، ويغني ثقــافتهم بمــادة غنية بكل ألوان الثقافة الاسلامية الممتدة من اعماق التاريخ الى آفاق المستقبل .



دروس في حياة
النبي محمد (ص)

كانت حياة النبي محمد (ص) رسالة كلها ، تتمثل فيها معالم الرسالة ومفاهيمها ، لتكون التجسيد الحي الذي يتحرك فيجد الناس الرسالة في صورة انسان ، ولهذا كانت حياته قدوة وشريعة فكانت افعاله كأقواله دروسا اسلامية عملية •• وقد جاء في الحديث المأثور « ان خلقه القرآن» وبذلك كانت تجربته كانسان لا تختلف عن تجربته كرسول، اذ لا ازدواجية بين الشخصيتين في ذاته بل هي شخصية واحدة تؤكد على الخصائص الانسانية في الرسالة من خلال حركة الانسان في حياته وتبلور جانب الرسالة الواقعي في حركة الانسان الرسالي وبهذا فاننا سنجد في القرآن كل عناصر تجربة محمد الانسان الرسول ، الذي تمتزج فيه شخصيتان لانهما كانا ممتزجتين في خلق الاسلام كدين •• فلا بد للداعية من ان يلاحق التجربة في القرآن في كل اساليب النبي ومواقفه وخطواته ليستفيد منها في تجربته المعاصرة •• وقد نجد في السيرة النبوية الشريفة اللمحات الخاطفة التي تستطيع ان تغنينا في حركة العمل الاسلامي ••

ففي التجربة السابقة على الهجرة ، نجد ان بداية الدعوة ــ فيما تحدثنا السيرة ــ تتمثل في نقاط مهمة ، فقد اطلق النبي الدعوة في مجتمعه بشكل اقرب الى السرية منه الى العلنية فكان يتصل بالافراد واحدا واحدا، ويطلب منهم ان يتصل كل واحد منهم بغيره في سرية وخفاء، لانه كان يريد ان يوجد قاعدة متماسكة ولو صغيرة ، ينطلق منها العمل بقوة حتى لا يزول العمل لدى اي ضغط مفاجيء ••

وقد نستطيع ان نفهم من خطوات بعض هؤلاء الذين خاطبهم النبي بالدعــوة ، ان اسلامهم قد بقــي في اطــار السريــة الى نهــاية حياتهم حتى خيل للكثيرين انهم لم يدخلوا الاسلام وذلك مثل (ابي طالب) عم النبي ، الذي كفله ورباه وآواه ونصره .. فقد كانت الرسالة بحاجة الى شخصية قوية تدعمها وتدعم النبي ، من دون أن تكون طرفا في المعركة .. فكان هذا الرجل وتلك الشخصية الفــذة .. ولولا ذلك لم نستطع ان نفسر كل المصاعب التي لاقاها في سبيل حماية النبي ورسالته او اقــراره ولده « علياً » على دخوله في الاسلام معلقا على ذلك بأنه لم يدعك الا الى خير .. او كلماته التي تبدر منه في بعض الحالات بما يشف عن تلك الــروح المؤمنــة الصافيــة ... امــا التفسير الذي يضعــه البعض ، من اخضاع ذلك الى الحمية ، وغيرها من الجوانب العائلية والعاطفية فلا نحسب انه يثبت للنقد ، لان الانسان يختلف مع انسان آخر في العقيــدة لا سيما اذا كانت العقيدتان متباينتين متنافرتين ، لا يمكن أن يقف موقف الحياد الى آخر الشوط دون ان تبدر منه كلمة تأفف او تذمر او غير ذلك من كلمات الرفض والاحتجاج كما وجدنا ذلك في عمه الثاني (ابي لهب) فلذلك نستطيع ان نفهم التعاطف بين بني هاشم وبين الدعوة الاسلاميــة لان التاريخ لم يذكر لنا أي موقف عنف لهــم في هذا المجال . ولسنــا بصدد البحث عن هذا الجانب من حياة ابي طالب ، ولكننا نريد الاشارة الى هذا الجانب من حياة الدعــوة .. حسب اجتهادنا .. وكل ما نريــد قوله : هو ان على الباحث أن يضع في حسابه المرحلة السرية للدعــوة في البداية ، وحاجة الرسالة الى الشخصية القوية اجتماعيا لتدعم وتفــاوض من مركز قوة ، لتكون سبيلا الى اعطاء الدعــوة حرية في الحركة بأقــل قدر ممكن من الضغط .. مما جعــل بقاءها على حالة السريــة ضرورة رسالية .. حتى بعد خروج الدعوة الى العلن .. فاذا وضع الباحث ذلك كله في حسابه ودرس حياة هذا الرجل كلها بدقة وموضوعية استطاع ان

يفهم كيف يكون اسلام هذا الرجـل حقيقة تاريخية لا مجال للشك فيها أبدا بالرغم من بعض النصوص التي توحي بكثير من الشك والافتعال ..

النقطـة الثانيـة :

ان الدعوة قد مرت في المرحلة الاولى ، بالدور المسالم الذي لا يثير في وجه الآخرين أي نوع من انواع التحدي والمجابهة والعداء .. فقـد كانت الدعوة للايمان بالله الواحد وللشهادة برسالة محمد ، من دون ان تعلن الحملة على عبادة الاصنام وعبادة القوم لها .. ولم يكن هذا الامر مثيرا لاي نوع من انواع الحساسية ضد الرسالة .. لان القوم لم يكونوا ملحدين حتى يتنكروا لدعوة التوحيد ، ولم يكونوا مشركين بالله بالمعنى الفلسفي للاشراك الذي يتمثل في الايمان بقوتين خالقتين ــ فيما يبدو ــ بل كانوا مشركين بالمعنى العبادي للكلمة في تقديسهم للاصنام وعبادتهـم لها لانها تحمل من المعاني القدسية ما يجعـل لها قربا الى الله ودالة عليه فتكون بمثابة القوى الشافعة ، التي تقربهم الى الله زلفى كما تعبر الآية الكريمة [1] .. أما الدعوة الى الايمان بالرسالة فلم تكن مشكلة بالنسبة اليهم .. وربما كانت باعثة على التندر والتفكه واللامبالاة لديهم .. كما يوحي الينا بذلك النص التاريخي الذي جـاء في السيرة النبوية الشريفة ــ كما ورد في طبقات ابن سعد ــ قال : أمر رسول الله (ص) ان يصدع بما جاء من عند الله ، وان ينادي الناس بأمره وان يدعوهم الى الله فكان يدعو من اول ما نزلت عليه النبوة ثلاث سنين مستخفيا الى ان أمر بظهور الدعاء .. وقال .. في رواية اخرى : دعا رسول الله (ص) الى الاسلام سرا وجهرا فاستجاب لله من شاء من احداث الرجال وضعفاء .. س حتى كثر من آمن به ، وكفار قريش غير منكرين لما يقول ، فكان اذا مر عليهم

---

(١) ... ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى .

في مجالسهم يشيرون اليه ان غـلام عبد المطلب ليكلّم من السماء فكان ذلك حتى عاب الله آلهتهم التي يعبدونها من دونه ، وذكر هلاك آباءهم الذين ماتوا على الكفر فشنفوا لرسول الله عند ذلك وعادوه [1] .

وقد يكون السبب في ذلك : هو ان يعطي الرسالات مجالا للانطلاق من ضغوط مباشرة ليكون لها حرية الحركة في بداياتها الاولى ، من اجل تركيز القاعدة الرئيسية في ظروف طبيعيــة .. وهكذا كان كما صرح به النص السابق .. في دخول الكثيرين من احداث الرجال وضعفاء الناس الذين لا يجدون أي مانع لديهم في الدخول في الاسلام من ناحيه ذاتية بل كل ما هناك ، انهم يخشون من الاضطهاد ويخافون من العذاب ، فاذا لم يكن الجو خانقا او ضاغطا من هذه الجهــة ، كانت قضيــة دخولهم في الاسلام ، طبيعية جدا ، لان الاحداث يلتقون فيه بالفطرة ، ولان الضعفاء يجدون في عقيدته ومفاهيمه وتعاليمــه الشعور بالكرامــة والاحتــرام لانسانيتهم والحل المستقبلي لمشكلتهم ..

النقطـة الثالثـة :

هجرة المسلمين الى الحبشة .. فقد بدأ الاضطهاد القرشي الكافر للمسلمين بشكل عنيف وغير محتمل بحيث وقف المسلمون بين خيارين ، الخضوع للضغط الكافر في خروجهم عن دينهم ، او الهجرة الى أي بلد آخر .. يأمنون فيه على دينهم .. وكان الخيار الثاني هو الموقف الطبيعي لقوة الايمان وثباته وعمقه ، اذ لا يمكن لهؤلاء الذين ذاقوا حلاوة الايمان وعرفوا الطريق الحق ، وانفتحوا على النور المتدفق من قلب الرسالة على الحياة ، أن يتراجعوا عن ذلك ، او ينحرفوا عنه ، او يستسلموا الى أي اضطهــاد او اغراء ... ولكنهم كانوا يريــدون ان يعيشوا اسلامهم في

---

(٢) طبقات ابن سعد ج ١ ، ص ١٩٩ .

أنفسهم ، وفي حياتهم ، وفي حياة الآخرين مما لا يتوفر لهم ، لو قدّر لهم البقاء في مكة ، لانهم سوف نظلون يمارسونه في سرية خانقة .. مع خوفهم من نقاط الضعف التي قد تقتحم على الانسان حياته من دون شعور .. وكانت المبادرة من رسول الله (ص) تأكيدا على واقعية الرسالة في وعيها لموضوع الصبر والصمود .. فقد يصبح شيئا مثاليا او خياليا لو كانت الدعوة اليه في مجال لم تجتمع فيه مقوماته او شروطه ، بل كانت في مصلحة الموقف المضاد وهو الانهيار والاستسلام وبذلك يكون تكليفا بغير المقدور وهو قبيح بحكم العقل والعقلاء كما يقول علماء الكلام فلا يمكن ان يصدر من رسول الله (ص) الذي ينطق عن الله ، فيما يأمر به او ينهى عنه والله يقول :

لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا
٢ : ٢٨٦

وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ في الدِّينِ مِن حَرَجٍ ٢٢ : ٧٨

ولهذا كان الموقف الطبيعي ان يصمدوا في رسالتهم ويصبروا على دينهم في أرض أخرى يمكن لهم ان يتنفسوا فيها هواء الحرية .. فينمّوا ايمانهم ، كطريق للوصول الى ايمان الآخرين .. ولهذا قال لهم رسول الله ــ فيما ترويه السيرة ــ تفرقوا في الارض ، فقالوا : اين نذهب يا رسول الله .. قال : ههنا ، واشار الى الحبشة ــ وكانت أحب الارض اليه ان يهاجر قِبَلها ــ فهاجر ناس ذوو عدد من المسلمين ، منهم من هاجر بأهله ومنهم من هاجر بنفسه ، حتى قدموا أرض الحبشة » ... وخرجت قريش في آثارهم حتى جاؤوا البحر حيث ركبوا فلم

يدركوا منهم واحدا ، وقالوا : وقدمنا أرض الحبشة فجاورنا بها خير جار أمنّنا على ديننا وعبدنا الله لا نؤذى ولا نسمع شيئا نكرهه » [1] .

النقطة الرابعة :

كانت طريقة رسول الله (ص) في الدعوة منذ اعلانه الرسالة في تحركه العلني ، في مكة انه « يوافي المواسم كل عام يتبع الحاج في منازلهم في المواسم بـ (عكاظ) و (مجنة) و (ذي المجاز) يدعوهم الى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه ولهم الجنة ، فلا يجد احدا ينصره ولا يجيبه ، حتى انه ليسأل عن القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة ويقول : يا أيها الناس قولوا لا اله الا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب وتذل لكم العجم واذا آمنتم كنتم ملوكا في الجنة . و (ابو لهب) وراءه يقول : لا تطيعوه فانه صابىء كاذب ، فيردون على رسول الله (ص) أقبح الرد ويؤذونه ويقولون : اسرتك وعشيرتك اعلم بك حيث لم يتبعوك ، ويكلمونه ويجادلونه ويكلمهم ويدعوهم الى الله ويقول : اللهم لو شئت لم يكونوا هكذا .. »

اننا نستوحي من هذه الطريقة عدة جوانب :

الاول : ايصال الدعوة الى كل مكان وجماعة بشكل شخصي ومباشر لان الاسلوب الذي يتبع الدعوة العامة لا يحقق الهدف المطلوب، وهو الدخول في المبدأ والتفاصيل معا ، واثارة اجواء الحوار من خلال اثارة علامات الاستفهام التي تبحث عن وضع النقاط على الحروف مما يعطي وضوحا في الرؤية واستعدادا طبيعيا ــ ولو بعد حين ــ لتفاعل القضايا المطروحة في نفوس الناس ، عندما ترتفع الحواجز عن الساحة ،

---

(1) طبقات ابن سعد ج ۱ ، ص ۲۰۳ ــ ۲۰٤ .

ويزول الضغط عن النفوس والعقول ، ولهـذا كانت زيارة الحجـاج في منازلهم ، ومحاولة التعرف عليها مسبقا بشكل يقرب من الالحاح سبيلا طبيعيا لتحقيق ذلك .

الثاني : محاولة التعرف على قبائـل العرب ورؤساءهم عن كثب ليأخذ فكرة واضحة عنهم وعن عقلياتهم وأوضاعهم هذا من جهة ..

ومن جهة ثانية : محاولـة تعريفهم بنفسه ليأخـذوا عنه الصورة الصحيحة ، من خلال دعوته وطريقة تفكيره ، وطبيعة القضايا التي يثيرها ويدعو الى الايمان بها ، واسلوب حديثه وكلامه ، وسعة عقله وفكره .. ليكون ذلك خطة عملية لتحطيم الدعايـات التي اثارتها قريش ضده من نسبة الجنون والسحر والشعر اليه .. من دون ان يخشى على خطته تلك من موقف عمه ابي لهب وغيره ونسبته الى الكذب ، لانه لم يكن ــ فيما يبدو ــ يفكر باللحظات الآنية بل كان يفكر بالمستقبل عندما يرجع هؤلاء الى بلادهم ويبتعدون عن اجواء مكة المحمومة بالعداوة له ، فيجلسون في نواديهم ويتحدثون عما رأوه وعما شاهدوه في رحلتهم ليتناقشوا في ذلك كله ، او ليفكروا فيه بينهم وبين أنفسهم ... حيث يسترجعون ملامـح الصورة تدريجيا فتتضح لهم حقيقتها بشكل كامل واضح .

الثالث : انه كان يفتش ــ من خـلال ذلك ــ عن قاعدة اقليميـة وبشرية للاسلام ، لان مكة لم تكن صالحـة للانطلاق منها الى العالم ، نظرا الى القوة المضادة فقد كانت قاعـدة للشرك والطغيان ، وليس من المستطاع ــ من وجهة عملية ــ تفجيرها وتحطيمها من الداخل ، بل يجب البحث عن مكان آخر يحشد فيه القوة ، التي يقاوم بها هذه القوة الطاغية .. لهذا كانت محاولاته الدائبة المجهدة تتحرك في هذا الاتجاه دون تعب او كلل حتى نجحت هذه المحاولات عند لقاءه بأهل يثرب في نهاية المطاف

(كما سنرى فيما يأتينا من حديث) . وقد نستطيع القول بأن بقاء النبي في مكة مدة ثلاث عشر سنة لم يكن أمرا يجري مجرى الصدفة ، بل ربما كانت خطة محكمة لاستغلال مركز مكة الديني والثقافي والتجاري الذي كان يجمع اليه الناس من كل مكان في سبيل ايصال صوت الدعوة الى كل مكان في الجزيرة العربية وغيرها مما لا يمكن الحصول عليه في أي بلد آخر ، فيوفر على الرسالة جهودا كبيرة ، ومصاعب كثيرة ، تستدعي كثيرا من الاسفار والرسل والاموال .. ثم .. في العمل على الوصول الى هدف ايجاد القاعدة القوية للمجتمع الاسلامي الجديد ، من اجل تحقيق الانطلاقة الاسلامية نحو العالم . حتى اذا استكملت الخطة مراحلها ووصلت الى هدفها .. كانت الهجرة من مكة الى يثرب ..

النقطة الخامسة :

خروجه الى الطائف : جاء في طبقات ابن سعد ـ قال : لما توفي ابو طالب تناولت قريش من الرسول (ص) واجترأوا عليه فخرج الى الطائف ومعه زيد بن حارثة وذلك في ليال بقين من شوال سنة عشر من حين نُبّئ رسول الله (ص) فأقام بالطائف عشرة ايام لا يدع احدا من اشرافهم الا جاءه وكلمه ، فلم يجيبوه وخافوا على احداثهم فقالوا يا محمد اخرج من بلدنا والحق بمجابك من الارض وأغروا به سفهاءهم فجعلوا يرمونه بالحجارة حتى ان رجلي رسول الله (ص) لتدميان وزيد ابن حارثة يقيه بنفسه فانصرف رسول الله (ص) من الطائف راجعا الى مكة وهو محزون لم يستجب له رجل واحد ولا امرأة ، فقال له زيد بن حارثة : كيف تدخل عليهم ـ يعني قريشا ـ وهم اخرجوك .. فقال : يا زيد ان الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا وان الله ناصر دينه ومظهر نبيه[1]، ويروي ابن هشام في سيرته ، انه اطمأن رسول الله (ص) الى حائط لعتبة

(١) طبقات ابن سعد ج ١ ، ص ٢١١ ـ ٢١٢ .

ابن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة وقال ـ فيما ذكر له ـ اللهم اليك اشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين انت رب المستضعفين وانت ربي الى من تكلني ، الى بعيد يتهجمني ام الى عدو ملكته أمري ان لم يكن بك علي غضب فلا ابالي ولكن عافيتك هي اوسع لي اعوذ بنور وجهك الذي اشرقت له الظلمات ، وصلح عليه امر الدنيا والآخرة من ان تنزل بي غضبك او يحل علي سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة الا بك (1) .

ونقف مع هذه القضية وقفة التقديس لهذا الموقف الرسولي الذي يبقى مع الرسالة في تجربة المواقف ، وفي اقامة الحجة ، فلا مجال لهدوء ، ولا مكان للراحة ولحب السلامة .. فان هاجس الدعوة في قلبه وفي دمه لا يتركه لحظة في نومه وفي يقظته .. انه يدعوه للبحث عن منطلق جديد وموقع جديد ، يتحرك فيه من مركز القوة .. وليست القضية ان يستكمل عناصر النجاح منذ البداية سلفا ، بل يكفيه ان يلاحق احتمالات النجاح، حتى اذا تم له ذلك ، كان هو الذي أراده ، واذا لم يتم له ما يريد ، فحسبه انه أدى الرسالة ، وأقام الحجة .. وتلك هي قضية الرسالة .. وقضية الرسل .. فهم يلاحقون التجربة لتنتج موقفا ، او لتفتح قلبا ، او لتسمع أذنا .. لان مهمتهم ان يشقوا الطريق للحق ، ويصنعوا اجواء الرسالة ، ويفتحوا العقول على مبادىء الدعوة ومفاهيمها .. لتبدأ رحلة التفكير ، لها او عليها كمرحلة من مراحل الايمان الذي ينتظر المستقبل من خلال مواقف الحاضر .. وهذا هو ما أكده القرآن في تأكيده على ان مهمة الانبياء هي الابلاغ والبلاغ .. لانهم لا يملكون السبيل الى قلوب الناس الا بذلك ـ ، وهكذا اندفع النبي الى الطائف وهو يحسب حساب الفشل على مستوى تحقيق الايمان ، لانه قد عرف طبيعة مواقفهم في

---

(1) سيرة ابن هشام ج ١ ، ص ٢٨٦ .

محاولاته في مكة ولكنـــه أراد أن يثير الفكرة في داخـــل مجتمعهم ليثير أحداثهم وشبابهم الذين يتطلعون الى المستقبـــل بعقلية منفتحة واعيــة تتطلع الى المستقبل من خلال الشعور بالحـــاجة الى التجديد في الفكـــر والموقف والاسلوب خلافا للاجيال القديمة المحافظة التي لا تريد ان تترك ما يعبد آباؤها ، او تغير ما تألفه من تقاليدها وكانت تحس بخطر الدعوة الجديدة على الاحداث •• ولهذا كان الحل الوحيد عندهم ان يخرجـــوه من بلدهم حيث لم يكن لهم سبيل الى منع شبابهم عنه ، ولم يكن قدرة على مناقشته في دعوته •• وقد حصل للنبي ما أراده فقـــد أحدث لديهم جوا من التوتر والتساؤل والعنف ، بما استعملوه ضده من اساليب القهر والتنكيل والاهانـــة ، وقـــد استوفى ما أراده من دعوتهم الى الاسلام وابلاغهم حاجته الى النصرة والمعونة في رسالتـــه مما يجعلهم يفكرون به اياما طويلة سيظهر اثرها العملـــي فيما بعد •• عندما ترتفـــع الحواجز ، وتزول الضغوط وتنطلق قوة الاسلام لتحقق للانسان حريته في الايمـــان بالله دون خوف من القوى المضادة له ••

اما ما عاناه من عذاب وتنكيل وسباب ، فهو قدر الرسالات والرسل في كل زمان ومكان •• وهو نقطة البداية في ولادة الفجر الجديد من بين الآلام والدموع •

ويبقى الامل ، كمثل احلام الصباح ، في ظلمة الليل الطويل •• لان الله وعد الرسل بالنصر •

ومن أصدق من الله وعدا ، ومن اعظـــم من الله قدرة على تنفيـــذ ما يريد • ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا •• وذلك هو ما أراد النبي ان يقوي به موقف زيد بن حارثة لما خاف عليه من دخول مكة بعد اخراج قريش له منها •• فان زيدا كان ينظر بمنظار اللحظة الحاضرة

اما النبي فهو كالانبياء في كل زمان ومكان ، ينظرون بعين الايمان بالله ، الى المستقبل الذي يصنعه الله للحياة بقدرته ورحمته وهدايته ، كما صنع الماضي والحاضر ..

ومهما كان الانبياء أقوياء في أنفسهم .. فانهم يستمدون قوتهم من الله خالق القوة وصانعها ولذا فهم ينتظرون لحظات الضعف البشري الذي يهز المشاعر ، ويستثير القلق ، ولو بمثل اللمحة الخاطفة ليقفوا بين يدي الله في خشوع وايمان ، ومحبة ، في دعاء حار يرجو ويتوسل ويستغيث، في تقرير رسالي روحي خالص يجمع مشاعر القلب والعقل معا ... وتلك هي قيمة لحظات الضعف لدى المؤمنين بالله ، انها تجـدد لهم الاحساس بالحاجة الى الله في عمق الشعور المتوتر ، بعد ان كان الاحساس بالحاجة اليه مرتبطا بالجانب العقلي والايماني العام في حيـاة الانسان من خلال عقيدته وتفكيره ..

وهكذا وقف النبي محمد (ص) ليناجي الله بعد تلك التجربـة القاسية التي خاضها مع الكافرين وتحمل فيها ما تحمل من العذاب الشديد من هؤلاء ، بعد ان اخرجه قومه ، ولم يبق له قاعدة للقوة يستند اليهـا الا قوة الله العظيمة التي يلجأ اليها الضعفاء ليعطيهم قوة جديدة وروحا جديدة ، فيواصلوا ــ من خلالها ــ رسالتهم ودعوتهم في سبيله .. ولعلها من أروع الادعية التي تعبر عن الحب كله ، والاخلاص كله .. التي تطلب من الله ما تريد ، وترجو منه ما تحب ... ثم تترك الامر اليه ليفعـل ما يشاء ، ويقضي ما يريد ، لانه مالك الامور كلهـا ، لان الهدف كله هو رضاه ، فهو الهدف في حالة الشدة ، وهو الهدف في حالة الرخاء ، وهو الهدف في الحالة التي يقف فيها بين حالات الشدة وبين حالات الرخاء .. فهو حسبنا ونعم الوكيل .

★ ★ ★

النقطـة السادسـة :

قال ابن هشام في سيرته، أتى النبي محمد (ص) بني عامر بن صعصعة فدعاهم الى الله عز وجل وعرض عليهم نفسه فقال لهم رجل منهم ــ يقال له بيحرة بن فراس ــ والله ، لو اني اخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ثم قال له : أرأيت ان نحن بايعنـاك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الامر من بعـدك قال : الامر لله يضعه حيث يشاء قال : فقال له : افنهدف نحورنا للعرب دونك فاذا اظهرك الله كان الامر لغيرنا .. لا حاجة لنا بأمرك ، فأبوا عليه ..

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر الى شيخ لهم ، قد كانت أدركته السن حتى لا يقدر ان يوافي معهم المواسم ، فلما قدموا عليه ذلك العام سألهم عما كان في موسمهم فقالوا : جاءنـا فتى من قريش ، ثم احد بني عبد المطلب يزعم انه نبي يدعونا الى ان نمنعه ونقوم معه ونخرج به الى بلادنا قال : فوضع الشيخ يديه على رأسه ثم قال : يا بني عامر هل لها من تلاف .. هل لذناباها من مطلب ، والذي نفس فلان بيده ما تقولهـا اسماعيلي قط ، وانها لحق ، فأين رأيكم كان عنكم ..

★ ★ ★

اننا نستوحي من هذه القصة :

اولا · الروح الرسالية القدسية التي لا تريد ان تجمع النـاس الى كلمة الايمان من خلال الوعود المعسولة الكاذبـة ، تعطى بغير حساب ، على حساب المستقبل الذي لن يحقق لزم الوعد لانه يمثل القوة التي لا تستطيع ان تنكث من دون ان تخشى العقـاب لان الآخرين يكونون قد أصبحوا في موقع الضعف ، كما يفعل الكثيرون من اصحاب الدعـوات السياسية مع كثير من الاتبـاع عندما يجعلون من الوعـود التي تغرق

الناس بالاحلام طريقا للوصـــول الى مآربهم من تأييدهـــم في مواقفهم وحملاتهم السياسية ••• ولكن الانبياء جــاؤا بالصدق وآمنــوا به ، وانطلقوا برسالتهم من موقع الصدق مع ربهم ومع أنفسهم ومع أممهم •• ومع الحاضر والمستقبل •• ولهذا فهـــم يواجهون الناس بالحقيقــة كل الحقيقة دون مواربة ، فلا يعطون اية كلمـــة للمستقبل ما لم يعرفوا ، من انفسهم ومن الله ، انهم يستطيعون تحقيقها والوفــاء بها ••• حتى لو كانت هذه الكلمة تحقق لهم الربح الكبير على مستوى الحاضر •• وذلك هو موقف النبي العظيم الدي جسد حقيقة الصدق كأروع ما يكون ، مع انه بحاجة الى تأييد هذه القبيلة الكبيرة في موقفه الضعيف بشريا الذي كان ينتظر أية بادرة نصرة من أي فرد ، فكيف بالقبيلة الكبيرة التي تبدي استعدادها للموت دونه اذا أعطاها وعد شرف ـــ مجرد وعد شرف ـــ على ان يكون لها الامر من بعـــده •• فما كان منه ازاء هذا العرض ، الا ان صارحهم بالحقيقة الحاسمة فهو ليس ملكا يملك السلطة من خلال قـــوة ذاتية ، ليستطيع آن يجعلها لكل من يريد من بعده كما يفعل الملوك عندما يصدرون تعليماتهم وارادتهم الملكية بتعيين أوليــاء عهدهم بل هو نبي يستمد سلطاتـــه من الله ، ولم يجعـــل له الله الا النبـــوة التي يتحمـــل مسؤوليتها لابلاغ كلمة الله الى الناس وهدايتهم الى الحق ليخرجهم من الظلمات الى النور •• وتنفيذ ذلك ما استطاع اليه سبيلا •• اما الخلافة من بعده ، فهي لله يضعها حيث يشاء ، وليس له مع أمر الله امر ••

••• وهكذا ابتعد هؤلاء عن النبـــي (ص) لانهم ارادوها عمليـــة تجارية يتبادلون فيها المنافع وارادها النبـــي (ص) رسالة ينطلـــق فيهـــا الانسان للتضحية رغبة فيما عند الله ، ورجاء لثوابه ورضوانه ••

وثانيا : آن هذه القصة تؤكد ما اشرنا اليه من ان الاشخاص الذين يقصدون مكة ، يرجعون الى بلادهم واهلهم ، فيسألون عما رأوه وعمـــا

سمعوه فيحدثونهم بذلك ، ويخبرونه عن موقفهم من هذا الموضوع او ذاك او من هذا الشخص او ذاك ، فقد يوافقونهم على موقفهم ، وقد لا يوافقونهم •• وفي كلا الحالين •• يصبـح الموضوع الذي يدور حوله الحديث قضية مثير للجدل ومجالا للتفكير •• كما رأيناه في موقف هذا الشيخ الذي استطاع ان يعرف ملامح الحقيقة فيما نقله اليه قومه الذين اجتمعوا بالنبي (ص) وطلبوا منه ولاية الخلافة من بعده •• فأنكر عليهم ذلك اشد الانكار حتى انه اطلق كلمته فيما يشبه الاستغاثة والاستشـارة لهم في تلافي ما حدث منهم لان ذلك هو الحق كل الحق •• واعتبر موقفهم هذا من المواقف البعيدة عن الرأي الصائب الذي يكتشف الحق من خلال الفكر النير ، لا من خلال المطامع •

••• وقد كان هذا هو احد الاهداف التي أرادها النبي من زيارته للقبائل في منازلهم ودعوتهم الى الاسلام وعرض موقفهم عليهم من خلال طلبه الايمان به ونصرته على قومه من موقع هذا الايمان وربما كان لنـا ان نقرر ان وفود العـرب التي قدمت على النبي (ص) في المدينـة بعد انتصاره على قريش لتعلن له اسلامها وتبايعـه على الوفاء والنصرة ، لم تندفع بوحي الانتصارات فقط ، بل كان اندفاعها نتيجة تفاعل الدعـوات السابقة ، واللقاءات الماضية التي حققت لهم انطباعا جيـدا عن الرسالة والرسول ، وما لبث ان تحول الى ايمان بعد ارتفاع الموانع التي كانت تقف حائلا بينهم وبين التنفيذ ••

النقطـة السابعـة :

لقد حاولت قريش بكل اساليبها التهديدية والاغرائية على ان تجعل النبي محمد (ص) يتنازل عن شيء من مواقفه ، لا سيما الموقف الذي كان يتناول سب الاصنام ، وتسفيه عقولهم وتخطئـة آباءهـم في تقاليدهـم

وعاداتهم ••• لانها ــ فيما يبدو لنا ــ كانت تخشى من ظهور امر النبي وتعاظم دعوته ، أن يقضي على امتيازاتهم القبليــة التي كانت مصالحهــم التجارية والمالية والسياسية تخضع لها وترتبط بها •• لان المجتمع القرشي ــ في دراستنا لاوضاعه ــ لم يكن مجتمعا متدينــا حتى بالمعنى الوثني للتدين ، فلم نجد في سلوكهم العملي ما يوحي بالتصوف الديني للاصنام بل كان مجتمعا تجاريا ؛ تحكمه مصالحه المالية •• ولهذا بدأوا باعــلان الحرب على النبي (ص) بعد هجرته الى المدينة ، عندما شعروا بأنه يهدد تلك المصالح ، بسيطرته على الطريــق التجــاري الذي كانت تمر عليه قوافلهم من مكة الى الشام •• مما يؤكد لنا هذه الفكرة ••• ويواجهنا في هذا المجال موقفان :

الموقف الاول :

في حديثهم مع عمه ابي طالب في شأنه وانكارهم ما يقوم به رسول الله من مواقف مضادة لآلهتهم وتقاليدهم ومحاولتهم الضغط عليه ليجبره على التراجع عن موقفه او تقديم بعض التنازلات في ذلك •• ثم حــوار ابي طالب مع النبي وجوابه له ••• ووقوفه معه بقوة مهما كان الثمن ••

قال ابن هشام في سيرته :

لما بادى رسول الله (ص) قومه بالاسلام وصدع به كما أمره الله لم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه ــ فيما بلغني ــ حتى ذكر آلهتهم وعابها فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه واجمعوا خلافه وعداوته الا من عصم الله منهم بالاسلام ، وهم قليل مستخفون ، وحدب على رسول الله (ص) عمه ابو طالب ومنعه وقام دونه ومضى رسول الله (ص) على امر الله مظهرا لامره لا يرده شيء ، فلما رأت قريش ان رسول الله (ص) لا يعتبهم من شيء انكروه عليه ، من فراقهم وعيب آلهتهم ورأوا ان عمه ابا طالب قد

حدب عليه وقام دونه فلم يسلمه لهم ، مشى رجال من اشراف قريش الى ابي طالب فقالوا يا ابا طالب ان ابن اخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه احلامنا وضلل آباءنا فاما ان تكفه عنا واما ان تخلي بيننا وبينه فانك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه فقال لهم ابو طالب قولا رقيقا وردهم ردا جميلا فانصرفوا عنه ...

ومضى رسول الله (ص) على ما هو عليه يظهر دين الله ويدعو اليه ثم شرى الامر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال وتضاغنوا، واكثرت قريش ذكر رسول الله (ص) بينها فتذامروا فيه وحض بعضهم بعضا عليه ، ثم انهم مشوا الى ابي طالب مرة اخرى ، فقالوا يا ابا طالب ، ان لك سنا وشرفا ومنزلة فينا ، وانا قد استنهيناك من ابن اخيك فلم تنهه عنا ، وانا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه احلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا ، او ننازله واياك في ذلك حتى يهلك احد الفريقين ، او كما قالوا له . ثم انصرفوا عنه ، فعظم على ابي طالب فراق قومه وعداوتهم ولم يطب نفسا باسلام رسول الله لهم ولا خذلانه .

قال ابن هشام : قال ابن اسحاق : أن قريشا حين قالوا لابي طالب هذه المقالة بعث الى رسول الله (ص) فقال له يا ابن اخي ان قومك قد جاؤوني ، فقالوا لي كذا وكذا للذي كانوا قالوا له ، فابق علي وعلى نفسك ، ولا تحملني من الامر ما لا اطيق قال : فظن رسول الله (ص) انه قد بدا لعمه فيه بدءا وانه خاذله ومسلمه وانه قد ضعف على نصرته والقيام معه قال : فقال له رسول الله (ص) يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الامر حتى يظهره الله او اهلك فيه ما تركته ، قال : ثم استعبر رسول الله (ص) فبكى ثم قام فلما ولى ناداه ابو طالب فقال : اقبل يا ابن اخي قال : فأقبل عليه رسول

الله (ص) فقـال : اذهب يا ابن أخي فقـل ما احببت فوالله لن اسلمك لشيء ابدا ...

* * *

اما قيمة هذه القصة ، فتتمثل في الموقف الحاسم الحازم الذي وقفه رسول الله (ص) من عرض التنازل عن دعوتـه امام تهديد قريش له او لعمه ، فيما نقله اليه ابو طالب .. فقد بدا لنا في موقف العظمة الرسولية التي تضع الرسالة في جانب ، والشمس والقمر في جانب .. ثم لا يتـرك القضية تحتمل وقتا طويلا في عملية التوازن والاختيار ، بل يعطي الموقف حقه من الحسم الفوري ليقرر فيما يشبه الاستشهاد .. انه لن يتـرك الرسالة .. او يموت .. فاما الرسالة واما الموت .. فأين التهديد وأين الاغراء فذلك هو شأن الرسل عندما تكون القضية قضية رسالتهم في كل مجال .

واننا نتحفظ ــ فيما ذكرته السيرة ــ من ان النبي قد استعبر امام عمه ليفسر تجاوب عمه معه بالهزة العاطفيـة التي حصلت لديه امام هذا الموقف العاطفي الفريد .. لاننا لا نجد هناك أي انسجام بين هذا الموقف القوي الذي لا يخلو من شدة وحزموتصميم وبين الموقف الباكي الذي يجسد الشعور بالضعف والوحدة .. بل نجد تنـافرا بين هذا وذاك .. ولسنا ننطلق في هذا التحفظ من الفكرة التي تنفي استسلام النبي لنوازع الضعف البشري فيما لا يرتبط بأمر العصمة فاننا لا نوافق على ذلك من ناحية المبدأ ، لان فكرة البشرية للنبي التي أكدها القرآن تقر وجود مثل هذا الضعف لديه ولكننا ننطلق فيها من طبيعة الموقف لاننا نشعر ــ من خلال هذه الكلمة الخالده ــ بكبرياء النبوة يتعاظم من خلال الشعـور بالعزة والكرامة التي تهز الاعماق في لحظة استشهاد ، لتحضن الرسالة في

قوة وحزم دونها قوة الابطال الاسطوريين • وربما نستشعر ان موقف ابو طالب كان فعل ايمان وهزة انفعال بروعة موقف الرسول امام كرامة الرسالة وهذا هو ما يؤكد نظرتنا الى شخصية ابي طالب كشخصية تلبس لبوس الحياد ، لتدعم الموقف موقف الرسالة من خلال مركزها الاجتماعي الكبير الذي لم يتأثر بالمعركة الدائرة كطرف مما جعل اسلوبه في مستوى الحكمة والمرونة الاجتماعية التي توحي بموقف ولا تصرح به لتنفذ من خلال الضباب الى ما تريد •



الموقف الثاني :

موقف النبي (ص) من الوليد بن عتبة ، وحواره معه •• قال ابن هشام : قال ابن اسحاق : وحدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال : حدثت ان عتبة بن ربيعة ، وكان سيدا قال يوما ، وهو جالس في نادي قريش ورسول الله جالس في المسجد وحده ••• : يا معشر قريش الا أقوم الى محمد فأكلمه واعرض عليه امورا لعله يقبل بعضها فنعطيه ايها يشاء ويكف عنا ، وذلك حين اسلم حمزة ورأوا اصحاب رسول الله يزيدون ويكثرون فقالوا : بلى يا ابا الوليد قم اليه فكلمه ، فقام اليه عتبة حتى جلس الى الرسول فقال يا ابن اخي انك منا حيث قد علمت من البسطة في العشيرة والمكان في النسب وانك قد اتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفهت به احلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم فاسمع مني اعرض عليك اموراً تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها قال : فقال له رسول الله (ص) قل يا ابا الوليد اسمع • قال يا بن اخي ان كنت انما تريد بما جئت به من هذا الامر مالا جمعنا لك من اموالنا حتى تكون اكثرنا مالا ، وان كنت تريد شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع امرا دونك ، وان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وان

كان الذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيــع رده عن نفسك طلبنـــا لك الطب وبذلنا فيه اموالنا حتى نبرئك منه فانه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه ، او كما قال له ، حتى فرغ عتبة ، ورسول الله يستمع منه ، قـــال : فرغت يا ابا الوليد قال : نعم ، قال : فاسمع مني ، قال : افعـــل ، فقال :

« بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تَنْزِيلٌ مِنْ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي أَذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ

٤١ : ١ ــ ٥

ثم مضى رسول الله (ص) يقرؤها عليـــه فلما سمعها عتبة انصت لها والقى يديه خاف ظهره معتمـــدا عليهما ليستمع منه ثم انتهى رسول اللـــه الى السجدة فسجد ثم قال : قد سمعت يا ابا الوليد ما سمعت فأنت وذاك، فقام عتبة الى اصحابـــه فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقـــد جـــاءكم ابو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به فلما جلس اليهم قالوا ما وراءك يـــا ابا الوليد ، قال : ورائي اني سمعت قولا ، واللـــه ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانـــة ، يا معشر قريش اطيعوني واجعلوها بي ، خلوا بين هـــذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم فان تصبه العرب فقد كفيتمـــوه بغيركم وان يظهر على العرب فملكـــه ملككم وعزه عزكم ، وكنتم اسعد

الناس به قالوا : سحرك والله يا ابا الوليد بلسانه قال : هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم [1] .

* * *

وقد نجد في هذا الموقف بعض الايحاءات الواقعية بالاسلوب العملي للدعوة الاسلامية .. ففي بداية الامر نلاحظ وجود اصوات عاقلة هادئة في حياة الرسالات تدعو الى الوقوف أمام الرسالة موقفا موضوعيا، يفكر فيما تدعو اليه بهدوء ، ويواجه صاحبها بمحبة ، ويطلب من خصومها ان يفتشوا عن الحل بالحاح ، ولو بالتركيز على التجميد العملي للصراع ...

ونلاحظ الى ـ جانب ذلك ـ ارتفاع الاصوات الصاخبة التي تشير الى هذه الاصوات بانكار والى اصحابها باتهامهم بأساليب الارهاب الفكري التي تكيل الاتهامات بلا حساب ، لتمنع الاصوات الطيبة ان تنفذ الى عقول الطيبين الذين يفتشون عن الاجواء الهادئة التي تتيح لهم التفكير بهدوء وتحصيل القناعة الفكرية والروحية بحرية ومعرفة . هذا من جهة .. ومن جهة ثانية : تؤكد قيمة الاسلوب النبوي الذي واجه به النبي محمد (ص) هذا الرجل فقد استمع اليه بهدوء حتى ظن انه سيناقش معه العروض التي عرضها عليه ليصل الى النتيجة المطلوبة في حل المشكلة بينه وبين قريش .. ولكن النبي طلب من الرجل ان يستمع اليه ، كما استمع هو اليه ، وفاجأه بالآيات الكريمة التي قرأها عليه لينقله من جو العروض المادية الى جو روحي بعيد كل البعد عن ذلك ينطلق فيه الانسان الى آفاق الله الفسيحة مرورا بقضايا الحياة في صراع الحق والباطل والخير والشر ، واصناف الناس بين من يفتح قلبه للايمان وبين من يغلق قلبه عنه .. وترق المشاعر وتهدأ الانفعالات ، وتصفو النفس ، وتنساب

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ، ص ١٨٩ ـ ١٩١ .

الآيات في هدوء الوحي ووداعته ، كمثل الصباح الوديع في طهره وصفاءه ... ويدخل الوليد في هذا الجو الروحي اللذيذ الطاهر الذي لم يكن له عهد به ... وينتهي الجو بالوصول الى القمة الروحية التي ترتفع اليهـا المشاعر ، فتعبر عن نفسها بالسجود لله .. لان ذلك يمثل منتهى العظمة والسمو الروحيين في رحلة الانسان الى الله ... ويترك النبي الرجل ... ليقـول له ، بعد ان سمع ما سمع وعاش ما عاش ... انت وذاك فهذا ما أريده منك ومن غيرك ... انه الانفتـاح على اجواء الايمان باللـه ... بارواحكم وقلوبكم ... ثم بالايما نالمنفتح المبصر الواعي ، لا الايمـان الاعمى ، من دون التقاء بينابيعه ، وانطلاق مع آفاقـه وانسجام مع آياته الكبيرة في الحياة ...

.. وفارق الوليد النبي .. وانطلق الى قومه ليفتح عيون قومه على المستقبل الذي ينتظرهم بالتحدي العظيم الصارخ فقد عرف هذا الرجل ملامح هذا المستقبل وخطواته ، من خلال الجو الذي تثيره هذه الآيـات في عمق التأثير وقوته وصفاءه ، فقد عاش هذه الانفعالات الروحيـة في نفسه ، وعرف كيف يمكن ان يعيشها الآخرون ، وكيف يمكن لها ان تثير الناس الذين يلتقون بها في اجواء حيادية متطلعة الى كل جديد ... وطلب من قومه ان يوفروا على انفسهم جهد هذا الصراع وقساوته ، وخطـورة المستقبل المظلم عليهم وتحدياته فيجمدوا اعـلان الحرب علـيه .. لانه سيتركهم ما تركوه فهو صاحب الرسالة ، الذي يعمل على ان تصل الى كل قلب ، وتدخل في كل فكر ، وتقتحم كل باب .. فليس من هدفه انيقاتل، بل كل هدفه ان يهدي ويبلغ ويقيم الحجة البالغة على الناس ، انطلاقا من مسؤوليته الرسالية ، امام الله .. ولم يقبل منه قومه ، ذلك لانهم كانوا لا يتطلعون الى المستقبل القوي في موقع الرسالة ، بل كانوا ينظرون الى الحاضر من خلال عنجهياتهم وكبرياءهم في بلاهة وصلف ، فيحسبون ان

الحاضر والمستقبل بيدهم ، فهم الذين يقررون مصير الرسالة والرسول ، فكيف يمكن لهم ان يسالموه او يهادونه ، بعد ان كان في قبضة ايديهم ، وهكذا كان .. واسدل الستار عن الموقف ..

النقطة الثامنة : في لقاء النبي محمد (ص) باهل يثرب .. فقد نجحت محاولات النبي محمد (ص) في جولته على جماعات الحجاج ، في نهاية المطاف ، فكان اللقاء الاول بجماعة صغيرة من هذا البلد التقاهم بمنى ، وعددهم ثمانية نفر ، فعرض عليهم الاسلام فاسلموا وقال لهم ، رسول الله (ص) تمنعون لي ظهري حتى ابلغ رسالة ربي .. فقالوا يا رسول الله نحن مجتهدون لله ورسوله نحن فاعلم ، اعداء متباغضون ، وانما كانت وقعة بعاث عام الاول ، يوم من ايامنا، اقتتلنافيه فان نقدم ونحن كذا لا يكون لنا عليك اجتماع ، فدعنا حتى نرجع الى عشائرنا لعل الله يصلح ذات بيننا، وموعدك الموسم العام المقبل،ثم قدموا الى المدينة فدعوا قومهم الى الاسلام فاسلم من اسلم ، ولم يبق دار من دور الانصار الا فيها ذكر من رسول الله .. فلما كان العام المقبل ، لقيه اثنا عشر رجلا بعد ذلك بعام ، فاسلموا وبايعوا على بيعة النساء ، على ان لا نشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل اولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه بين ايدينا وارجلنا ولا نعصيه في معروف قال : فإن وفيتم فلكم الجنة ومن غشي من ذلك شيئا كان امره الى الله ان شاء عذبه وان شاء عفا عنه ، ولم يفرض يومئذ القتال ، ثم انصرفوا الى المدينة ، فاظهر الله الاسلام ، وكتب الاوس والخزرج الى رسول الله (ص) ابعث الينا مقرئا يقرئنا القرآن فبعث اليهم مصعب بن عمير العبدري . فلما حضر الحج مشى اصحاب رسول الله الذين اسلموا بعضهم الى بعض يتواعدون المسير الى الحج ، وموافاة رسول الله (ص) والاسلام يومئذ فاش في المدينة .. فخرجوا وهم سبعون يزيدون رجلا او رجلين في غمرة الاوس والخزرج وهم

خمسمائة • حتى قدموا على رسول الله مكة ، فسلموا على رسول الله ثم واعدهم ، منى وسط ايام التشريق ليلة النفر الاول اذا هدات الرجل ان يوافوه في الشعب الايمن اذا انحدروا من منى باسفل العقبة حيث المسجد اليوم ، وامرهم ان لا ينبهوا نائما ولا ينتظروا غائبا • فخرج القوم بعد هدأة يتسللون الرجل والرجلان وقد سبقهم رسول الله الى ذلك الموضع ، ومعه العباس بن عبد المطلب ، ليس معه احد غيره • ثم توافى السبعون ومعهم امرأتان ، فكان اول من تكلم العباس بن عبد المطلب فقال: يا معشر الخزرج انكم قد دعوتم محمدا الى ما دعوتموه اليه ، ومحمد اعز الناس في عشيرته ، يمنعه والله منا من كان على قوله، ومن لم يكن منا على قوله يمنعه للحسب والشرف وقد ابى محمد الناس كلهم غيركم فان كنتم اهل قوة وجلد وبصر بالحرب واستقلال بعداوة العرب قاطبة ترميكم عن قوس واحدة فارتأوا رأيكم وأتمروا بينكم ولا تفترقوا الا على ملأ واجتماع فان احسن الحديث اصدقه ، فقال البراء بن معرور : قد سمعنا ما قلت وانا والله لو كان في انفسنا غير ما تنطق به لقلناه ولكنا نريد الوفاء والصدق وبذل مهج انفسنا دون رسول الله (ص) قال : وتلا عليهم رسول الله القرآن ثم دعاهم الى الله ورغبهم في الاسلام وذكر الذي اجتمعوا له فأجابه البراء بن معرور بالايمان والتصديق ثم قال : يا رسول الله بايعنا فنحن اهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر ، وقالوا : نقبله نقبله على مصيبة الاموال وقتل الاشراف ولغطوا فقال العباس بن عبد المطلب اخفوا جرسكم فان علينا عيونا وقدموا ذوي اسنانكم ، فيكونون هم الذين يلونا كلامنا منكم فانا نخاف قومكم عليكم ثم اذا بايعتم فتفرقوا الى محالكم •• ثم ضرب السبعون كلهم على يد رسول الله (ص) وبايعوه •• فقال لهم ان موسى اخذ من بني اسرائيل اثني عشر نقيبا فلا يجدن منكم احد في نفسه ان يؤخذ غيره فانما يختار لي جبريل ، فلما تخيرهم قال للنقباء انتم كفلاء على غيركم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم وانا كفيل على قومي

.. قالوا نعم فقال لهم رسول الله (ص) فانفضوا الى رحالكم ، فتفرقوا الى رحالهم . فلما اصبح القوم غدت عليهم جلة قريش واشرافهم حتى دخلوا شعب الانصار فقالوا يا معشر الخزرج : انه بلغنا انكم لقيتم صاحبنا البارحة وواعدتموه ان تبايعوه على حربنا وايم الله ماحي من العرب ابغض الينا ان تنشب بيننا وبينه الحرب منكم قال : فانبعث من كان من الخزرج من المشركين يحلفون لهم بالله ما كان هذا وما علمنا ، فلما رجعت قريش من عندهم رحل البراء بن معرور فتقدم الى بطن ياجج وتلاحق اصحابه من المسلمين وجعلت قريش تطلهم في كل وجه ولا تعدوا طرق المدينة وحزبوا عليهم فادركوا سعد ابن عباده ، فجعلوا يديه الى عنقه بنسعة وجعلوا يضربونه ويجرون شعره وكان ذا جمة ، حتى ادخلوه مكة، فجاءه مطعم بن عدي والحارث بن امية فخلصاه من بين ايديهم [1] .

اننا نستفيد من هذه القصة عدة امور :

الاول ــ ان المحاولات الفاشلة المتكررة التي واجهت النبي في دعوته القبائل القادمة الى مكة للاسلام ، لم تدفعه الى اليأس والاستسلام للفشل ، واجترار احزان الهزيمة .. بل كانت حافزا للالحاح على مواصلة التجربة ما كان له الى التجربة سبيل .. كاخوانه من الانبياء الذين تقدموه وواجهوا الفشل بروح الامل الممتد على اساس من الايمان بالله والثقة بوعده الرسل بالنصر .. وهكذا التقى النبي بالطليعة الاولى من اهل يثرب الذين كانوا يترقبون خروج نبي من مكة .. من خلال اخبار اليهود لهم بذلك ، فيما كانوا يقرأونه عليهم من التوراة من صفات النبي الذي يخرج من مكة ومهاجرته الى يثرب ، مما جعلهم يعيشون الاجواء النفسية المتطلعة الى ذلك ، المستعدة للايمان من خلال الاذعان به ، او انتهاز

---

(١) طبقات ابن سعد ج ١ ، ص ٢١٨ ــ ٢٢٣ .

الفرصة السانحة لربح الموقف على اليهود .. وقد حدث بعض الرواة بذلك فيما رواه ابن اسحاق قال : وكان مما صنع الله بهم في الاسلام ان يهود كانوا معهم في بلادهم وكانوا هم اهل الشرك واصحاب اوثان وكانوا قد غزوهم ببلادهم ، فكانوا اذا كان بينهم شيء قالوا لهم ان نبيا مبعوثا الآن قد اظل زمانه ، تتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وارم . فلما كلم رسول الله اولئك النفر ودعاهم الى الله قال بعضهم لبعض يا قوم تعلمون والله انه للنبي الذي توعدكم به اليهود ، فلا يسبقنكم اليه فاجابوه فيما دعاهم اليه بان صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلام وقالوا : انا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى الله ان يجمعهم بك فسنقدم عليهم ، فندعوهم الى امرك وتعرض عليهم الذي اجبناك اليه من هذا الدين فان يجمعهم الله عليه فلا رجل اعز منك (٢) .

وبهذا نفسر هذا المد الاسلامي السريع الذي شاهدناه في التجاوب الشامل مع الدعوة الاسلامية ، وتؤكد على استيحاء الدروس العملية في التركيز على مواصلة التجربة في حركة الانسان في الدعوة الى الله ، مهما كانت قيمة البوادر الكثيرة للفشل ، وفي ملاحقة الاجواء التي تتمتع بارضية خصبة صالحة للعمل ، من خلال دعوات سابقة او من اعداد نفسي خاص منبثق من بعض الظروف والاوضاع الاجتماعية والدينية ، مما يجعل النفوس حاضرة للالتقاء بالدعوة الاسلامية ، في اول تجربة للدعوة من قبل اصحابها العاملين .. فقد نخرج من هذه الملاحقة باكتشاف كثير من المجالات العملية لبناء القاعدة الاسلامية في بلدان ومجتمعات كثيرة عاشت فيها بعض المعاني الحية التي تلتقي بمعاني الدعوة ومفاهيمها مما يفسح لها المجال للتقدم ، أو يقرب الآخرين الى اجواءها — على الاقل — الثاني : ان النبي (ص) بايع الجماعة الثانية التي التقى بها في العام الثاني

---

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ، ص ٢٩٢ .

على اساس بيعة النساء التي يلتقي فيها الانسان المسلم بمنهج عقيدي وعملي بسيط ، لا تعقيد فيه ولا التواء بل كان قريبا الى الفطرة ، لا يحتاج الى عمق في التفكير ، ولا الى دخول معقد في تفاصيل كثيرة او طويلة تبعد الانسان عن بدايات الفكرة عندما يصل به الشوط الى آخرها .. وربما نستطيع الاستفادة من ذلك في اسلوب الدعوة في حياتنا المعاصرة .. فلا نعمل ، كما يعمل البعض في اغراق الناس بالتعقيدات الفكرية ، الفلسفية منها والاجتماعية ولان تلك التعقيدات كانت وليدة عوامل الصراع المعقدة ، في مجالات بعيدة عن الفطرة الصافية البسيطة التي تستجيب للشفاء والبساطة والوضوح اكثر مما تستجيب للاساليب الضبابية الغامضة ... [1] وبذلك يتجه التفكير الى القيام بعملية تنويع للاساليب حسب المجالات التي يتحرك فيها الدعاة ، فتكون البساطة في الفكرة ، وفي اسلوب العرض ، للمجال الذي لا يعاني فيه الانسان من عقدة سابقة ضد العقيدة ، او تفاصيلها بل كل ما يريده هو فهم العقيدة وتصورها ، ويكون العمق في المضمون ، وفي طريقة المناقشة ، للمجال الذي يعيش فيه الانسان علامات استفهام كثيرة ، واشكالات فكرية متنوعة .. فان البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال ...

الثالث : مواجهة النبي للموقف بعقلية هادئة واقعية ، تتعامل مع طبيعة الواقع وحاجته ــ في حركته الرسالية ــ الى ضمانات عملية للمستقبل ، من حيث مصارحتهم بالصعوبات الشديدة التي تواجههم ، وبالمعارك العنيفة التي تفرضها القوى الكافرة على المسلمين ، وما يستتبع ذلك من دمار وتشريد وهلاك للنفوس والاموال وغير ذلك من عواقب

---

(١) وذلك هو السر في السهولة العفوية التي يدخل فيها الاسلام الى عقول الناس وقلوبهم ، لان مفاهيمه واساليبه في منهج التفكير العقيدي ، لا تبتعد عن طبيعة الاشياء القريبة الى حياة الناس .

الحرب ونتائجها التي يعرفونها جيدا لانهم ابناء الحرب العشائرية التي كانوا يخوضونها فيما بينهم في النزاع القبلي المرير بين الاوس والخزرج .. ومن حيث امكانات وصول الموقف الى ان تكون جبهتهم الاسلامية ، وحدها في مقابلة العرب قاطبة ، لان الاسلام لم يكن قد بلغ أي مركز من مراكز القوة ، آنذاك ، فقد كانوا ، هم القوة الوليدة الجديدة التي تمثل بداية القوة الاسلامية ..

لقد كان هذا هو الاسلوب الواقعي الذي يمثل الصدق والامانة اللذين يعتبرهما الاسلام مفتاح شخصية الانسان المسلم ، لترتبط المواقف بين القاعدة والقمة ، بالثقة المبنية على الصراحة فيشعر الناس في دخولهم في الاسلام ، ان ذلك ليس نزهة يعيش فيها الانسان احلامه في هدوء واسترخاء لذيذ ، بل هو الجهاد في اصعب مراحله .. فقد اراد النبي ان يصارحهم بذلك كله ولا يغرقهم بالوعود المعسولة ، فيستغل اندفاعهم الروحي في سبيل ادخالهم في المأزق ، ليكون الحساب بينه وبينهم بعد فوات الاوان .. لان ذلك ليس من خلقه ، وليس من خلق الاسلام ، ولان هذا الاسلوب هو الذي يضمن ثباتهم وصمودهم واندفاعهم الواقعي ومواجهتهم للموقف بقوة ، ما دام الموقف خاضعا للرؤية الواضحة للحاضر والمعرفة الشاملة للمستقبل ، والايمان العميق بالنتائج المترقبة في الدنيا والآخرة .

... وهكذا انسجم القوم مع كل ذلك واعلنوا للنبي انهم لا يجهلون النتائج المستقبلية ولا يخافون منها لانهم ابناء الحرب ، فلا يخافون من عواقبها بشكل طبيعي فكيف اذا كان ذلك في سبيل الله ...

ولم يقتصر النبي على ذلك ، بل حاول ان ينظم العلاقة بينه وبينهم على اساس تحديد مسؤوليتهم في هذا الالتزام العقدي بالنسبة الى

اصحابهم ، فيكون هناك كفلاء منهم ، ازاء كفالته ، هو لاصحابه المسلمين في مكة ، ليشعروا بان القضية ليست مجرد اتفاق كلامي ، بل هي خاضعة لالتزامات متبادلة محددة ، يشعرون معها بالجدية والواقعية .. لان ابقاء المسؤوليات في اطارها العام الذي يخضع الموقف للحالات النفسية والخطوات الذاتية ، يترك الموضوع عرضة للاهتزاز والارتباك .. وبالتالي للفوضى والانفلات ..

الرابع : التأكيد على الجانب السري للتحرك سواء في التحضير للاجتماع ، او في موعد عقده ، او في طريقة الحديث او في طريقة التفرق .. مما يلفت النظر الى انسجام الاسلام مع واقع الامور ، من اجل المحافظة على سلامة العمل في الظروف الصعبة التي يملك فيها الكفر او الباطل كل مقومات القوة المادية التي لا يملكها الايمان والحق ، ويدلل على رفض الفكرة القائلة ان على الحق ان يجهر بدعوته مهما كانت الظروف ، ولا يلجأ الى السرية ، لانها مظهر ضعف وتخاذل . ولعل الذي يدعو الى الاعجاب ، هو هذه الدقة في السرية التي اتبعها الانصار بحيث لم يشعر به رفاقهم ، الذين انكروا حدوث مثل هذا الشيء عندما سألتهم قريش عن ذلك ..

الخامس : اسلوب قريش القلق في ملاحقة المؤمنين بالدين الجديد حتى الذين هم من غير اهل مكة مما يدل على انها بدأت تعتبر نفسها مسؤولة عن حرب الاسلام في الداخل والخارج ، نظراً الى ما تحس به من خطورة على مركزها وامتيازاتها المالية والسياسية .. الامر الذي يعرفنا مدى العنف الذي كانت تواجه به قريش ايمان المؤمنين في مكة .. وما تقوم به ضدهم من تعذيب واضطهاد ، ويكشف لنا ، في الواقت ذاته، عظمة الصمود الذي كان يقابل به المؤمنون ذلك العنف كله .

خلاصة التجربـة :

لقد استطعنا ان نجد في النقاط التي عرضناها بعض الدروس العملية في التجربة النبوية قبل الهجرة •• مما يمكننا من تطبيقه في حركة الاسلام المعاصرة •• سواء في ذلك اطار العمل الذي يستهدف الدفاع عن الاسلام ضد القوى الكافرة او الضالة ، في البـلاد الاسلامية التي سيطر عليهـا الكفر والضلال ، او استطاع ان يحصل فيها على مركز قوة ، او في اطار العمل الذي يستهدف ادخال الآخرين الى الاسلام وما يستتبع ذلـك من صراع عنيف •• او في طريقة العمل ، غير المألوفة التي يعارضها التقليديون والمحافظون الذين لا يريدون الخروج عن الطرق المعتادة لهم ، فيرفضون، على اساس ذلك ، العمل التنظيمي الذي يضم العاملين في تكتلات بشريـة اسلامية ••• فقد يكون من الضروري ان نفكر في العمل السري في بعض المراحل الاولية والثانوية حسب الظروف اللازمة التي تفرض ذلـك لان العمل العلني في ظل الاخطار الكبيرة التـي تواجهه من قبل الاعداء قـد يعتبر عملا رائعا من اعمال الفروسية الذاتية ، ولكنه لن يعتبر من الاعمال الجيدة على مستوى الرسالة لانه يتحول الى انتحار للعمل ان لـم يكن انتحارا للعاملين •• ولذا فانه لا يمثل قيمة اسلامية في حساب الجهـاد والاخلاص ••

وربما وجدنا في الاسلوب النبوي الذي لا يفاجأ الناس المخالفين لهم بالتحديات لما يعتقدونه بل يكتفي ــ في البداية ــ بعرض المفاهيم التـي يؤمن بها خلال ما تمثله من ايجابيات وما تعطيه من خير للحياة بعيدا عـن كل ما يثير الاحساس المضاد ، او يبعث على توتر النفوس بالحقد والعداوة والبغضاء •• ليستطيع ان يملأ الجو بمفاهيمه ، ويعبأ النفوس بافكاره •• ويبني القاعدة في المجتمع على اساس عقيدته حتى اذا انطلق بالتحديـات العنيفة ضد القوى المعادية ، كان انطلاقه من مركز قوة ، بحيث يمكنه ان

يواجه ردود الفعل بموقف قوي ثابت لا يتزعزع ولا ينهار ، مهمـا كانت القوى المواجهة له ، كما رأينا ذلك في التجربة النبوية مع قريش ، فقـد استطاع النبي ان يوحي اليها ، بالامن من الخطر فيما اطلقه من شعـارات الرسالة ، حتى اذا استكمل في دعوته ، الاعداد اللازم ، بدأ في التحـرك المضاد من موقع قوي .. ولعلنا نشعر بالحاجة اليه في كثير من الظروف المعاصرة للدعوة الاسلامية ، او الظروف المستقبلية التي نستشرفها مـن خلال حركة الواقع ، في ضراوة الكفر وشراسته ، لنضمن للحركة خطواتها المتزنة القوية التي لا تنفعل بزهو الموقف بل تستسلم لمصلحته ، وتنسجم مع مقومات سلامته .

وقد نستفيد من امر النبي محمد (ص) للمسلمـين الاولين بالهجرة الى الحبشة ، حيث الامن والطمأنينة والحرية في ممارسة العقيدة والدعوة اليها . او امره اليهم بالهجرة الى المدينة حيث الانطلاق بالعمل من قاعـدة المجتمع الاسلامي الجديد في جناحيـه الانصار والمهاجرين ، ليمـارسوا الحركة في توسيع القاعدة ، ثم الانطلاق بها الى مواقع جديدة .

قد نستفيد من هذا ، ان الهجرة من البلد الذي يعيش فيه العمـل الاسلامي الاختناق ، ويفقد فيه الحرية تعتبر من الامور الحيوية في حركة الاسلام نحو استكمال عملية الوجود والتطـور ، ليواجه الحركة مـن موقعين في الداخل ، حيث يظل الباقون جادين في مواصلة التحرك مـن الموقع الصعب الذي يرسف باكثر من قيـد ، وفي الخارج حيث ينطلـق المهاجرون الى مواقـع جديـدة ليعملوا فيها بكـل حريـة واطمئنـان وبهذا يمكن للعاملين الذين يعانون الصعوبات الكبيرة في العمل، او الذين يتعرضون للاضطهاد والتعذيب والسجن في البلدان الكافرة او الضالة ، ان يهاجروا الى بلدان اخرى ، مـن موقع حرية الحركة ، لا مـن موقع

الهروب والانهزام وحب السلامة كما خيل للكثيرين ممن يتولون اصدار الاحكام على الآخرين من ابراجهم العاجية ..

اما طريقة النبي محمد (ص) في ملاحقة الحاج الى منازلهم لابلاغهم الدعوة ، وطلب النصرة والدخول في الاسلام ، فقد يحتاج ان يفهمها اولئك الذين يصرون على فكرتهم الانعزالية التي لا توجب على الانسان ان يتحرك خارج نطاق بيته ومركزه ومسجده ، بل قد لا توجب عليه ان يتحرك حتى في داخل هذا النطاق بان يتسلم هو زمام المبادرة في ذلك ، بل كل ما يجب عليه ان يجيب اذا سأل فيما اذا لم يحتمل الضرر .. قد يحتاج هؤلاء ان يفهموا هذا الجانب من السيرة ليعرفوا ان الرسالة تفرض على صاحبها التحرك والسبق الى مخاطبة الناس قبل ان يخاطبهم الآخرون ، حيث لا يبقى هناك مجال للدعوة بل للصراع ، واما اذا حاولوا ان يفسروا ذلك بان السيرة تجسد لنا الموقف في بدايات الدعوة التي ليس لها موقع الآن .. لاننا نعيش في العصور التي جاءت بعد تقديم الرسالة كاملة للناس ، فاين اليوم من الامس ، واين بدايات الدعوة من المراحل المتأخرة حتى عن نهايتها .. اما اذا حاولوا ذلك .. فاننا نجيب عليه :

اولا : ان الحاجة الى التبليغ مستمرة ، ما دام هناك حكم شرعي مجهول وما دامت هناك تحديات كافرة او ضالة تطرح الكثير من علامات الاستفهام ، وتشوه كثيرا من المفاهيم او تضلل كثيرا من الناس وتفسح المجال للكفر والضلال ان يركز وجوده ويثبت اقدامه على الارض وثانيا : ان طبيعة هذا الاسلوب لم تنطلق من مجرد الدعوة الى الدخول في الدين، بل من حاجتها الى النصرة والمعونة ، واستكمال اسباب القوة مما يجعل القضية مطروحة في كل زمان ومكان تعاني فيه الرسالة من الضعف في وجودها العام وقد نجد في روعة الموقف الرافض للوعود المعسولة التي تطلب شيئا مستقبليا لنفسها من الرسالة كشرط لارتباطها به ، الاسلوب

العملي الرائع ، الذي يجسد قوة الموقف حتى في أشد حالات الضعف ، ليرفض النصرة على اساس الزيف والكذب والدجل لان ذلك يدخل في طبيعة الخطة ولا يرتبط بظروف التحرك .. وبذلك نبتعد عن بذل الوعود بما يبذله الكثيرون للبسطاء من الناس ، او لاهل الاطماع ، كوسيلة لادخالهم فيما يريدون ، او لاقناعهم بافكارهم ومبادئهم وحركاتهم . اما المواقف الاخيرة للنبي ، فيما يتمثل فيها من صمود واصرار ، وفيما يتجلى فيها من حكمة وواقعية ، وفهم عميق للظروف والاشخاص وفيما تجسده من اساليب صافية تقترب من العفوية ولا تبتعد عن العمق في عرض الاسلام للآخرين في مجالات الدعوة ، ومن خطوات عملية وواقعية في بدايات التحرك الذي يستهدف بناء قواعد المجتمع الاسلامي الجديد في المدينة ، حيث نأخذ منها الدرس العملي الرائع في اعتبار الصراحة في القضايا المحرجة على المستوى الشخصي اساسا في تقرير القضايا المصيرية، فلا مجال للمجاملة ، ولا لاساليب اللف والدوران ، ولا للكلمات الضبابية التي لا تفصح عن محتواها ، ولا للكلمات التي تحتمل الف وجه ووجه ، لان ذلك كله ينعكس على قضية المصير التي اذا ضعفت ركائزها، تعرضت الرسالة في وجودها وبقاءها للخطر .. الامر الذي يجعل الموقف، كله من الاساس عبثا لا طائل تحته .. اما هذه المواقف فنستطيع ان نحولها الى مواقف جديدة في حياتنا ، ونستوحيها وننميها ونمتد بها الى مجالات واسعة تتجاوز خصوصيات الزمان والمكان في فهم الحاضر والمستقبل على اساس تجارب الماضي لان ذلك هو السبيل الوحيد لاعطاء التجربة عمق الجذور واصالتها ، وحداثة الاساليب وتطورها .. مما يجعل لمفهوم (الحداثة) و (العصرنة) معنى لا يبتعد عن الارتباط بالتاريخ الحي ، ولا يغرق فيه ، بل يأخذ منه المبادىء الاصيلة التي لا تعتبر مجردتاريخ للامة، بل حقيقة من حقائق الحياة التي تخترق حواجز الزمن ، لتضم الازمنة كلها

في وحدة رائعة ، ثم يتحرك معها في اسلوب واجواء ومبادرات جديدة تتفق مع عقلية المجتمع وظروفه .

التجربة النبوية بعد الهجرة :

تتميز التجربة النبوية بعد الهجرة بكثرتها وتنوعها وامتدادها وسعتها خلافا للتجربة قبل الهجرة بالنظر الى الظروف التي تحكم التجربة، والمجال الذي تتحرك فيه والاوضاع التي تلاحقها .. فقد كانت للنبي في مكة شخصية الرسول الداعية الذي كان يفتش عن مكان تتركز فيه الرسالة كقاعدة وعن مجتمع يتحرك من اجل تحقيق اهداف الاسلام في الحياة .. ولذا فقد كانت التجربة محكومة لهذا الهدف المحدود .. اما في المدينة فقد انطلقت الاهداف من حيث انتهت تلك ، فقد وجدت القاعدة وولد المجتمع وبدأ النبي يعمل ، والمسلمون معه ، في سبيل اغناء تلك التجربة التي انتجت ذلك الواقع بتجارب جديدة في اسلوب الدعوة وفي طريقة الحكم ، وفي تنظيم الحياة على اساس قانون جديد متوازن يرعى جانب المادة كما يرعى جانب الروح ، وينظم حقوق الفرد كما ينظم حقوق المجتمع ، ويعمل لتركيز العدالة على اساس من الحق ، ويدعو للمحبة على اساس الرحمة ويعمل للعزة والكرامة ، كما يدعو للتسامح وللعفو وللصبر الجميل ، ويشرع للحرب كما يشرع للسلم .. ويحمل المسلمين مسؤولية حمل الدعوة الى العالم كله ...

وقد كان من الطبيعي ان يهتم النبي (ص) بتنظيم هذا المجتمع الرائد الذي يحمل المسؤولية الاسلامية في قلبه وكيانه فكانت هناك بعض التجارب التي تتحدث عنها كنموذج يحتذى ويقتدى به في كل حركة اسلامية معاصرة لاننا لسنا في معرض استيعاب الحديث عن التجارب جميعها ، ولسنا في مجال دراسة لحياة النبي محمد (ص) او لحركة المجتمع

الاسلامي في نموه وتكامله ، بل نحن هنا لنورد بعض النماذج التي تشير الى المنهج الذي ندعو اليه في فهم التجارب النبوية على ضوء ما نحتاجه من قضايا واساليب ...

مع التجربة النبوية بعد الهجرة :

جاء في طبقات ابن سعد : قالوا : لما قدم رسول الله (ص) المدينة آخى بين المهاجرين بين بعضهم البعض ، وآخى بين المهاجرين والانصار ، آخى بينهم على الحق والمساواة ويتوارثون بعد الممات دون ذوي الارحام ...) [1] .

ماذا نفهم من هذه القصة ؟ اننا نفهم من دلالاتها طريقة عملية في توثيق العلاقات بين اتباع الدين الجديد ، فقد كان من الطبيعي ان تبدأ الرواسب النفسية ، والعقد التاريخية التي يختلف فيها المهاجرون مع بعضهم البعض ويختلف فيها الانصار مع بعضهم البعض ، ويختلف فيها المهاجرون والانصار فيما بينهم ، في التعبير عن نفسها بالخلافات المتنوعة والمنازعات المختلفة ، وقد لا يمكن السيطرة عليها بالمشاعر العاطفية التي يولدها الايمان فكانت هذه التجربة — فيما يمكن ان يكون قد قصده النبي محمد (ص) — محاولة لايجاد رابطة عضوية ، بين الانصار انفسهم، وبين المهاجرين انفسهم ، وبينهم وبين الانصار ، لتعمق المشاعر الايمانية ، فلا تتركها طافية على السطح ، وتركز العلاقات الروحية فلا تبقى عرضة للاهتزاز ، ليتحقق للمجتمع الجديد التوازن والتماسك والارتباط، ولتبدأ عملية المواساة في اطار محدود يشعر فيها الانسان بحدود المسؤولية التي لا تبتعد عن حدود قدرته ، ولا تتركه ضائعا امام عمليات الاختيار في

---

(١) طبقات ابن سعد ج ١ ، ص ٢٣٨ .

المجتمع الكبير .. وبهذا تحولت المواساة الاخوية الى طريقة تربوية رائعة للترابط الايماني في المجتمع الجديد حتى اذا استطاعت هذه الطريقة ان تحقق نتائجها العملية فيما حصل عليه المجتمع الاسلامي الاول من قوة وتماسك ومواساة ... واستطاع المسلمون ان يكتشفوا ـ بفضل هذه التجربة ـ قيمة الاخوة في الله التي تعتبر بديلا عن الاخوة في النسب والرضاع ، فيما عاشوه من حياة رائعة في حالة الحرب والسلام ، وبدأوا يجربون المبدأ في اطاره العام ، فتجاوز كل واحد منهم الرابطة الخاصة ، الى الرابطة العامة ، لانه عرف ان ما حدث كان طريقة تجريبية يتعرفون فيها الى طبيعة العلاقة الجديدة وليست مجرد شيء خاص يقتصر على مورده ... وانطلق الاسلام بعد ذلك في الصورة التي حاول ان ينظم فيها علاقات المجتمع الجديد ، ليفسح المجال للاخوة الايمانية ـ بشكل عام ـ فحمل فيها المؤمنين مسؤولية هذه الاخوة ، في الاطار العملي للعلاقات الايجابية والسلبية للمجتمع .. وبقيت الاخوة الاسلامية شعارا اسلاميا في جانب المشاعر والاعمال ، يضم المسلمين في المشرق والمغرب ، في وحدة شعورية رائعة ، ليصل العاملون من خلالها الى المجالات العملية الاخرى من الوحدة .



وقد نستطيع الاستفادة منها في العمل الاسلامي بين المؤمنين انفسهم، فنحاول تجسيد هذه التجربة في توثيق علاقاتهم ببعضهم على مستوى المسؤولية المحددة التي تربط واحدا من هنا بواحد من هناك مع التركيز على ايجاد هذا الارتباط بين الفئات التي تخضع لبعض العوامل والمؤثرات المقتضية لوجود علاقات سلبية ، من اجل ان تؤدي هذه الرابطة الروحية الى تجميد كل تلك العوامل والمؤثرات او الغائها بصورة كلية .. وربما استطعنا ان نحقق الكثير من النجاح في اتباع هذا الاسلوب في مرحلتنا

الحاضرة ، كما استطاع المسلمون في عصور الاسلام الاولى ان يحققوا ــ من خلاله ــ النجاح الكبير حيث ساهم في انطلاق العامل الاسلامي في حياتهم ليكون له الاثر الكبير في علاقاتهم الروحية والعملية •

★ ★ ★

٢ ــ بناء المسجد : كان من اول الاعمال التي بدأها رسول الله (ص) في المدينة ، بعد وصوله اليها بناء المسجد ويقص علينا ابن هشام في سيرته الجو الرائع الحميم الذي كان يهيمن على المسلمين في عملية البناء ••• قال : « ••• فعمل فيه (اي المسجد) رسول الله ليرغب المسلمين في العمل فيه ، فعمل فيه المهاجرون والانصار ودأبوا فيه فقال قائل من المسلمين :

لئن قعدنا والنبي يعمل   فذاك منا العمل المضلل

وارتجز المسلمون وهم يبنونه يقولون :

لا عيش الا عيش الآخرة   اللهم ارحم الانصار والمهاجرة

قال ابن هشام : هذا كلام وليس برجز •

قال ابن اسحاق : فيقول رسول الله (ص) لا عيش الا عيش الآخرة اللهم ارحم المهاجرين والانصار • قال فدخل عمار بن ياسر ، وقد اثقلوه باللبن فقال : يا رسول الله قتلوني ، يحملون علي ما لا يحملون ، قالت ام سلمة زوج النبي (ص) : فرأيت رسول الله ينفض وفرته بيده وكان رجلا جعدا وهو يقول : ويح ابن سمية ليسوا بالذي يقتلونك ، انما تقتلك الفئة الباغية •

وارتجز علي ابن ابي طالب رضي الله عنه يومئذ :

لا يستوي من يعمر المساجدا   يدأب فيه قائما وقاعدا
ومن يرى عن الغبار حائدا

قال ابن هشام : سألت غير واحد من اهل العلم بالشعر عن هذا الرجز فقالوا : بلغنا ان علي بن ابي طالب ارتجز به فلا يدري اهو قائله ام غيره •

قال ابن اسحاق : فاخذها عمار ابن ياسر فجعل يرتجز بها •

قال ابن هشام : فلما اكثر ، ظن رجل من اصحاب رسول (ص) انه نعرض به ، فيما حدثنا زياد بن عبدالله عن ابن اسحاق وقد سمى ابن اسحاق الرجل •

قال ابن اسحاق : قال : قد سمعت ما تقول منذ اليوم يا بن سمية ، والله اني لأراني سأعرض هذه العصا لانفك قال : وفي يده عصا قال : فغضب رسول الله (ص) ثم قال : ما لهم ولعمار •• يدعوهم الى الجنة ويدعونه الى النار ، ان عمارا جلدة ما بين عيني وانفي فاذا بلغ ذلك من الرجل فلم يستبق فاجتنبوه [1] » •

ان القيام ببناء المسجد ، كأول عمل قام به رسول الله في المدينة ـ يدل على ما كان يفكر به النبي (ص) من تخطيط لبناء المجتمع المتماسك الخالي من الحساسيات والعقد الذاتية والقبلية فقد قدم الى هذا البلد المتنافر المنقسم على نفسه في تاريخه الدامي المملوء بالحروب والمنازعات القبلية بين عشيرتي الاوس والخزرج ، بالاضافة الى اليهود الذين كانوا حلفاء لكلا الجانبين ، فتحارب فئة منهم مع الاوس ، وفئة مع الخزرج ••

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ •

وكانوا حديثي عهد بالاسلام ولم يدخلوا جميعا في الاسلام ، فقد بقيت بقية منهم ، — على شركها — حتى ذلك الحين .. فربما اراد النبي محمد (ص) .. ان يفسح المجال لهم للتعايش الاخوي في ظل المعاني الروحية والمشاعر القدسية التي يوحيها الايمان بالله بعيدا عن كل ما له صلة بالتاريخ الدامي القبلي ، ليمتص بذلك كل المعاني والاحاسيس المضادة .. فكان المسجد الذي يجتمع فيه المسلمون للوقوف بين يدي الله والخضوع له والاقبال عليه في مناجاة روحية خاشعة ، هو المكان الذي اريد منه ان يحقق هذا الهدف ، ويشارك في خلق هذا الشعور الرائع ... وهو المكان الذي يلتقون في رحابه ليتحدثوا فيه بما ينفعهم ويفيدهم ، فيما ينبغي لهم ان يتعلموه ، وفيما يجب عليهم ان يعرفوه من شؤون المعرفة باللهورسالته ومن شؤون المعرفة بالحياة في علومها العملية التي تبني للانسان حياته على اساس من وعي وعمق وايمان ويستقبلون به الوفود التي تأتيهم ؛ للعلم ، او للدين ، او للحياة ، ويثيرون فيه قضايا الحرب وقضايا السلم ، وما يستتبعهما من شؤون الدين والدنيا وغير ذلك من الامور التي اريد من المسجد ان يكون مجمعا لها ، كسائر المجامع التي اعتاد الناس اللقاء فيها لمعالجة شؤونهم العامة والخاصة .. ولكن قيمة المسجد في هذا الايحاء الدائم بالله ، وبالمعاني الخيرة التي يثيرها بالنفس ، مما يجعل كل هذه الامور متصلة بالله خاضعة لارادته مسيّرة لاوامره ونواهيه .. فلا يستسلمون فيها لنوازع الشر والعدوان فاذا غفلوا عن انفسهم واستسلموا لشيء من ذلك ردهم الى الله ، جو طاهر ووحي خاشع وعبادة توحي للنفس دائما بما يعيدها الى الله ويربطها به من جديد .

وذلك هو شأن المسجد ، فيما اراده الاسلام له ، وهو ان يحقق معنى العبادة الشامل الذي يشمل الصلاة فيما تشتمل عليه من تكبير وتهليل وشهادة وركوع وسجود وغيرها من اجزاء وشروط ويشمل العلم

الخالص لله النافع للناس ، والحرب التي تدفع العدوان وتهاجمه، والسلم الذي يثير الخير وينشر الخصب والرخاء ، والجدال والحوار الذي يراد به الوصول الى الحق ورد الباطل ، والتعارف بين الناس الذي يراد به التعاون والتكافل الاجتماعي ومن هنا ، كان للمسجد دوره في كل شؤون الحياة في الاسلام ، وكانت له فعالياته في قضايا الناس •• وكانت له ندواته المتدة المستمرة التي تعطينا في كل يوم علما جديدا وروحا جديدة •• حتى اذا تقلص دور المسجد وابتعدت عنه الحياة ، حتى في الصلاة التي اريد لها ان تنفتح على الحياة لتطهر للانسان ضميره ووجدانه فتطهر من خلالها حياته •• حتى الصلاة انعزلت عن وظيفة الوسيلة التي تشد الانسان الى الله ، ليبقى لها دور الفريضة التي لا يقصد منها الا الخروج عن العهدة ، وابراء الذمة ، وامتثال الواجب ، ليحصل بذلك جلب الثواب ودفع العقاب •• ولا شيء غير ذلك ••

وربما كان من مهمة العمل الاسلامي تجديد دور المسجد واخراجه من هذا الطوق الذي ضرب حوله فجمد آفاقه وشوه صورته الحقيقية المنطلقة من الحياة ••

وقد يطيب لنا في نهاية المطاف ، ان نعايش الجو الرائع الذي نشاهد فيه رسول الله (ص) وهو يعمل في بناء المسجد ، لا ليرغب المسلمين في العمل ، كما يقول ابن هشام ، بل لانه يريد ان يكون قدوة لهم في الشعور بالمسؤولية وممارستها فلا يكتفي باصدار الاوامر فيما هو من شؤون الاسلام بل يبادر اليه بنفسه ليدلل لهم من موقع الممارسة ، ان العمل يقف في المستوى الذي يحب ويرغب فيه من كل واحد حتى منه ، نفسه ، وهو من هو في مستوى المسؤولية الرسالية •

ثم تجد المسلمين يعملون في هذا الجو الرائع الذي يطرحون فيه

الشعار ــ الهدف ــ فهم لا يعملون في الدنيا ، لعيش الدنيا ، وان كان له من الاهمية المقام الكبير ، بل يعملون في الدنيا لعيش الآخرة الذي وعد الله به عباده المتقين •• ثم يبتهلون الى الله ، في الموضع الذي يبنونه ليكون موضعا للابتهال ، في ان يرحمهم انصارا او مهاجرين ونلتفت فجأة لنرى عمار ابن ياسر الذي عذب واضطهد من اجل عقيدته ، وكاد ان يموت تحت التعذيب كما مات ابواه ، لولا ان قال كلمة الكفر ، بعد اكراه ، وقلبه مطمئن بالايمان •• فنرى هذا الرجل مثقلا بحمله حتى ليكاد ان يسقط صريعا تحت وطأة هذا الحمل الثقيل ، فيشكو امره الى رسول الله ، فيتحدث اليه بالغيب الذي اعلمه الله اياه ، بانه تقتله الفئة الباغية ••

وينظر علي ناحية ، فيرى بعض المسلمين يحيدون عن الغبار ، ويبتعدون عن المشاركة ، فيرتجز الرجز المتقدم ويتلقفه عمار ويكرره ، ويلتفت ذلك البعض الى نفسه ويشعر بانه مقصود به ، فيثور على عمار بما يشبه التهديد •• ويقف النبي محمد (ص) من جديد ، مع عمار ليعبر عن حبه له وعلاقته به وتقديره له ، لما قدم من تضحية ، ولما تحمل من عذاب ، لانه لا يريد للمجاهدين المخلصين أن ينالهم احد بسوء لا سيما اذا كان مثل هذا ممن لم يقدم للاسلام شيئا من جهده ومن جهاده ••

وهكذا عشنا في جو بناء المسجد الاول ، في الاجواء النفسية التي كان يعيشها المسلمون يومئذ ، واستطعنا ان نعرف كيف كانوا يفكرون ، ويتجاذلون ويتنازعون ، وكيف كان النبي يدير هذه الخلافات ويحلها او يعلق عليها باسلوب رسالي حازم • وربما نأخذ من ذلك درسا عمليا في الاهتمام الشديد ، برعاية المجاهدين الذين يعذبون ويضطهدون في سبيل العقيدة ، وتقييم مواقفهم في كل مناسبة والوقوف بحزم ضد الاشخاص الذين يسيئون اليهم لتبقى للجهاد قيمته في حياة الناس ، عندما يرونه قيمة

كبيرة تجعل اصحابه في مقدمة المجتمع قوة ومكانة اسجاما مع قول الله تعالى :

« فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى القَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً »

٤ : ٩٥ .

٣ ــ كتبه الى الملوك وغيرهم من الناس وبعثاته اليهم : لقد قام الرسول (ص) ــ فيما ترويه كتب السيرة النبوية الشريفة .. بارسال وفود وكتب الى ملوك زمانه والى زعماء البلاد ووجهاء القوم والى كثير من الناس ، يدعوهم فيها الى الدخول في الاسلام ، باساليب متنوعة ، تأخذ بالايجاز تارة ، وبالتفصيل اخرى . وقد يغلب على بعضها الرفق ، وقد يقرب بعضها الآخر من العنف تبعا لما تقتضيه المصلحة ، ويفرضه الموقف ، وكتب الى كثير من الناس من العرب في امور متعددة تتمثل فيها شخصية الرسول الداعية كما تتمثل فيها شخصية الحاكم الذي يهدد ويتوعد ، ويهب ويعطي ويمنع ، ويقطع الاراضي ، ويحدد لكل شخص حدوده .. وقد نلمح فيها شخصية المشترع الذي يشرع احكام الشرائع المالية والعبادية ، وغيرها .. وقد نجد في دراسة هذا الجانب من سيرة النبي ، فوائد كثيرة على مستوى الاسلوب والمحتوى والروح وقد نتعرف من خلال ذلك على نظرة الاسلام لاهل الاديان الاخرى وطريقة مخاطبتهم ، واسلوب التعامل معهم على اساس العقود والمواثيق والالتزامات .

فمن ذلك ما رواه صاحب الطبقات الكبرى ، فقد روى انهم قالوا : وكتب رسول الله (ص) لاسقف بن الحارث ابن كعب واساقفة نجران وكهنتهم ومن تبعهم ورهبانهم ان لهم ما تحت ايديهم من قليل وكثير من

بيعهم وصلواتهم ورهبانيتهم وجوار الله ورسوله ، لا يغير اسقف عن اسقفيته ، ولا راهب عن رهبانيته ، ولا كاهن عن كهانته ، ولا يغير حق من حقوقهم ولا سلطانهم ولا شيء مما كانوا عليه ما نصحوا واصلحوا فيما عليهم غير مثقلين بظلم ولا ظالمين ..

فقد نفهم من هذا الكتاب ، او نستوحي منه ما نسميه بـ « الحرية الدينية » وعدم التدخل في شؤونهم العامة والخاصة ، وعدم تغيير اي شيء مما كانوا عليه شريطة ان ينصحوا ويصلحوا فيما عليهم من دون ان يظلمهم احد او يظلموا احدا ... واحسب اننا لا نجد اروع من هذا الاسلوب النابض بروح المحبة والرحمة والانسانية السمحة ، الذي يعبر عن نظرة الاسلام الى اسلوب التعايش السلمي بين اهل الاديان المختلفة عندما يعيش احدهما في ظل الحكم الاسلامي .



قالوا : وكتب رسول الله (ص) الى ضغاطر الاسقف : سلام على من آمن . اما على اثر ذلك فان عيسى بن مريم روح الله وكلمته القاها الى مريم الزكية واني اؤمن بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما اوتي موسى وعيسى وما اوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون . والسلام على من اتبع الهدى .

وقد نلاحظ في هذا الكتاب التواضع النبوي عندما يبدأ النبي رسالته بالعقيدة الاسلامية في عيسى ، ايذانا باللقاء بينه وبينهم في احترام عيسى بما يرفع من مقامه ومنزلته ، ثم يتبع ذلك ببيان ما يؤمن به من وحدة الرسالات وتآخي الرسل من دون ان يضيف الى ذلك شيئا من

دعوته ، او بعضا من مواطن الاختلاف بين الدينين ، ليترك الامر له، ليفكر فيقنع ويؤمن ، أو لا يؤمن فيكون قد اقام عليه الحجة ، وأهاب به ان يفتح باب الحوار ، من دون ان ينتقص من قيمة مقدساته ، بل حاول ان يعطيها حقها من القداسة بما اضفاه عليها من الالفاظ القرآنية الرائعة .. وفي هذا الاسلوب الدلالة على التهذيب الاسلامي ، في الشكل والمضمون والروحية السمحة .

وقد نلتقي في هذا المجال بالتعليمات التي كان يوجهها الى الدعاة الذين يرسلهم الى الناس .. فقد روى بعض الرواة ، ان رسول الله (ص) قال لاصحابه : وافوني باجمعكم بالغداة وكان صلى الله عليه وآله وسلم اذا صلى الفجر حبس في مصلاه قليلا يسبح ويدعو ، ثم التفت اليهم فبعث عدة الى عدة وقال لهم : انصحوا الله في عباده فانه من استرعي شيئا من امور الناس ثم لم ينصح لهم حرم الله عليه الجنة انطلقوا ولا تصنعوا كما صنعت رسل عيسى بن مريم فانهم أتوا القريب وتركوا البعيد فاصبحوا — يعني الرسل — وكل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين أرسل اليهم فذكر ذلك للنبي ، فقال : هذا اعظم ما كان من حق الله عليهم في امر عباده ..

ونلاحظ في هذه الوصية الموجزة التأكيد على جانب عظيم الاهمية في حياة العمل الاسلامي ، والعاملين له ، وهو ان بعض هؤلاء يختارون الاماكن القريبة الى بلادهم لئلا يتشجموا عناء الغربة البعيدة ، او متاعب السفر الطويل ، وقد اراد الرسول من هؤلاء الدعاة ان لا يلجأوا الى هذه الطريقة في ممارستهم للمسؤولية لان الانسجام مع متطلبات الدعوة في كل مكان من بين الشروط الاساسية لمبدأ النصيحة لله في عباده التي يجب عليهم ان يقوموا بها بعد ان استرعاهم الله امور الناس في شؤون الدعوة والحياة .. فمن لم يقم بواجب النصيحة ويتحمل المتاعب ، وهو قادر

على ذلك فان الله يحرم الجنة عليه ، ويبعده عن ساحة لطفه ورضوانه ورحمته .. ثم ضرب لهم مثلا بالرسل الذين كانوا ينطلقون بالرسالة من قبل عيسى الى الناس فكانوا يتركون البعيد ويأتون القريب ، فكان من بلاء الله لهم انهم اصبحوا بمعجزة من الله ، وكل واحد منهم يتكلم بلسان القوم الذين ارسل اليهم ليضطر ، بسبب ذلك الى القيام بمسؤوليته كاملة غير منقوصة .. ونحن نشعر بقيمة هذه الوصية في واقع الدعوة الاسلامية .. فنجد الكثيرين من علماء الدين ومن الدعاة اليه، ينصرفون عن المناطق النائية في اوطانهم ، او في خارج اوطانهم ، لئلا يتحملوا بعض التعب ، وبعض المشقة ، وقد نجد الكثيرين منهم يفضلون حياة المدن على حياة الارياف ، لا لانهم يشعرون بحاجة المدن المكتظة بالسكان الى التوجيه أكثر مما تحتاجه الارياف ، القليلة العدد ، بسبب كثرة الهجرة منها ، بل لان حياة المدينة أكثر راحة واكثر رفاهية ، وأوسع مدخولا من جهة المال ، وبهذا يعاني أهل القرى ، ولا سيما النائية الفراغ الهائل من ناحية التوجيه الديني .. مما يجعلهم لقمة سائغة لاعداء الله من اصحاب المبادىء الكافرة او الضالة الذين يستغلون نقاط الضعف الفكرية والمادية، وحرمانهم من الخدمات العامة التي توفرها الدولة لبعض القرى دون بعض لحساب الامتيازات السياسية والطائفية والشخصية ، وتمنعها عنهم ، فيتبعونهم في كل ما يريدونه دون مقاومة من فكر او علم .. قد يكون هؤلاء بحاجة الى دراسة هذه الجوانب من السيرة ليعرفوا من خلالها ان المسؤولية لم تنبع في حياة هؤلاء من تكليف رسول الله لهم بشكل شخصي ، لانه لم ينطلق في ذلك من حالة خاصة ، بل من حالة عامة ، وهي حاجة الناس الى الدعوة والدعاة من اجل ان ينفتحوا على رسالة الله بقوة ووضوح انطلاقا من التبليغ الذي تقوم به الحجة وتزاح به العلة .. وتنحل به كثير من الشبهات ، وتنكشف به كثير من الآفاق الغائمة في اكثر من جانب ..

لذلك ، فان المسؤولية توجد ، حيثما وجدت الحاجة ، ووجد الجاهلون •• في زمان الرسول •

٤ ــ وفود العرب عليه •• لقد كانت قوة الاسلام العسكرية امام تحديات الكفر الكثيرة وعدوانه المتكرر ، وثبات المسلمين في كل تلك الحروب التي خاضوها مع الكافرين ، سببا في اندفاع العرب بشكل لا نظير له في الوفادة على النبي (ص) والدخول في الاسلام ، لا سيما بعد فتح مكة •• لزوال القوة الضخمة التي كان الناس يخشون سطوتها فيمتنعون عن الاسلام لذلك •• وهكذا جاءت الوفود تتتالى •• وكانت لرسول الله اساليبه المتنوعة في محاورتهم واكرامهم بمختلف ألوان الاكرام، ودعوتهم الى الاسلام •• وقد تمثلت فيها اخلاق رسول الله العظيمة أصدق تمثيل •• وربما كان من الخير ، او من الواجب ، للدعاة المسلمين ان يتوفروا على دراسة هذا الجانب من حياة النبي (ص) لانه يحتوي على كثير مما نحتاج اليه من غنى التجربة الروحي ، وعطاءها العملي •• وقد نحتذيه في كثير من اللقاءات التي تحصل بين العاملين للاسلام وبين الناس الآخرين • في الحالات المماثلة او القريبة منها ولا بأس بان نقدم بعض هذه النماذج التي يمكن ان يحتذيها العاملون في عملهم الاسلامي •

ــ ١ ــ فقد روى صاحب الطبقات الكبرى ، قال بعثت بنو سعد بن بكر في رجب سنة خمس ، ضمام بن ثعلبة ، وكان جلدا اشعر ذا غديرتين، وافدا الى رسول الله ــ ص ــ فسأله فاغلظ في المسألة ، سأله عمن ارسله وبما ارسله ، وسأله عن شرائع الاسلام ، فاجابه رسول الله ــ ص ــ في ذلك كله ، فرجع الى قومه مسلما قد خلع الانداد واخبرهم بما امرهم به ونهاهم عنه ، فما امسى في ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة الا مسلما، وبنوا المساجد وآذنوا بالصلوات [1] •

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ، ص ٢٩٩ •

فقد نستفيد من هذا النموذج ، ان رسول الله استطاع ان يعرف من الحاح هذا الرجل في المسألة ، وملاحقة كل علامات الاستفهام التي تتلاحق في ذهنه والتشديد على الدقة في الجواب عليها ، ان هذا الرجل جاد في قضية الايمان بالرسالة ، لان طبيعة الاسئلة لا تنطلق من حب التحدي ، او من طبيعة التباهي بما يملك من معلومات ، فاستقبله ـ بكل رحابة صدر ـ واجابه عن كل سؤال مهما يكن محرجا او مضحكا .. حتى اذا استقام له أمر الايمان ، واطلع على دقائقه انطلق الى بلده ، فاقتنع الجميع بقناعته ، او انهم اقتنعوا بما اخبرهم به من اوامره ونواهيه ، وطبيعة الرسالة والرسول ، وهكذا كان النبي مدركا لقيمة هذا الشخص من ناحية ذاتية ، ومن ناحية تأثيره على الآخرين ..

وعلى ضوء ذلك ، فان القضية تخضع في دراسة هذا النموذج لجانبين .

الاول ـ الجانب الرسالي للداعية كصفة ذاتية ، مما يستدعيه ان يجيب عن كل سؤال ، ويقبل على كل سائل ، ويفتح قلبه ووجدانه للناس كافة ، تماما كما كان النبي يفعل مع هذا الرجل ومع غيره .

الثاني ـ الجانب العملي ، وتأثيره على حركة الواقع الاسلامي فقد يختلف أمر الاهتمام بالسائل ، قوة وضعفا ، مع المحافظة على المبدأ ، بين من لا يستفيد احد من ثقافته ، الا نفسه ، وبين من يستفيد منه جماهير كبيرة من الناس ، فان الاهتمام بالثاني بشكل كبير متعاظم يوفر على الداعية جهدا كبيرا لادخال جماعته في الاسلام ، لان ذلك يحول السائل المتفهم الى مؤمن واع داعية لله سبحانه في نفسه واهله واصدقائه .. ولا بد للانسان المنفتح الواعي من ان يدقق في الشخصيات التي يدخل معها في عملية الحوار من حيث قيمة تأثيرها في مجتمعها ، ومدى فعاليتها في الحياة .

وفي الطبقات ، قالوا ــ وقدم على رسول الله ــ ص ــ وفــد بني عبد بن عدي ، وفيهــم الحارث ابن اهبان وعويمر بــن الاخرم وحبيب وربيعة ابنا ملة ومعهم رهط من قومهم ، فقالوا ــ يا محمد نحن اهــل الحرم وساكنه واعز من به ونحن لا نريد قتالك ، ولو قاتلت غــير قريش قاتلنا معك ولكنا لا نقاتل قريشا ، وانا لنحبك ومن انت فيه ، فان اصبت احدا فعليك ديته ، واذا اصبنا احدا من اصحابك فعلينا ديته فقال ــ نعم فاسلموا .

ونلاحظ في حوار النبي مع هذا الوفد الذي جاء ليسلم ، ولكنــه يريد ان يستثني من مسؤولياته الاسلامية المفروضة على كل مسلــم في المشاركة في الجهاد الاسلامي ــ حرب النبي مع قريش ــ لانهم يعيشون معهم في منطقة واحدة ولا يريدون لانفسهم ان يدخلوا معهم في حرب او قتال .. واستجاب النبي ــ ص ــ لهذه الرغبة ، انسجاما مع اسلوبــه الواقعي الذي سار به في اكثر من حادثــة في الاستجابة لبعض المطــالب والرغبات التي يتقدم بها بعض الراغبين في الاسلام ، نظرا لصعوبة الالتزام بها سلبا او ايجابا ، لان عدم الاستجابة لهم يعطل هذه الرغبة ، ويعــوق عملية الدخول في الاسلام لما لهذه القضية من الاهمية لديهم ، لعلاقتهــا بمصالحهم الحيوية . لا سيما في مثل هذه الحالة التي تتصل بخروجهم من ديارهم او بقاءهم فيها ، اذا خاضوا الحرب ضد قريش ، او لم يخوضوها .. ولعل السر في هذا الاسلوب ، ان الداخلين في الاسلام ــ غالبا ــ لا ينطلقون ــ عادة ــ من ايمان عميق بالاسلام بالمستوى الذي يدفعهم الى التضحية بكل شيء ــ في البداية ــ لانهم لا يفهمونه فهما حقيقيا كامــلا فقد يريد النبي ان يتسامح معهم في ذلك ، على اساس خطة الرسالــة في التدرج في الدعوة ليكتشفوا بعد اسلامهم ما يشتمل عليه او يحتويه مــن روحية وانفتاح وقوة ، فينفتحوا عليه انفتاحا كاملا ويلتزموا به التزامــا شاملا في نهاية المطاف ..

ــ ٣ ــ وفي الطبقات : عن رجل من عنس بن مالك بن مذحج قال : كان منا رجل وفد على النبي ــ ص ــ فأتاه وهو يتعشى ، فدعاه الى العشاء فجلس ، فلما تعشى اقبل عليه النبي ــ ص ــ فقال : اتشهد ان لا آله الا الله وان محمدا عبده ورسوله •• فقال : اشهد ان لا آله الا الله وان محمدا عبده ورسوله •• فقال : اراغبا جئت ام راهبا •• فقال : اما الرغبة فوالله ما في يديك مال ، واما الرهبة فوالله انني لببلد ما تبعته جيوشك ، ولكني خوفت فخفت ، وقيل لي آمن بالله فآمنت ، فأقبل رسول الله ــ ص ــ على القوم فقال : رب خطيب من عنس [1] ••

فقد نفهم من هذه القصة ، ان هناك فئات من العرب ، كانت تعيش التفكير في الاسلام وفي شريعته او في مفهومه للدنيا والآخرة •• فاذا اقبلت عليه اقبلت عن قناعة ، لا عن رغبة ولا عن رهبة ، كما نجده في هذا الرجل الذي اعلن النبي ــ ص ــ ان خوفه من الدار الآخرة دعاه الى التفكير ثم الايمان •• ونستفيد منها ان الصراحة لا المجاملة ، كانت شأن العرب وطريقتهم في حديثهم مع كبار القوم كما هي مع صغارهم ••



ــ ٤ ــ وقد نلتقي ببعض النماذج الحية ، في هذه الوفود التي كانت تفد على النبي (ص) كما يحدثنا ابن سعد في طبقاته عن وفد (تجيب) فقال: قدم وفد تجيب على رسول الله ــ ص ــ سنة تسع ، وهم ثلاثة عشر رجلا ، وساقوا معهم صدقات اموالهم التي فرض الله عليهم فسر رسول الله ــ ص ــ بهم وقال : مرحبا بكم واكرم منزلهم وحباهم ، وامر بلالا ان يحسن ضيافتهم وجوائزهم واعطاهم اكثر مما يجيز به الوفد وقال : هل بقي منكم احد قالوا : غلام خلفناه على رحالنا وهو احدثنا سنا ، قال

(١) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٤٢ ــ ٣٤٣ .

ارسلوه الينا فاقبل الغلام الى رسول الله ـ ص ـ فقال : اني امرؤ من بني ابناء الرهط الذين أتوك آنفا فقضيت حوائجهم فاقض حاجتي قال : وما حاجتك .. قال تسأل الله ان يغفر لي ويرحمني ويجعل غناي في قلبي فقال : اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه في قلبه ، ثم امر له بمثل ما امر به لرجل من اصحابه ، فانطلقوا راجعين الى اهليهم ، ثم وافوا رسول الله ـ ص ـ في الموسم بمنى سنة عشر فسألهم رسول الله ـ ص ـ عن الغلام فقالوا : ما رأينا مثله أقنع منه بما رزقه الله فقال رسول الله ـ ص ـ اني لارجو ان نموت جميعا [1] ..

فقد يلفت نظرنا هذا الغلام الطيب الذي لم يشأ ان يطلب لنفسه شيئا ماديا ، مما طلبه قومه ، او مما اعتاد الناس ان يطلبوه ، بل طلب غفران الله ورحمته ، ان يحقق له غنى نفسه الداخلي ، مما يوحي لنا بالروح الكبيرة التي تتجسد في هذا الغلام الذي ادرك ان مطالب النفس لا تنتهي ، وان فقر النفس أشد من افقر المال ، لانه يجعل الانسان لاهثا امام اطماعه واشواقه ورغباته ، ويحطم له عزته وكرامته ، ومبادئه ، امام أي حاجة الى غيره اذا فرض عليه ، غيره ، في مقابلها الذل والانحراف .. اما الغنى الداخلي،فانه يملأ النفس بالشعور العميق وبالاكتفاء باقل شيء ، وبذلك يملك نفسه وكرامته ومبادئه بعيدا عن اي ضغط وعن اي ابتزاز لانه يشعرفيهذهالحالة بأن الاخرين ليسوا قوة فوقه ، بل هم مثله ، له حاجاته ولهم حاجاتهم ،فاذا كان هو ، محتاجا الى بعض ما لديهم فانهم محتاجون الى كثير مما في ايدي الاخرين ، فلماذا يضع نفسه تحت رحمتهم ازاء بعض رغباتـه ، ليشعروا بالفوقية في مقابل شعوره بالدونية ، ما دام قادرا على ان يصبر على نفسه، من اجل ان تبقى له نفسه ، كما ورد في الحديث عن الامام علي (ع) في بعض كلماته :

« اكرم نفسك عن كل دنيئة وان ساقتك الى الرغائب فانك لن تعتاض بما تبذله من نفسك عوضا .. »

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ١ ص ٣٢٣ .

وهكذا قضى النبي (ص) لهذا الغلام حاجته ، فقد دعا له النبي (ص) بما طلب واستجاب له الله دعاءه حتى اصبح مضرب المثل في قناعته بما رزقه الله .. ومات على ذلك ..

ويظهر من القصة .. ان مثل هذا الغلام النموذج قد ملأ قلب النبي اعجابا وتقديرا ، ولذلك بدأ : النبي قومه بالسؤال عنه ، عندما قدموا عليه مرة ثانية في الموسم بمنى .. وتلك هي بعض عظمة النبي محمد (ص) فقد كان لا ينسى مثل هذه النماذج الحية التي ترتبط بالحياة من خلال المبادىء لا من خلال الاطماع ، فيبادر بالسؤال عنها حتى يشعر الناس بقيمة المعاني الكبيرة التي يجسدها هؤلاء ، ليقتدوا بهم في ذلك كله .. وتلك هي دروس السيرة النبوية التي تواجهك في كل موقف وفي كل مكان.



٥ ــ وقد نجد في بعضها المثل الحي من اخلاق رسول الله (ص) كما نجد ذلك في قصة عدي بن حاتم عندما قدم على رسول الله (ص) مسلما قال : فيما يرويه ابن هشام في سيرته .. خرجت حتى أقدم على رسول الله (ص) المدينة ، فدخلت عليه ، وهو في مسجده ، فسلمت عليه فقال : من الرجل فقلت : عدي بن حاتم فقام رسول الله (ص) فانطلق بي الى بيته ، فوالله انه لعامد بي اليه اذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته ، فوقف لها طويلا تكلمه في حاجتها قال : قلت في نفسي : والله ما هذا بملك قال : ثم مضى رسول الله (ص) حتى اذا دخل بي بيته تناول وسادة من ادم محشوة ليفا فقذفها الى فقال : اجلس على هذه قال : قلت بل انت فاجلس عليها فقال بل انت فجلست عليها وجلس رسول الله (ص) بالارض قال : فقلت في نفسي والله ما هذا بامر ملك ثم قال : ايه يا عدي بن حاتم الم تكن ركوسيا .. قال : قلت بلى قال اولم تكن تسير في قومك بالمرباع ..

قال : قلت : بلى قال : فان ذلك لم يكن يحل لك في دينك قال : قلت اجل والله وقال : وعرفت انه نبي مرسل يعلم ما يجهل ثم قال لعلك يا عدي انما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال ان يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، ولعلك انما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عددهم وقلة عهدهم ، فوالله ليوشك ان تسمع بامرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف ، ولعلك انما يمنعك من دخول فيه انك ترى ان الملك والسلطان في غيرهم وأيم الله ليوشكن ان تسمع بالقصور البيض من ارض بابل قد فتحت عليهم قال : فأسلمت .

وكان عدي يقول : قد مضت اثنتان وبقيت الثالثة ، والله لتكونن ، قد رأيت القصور البيض من ارض بابل قد فتحت ، وقد رأيت المراة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحج هذا البيت ، وايم الله لتكونن الثالثة ، ليفيض المال حتى لا يوجد من يأخذه [1] ..



اننا ننقل هذه القصة لا لتؤكد عظمة النبي (ص) من خلال اخبار النبي (ص) لعدي بن حاتم بالمغيبات ، لان ذلك ليس مجال حديثنا هنا كما اننا نتحفظ حول هذا الموضوع ، لاننا لم نألف من النبي (ص) محمد هذا الاسلوب في دعوة الاخرين الى الاسلام ، فيمنيهم بالمال والجاه والسلطان، لان هذا كله ليس هدفا للاسلام من حيث كونه موجبا للرغبة الذاتية لدى الناس ، وقد يؤكد هذا التحفظ ان صاحب الطبقات الكبرى لم ينقل هذه التفاصيل عند نقله لهذه القصة ، بل اننا ننقل هذه القصة لنؤكد عظمته في وقوفه الطويل مع المرأة الضعيفة الكبيرة التي استوقفته في الطريق

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٠٠٢ — ١٠٠٣

طويلا من اجل حاجتها ، وفي تواضعه الرائع في بيته مع عدي بن حاتم الذي جاء ليدخل في الاسلام ، حيث جلس على الارض ، وأجلس ضيفه على الفراش مما أوحى لعدي بعظمة النبوة التي تتعاظم وتستطيل على عظمة المال والملك والشرف ..

★ ★ ★

ان كثيرا من هذه اللفتات الرائعة التي تعبر تعبيرا رائعا عن الاسلام وعن اخلاقه وتعاليمه وعن شخصية النبي محمد (ص) في حياته العامة والخاصة ، جديرة بالدراسة الدقيقة الواعية التي تكشف الكثير من جوانب الدعوة الاسلامية ، والعلاقات الاسلامية بين الحاكم والمحكومين ، في اطار التنظيم الاسلامي للحياة ..

مخاطبة الامة في القرآن
من خلال النبي

تتنوع الاساليب القرانية في الدعوة من اجل تعميق المبدأ ، وشموله وامتداده ، وارتفاعه عن أي موقع من المواقع التي تتميز بضخامة المركز وقداسته ، فيترك للانسان انطباعا رساليا ، عن الخط الرسالي الذي يقف عند الرسالة ، ولا يتوقف عند الشخص مهما كان مركزه أو موقعه في الحياة .. فهي الاساس والاصل ، اما الاشخاص فهم الادوات الحية لتنفيذها وتجسيد مفاهيمها في الواقع ، وهي القيمة التي ينطلق التقييم من خلالها ليصنف الناس الى قسمين ، قسم يلتزم بها ويرعاها ويحميها ويعمل بها ولها ، فهم المخلصون المؤمنون العاملون ، وهم المقربون لدى الله والناس ، وقسم يرفضها ويعاديها ويحاربها ولا يعمل بها ، بل يعمل ضدها ، فهم الكافرون المنافقون المتخاذلون وهم البعيدون عن الله وعن الناس .

وبهذا كانت الرسالة مصدرا للتقييم ، وليست الاعتبارات الاخرى من مال أو جاه او نسب او جمال حتى العلم .. فان قيمته الانسانية بما يحقق من عمل ، وبما يعطي من نتائج ، وبما يبني من خير وحياة .. وعلى اساس هذه الحقيقة كانت القاعدة الاسلامية التي قررها القرآن الكريم بقوله تعالى :

إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ٤٩:١٣

وقررها النبي محمد (ص) في الحديث المأثور عنه :

لا فضل لعربي على اعجمي ولا لأبيض على اسود ، الا بالتقوى ..

وليست التقوى الا الكلمة الدينية التي تعبر عن الانضباط النفسي مع الفكرة كسبيل من سبل الانضباط العملي الذي يحققه الانسان من خلاله في حياته وعلاقاته .

وقد عبر عنها القرآن في آيات اخرى بطريقة تبرز الجوانب التفصيلية للمبدأ ، وهو يتحرك في الحياة ، وذلك هو قوله تعالى في حديثه عن المجاهدين والقاعدين ، امام شريعة الجهاد من أجل اعلاء كلمة الله :

لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ
اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، فَضَّلَ اللهُ
الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى
الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللهَ
الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى
الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً دَرَجَاتٍ مِنْهُ
وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللهُ غَفُوراً
رَحِيماً ٤ : ٩٥ ـ ٩٧

وقوله تعالى : في حديثه عن ابعاد الكثرة والقلة عن مقياس التقييم واقتصاره على طبيعة الالتزام بالمبدأ :

قُلْ لاَ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ
وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الخَبِيثِ فَاتَّقُوا
اللهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ
٥ : ١٠٠

وقوله تعالى : في حديثه عن الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله قبل الفتح والذين ينفقونها بعد ذلك :

وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ
وَلِلّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ يَسْتَوِي
مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ
وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ
أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ
اللهُ الْحُسْنَى وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ
٥٧ : ١٠ — ١١

★ ★ ★

ولم يقتصر القرآن الكريم على هذا الاسلوب في معالجة الفكرة .. بل حاول ان يؤكدها بأسلوب آخر ، وهو اثارة قضية الانحراف، كفرضية مطروحة في سلوك النبي محمد (ص) ليسجل ـ من خلالها ـ المبدأ الذي ألمحنا اليه ، وهو استبعاد قداسة الشخص وقداسة المركز عن موضوع المسؤولية وتحمّل نتائج المسؤولية ومبدأ التقييم الانساني .. فالانحراف يساوي في الاسلام العقاب والبعد عن الله ، وانحطاط الدرجة .. من غير فرق بين ان يفرض الشخص الذي يمارسه نبيا او وليا او انسانا عاديا من سائر الناس .. وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك بآيات عديدة نقدم بعضها امام هذا الحديث :

قال تعالى : في حديثه عن الشرك وتأثيره في حبط الاعمال ، في خطاب موجه الى النبي محمد (ص) والى الانبياء الذين سبقوه :

وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ
وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ٣٩ : ٦٦

وقال تعالى : في حديثه عن القـرآن وأنه تنزيل من رب العالمين ، ورفض الكلمات التي يوجهونها اليه من نسبته الى قول الشعر والكهانـة وتهديده بالعذاب كلّ من يتقول على الله ما لم يقلـه حتى ولو كان ذلك الانسان شخص النبي محمد (ص) لان عظمته انطلقت من اخلاصه للـه وصدقه مع نفسه ومع قومه ومع ربه ، فاذا انحرف عن ذلك ــ في فرض محال غير واقع ــ لتغيرت قيمته ومنزلته الى الجانب المضاد الذي يثبت الهوان والعقوبة والبعد عنه •••

وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ
لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا
مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ
حَاجِزِينَ ٦٩ : ٤٤ ــ ٤٧

وقال تعالى في حديثه عن محاولة الكفار للتأثير النفسي على النبي ، في دفعه الى الافتراء على الله والاستسلام الى خططهم والركون اليهم•••

وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ
وَإِذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ
لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً
إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ
الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً
١٧ : ٧٣ ــ ٧٥

ونحن نعلم ان القضية في هذه الآيات لا ترجـع الى استسلام النبي لذلك ، بل ترجع الى الاساليب المرنة التي استعملوها معـه ، بحيث لو كانت مع غيره لانتهت الى النتيجة التي يريدونها •

وقد جاء في الحديث النبوي المشهور الذي حاول ان يطرح هذا المبدأ الاسلامي ، في اطار القاعدة العامة وتنائجها الاجتماعية : « انما أهلك من كان قبلكم انهم كانوا اذا سرق الشريف تركوه واذا سرق الضعيف اقاموا عليه الحد ، والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها » .

★ ★ ★

اما علاقة هذا كله بأسلوبنا العملي في الدعوة الى الله — فيظهر — لنا بوضوح من خلال عدة نقاط :

١ — اطلاق الاساليب في هذا الاتجاه ، باستيحاء الطريقة القرآنية، في عرض المسؤوليات التي تترتب على واقع الانحراف في المجتمع ، ومواجهة الفئات التي تملك رصيدا اجتماعيا كبيرا ، بنفس المستوى الذي تواجه به الفئات الاخرى التي لا تتمتع بهذا الرصيد ، فلا يصار الى اخضاع الاسلوب للقوة والضعف ، فنحمل على الضعيف ما لا نحمله على القوي ، فنجامل هذا في خطاب المسؤولية ، فنلين معه ملاحظة لمركزه ، ونشتد على ذلك ونعنفه ونثير عليه الدنيا ونقعدها كما يفعل البعض في اسلوبه عندما يبدأ في عرض حالات الانحراف الديني ونتائجها ، فيغلق على الفقراء ابواب الجنة ، ويفتح لهم ابواب النار على مصراعيها ، فاذا جلس مع الاغنياء والوجهاء اعطاهم مفتاح الجنة لاقل عمل من اعمال الخير التي يقومون بها ، ومنحهم ورقة الامان من النار حتى لو فعلوا الكبائر .. حرصا على عواطفهم ، أن لا تمس ، ومشاعرهم أن لا تخدش ومزاجهم أن لايتكدر .

٢ — الاستفادة من اسلوب القرآن في مخاطبة النبي محمد (ص) والانبياء من قبله ، بالعنف في فرض الانحراف عن الخط ، للايحاء الى افراد الامة الآخرين بأنهم ليسوا في مستوى ارفع من العقوبة ، ما دام

الانبياء لا يرتفعون عن هذا المستوى، لو لم يرتفعوا عن حالة الانحراف..
اما مجالات هذا الاسلوب في الاطار العام ، فهو الانطلاق به لتأكيد هذه الحقيقة التي ذكرناها آنفا وهي المساواة في تحمل المسؤولية ونتائجها ، بين اصحاب الدرجات الرفيعة حتى مستوى القداسة وبين اصحاب الدرجات العادية .

اما في الاطار الخاص ، فقد نستفيد منه في الحالات المعقدة التي يصعب فيها مواجهة شخص بالوعظ والارشاد والدعوة الى الله ، او لا يكون ذلك امرا عمليا ، من ناحية الظروف الموضوعية المحيطة بالموقف فيمكن لنا أن نلجأ الى مثل هذا الاسلوب في مخاطبته وذلك بأن نخاطب شخصا آخر ذا مركز رفيع بالفكرة التي يراد دعوة الشخص المطلوب اليها ، ليفهمها من خلال هذه الطريقة الايحائية الحكيمة من دون اثارة اية سلبيات مفروضة ، وهذه الطريقة شائعة في الاساليب العربية ، وقد ورد عن بعض أئمة أهل البيت ، ان القرآن قد نزل على طريقة « اياك أعني واسمعي يا جاره » .. وقد نحتاج الى جهد كبير لنعرف ضرورة التوفر على دراسة طبيعة الشخص الذي يراد دعوته بهذا الاسلوب ، من حيث قابليته الذهنية في سرعة الانتباه ، ومن حيث تأثره بالخطاب الذي يوجه الى الشخص الآخر ، ومن حيث طبيعة القضايا التي تثار في الاجواء المناسبة للموقف .

٣ ـ الممارسة العملية للفكرة ، باعتماد الخط الاسلامي الذي يساوي بين الناس في المسؤولية ونتائجها ويجعل التفاضل تابعا للافضلية في العلم والعمل ، وتطبيقه على الخطة العملية في علاقة الدعوة الاسلامية بالعاملين وغير العاملين من أتباعها ، سواء في المهمات الموكولة اليهم ، او في مبدأ العقاب والثواب المترتب على الاعمال التي تصدر عنهم .. لان ذلك هو السبيل الافضل ، للوصول بالعمل الى غايته اولا .. ولتحقيق

الانسجام بين النظرية والتطبيـق ثانيا .. لا سيما في الاطـار التوجيهي والتبليغي للدعوة الاسلامية الذي يجب ان يشعر العاملـون معه ، بأنه يجسد ـ في ممارساتهم ـ الخط العريض الذي يريدون من الناس السير عليـه ... وأن القمـة لا تنفصل عن القـاعدة ، في المسؤوليـات وفي النتائج ...

٤ ـ التوفر على دراسة التطبيقات العملية ، من الوجهة التاريخية، سواء ما حدث في حيـاة النبي (ص) او الصحابـة ، او الائمـة من أهل البيت ، او العلماء المسلمين ، لاجل الاستفادة منها في أساليبنا المستقبلية ، باعتبارها تجارب رائدة ، تزيد النظريـة عمقا وشمولا ، وللتدليـل على واقعية الاساليب القرآنية في كل مراحل الحياة .

كلمة الختام

قد يكون من غير المألوف ان يكتب المؤلف خاتمة لكتابه بدلا من المقدمة ، كما حدث في هذا الكتاب ..

ولكن الفكرة التي دعت الى ذلك هي محاولة اعطاء الحرية النفسية للقارىء في مواجهة الكتاب من خلال قراءته وتفكيره بعيدا عن أي توجيه مسبق ، يستبق فيه المؤلف الامر ، ليعطي صورة مجملة او مفصلة عن كتابه .. وربما أدى ذلك الى ان لا يكتفي القارىء بقراءة المقدمة عن قراءة الكتاب ، اذا استطاعت المقدمة ان تعطيه فكرة عامة عنه كما يفعل البعض الذي قد يكون كثيرا ..

ومهما كان .. فاننا هنا في نهاية المطاف .. نحب ان نؤكد على حقيقة اساسية في خطواتنا الاسلامية العملية من أجل الدعوة اليه ، والحياة في نطاق مفاهيمه وشريعته .. وهي مواجهة كل هذه الابحاث كتجارب ذاتية ، يمكن ان تكون مضغوطة بضغوط الاجواء الداخلية ، او الظروف الموضوعية الخاصة او العامة لاصحابها .. كما يمكن ان تكون خاضعة لمراحل معينة من عمر العمل ، او العاملين .. مما لا يجعل لها صفة الامتداد والسعة والشمول بشكل حاسم ودقيق .. ويفقدها بالتالي دور القاعدة الثابتة التي تصلح لكل زمان ومكان .

وعلى ضوء هذا •• فان من واجب العمل ، على اصحابه •• ومن واجب الاسلام على الدعاة اليه أن يلاحقوا هذه التجارب بالنقد والمحاكمة والتحليل •• من اجل البحث عما تشتمل عليه من خصائص ذاتية ، او من جوانب محدودة بحدود المرحلة ، من حيث طبيعة الزمان والمكان والاشخاص الذين يتحركون في اطارهما •• ليفسحوا المجال لتجارب جديدة تتسع لافكار جديدة •• في اتجاه خطوات جديدة ••

ان ذلك هو الذي يحفظ للعمل تجدده ونموه وسلامته •• لا سيما في واقع العصر الذي نعيش فيه •• حيث يلمح الانسان في كل يوم ، تغيرات كثيرة في حقل الفكر والسياسة والاقتصاد والتربية والاجتماع •• مما يقتضينا كثيرا من التبديل في اساليبنا العملية والتربوية •• التي انطلقت حركتها من خطوات الفكرة في حركة الواقع •• فان علينا ان نفرق — في المواقف الاسلامية •• بين المواقف التي تنبع من الخطوط الاساسية للتشريع •• وبين المواقف التي تنطلق من حركة التطبيق العملي لمفاهيمه وموضوعاته •• فقد لا يجوز التصرف والتغيير والتبديل في الخطوط الأساسية للفكر والتشريع •• لانها تمثل كلمة الله الفاصلة الحاسمة التي أرادت للحياة أن تظل خاضعة لها على اساس من الحكمة الممتدة الى جميع جوانب الحياة •• اما التطبيق •• اما الموضوعات التي يدور الحكم الشرعي مدارها •• فانها قد تخضع للمتغيرات العامة في حركة الحياة •• باعتبارها منطلقة من طبيعة هذه الحركة ••

اما ابحاث هذا الكتاب فقد كانت وليدة حاجة حيوية يتطلبها العمل الاسلامي ، في اي شكل من اشكاله للوصول الى قواعد فكرية وعملية متحركة ، يرتكز عليها العمل ويتحرك في اطارها •• سواء في ذلك •• في الروحية التي تهيمن على العاملين •• او الاسلوب الذي يحكم خطواتهم وتصوراتهم وكلماتهم •• او الاهداف التي يتجه اليها •• لان فقدان

القواعد العامة للعمل ، يجعلنا نتخبط في التيه دون هدى •• مما يجعلنا نتلمس علامات الطريق في كل خطـوة نخطوها بعيـدا عما يوضح لنـا اتجاهاته ومنعطفاته في بداية المسير ••

وقد كانت هذه الابحاث نتيجة تجارب عمليـة عشتها في حيـاتي العملية في خطوات العمل للاسلام سواء في صعيد العمل الفردي ، او في صعيد العمل الجماعي •• وقد لا يخلـو الكثير منها من عمق المعانـاة الداخلية الى جانب المعاناة في حركة الممارسة والتطبيق ••

وقد كتبت اكثر هذه الابحاث في ظروف صعبة جدا •• حيث كنت في منطقة النبعة ــ الواقعة في ضواحي بيروت •• عندما كانت القذائف تنهـال عليها من كل جـانب •• وكنت اكتب هذه الابحـاث في اغلب الحالات •• تحت اصوات القذائف •• وفي اضواء الشموع ••

وقد لا يكون للقارىء حاجة الى التأكيـد على الظروف التي كتب فيها الكتاب •• ولكنني أشعر بالحاجة الى مثل هذا التأكيد •• من أجل الاشارة الى نقطة حيوية في حياة العاملين •• وهي ان علينا ان نظل نتحرك في كل الظروف •• ونلاحق كل الاجواء •• ونفجر كل الطاقات من دون أن نأخذ من قسوة الظروف •• وضغط الواقع مبررا للتقاعس والتراجع والتجميد فاننا نعتقد •• انه لا مجال ــ في ظـل التحديات التي يواجهها الاسلام ، والاخطار التي تحدق به من كل جانب ــ لاي تجميد لاي طاقة تحت تأثير الصعوبات العملية ••

ان من واجب العاملين أن ينفتحوا على العمل في داخل ذواتهم قبل ان ينفتحوا عليه في خطواتهم العملية •• لان الانفتـاح عليه في داخـل الذات •• يحول الداخل الى طاقة متحركة تتجدد في افكارها ومشاعرها وتطلعاتها في كل يوم •• وتلاحق بالتالي ــ كل امكانات الحركـة وكل

ظروف العمل .. لتأخذ منها في كل يوم جديدا .. وفي كل لحظة مجالا للانطلاق .. وفي كل منطلق انفتاحا على روح الخلق والابداع .

انني انقل للعاملين هذه التجربة .. وهذه الممارسات .. بعيدا عن نطاق الذات من أجل ان تكون خطوة متواضعة في خطوات الطريق الطويل .. او لبنة صغيرة في البناء الشامخ الذي تنتظر الحياة ارتفاعه من خلال حركة الاسلام في عمل العاملين وجهاد المجاهدين .. وتطلعات الحالمين الذين يحلمون بالمستقبل من خلال سنة الله الكامنة في كل ظواهر الحياة ومجالاتها العملية .. لينسجموا مع طبيعتها المتحركة المنظمة ، فيحصلوا على نتائجها في صبر المؤمن ، وارادة المسلم الواعي المنفتح على الحياة من خلال ارادة الاسلام في ان تولد على يديه من جديد .

والله أسأل أن يوفقنا جميعا من أجل السير قدما نحو الاهداف الكبيرة التي تتسع وتمتد وتطول وتقف في نهاية المطاف .. في ظل الهدف الواحد الكبير .. وهو الحصول على رضاه .. ولا شيء غير رضاه انه أرحم الراحمين .. وهو حسبنا ونعم الوكيل .. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ..

بيروت / شوال / ١٣٩٧ .

محمد حسين فضل الله

محتويات الكتاب

صفحة